

موسوعة تاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

موسوعة تاريخ الأدب والنقد والحكمة العربية في عصر صدر الإسلام

المجلد الثالث

حسين علي الهنداوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

١٥ مقدمة
١٧ الباب الأول: الحياة العامة في عصر صدر الإسلام
١٩ الباب الأول: الفصل الأول: المظهر السياسي والإداري والحربي والتشريعي
٢٢ الباب الأول: الفصل الثاني: المظهر الاجتماعي
٢٤ الباب الأول: الفصل الثالث: المظهر الفكري والعلمي والثقافي
٢٦ الباب الأول: الفصل الرابع: المظهر الديني
٢٧ الباب الأول: الفصل الخامس: المظهر الاقتصادي والمالي
٢٨ الباب الأول: الفصل السادس: إرهاصات ما قبل نزول القرآن
٣٢ الباب الأول: الفصل السابع: حالة الديانات السماوية الوضيعة قبل بعثة النبي ﷺ
٣٥ الباب الثاني: خصائص الدعوة الإسلامية
٣٧ الباب الثاني: الفصل الأول: الإسلام دعوة توحيد لله تعالى
٣٩ الباب الثاني: الفصل الثاني: الإسلام دعوة فكرية
٤٠ الباب الثاني: الفصل الثالث: الإسلام دعوة سياسية
٤٢ الباب الثاني: الفصل الرابع: الإسلام دعوة اقتصادية
٤٣ الباب الثاني: الفصل الخامس: الإسلام دعوة اجتماعية
٤٤ الباب الثاني: الفصل السادس: الإسلام دعوة إنسانية
٤٥ الباب الثالث: القرآن الكريم ماهية وأبعاد
٤٧ الباب الثالث: الفصل الأول: ما هو القرآن الكريم؟
٤٩ الباب الثالث: الفصل الثاني: الوحي معناه وحقيقته
٥١ الباب الثالث: الفصل الثالث: نزول القرآن الكريم مفرقاً
٥٣ الباب الثالث: الفصل الرابع: جمع القرآن الكريم وتدوينه
٥٦ الباب الثالث: الفصل الخامس: حفظ القرآن

٥٨	الباب الثالث: الفصل السادس: قراءة القرآن الكريم
٥٩	الباب الرابع: نشأة التفسير وتطوره
٦١	الباب الرابع: الفصل الأول: التفسير والتأويل
٦٤	الباب الرابع: الفصل الثاني: أنواع التفسير
٦٧	الباب الرابع: الفصل الثالث: كيف يتم تفسير القرآن الكريم؟
٦٩	الباب الرابع: الفصل الرابع: تفسير سور من القرآن الكريم
٧٥	الباب الخامس: تقنيات النص القرآني
٧٧	الباب الخامس: الفصل الأول: المفردة القرآنية
٧٩	الباب الخامس: الفصل الثاني: الأساليب القرآنية
٨٨	الباب الخامس: الفصل الثالث: فهم المعنى القرآني
٨٩	الباب الخامس: الفصل الرابع: معرفة نظم القرآن الكريم
٩١	الباب الخامس: الفصل الخامس: إعجاز القرآن الكريم
٩٩	الباب الخامس: الفصل السادس: أسرار الإعجاز القرآني
١٠٣	الباب الخامس: الفصل السابع: الأداء القرآني
١٠٥	الباب الخامس: الفصل الثامن: التعبير القرآني
١٠٧	الباب الخامس: الفصل التاسع: بناء السورة القرآنية
١٠٨	الباب الخامس: الفصل العاشر: الفاصلة القرآنية
١١١	الباب الخامس: الفصل الحادي عشر: القرآن الكريم ليس سجعاً ولا شعراً
١١٤	الباب الخامس: الفصل الثاني عشر: اللغة القرآنية وتأثيرها في الأدب واللغة العربية
١١٧	الباب السادس: كيف نتذوق القرآن الكريم؟
١١٩	الباب السادس: الفصل الأول: القرآن الكريم والأدب
١٢٠	الباب السادس: الفصل الثاني: القرآن الكريم والبيئة الاجتماعية والطبيعية
١٢٢	الباب السادس: الفصل الثالث: القرآن الكريم والبلاغة العربية
١٢٤	الباب السادس: الفصل الرابع: الصورة الأدبية (التشبيه والاستعارة) في القرآن الكريم
١٣١	الباب السادس: الفصل الخامس: الكنايات والتعريض في القرآن الكريم

الباب السادس: الفصل السادس: الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم	١٣٤
الباب السابع: الفصل السابع: بنية النصوص القرآنية خارجياً	١٣٥
الباب السادس: الفصل الثامن: خصائص الآيات والسور القرآنية	١٣٧
الباب السادس: الفصل التاسع: بنية النصوص القرآنية داخلياً	١٣٩
الباب السادس: الفصل العاشر: التشابه والاختلاف في تعبيرات القرآن الكريم	١٤١
الباب السادس: الفصل الحادي عشر: دراسة تطبيقية لنص قرآني - - سورة الحاقة - ...	١٤٢
الباب السابع: القصة القرآنية	١٤٩
الباب السابع: الفصل الأول: ماهية القصة القرآنية	١٥١
الباب السابع: الفصل الثاني: أهداف القصة في القرآن الكريم	١٥٣
الباب السابع: الفصل الثالث: طريقة القصص في القرآن الكريم	١٥٥
الباب السابع: الفصل الرابع: قصص القرآن حقيقة تاريخية	١٦٠
الباب الثامن: المثل في القرآن الكريم	١٦٣
الباب الثامن: الفصل الأول: تعريف وماهية الأمثال في القرآن الكريم	١٦٥
الباب الثامن: الفصل الثاني: أنواع الأمثال في القرآن	١٦٦
الباب الثامن: الفصل الثالث: فوائد الأمثال في القرآن الكريم	١٦٩
الباب الثامن: الفصل الرابع: من أمثال القرآن الكريم	١٧١
الباب التاسع: الأدب النبوي الشريف	١٧٥
الباب التاسع: الفصل الأول: حياة الرسول ﷺ	١٧٧
الباب التاسع: الفصل الثاني: جهاد الرسول ﷺ لنشر الدعوة (١)	١٨١
الباب التاسع: الفصل الثالث: جهاد الرسول ﷺ لنشر الدعوة (٢)	١٨٤
الباب التاسع: الفصل الرابع: جهاد الرسول ﷺ لنشر الدعوة (٣)	١٨٦
الباب التاسع: الفصل الخامس: هجرة الرسول إلى المدينة المنورة وتأسيس الدولة العربية الإسلامية	١٨٨
الباب التاسع: الفصل السادس: غزوة بدر الكبرى 2 / هـ ٦٢٤ / م	١٩١
الباب التاسع: الفصل السابع: غزوة أحد 3 / هـ ٦٢٥ / م	١٩٣

الباب التاسع: الفصل الثامن: غزوة الخندق - الأحزاب 5 / هـ ٦٢٧ / م	١٩٦
الباب التاسع: الفصل التاسع: صلح الحديبية 6 / هـ ٦٢٨ / م	١٩٨
الباب التاسع: الفصل العاشر: فتح مكة المكرمة 8 / هـ ٦٣٠ / م	٢٠١
الباب التاسع: الفصل الحادي عشر: حجة الوداع 10 هـ ٦٣٢ م	٢٠٤
الباب العاشر: سمات النبي صلى الله عليه وسلم	٢٠٧
الباب العاشر: الفصل الأول: السمات الخلقية والنفسية للنبي ﷺ	٢٠٩
الباب العاشر: الفصل الثاني: السمات الخلقية - الجسدية للنبي محمد ﷺ	٢١٥
الباب العاشر: الفصل الثالث: الحديث النبوي الشريف	٢١٨
الباب العاشر: الفصل الرابع: فصاحة النبي ﷺ وبلاغته	٢٢٢
الباب العاشر: الفصل الخامس: النبي محمد ﷺ ليس بشاعر	٢٢٨
الباب العاشر: الفصل السادس: نقد النبي ﷺ للشعر	٢٣٢
الباب العاشر: الفصل السابع: التفريق بين الحقيقة والمجاز	
في فهم الحديث النبوي الشريف	٢٣٥
الباب العاشر: الفصل الثامن: المثل في الحديث الشريف	٢٣٩
الباب العاشر: الفصل التاسع: القصة من الأدب النبوي الشريف	٢٤٤
الباب العاشر: الفصل العاشر: دراسة أدبية لحديث نبوي شريف	٢٥٠
الباب العاشر: الفصل الحادي عشر: تفسير النبي - محمد - للقرآن الكريم	٢٥٢
الباب الحادي عشر: الخطابة في عصر صدر الإسلام	٢٥٧
الباب الحادي عشر: الفصل الأول: أنواع الخطابة في هذا العصر	٢٦٠
الباب الحادي عشر: الفصل الثاني: خطب الرسول ﷺ	٢٨٢
الباب الحادي عشر: الفصل الثالث: خصائص الخطابة في صدر الإسلام	٢٨٧
الباب الثاني عشر: الرسائل	٢٨٩
الباب الثاني عشر: الفصل الأول: انتشار الكتابة في عصر صدر الإسلام	
13ق.هـ/ من البعثة النبوية وحتى موت الرسول ﷺ / ١١هـ /	٢٩١
الباب الثاني عشر: الفصل الثاني: كُتَاب النبي ﷺ	٢٩٦

الباب الثاني عشر: الفصل الثالث: كتابة الرسائل في عصر صدر الإسلام	٢٩٨
الباب الثاني عشر: الفصل الرابع: الرسائل وسيلة للدعوة.....	٣٠٠
الباب الثاني عشر: الفصل الخامس: نماذج من رسائل النبي ﷺ.....	٣٠٢
الباب الثاني عشر: الفصل السادس: الخصائص الفنية للترسل في عصر صدر الإسلام ..	٣٠٦
الباب الثالث عشر: الموعظة التقوية القرآن الكريم وفي الحديث الشريف	٣٠٩
في عصر صدر الإسلام	٣٠٩
الباب الرابع عشر: الأدعية النبوية	٣١٧
الباب الخامس عشر: وصايا النبي صلى الله عليه وسلم	٣٢٣
الباب السادس عشر: المنطق النبوي	٣٢٧
الباب السادس عشر: الفصل الأول: خصائص المنطق النبوي	٣٢٩
الباب السادس عشر: الفصل الثاني: القسم النبوي الشريف	٣٣١
الباب السابع عشر: الشعر في صدر الإسلام	٣٣٥
الباب السابع عشر: الفصل الأول: الإسلام والشعر والعصية القبلية.....	٣٣٧
الباب السابع عشر: الفصل الثاني: حالة الشعر في هذا العصر	
الشعر يواكب الدعوة الإسلامية - حركة الشعر في عهد النبوة	٣٣٩
الباب السابع عشر: الفصل الثالث: الشعر الإسلامي يرافق الأحداث	٣٤٣
الباب السابع عشر: الفصل الرابع: حركة الشعر إبان عهد النبوة	٣٤٦
الباب السابع عشر: الفصل الخامس: تأثر الشعراء المخضرمين بالإسلام	٣٥٦
الباب السابع عشر: الفصل السادس: قضايا الشعر في عصر صدر الإسلام	٣٥٨
الباب السابع عشر: الفصل السابع: أسلوب الشعر في صدر الإسلام	٣٦٠
الباب السابع عشر: الفصل الثامن: موقف الإسلام من الشعر والشعراء	٣٦٢
الباب السابع عشر: الفصل التاسع: الرسول ﷺ والشعر	٣٦٦
الباب السابع عشر: الفصل العاشر: الأغراض الشعرية في عصر صدر الإسلام	٣٦٨
الباب السابع عشر: الفصل الحادي عشر: قصيدة المدح الإسلامية الجديدة	٣٧٤
الباب السابع عشر: الفصل الثاني عشر: سمات الشعر في عصر صدر الإسلام	٣٧٦

الباب السابع عشر: الفصل الثالث عشر: التحولات التي طرأت على الشعر	
في عصر صدر الإسلام	٣٧٨
الباب السابع عشر: الفصل الرابع عشر: الخصائص الفنية للشعر في عصر صدر الإسلام	٣٨٠
الباب السابع عشر: الفصل الخامس عشر: الصعلكة الشعرية في هذا العصر	٣٨٣
الباب السابع عشر: الفصل السادس عشر: رموز الشعر في عصر صدر الإسلام	٣٩١
الباب الثامن عشر: دراسات تطبيقية لنصوص شعرية	٤٤٥
قراءة أدبية في نص (مع الرسول في المعركة) للشاعر حسان بن ثابت الأنصاري	٤٤٧
الباب التاسع عشر: النقد في عصر صدر الإسلام	٤٥١
الباب التاسع عشر: الفصل الأول: معالم النقد في عصر الرسول	٤٥٣
الباب التاسع عشر: الفصل الثاني: واقعية النقد في عصر صدر الإسلام	٤٥٥
الباب التاسع عشر: الفصل الثالث: التناقض بين القرآن والشعر	٤٦٠
الباب التاسع عشر: الفصل الرابع: موقف الرسول من الشعراء الذين عاصروه	٤٦٣
الباب التاسع عشر: الفصل الخامس: خصائص النقد في هذا العهد	٤٦٥
الباب العشرون: الحكمة العربية والإسلامية	٤٦٩
الباب العشرون: الفصل الأول: القرآن الكريم كتاب حكمة	٤٧١
الباب العشرون: الفصل الثاني: صفات الله الحسنى	٤٧٢
الباب العشرون: الفصل الثالث: أسماء الله تعالى	٤٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾

سورة الشعراء

قال رسول الله ﷺ:

- حدثنا عبد الله بن يوسف:

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:
أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانها،

فقال رسول الله ﷺ:

(إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ سِحْرٌ).

صحيح البخاري - ٥٧٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إذا كان الشعر في عصر ما قبل الإسلام (العصر الجاهلي) قد شغل العرب في جزيرتهم مفاخرًا ومنافراتٍ ومدحاً وذمّاً من خلال تحريكه لمشاعرهم وعواطفهم وعصبياتهم؛ فإن نزول القرآن الكريم عليهم قد حرّك عقولهم وأفكارهم وأخرجهم من ظلمات العصبية القبلية إلى نور الأمة الواحدة التي تتمحور حول دعوة التوحيد ورفع راية (- لا إله إلا الله -)، هذه القضية التي خلق الله سبحانه وتعالى الكون وما فيه ومن فيه من أجلها، والتي غيرت وجهة الفكر الإنساني الذي بقي لفترات طويلة يتخبط في دياجي الشرك والعبودية لغير الله تعالى؛ وقد أحدث القرآن الكريم بمفاهيمه ومعارفه وتعاليمه ثورة حقيقية في حياة العرب أولاً، وفي حياة الأمم الأخرى ثانياً حيث فتح للناس آفاقاً جديدة وشكّل لهم روحاً جديدة وسلوكاً جديداً في تعارفهم مع مفردات الكون والناس. وما هي إلا سنوات معدودات حتى امتزجت آيات هذا القرآن الكريم مع سحرياتهم الحمراء فاندفعوا لنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وتكونت حول هذا القرآن الكريم علوم وآداب بهرت الفكر العالمي، وغيرت مجرى نظر الناس نحو فكرة التوحيد حتى عند أصحاب الديانات الأخرى التي تقسم الألوهية إلى أقسام أو التي تجسدها في شخصية إنسان أو صنم أو عند من أخذوا يتنكرون للألوهية بشكل عام ويعتبرون الكون قد أوجد نفسه بنفسه أو وُجد مصادفة - وحاشا لله - أن يكون كونه الذي خلقه بيديه لا صانع له؛ وهكذا فقد صار من الحاجة أن يطلع القارئ على كل العلوم والآداب التي كتبت حول آيات القرآن الكريم وما تبعها من دراسات أدبية شملت السنّة النبوية المطهرة الشارحة والمفسرة لهذه الآيات.

ونحن في هذا المجلد لا نبتغي دراسة الأحكام الشرعية بمفهوم (العبادات والمعاملات) بقدر ما نريد أن نطلع على آداب القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، وما فيها من قصص وأمثال وحكم وبلاغة وأساليب، ونحن نعلم جميعاً أن هذا القرآن الكريم قد بهر العرب من الساعة الأولى لنزوله وما يزال يبهر العقول البشرية حتى من غير المسلمين، ثم إننا في هذا المجلد ندرس ما أفرزته قرائح الأدباء والشعراء في حراك هذه الدعوة من خلال نوع جديد من الشعر يسمى

(شعر الدعوة) حيث تضاءل شعر العصبية القبلية أمام ذلك التغير الجديد، فقد أصبح الإسلام أباً للناس جميعاً يفتخرون به بعد أن كانوا يفتخرون بقبائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبائس أو تميم
كل ذلك مع ما نجده من تراجع قليل لفن الشعر وتقدم لفن الخطابة التي أصبحت من مستلزمات المسلمين الضرورية في المجتمع والأعياد والحجج والوفود وصار لحركة الشعر نقاد غير مختصين وإن كانوا واعين لحركة الشعر وعلى رأسهم الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي أسس بنقده الأدبي لأول نوع من الشعر هو (الشعر الدعوي) والذي نَبّه القرآن الكريم إلى أهميته في نشر الدعوة خلال سورة الشعراء حيث قسم الشعر إلى قسمين (شعر غاوي) و(شعر واع) وشكّل الرسول ﷺ أول جمعية للشعر الدعوي (جمعية شعر الدعوة) ومثلها حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنهم أجمعين على أن ما غطّاه هذا الشعر من مساحة العقل المسلم لم يشكّل التغطية الكاملة، بل تقاسم الفكر المسلم مجموعة قضايا توزعها القرآن الكريم وعلومه والسنة النبوية الشريفة والأدب العربي والمعارف الأخرى، وتحول الشعر إلى متنفس للشعراء في التعبير عن قضاياهم الخاصة والعامة؛ ومع ذلك فقد خطا الأدب العربي والإسلامي خطوة ثانية في حمل قضايا الأمة وهموم الفرد وتطلعاته وارتقى أكثر، فمن شعر متكسب (المدح) أو شعر (هجاء) إلى شعر دعوة، وهذا ارتقاء بحد ذاته في وظيفة الشعر، كما وأن الأدب في هذا العصر قد توسعت مداخله فنشط فن الخطابة من خلال خطبه - ﷺ - التي أضحت مثلاً يُتذى به في البلاغة النبوية وتألقت فن الرسائل من خلال ما خطّه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام للملوك المجاورين لجزيرة العرب كما وأشرق فن الوصايا التي تركها لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام والمطلع على السنّة النبوية التي جمعها لنا العلماء يدرك تماماً أن نصوص التشريع النبوي إضافة إلى كونها قوانين وشرائع حياتية فهي نصوص أدبية فائقة الجمال، تبرز ببلاغتها كل النصوص الأخرى، وهذا ما سنلمسه من خلال فصول هذا المجلد التي تتحدث عن البلاغة النبوية. وأكثر ما يلفت الانتباه في الأدب في عصر صدر الإسلام (الموعظة التقوية) في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والتي تحتاج إلى كتاب مستقل لدراسة (موضوعاتها وعناصرها وأساليبها واتجاهاتها). وهكذا فقد فتح لنا هذا العصر على قلة عدد سنواته آفاقاً جديدة في سلم الحياة الفكرية.

حسين علي الهنداوي

سوريا - درعا

الباب الأول

الحياة العامة

في عصر صدر الإسلام

مظاهر الحياة العامة في عصر صدر الإسلام

- ١- المظهر السياسي والإداري
- ٢- المظهر التشريعي والقضائي
- ٣- المظهر الاجتماعي
- ٤- المظهر الأدبي واللغوي
- ٦- المظهر الديني
- ٧- المظهر الاقتصادي
- ٨- إرهاصات ما قبل نزول القرآن الكريم
- ٩- حالة الديانات السماوية قبل نزول القرآن الكريم

الباب الأول

الفصل الأول

المظهر السياسي والإداري والحربي والتشريعي

ربما لم يعرف العرب قبل الإسلام ممالك عظيمة ودولاً كبيرة بسبب عدم قدرة أبناء الجزيرة على صناعة الإمبراطوريات، وعدم تألفهم وتجانسهم في وحدة منسقة، فقد ذكر لنا القرآن الكريم أن الله تعالى وحده هو الذي يؤلف قلوبهم: (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) ولذلك كانت الجزيرة العربية مقسمة من الجانب السياسي إلى مناطق تتحكم فيها القبائل، وإذا كانت إمارات كندة والغساسنة والمناذرة قد بدأ الضعف يدب فيها، فإن مكة المكرمة إبان نزول وحى السماء إليها لم تكن لتشكل مملكة أو دولة مستقلة، إذ إن التجار يتحكمون بها ويديرون شؤونها السياسية فيعقدون الأحلاف ويجوضون الحروب، ويحمون تجارتهم إلى الشام واليمن بأنفسهم، بينما كانت المدينة المنورة، يهياً فيها عبد الله بن أبي سلول ليتوج ملكاً عليها، وكان يسكن المدينة فئات من اليهود تتمثل في قبائل (بني النضير - وبني قينقاع - وبني قريظة). وقد كانت الحياة السياسية قائمة على زعامة القبائل ولم تعد ذلك، فلما جاء الإسلام واستقر الرسول في المدينة أنشأ أول دولة عربية تستمد قوانينها من القرآن الكريم وتقيم نظاماً سياسياً قائماً على مبدأ الشورى ومساواة الحاكم للمحكوم، واعتبار المنصب السياسي مسؤولية وعبئاً كبيراً يتحمّله الخليفة أو الأمير ضمن قاعدة: (الإمارة تكليف لا تشریف).

نزل القرآن الكريم في مدة لا تتجاوز اثنين وعشرين عاماً على قوم انتشرت بينهم عادات سميت فيما بعد بالعادات الجاهلية، تعتمد هذه العادات على مبدأ الصراع الاجتماعي القائم على الأخذ بالثأر واعتبار المرأة غنيمة، وعدم توريث النساء إضافة إلى انتشار عادات شرب الخمر، واتخاذ الحياة واللهو فيها غاية بحد ذاتها. وقد استطاع

القرآن الكريم بمفاهيمه الجديدة أن ينزع من نفوس هؤلاء الأعراب الرواسب التي ذكرناها، وأن يعيد بناء الجانب الاجتماعي من حياة الإنسان بناءً سليماً أثر فينا بعد الشعراء والأدباء، وأسهم في نقل الفرد العربي من حياة إلى أخرى.

لقد كان العرب - أثناء وقبل نزول آيات القرآن الكريم - قوماً يؤمنون بالسحر والكهانة وقيمون حياتهم الفكرية على مجموعة من الأساطير ويعتقدون أن الشعر مستمد من الجن الذي تسكن وادي عبقر وأن لكل شاعر جنياً - ذكراً أو أنثى - يمدّه بما يقول من أشعار، وقد كان بعض الشعراء يتفاخرون بأن جنّيه ذكر وأن الجن الذي يمدون غيره من الإناث، إضافة إلى أن القلة من العرب تؤمن بالنصرانية واليهودية بينما الأغلب يقيم على الشرك، ويعتقد أن الملائكة بنات الله، وأن الأصنام والأوثان ما هي إلا آلهة صغيرة تشفع لهم عند الإله الأكبر وأن البيت الحرام كان يحتوي على ثلاثمئة وستين صنماً، وقد يصنع العربي الجاهلي صنمه من التمر، فإذا ما جاع أكله.

وبمجيء الإسلام ونزول القرآن انبهر العرب بهذه البلاغة التي يحملها فانصرفوا عن الشعر وبدؤوا يحاولون فهم هذا الكتاب الجديد إضافة إلى أن الفتوحات الإسلامية قد جعلت سوق الشعر تكسده قليلاً، خاصة وأن خيرات البلاد الأخرى قد انفتحت عليهم، وأن هؤلاء العرب بدؤوا يحملون هذا القرآن إلى الأقوام الأخرى ولم نعد نسمع ذكراً كثيراً للشعر إلا ما كان يأتي عضو الخاطر يتحدث عن وقائع العرب إذا خلا هؤلاء القوم إلى الحديث عن ذكرياتهم، ومع ذلك فإن هذا العصر (عصر الإسلام) لم يتجاوز أربعين عاماً إلا أنه حفل بأكثر من مئة شاعر.

لقد أصبح واضحاً لدينا بعد قراءة حياة العرب قبل الإسلام سياسياً أن القبيلة بمفهومها العصبي لم تعد تصلح للحكم على الرغم من كونها المثل الأعلى للناس وأن عصبية القبيلة أسهمت في تكريس التفكك السياسي وتناحر القبائل وتقاتلها وأنه لما ظهرت الدعوة الإسلامية الجديدة التي حمل لواءها النبي ﷺ تحققت للناس حياة هادئة مستقرة سليمة قائمة على الإخاء والعدالة والمساواة والتحرر من العبودية والظلم وبند الفروق الاجتماعية في تولي قيادة الدولة والجيوش والمناصب.

وأصبح الرسول محمد ﷺ بعد استقراره في المدينة المنورة - ٦٢٢ م - الرئيس الديني والزمني للدولة الفتية التي قامت على أساس من قوانين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واستشارة أصحابه فيما لا وحي فيه امتثالاً لقول الله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) الآية ٣٨ أولاً: المظهر السياسي والإداري في عهد الرسول ﷺ:

١- المظهر السياسي:

بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة اعتبر قائد أمة ورئيس دولة ينظم حياة الجماعة، وكان الجانب الديني واحداً منها. وأصبح الرسول ﷺ هو المرجع الأول لحل الخلافات. اختفى مجتمع العصبية القبلية وظهرت أول دولة عربية إسلامية جديدة قائمة على أساس العقيدة والدين. وأوجد الرسول نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتب الرسول وثيقة سميت (الصحيفة) حدّد فيها طبيعة العلاقات بين مجتمع المدينة وما ترتب على ذلك من حقوق وواجبات.

٢- المظهر الإداري:

- أ- أرسل الرسول بعض العمال (الولاة) إلى الأماكن البعيدة من أجل جمع الزكاة وتعليم المسلمين أمور عباداتهم.
- ب- اتخذ الرسول كتاباً للوحي.
- ج- أرسل كتباً إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها للإسلام.
- د- كانت الرسائل تختم بخاتم النبي.

٣. المظهر التشريعي والقضائي

اعتمد المسلمون في عصر صدر الإسلام بأمر من الرسول ﷺ القرآن الكريم وستته في تشريعاتهم القضائية والحياتية من أجل تسيير أمورهم، وقد تولى ﷺ بنفسه مهمة القضاء في المدينة المنورة، وكان يصدر الأحكام ويشرف على تنفيذها، أما بعد اتساع رقعة الدولة فقد بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن قاضياً، وكذلك بعث إليها معاذ بن جبل.

الباب الأول

الفصل الثاني

المظهر الاجتماعي

اهتم الإسلام بالحياة الاجتماعية اهتماماً بالغاً وقلب المفاهيم الجاهلية وحارب السلبي فيها واهتم بمؤسسة الأسرة وتمسك بالمثل والقيم الأخلاقية الحسنة في بناء الشخصية، وحارب القيم السلبية كالثأر والتكبر والعصبية القبلية وعزز القيم الإيجابية كالصدق والتعاون والكرم وأوجد قيماً جديدة كالإيمان بالله وحده والمساواة بين الناس والعدالة الاجتماعية:

أ- أعطى المرأة دورها في بناء المجتمع الإسلامي وأنقذها من عبوديتها ومنع وأدها وأعطاها حق العلم والميراث واختيار الزوج وشريك الحياة وكلفها ما كلف الرجال من أمور العبادة والدين.

ومن مظاهر تكريم المرأة في الإسلام اعترافه بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية واعتبر النساء صنو الرجال- (إنما النساء شقائق الرجال)- كما قال ﷺ، ومنح المرأة حق الحياة والمساواة مع الرجل في الإنسانية والكرامة كما منحها حق إبداء الرأي وخاصة في اختيار الزوج، كما منحت حق فصم عقد الزواج إذا أهدعت أو أكرهت عليه ومنع ولي أمرها من إجبارها على الزواج ممن لا ترغب به، كما منحها حق التعليم واعتبره فريضة عليها- (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)- كما منحها حق التملك والتملك وإجراء جميع العقود من البيع والشراء والرهن والوكالة، وأعطاها حق العمل برضا زوجها وطالب الزوج بحسن معاملة الزوجة والتلطف في رعايتها والمودة والرحمة معها انطلاقاً من قاعدة - (إمسك بمعروف أو تسريح بإحسان)- ولقد حض الإسلام على الزواج الباكر حتى يلد الأولاد في شباب أبويهم وأوصى كذلك بالبر بالوالدين وقرن الإحسان إليهما بعبادة الله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) الإسراء / ٢٣ / .

ونبغت المرأة في هذا العصر في العلوم الشرعية والأدب والرواية للعلم والطب وعرفت النساء الشاعرات والأديبات والسياسيات كما شاركت المرأة في الجهاد بتطبيب الجرحى كما صنعت نسبية بنت كعب المازنية مع زوجها زيد بن عاصم وابنيهما في غزوة أحد، وقد قال رسول الله ﷺ: (ما التفتُ يمينا ولا شمالاً يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دوني)، وقد جرحت يومها اثني عشر جرحاً بين طعنة رمح أو ضربة سيف؛ كذلك كانت رفيده الأسلمية الأنصارية تداوي الجرحى في غزوة الخندق وأحبطت صفية بنت عبد المطلب تطويقاً مخططاً له عندما قتلت الجاسوس المرسل من بني قريظة لاستطلاع الآطام التي حلت بها النساء المسلمات وأولادهن، وشاركت خوله بنت الأزور في معركة اليرموك.

وفي مجال تربية الطفل فقد نقض رسول الله ﷺ عادة رفض العرب لمداعبة أطفالهم حيث كان يداعب الولائد من بناته وأبناء بناته وأبناء أصحابه وعمل الإسلام في تربية الأطفال التربية العلمية الفكرية حيث جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وقوله ﷺ: (ليس مني إلا عالم أو متعلم).

ب- وقضى الإسلام على الأمية منذ بدايته حين جعل فداء الأسير من المشركين تعليم عشرة من غلمان المسلمين في موقعة بدر، وكذلك عمل على تربية الأطفال التربية الجسدية السليمة فقال ﷺ: (حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وركوب الخيل).

الباب الأول

الفصل الثالث

المظهر الفكري والعلمي والثقافي

اقتصرت الحياة الفكرية قبل الإسلام على بعض المعارف البسيطة في الفلك والطب والأنواء وهي في معظمها مفتقرة إلى الطريقة العلمية، في البحث وعلى تقدم كبير في الأدب شعراً ونثراً وحكمة، وقد أسهم في ازدهار الحركة الفكرية في عصر صدر الإسلام:

١- العامل الديني: المتمثل في تأكيد الإسلام على أهمية العلم ورفع مكانته وحث الناس على طلبه في الكثير من آيات القرآن الكريم التي دعت إلى إعمال العقل واستخدام الفكر في الحصول على المعرفة في مظاهر الكون وأسرار الحياة في سورة العنكبوت (الآية ٢٠) وسورة آل عمران (الآية ١٩) والجاثية وأكدت السنة النبوية على أهمية العلم وضرورة التعلم (العلماء ورثة الأنبياء) - (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) - (اطلبوا العلم ولو في الصين).

٢- تحدي الثقافات الأخرى: حيث وجد المسلمون أنفسهم في مواجهة شعوب ذات حضارات عريقة وثقافات متنوعة كالفرس والهنود واليونان مما أدى إلى ازدهار حركة نقل المعارف عند الأمم الأخرى.

٣- تشجيع الرسول ﷺ لأصحاب العلم: وإغرائهم بمكانة العلماء عند الله من خلال آيات الذكر الحكيم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقول الرسول نفسه: (إن العلماء يستغفر لهم كل من في السموات والأرض حتى الحيتان في البحار).

وقد تميزت الحركة الفكرية بعدة ميزات أهمها:

أ- شعبية المعرفة حيث أصبحت المعرفة والعلم في متناول الطبقات الوسطى والفقيرة بعد أن كانت في أيدي النبلاء.

ب- قدرة الحركة الفكرية الإسلامية على تمثيل الثقافات الأخرى وهضمها والإفادة منها.

ج- التركيز على علوم الدين وعلوم اللغة والأدب بشكل خاص.

د- إسهام الأدباء والعلماء العرب والأعاجم في هذه الحركة الفكرية.

وفي نظام التربية والتعليم برزت مؤسسات تعليمية تقدم العلم والمعرفة وتشجع على البحث العلمي منها.

١- الكتاتيب: التي نشأت بعد الإسلام وكانت تلحق بالمساجد يؤمها الصبيان لتعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وكانت أول مدرسة لتعليم القرآن في زمن الرسول ﷺ (دار الأرقم).

٢- المساجد: ونظام الحلقات فيه منذ زمن الرسول عليه الصلاة والسلام حيث كان طلبة العلم يجتمعون على شكل حلقات حول أستاذهم، وقد كانت المساجد في هذا العصر تدرس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقد كان الطلاب في المساجد نظاميين وغير نظاميين، وبرزت في مدن الدولة الإسلامية مراكز ثقافية كمسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة فيه يعظ أصحابه ويعلمهم أمور دينهم ويستقبل الوفود ويرسل البعث، وقد غلب على الحركة الفكرية في مسجد المدينة المنورة طابع العلوم الدينية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقهاء معتمدين على الحديث النبوي الشريف أكثر من الاعتماد على الرأي والقياس، وكذلك كانت مدرسة مكة المكرمة في المسجد الحرام تدرس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف طوال العام وفي موسم الحج خاصة.

وكذلك حض الإسلام على المعالجة وأبعد الطب عن مظاهر السحر والشعوذة، ونقل عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله: (يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء) وهناك أحاديث كثيرة في حفظ الصحة والوقاية من المرض عرفت باسم الطب النبوي.

وقد اتصل العرب بعد الفتح الإسلامي بعلوم الطب عند الفرس واليونان والهند ونقلوا بعض كتبهم فضلاً عما وصلهم من الإرث الطبي للعرب القدماء في العراق والشام ومصر.

الباب الأول

الفصل الرابع

المظهر الديني

قلب القرآن الكريم بمفاهيمه الجديدة حياة العرب الدينية القائمة على الخرافة والوهم والتقليد ونقلهم من عبادة الأصنام والكواكب إلى عبادة الواحد الأحد، وتعد قضية التوحيد التي كرس الإسلام مفهومها الصحيح والتي هي أعظم منجز قدمه العرب للإنسانية من خلال قوله تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وقال الله تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ) (النحل: ٣٦). وقال تبارك وتعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الأعراف: ٥٩).

وقال تبارك وتعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (الأعراف: ٦٥). وقال تبارك وتعالى: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الأعراف: ٧٣) وقال تبارك وتعالى: (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف: ٨٥). وقال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (المائدة: ٧٢). وقال تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

الباب الأول

الفصل الخامس

المظهر الاقتصادي والمالي

حث الإسلام على العمل ودعا إليه في كل مجالاته الزراعية والصناعية والتجارية والرعية، ففي هذا العصر - عصر صدر الإسلام - لم يكن لاهتمام المسلمين بنشر الدعوة الجديدة أثر سلبي على الحياة الاقتصادية.

أ- الزراعة: فقد قال ﷺ لأحد أصحابه عندما رأى يده خشنة من أثر المجرفة التي يعمل بها لينفق على عياله: (هذه يد يحبها الله ورسوله) وكذلك شجّع ﷺ على إحياء الأرض الموات، فقال: (من أحيا أرضاً ميتة فهي له) وكذلك ما صنعه ﷺ بعد فتح خيبر حين دفع الأرض إلى أهلها وأمرها بنصف ما يخرج منها من تمر وقمح وشعير.

ب- التجارة: فقد استمر نشاطها في عصر صدر الإسلام وزاد الاهتمام بها، وكان لقريش نصيب وافر منها حيث كانت قوافلها تجوب الجزيرة العربية وتصل إلى الحيرة وبصرى وغزة وصنعاء، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك النشاط في سورة قريش: (إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) ولكنها عادت لتضعف بسبب الفتوح الإسلامية وانشغال الناس بها.

ج- الصناعة: فلم تتعدّ صناعة السيوف والرماح التي نشطت بسبب الفتوحات الإسلامية.

د- الموارد المالية في زمنه ﷺ: فقد كانت تقوم على ما يتبرع به الصحابة والميسورون من ذوي المال الذين يبذلون الكثير منه لدعم متطلبات الدعوة وأصبح للدعوة، بعد الهجرة النبوية المطهرة خزينة تتألف مواردها من (الغنائم - الزكاة - الهبات).

الباب الأول

الفصل السادس

إرهاصات ما قبل نزول القرآن

خارطة طريق الدول الكبرى في تلك الفترة

عاشت المنطقة المحيطة بجزيرة العرب في فترة ما قبل النبوة صراعات دينية وسياسية على الرغم من المدنية التي عاشتها تلك الدول بما امتلكته من علوم كثيرة جعلتها مهدياً للحضارة والصناعات والآداب، وإن كانت الديانات في هذه الدول ممسوخة.

أ- فقد كانت الإمبراطورية الرومانية البيزنطية منذ (٣٩٥ م) (الروم) تحكم دول اليونان والبلقان وآسية الصغرى وسورية وفلسطين وحوض البحر المتوسط ومصر وكل إفريقيا الشمالية وعاصمتها القسطنطينية والتي انتهت بغلبة العثمانيين على القسطنطينية (١٤٥٣ م) بقيادة محمد الفاتح؛ لأنها تثقل رعاياها بالإتاوات ومضاعفة الضرائب مما أحدث فيها اضطرابات وثورات أهلكت ثلاثين ألف شخص في العاصمة، ولم يعد همّ الحكام إلا جمع المال وإنفاقه باللغو فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم وعمت الرهبانية، ودخل الناس في الجدل البيزنطي وانتشر المذهب الباطني وتنوعت فنون اللغو والرياضات والمصارعة وحب العنف والهمجية والدموية في الألعاب.

وكانت مصر عرضة لاضطهاد ديني فظيع واستبداد سياسي شنيع مع انتشار البؤس والشقاء على مستوى واسع، كانت مصر بقرة حلوباً يسيء هؤلاء الرومان إطعامها، وكذلك كثرت المظالم في سوريا التي غدت أيضاً مطية للمطامع الرومانية حتى اضطروا السوريون إلى بيع أولادهم وفاء لديونهم.

ب- وكذلك كانت الإمبراطورية الساسانية والتي تأسست على يد أردشير (٢٢٤ م) وحكمت (إسبوتة - خوزستان - ميديه - فارس - أذربيجان - خراسان - خوارزم - العراق - اليمن - كرمان - سرخس - جرجان - طبرستان - كجته الهندية - وكاتيهها وار

الهندية - ومالوه الهندية) وقد كانت عاصمتها (طيسفون) (المدائن) وديانتها (الزردشتية) التي خلفت الديانة المزدائية وكانت الزردشية تؤمن بإلهي النور والظلمة - الخير والشر (روح الخير وروح الشر) وقد جذّرها زعيمها - ماني - عام (٣٠٠ م).

ثم تبعه - شاه بور - وقد حرم - ماني - النكاح ودعا إلى حياة العزوية للقضاء على الفساد والشر في العالم ثم ظهر - مزدك - عام (٥٠٠ م) فأباح الأموال والنساء وجعل الناس شركاء فيها، وقد كان الناس يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله وأمواله وعرضه فانتهكت الأعراض وسلبت الأموال ونشأ جيل لامبالٍ باطل بارع في النميمة والخبث والافتراء والبهتان، اتخذ سبيل الإباحة وسيلة للشراء والجاه والكسب.

فانتشرت ثورات الفلاحين بعد أن تجرأ اللصوص والنهابون على قصور الأغنياء وأراضي العامة، مما جعل الأرض مقفرة وازداد التطرف والمغالاة وصار الملك إلهاً مقدساً لا ترد كلمته، يمتلكون موارد البلاد وكنوزها وخيراتهم. وأبناءؤها خدمٌ لهم حتى أن (يزدجرد) آخر ملوكها حين هرب أيام الفتح الإسلامي حمل معه (ألف طباخ - وألف مغنٌ - وألف قيم للنمور وألف قيم للبزة وحاشية أخرى وهذا ما جعل الشعب يزرع تحت ثقل الجوع والبؤس والشقاء يعيشون عيشة البهائم يتخذهم الملوك وقوداً للحرب مما جعل الكثير من الناس يدخلون الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية.

ج- وأما الهند التي تميزت في ذلك العصر بالطب والفلسفة والرياضيات والفلك كانت ديانتها في عام (٦٠٠ م) وأخلاقها أحط الديانات وأحط الأخلاق حيث انتشرت الخلاعة حتى في المعابد وانتصت المرأة إلى حد اللعب بها - بدل الدراهم بالقمار - تحرق نفسها بعد موت زوجها مع وجود فروق طبيعية بين الأغنياء والفقراء وقسم المجتمع إلى (الكهنة - الموارين - الفلاحين - العبيد) حيث يحكم الهند حكومات كثيرة يسودها الاضطراب والحرب و تعيش عزلة تامة عن العالم. وأما أوروبا فقد كانت غارقة في الجهل والأمية والحروب الدامية بعيدة عن الحضارة والعلوم الإنسانية والأدب أجسامهم قذرة ورؤوسهم تعيش على الوهم يعذب الرهبان أجسامهم ويعتقدون أن روح المرأة روح حيوان غير خالدة.

د- وأما جزيرة العرب فقد ساءت أخلاق سكانها في العصر الجاهلي حيث أولعوا بالخمر والقمار والزنى والسلب والنهب ووآد البنات والغارات وقطع الطرق، وسقطت مكانة المرأة بحيث أصبحت تورث وتباع، يتزوج الرجل بالعدد الذي يريد، و تتحكم في أفعال رجالها عصبية قبلية دموية جامحة مغرمة بالحرب والقتال، كما يقول الرقاد بن المنذر بن ضرار الضبي:

إذا المهرة الشقراء أدرك ظهرها فشب الإله الحرب بين القبائل
وأوقد ناراً بينهم بضرامها لها وهج للمصطلي غير طائل
وكذلك عبر عن ذلك عمير التغلبي القطامي الذي يتحدث عن رغبة قومه في القتال مع القبائل الأخرى:

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا ما لم نجد إلا أخاناً
وكذلك قول عمرو بن كلثوم:
أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا وأنظرْنا نخبرك اليقيناً
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيُّ تحرُّ له الجابرُ ساجدينا
وكانت حوانيت الخمر تملأ الأحياء والحارات حتى أن المدينة غصت شوارعها به عندما حرّم القرآن الكريم هذه الخمرة وأريققت في الشوارع. وكذلك تحدث عنها عنتره ولييد بن ربيعة العامري وغيرهم، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة:

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها
ومن لم يشارك من العرب في مجالس القمار ينبذ ويعد ذلك عاراً عليه، وقد قال شاعرهم:
أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا ابن ريطه ظاهر
نحاي بها أكفاءنا ونهينها ونشرب في أثمانها ونقامر
وكم من جاهلي قامر على أهله وماله!

أما الربا فحدّث ولا حرج فقد يتعاطاه العرب واليهود أضعافاً مضاعفة حتى ساووا بينه وبين البيع وقالوا: (إنما البيع مثل الربا) ومثله الزنى غير مستنكر عندهم يتخذ الرجل خليات دون عدد، وتتخذ المرأة أخلأء دون عقد وقد يُكرهون النساء على الزنى ويأخذون أجره إضافة إلى أن المرأة تتعرض للغبن والحيف وتؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً مرضاه وتورث كالدابة والمتاع وتوءد غيرة ولخوف العار وتشاؤماً لكونها (شيء - سوداء - برشاء - كسحاء) وكان العرب يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق، وقد يضحون بولد إن يبلغ أولاد الرجل عشرة، كما فعل عبد المطلب وكان كرههم للبنات يجعلهم ينسبونها لله - وحاشا لله تعالى ذلك - على اعتبار أن الملائكة بنات الله وتفشى الفساد في البر والبحر بين الناس. (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (الروم: ٤١).

الباب الأول

الفصل السابع

حالة الديانات السماوية الوضيعة

قبل بعثة النبي ﷺ

تحولت الديانات السابقة للإسلام في يد المحرفين والمزورين واللاعيبين والطامحين لحيازة المال والجاه والمنصب ففقدت روحها الحقيقية، وأنكرها ذوو الفطرة الصحيحة والعقول السليمة.

أ- فقد أصبحت اليهودية بقايا طقوس وتقاليد لا روح، ولا حياة فيها؛ حيث اعتلت عقيدتها الصحيحة بفعل تأثر اليهود بالأمم المجاورة فقد طالبوا موسى عليه السلام أن يصنع لهم عجلاً يعبدونه بعد أن هداهم لعبادة إله واحد ونجاهم من بطش فرعون.

ب- وابتلت المسيحية بتحريف الغالين وتأويل الجاهلين ووثنية الرومان المنتصرين فدفت تعاليم المسيح البسيطة تحت ركام ذلك واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وتغلغلت عقيدة التثليث وأن الإله الواحد مؤلف من ثلاثة أقانيم، وكذلك انتشرت الوثنية في المجتمع المسيحي وعبادة الشهداء والأولياء يحملونهم صفة الألوهية والقداسة وتحولت بعض الأعياد الوثنية كعيد الشمس إلى عيد ميلاد السيد المسيح ٤٠٠ م إضافة إلى المعارك بين نصارى الشام ونصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته.

ج- أما المجوسية فقد عكف أبنائها على عبادة النار يستقبلونها في صلاتهم وبينون الهياكل لها وانتشرت عبادة الشمس وتفلت الناس خارج المعابد يصنعون ما يشاؤون إضافة إلى عبادة القمر والماء ودينوتهم للثنوية عبادة (إله النور إله الظلمة).

د- وكذلك البوذية في الهند وآسيا الوسطى تعبد الأصنام وتنصب تماثيل لبوذا وتعبد غير خالق السموات والأرض، وإذا حاولت أن تكشف عن الديانة البرهمية فستجد أن أكثر من

(٣٣٠) مليون إله وإلهة حتى أن الناس كانوا يعبدون كل ما يستحسنونه حيث ارتقت صناعة التماثيل ارتقاءً كبيراً.

هـ- ولم تختلف الهندوكية عن البوذية في الإغراق في الوثنية وخلق الآلهة الصغيرة التي تنضمُّ إلى بعضها لتشكل تجمعاً لهذه الآلهة.

و- وكذلك لم يختلف العرب عن تلك الشعوب في تأليه الأصنام وعبادتها وإقامة النصب لها في فترة ما قبل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام على الرغم من إيمانهم في الزمن القديم بدين إبراهيم الخليل عليه السلام والذي بقي منه بقية من الخنفاء لا تزيد على أصابع اليدين عند مجيء النبي ﷺ، وقد كان لكل قبيلة صنم ولكل مدينة صنم، ولكل بيت صنم، وكان في جوف الكعبة التي بناها آدم عليه السلام ورفع قواعدها إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام (٣٦٠) ثلاثمائة وستون صنماً كما أن لبعض العرب آلهة من الملائكة والجن والكواكب وأن الملائكة هي بنات الله وأن الجن شركاء له يعبدونهم ويؤمنون بقدرتهم وتأثيرهم على الحياة والناس؛ أما اليهود والنصارى فقد كان لهم بقية من التأثير في نجران والمدينة ومكة حيث كان ورقة بن نوفل وأمّية بن أبي الصلت وغيرهم.

الباب الثاني

خصائص الدعوة الإسلامية

الباب الثاني

الفصل الأول

الإسلام دعوة توحيد لله تعالى

أ- كان العرب في معظمهم قبل الإسلام وثنيين يعبدون الأصنام والأوثان ويقدمون لها. وقد تكون هذه الأصنام على شكل حجارة أو أشجار أو تماثيل أو غير ذلك. فالعرب كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، ولكنهم في حقيقة أمرهم كانوا يعتقدون بوجود الله عز وجل، وكانوا يعبدون الأصنام لكي يتقربوا من خلال ذلك إليه عز وجل. ويؤكد ذلك ما ورد في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: (وما نعبدهم إلا ليقربونا من الله زلفى) الآية ٣ سورة الزمر.

ب- وكان لكل قبيلة صنم خاص بها أو أكثر وهناك أربعة أصنام رئيسة يعبدها ويقدمها عدد كبير من العرب، وهي (هبل - ومناة - واللوات - والعزى) والصنم الأول هبل كان موجوداً في الكعبة، أما بقية الأصنام فقد كانت موجودة خارج مكة. وقد ورد ذكر هذه الأصنام في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى في سورة النجم: (أفرأيتم اللوات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى) الآية ١٩.

وكان العرب يقدمون أربعة أصنام أخرى أقل أهمية من تلك الأصنام.

ج- وعندما انتصر الإسلام ودخل المسلمون مكة المكرمة وفتحوا بقية الجزيرة العربية حطمو أكل الأصنام والأوثان. وأصبح جميع العرب يؤمنون بوجود الله الواحد الأحد الذي لا شريك له، كما يؤمنون برسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، كما أصبحوا يطبقون شريعة الدين الإسلامي مما له علاقة بالصلاة والزكاة والصيام والحج وجميع الأمور التي لها علاقة بشريعة الله وتعاليمه.

د- وقد فرض الإسلام على أتباعه سلوكاً يتميز بمبادئ خلقية فاضلة وقيم سامية، تقوم على أساس التعاون والتسامح والوفاء والصدق والمحبة والإخاء التي عرف كثير منها عند العرب قبل الإسلام، وهذا ما أكدته الرسول ﷺ بقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ حَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيُنِيائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَيَايَاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" متفق عليه!

والدعوة إلى توحيد الله وعبادته هي دعوة الأنبياء؛ قال الله تبارك وتعالى:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ) (النحل: ٣٦).
وقال تبارك وتعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الأعراف: ٥٩).

وقال تبارك وتعالى: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (الأعراف: ٦٥). وقال تبارك وتعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الأعراف: ٧٣). وقال تبارك وتعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف: ٨٥). وقال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (المائدة: ٧٢). وقال تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ١٦).

الباب الثاني

الفصل الثاني

الإسلام دعوة فكرية

أ- يعد الفكر من أهم منجزات القرآن الكريم الذي أعطاه مكانة عظيمة، وجعل طلبه والمواظبة عليه من العبادة لله تعالى.

ب- والأمر المهم الذي جاء به الرسول محمد ﷺ أنه ربط حياة العرب بشكل خاص والمسلمين بشكل عام بالفكر من خلال هذا القرآن الكريم، ففتح لهم آفاق الكون ومفرداته والحياة وعناصرها والإنسان وعجائب خلقه؛ واهتم الإسلام كثيراً بالعلم وشجع على تعليم أبناء المسلمين، كما شجع على إعمال الفكر والتأمل في ظاهرات الكون المختلفة، وحث على طلب العلم، حيث يقول الله تعالى في سورة الزمر: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الآية ٩، كما يقول الرسول صلى عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وهو يقول أيضاً: (اطلبوا العلم ولو في الصين).

ج- وقد أدى اهتمام الإسلام بالعلم إلى نبوغ عدد كبير من العلماء العرب والمسلمين، وكان التعليم يتم في بداية الأمر عن طريق حلقات العلم في المساجد.

د- ولقد كان الرسول الكريم المثل الأعلى في تشجيع العلم، فقد جعل فدية المتعلم من أسرى بدر تعليم عشرة صبيان من أطفال المسلمين.

وما معجزة الرسول محمد ﷺ (القرآن الكريم) إلا دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بالعلم.

هـ- وفي قراءة ما بين السطور لهذا القرآن الكريم نجد أن المكتبة العربية لم تكن لتوجد لولا هذا الفيض الرباني العظيم الذي جعل المسلمين يهتمون بالعلم اهتماماً كبيراً.

الباب الثاني

الفصل الثالث

الإسلام دعوة سياسية

كان المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام يعيش حياة قبلية يسيطر فيها رؤساء القبائل والزعماء على مقدرات الناس، ويسخرونها في حروب قبلية تهلك البلاد والعباد، وتعود بالضرر على جميع القبائل والجماعات وتمزق وحدة العرب وتضامنهم وتعاونهم.

ولقد وضع الإسلام أسساً جديدة للدولة من أهمها:

١- اعتماد مبدأ الشورى في اختيار الحكم وفي تسيير شؤونه معتمدين في ذلك على قوله تعالى في سورة آل عمران: (وشاورهم في الأمر) الآية ١٥٩، وكذلك قوله تعالى في سورة الشورى: (وأمرهم شورى بينهم) الآية ٣٨.

٢- توفير الحرية بجوانبها المتعددة مثل حرية العقيدة والرأي والتعبير والتفكير.

٣- المساواة بين جميع المواطنين في تطبيق النظام والقانون وتكافؤ الفرص.

٤- ضمان حقوق المواطنين غير المسلمين (أهل الذمة) إذ ترك لهم حرية العبادة والتملك والرأي والاجتماع والعمل.

وكان للإسلام دور في بناء الدولة العربية الواحدة التي دينها الإسلام إذ لم تكن الدعوة الإسلامية مخصصة للعرب فقط، وإنما جاءت للناس كافة، حيث يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم في سورة الأنبياء: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الآية ١٠٧. ومن هنا عدّ العرب أنفسهم مكلفين بنشر الدعوة الإسلامية، وتبليغها للشعوب الأخرى في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد عمل العرب على نشر ثقافة عربية إنسانية مع عقيدتهم الجديدة في البلدان التي فتحوها واستطاعوا بفضل الإسلام بناء دولة واحدة بخليفة واحد وجيش واحد، وقوانين ومؤسسات واحدة، فكان الإسلام دعوة حقيقية شاملة بعثت حضارة إنسانية خالدة على أكتاف أمة عظيمة، عرفت كيف تأخذ مكائنها المناسب في العلم عبر العصور التاريخية. كذلك كان للإسلام أثر كبير في توحيد الأمة العربية، إذ ألغى العصبية القبلية التي كانت تمزق الأمة العربية إلى قبائل، وأحل محلها الرابطة الدينية التي توحد بين جميع القبائل العربية. ونتيجة لذلك وبفضل الإسلام توحد العرب للمرة الأولى في تاريخهم. ونتيجة لوحدة الأمة العربية تمكن العرب من نشر رسالة الإسلام ودين التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها. ونتيجة لذلك أيضاً تمكن العرب تدريجياً من تحرير بلاد الشام والعراق ومصر وليبيا وشمال إفريقيا، فأصبحت جزءاً أساسياً من الأمة العربية والوطن العربي.

الباب الثاني

الفصل الرابع

الإسلام دعوة اقتصادية

انطلق الإسلام من اتجاهات جديدة في مجال الحياة الاقتصادية تؤكد على العدالة والكسب الحلال وعدم الاحتكار والاستغلال، ومن أهم الأسس الاقتصادية التي أكدها الإسلام، والتي كان يفتقر إليها المجتمع العربي قبل الإسلام.

١- التأكيد على أهمية العمل:

أكد الإسلام أهمية العمل واعتبره المصدر الوحيد لكسب الحلال، ورأى أن العمل يعد عبادة، ووضع اليد المنتجة في مكانة متميزة من الاحترام والتقدير، وقد أدى ذلك إلى ازدهار النشاط التجاري بفروعه المختلفة.

٢- محاربة وسائل الكسب غير المشروع:

حارب الإسلام وسائل الكسب غير المشروع مثل الاحتكار والميسر والربا (الذي يعني تقديم الدين للآخرين مقابل فوائد عالية). وهذه الوسائل كان يعتمد عليها معظم أغنياء العرب لاستغلال حاجة الفقراء. وقد شجع الإسلام وسائل الكسب الحلال في الزراعة والصناعة والتجارة وأعطى الأرض لمن يجيئها ويعمل بها.

٣- تنظيم المعاملات المالية:

وقد نظم الإسلام العلاقات المالية بين المسلمين، مما له علاقة بالبيع والشراء والعقود والوصايا والميراث وما إلى ذلك.

٤- احترام الإسلام للملكية الشخصية:

أباح الإسلام الملكية الشخصية، ولكنه وضع حدوداً لحفظها، واشترط ألا تضر هذه الملكية بالمصلحة العامة، وأن تكون بعيدة عن الاستغلال والاحتكار واستثمار جهد الآخرين.

الباب الثاني

الفصل الخامس

الإسلام دعوة اجتماعية

أ- كان ظهور الإسلام وانتشاره انطلاقة مهمة لإزالة العلاقات القائمة على العصبية القبلية والأخذ بالثأر، ومنهajaً جديداً للتأكيد على العدالة والمساواة والقيم الفاضلة. والمبادئ والأسس الاجتماعية التي أكدها الإسلام جاءت لتصنع مجتمعاً خالياً من النكوص، فقد حض الإسلام على القيم الإيجابية التي تميز بها العرب قبل الإسلام مثل الكرم والوفاء بالوعد، كما أنه حارب القيم السلبية والعادات السيئة مثل الثأر وشرب الخمر ولعب الميسر.

ب- ورفع مكانة المرأة، وحفظ لها حقوقها في الزواج والإرث والتملك وطلب العلم، والمشاركة في أعمال المجتمع في السلم والحرب.

ونظّم أحكام التشريع والقصاص، ووضع حدوداً للمشكلات والجرائم المختلفة مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ج- وعمل على التقريب بين طبقات المجتمع وأفراده بوسائل متعددة من أهمها الزكاة والصدقات، والضرائب التي تدفع لخزينة الدولة ويتم توظيفها من أجل رفع المستوى المعاشي والحضاري لجميع أفراد المجتمع.

د- وأكد مبدأ المساواة بين جميع أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات، ودعا إلى تحرير الرقيق ومعاملتهم بلطف وإحسان، وانطلاقاً من هذه المواقف العظيمة استطاع العرب المسلمون بناء حضارة إنسانية راقية شملت مختلف جوانب الحياة.

الباب الثاني

الفصل السادس

الإسلام دعوة إنسانية

أ- تتمثل دعوة الإسلام في قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)؛ بأنها دعوة إلى الناس جميعاً ليعيشوا حياة واعدة بالخير والمحبة والعطاء والجمال؛ وقد جاء الإسلام ليبيّن حياة إنسانية واعدة بالمحبة الإنسانية (أحبب لأخيك ما تحب لنفسك)؛ ولقد تجلّت الحياة الإنسانية الواعدة من خلال قول رسول الله ﷺ: (الناس سواسية كأسنان المشط) وفي قوله أيضاً: (لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

ب- وإذا كانت دعوة الإسلام إلى التوحيد هي جوهر الدين الخنيف، فإنما ذلك لأن الإسلام جاء لينقذ الناس من الظلمات إلى النور وقد تعممت هذه النظرة الإنسانية التي بثها القرآن الكريم في ثنايا آياته من خلال مفاهيم المساواة والعدل والحق والخير الإنساني التي لولاها لبقى الإنسان يعيش في تجنّب وإحباط.

لقد بنى الإسلام إنساناً جديداً قوام حياته القيم الإنسانية الطافحة بالخير والمحبة والعطاء فكانت (الأمانة والصدق والاستقامة) السلم الإنساني الذي يصعد عليه الإنسان للعلو؛ وتجلّت قيم هذا الدين الجديد عطاء ومحبة لبناء برج الحضارة الإنسانية.

الباب الثالث

القرآن الكريم ماهية وأبعاد

الباب الثالث

الفصل الأول

ما هو القرآن الكريم؟

القرآن الكريم:

أ- هو اسم لكلام الله تعالى المنزّل على عبده ورسوله محمد بواسطة جبريل الأمين المتعبد بتلاوته وحياء، المعجز بكل سورة منه، المنقول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى السماء الدنيا المنزل منجماً ومتفرقاً بعد ذلك، ليس بمخلوق ككلام البرية، (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت ٤١ - ٤٢].

ب- وهو اسم لكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء من سائر الكتب. وقد تكلم به الله تعالى حقيقة لا مجازاً، من باب إضافة الكلام إلى قائله، ليكون للعالمين نذيراً، وإضافته إلى محمد ﷺ إضافة تبليغ وأداء، لا إنشاء وابتداء، وآيات القرآن الكريم في غاية الدقة والإحكام، والوضوح والبيان، أحكمها حكيم، وفصلها خبير، وسيظل هذا الكتاب معجزاً من الناحية البلاغية والتشريعية والعلمية والتاريخية وغيرها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ج- لم يتطرق إليه أدنى شيء من التحريف؛ تحقيقاً لقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩]. فالدنيا كلها لم تظفر بكتاب أجمع للخير كله، وأهدى للتي هي أقوم، وأوفى بما يُسعد الإنسانية، من هذا القرآن المجيد، الذي قال الله فيه: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) [الإسراء: ٩].

د- أنزله الله على رسوله محمد - ﷺ -؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [إبراهيم: ١]. فتح الله به أعيناً عمياً، وأذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وضمن للمسلمين، وللإنسانية الأمن والسعادة في دنياهم وأخراتهم، إذا هم تلوّوه حقّ تلاوته، وتفهموا سورته وآياته، وتفقهوا جملة وكلماته، ووقفوا عند حدوده واثتمروا بأوامره، وانتهوا بنواهيه، وتخلّقوا بما شرع، وطبقوا

مبادئه ومثله وقيمه على أنفسهم وأهلبيهم ومجتمعاتهم. قال تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) [البقرة: ١٢١]. قال ابن عباس: "يتبعونه حق اتباعه، يجلون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يجرفونه عن مواضعه".

هـ- تأثر به الجن ساعة سمعوه، وامتألت قلوبهم بمحبته وتقديره، وأسرعوا لدعوة قومهم إلى اتباعه فقالوا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) [الجن ١ - ٣].

وقد حكى الله في القرآن الكريم عنهم أنهم قالوا: (يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف ٣٠ - ٣١].

و- فاق هذا الكتاب المبارك كل ما تقدمه من الكتب السماوية، وكانت منزلته فوق منزلتها، قال تعالى: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ) [الزخرف: ٤]. وقال - سبحانه - : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) [المائدة: ٤٨].

الباب الثالث

الفصل الثاني

الوحي معناه وحقيقته

أ- الوحي:

هو (إعلام الله تعالى من اصطفاه برسالته كل ما أراد إطلاعه عليه من أمره وعلمه وهو آتية ليلغه إلى من شاء الله تعالى من خلقه).

فالوحي أمر مشترك بين جميع رسل الله، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} - {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}.

ب- وهو أمر واقع لا يمكن إنكاره عند كل من آمن بوجود الله تعالى وكمال قدرته، فالخالق المدبر يعرى خلقه بما شاء من أنواع التدبير والرعاية، والصلة بين الخالق وخلقته إنما تكون عبر رسله، ورسول الله لا يعرفون مراد الله إلا عن طريق الوحي سواء كان بوساطة أو بغير وساطة. فالعقل السليم لا يستبعد إمكانية الوحي؛ لأن الخالق القادر لا يصعب عليه شيء.

ج- ولهذا كان النبي ﷺ يحرص على التفريق بين أحاديثه التي يصوغها بأسلوبه الخاص وهو ما يعرف بالحديث النبوي - رغم أن أصلها من الوحي عن طريق الإلهام - وبين الوحي القرآني، بل منع بادئ الأمر أن يكتب منها شيء مع القرآن، حتى تبقى للقرآن منزلته الخاصة في كونه لفظاً ومعنى من عند الله تعالى، ولا يختلط به شيء من كلام الناس.

د- وكان ﷺ يفرق بين ما يقوله عن اجتهاد من نفسه وبين ما ينسبه إلى الله تعالى، ولهذا قال: «إنما أنا بشر مثلكم وإن الظن ينحطى ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله، فلن أكذب على الله».

هـ- والرسول لا يملك من أمر الوحي شيئاً، فالوحي قوة خارجة عن ذات النبي لا يملك التصرف فيها بما شاء، ومما يؤكد ذلك أنه كانت تنزل بالنبي أو بأحد ممن حوله أحياناً نوازل

تتطلب حلاً سريعاً، لكنه لا يجد فيها قرآناً يقرؤه على الناس، فيلتزم الصمت، و ينتظر، وربما طال الانتظار، وهو في حاجة ملحة للجواب والفرج، لحكمة يعلمها الله تعالى. مثال ذلك: حادثة الإفك، وهي الفرية على السيدة عائشة زوج النبي ﷺ من قبل بعض المنافقين بما هي بريئة منه، وأخذ الناس يلوكون عرض النبي النقي، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يملك أن يُنهي هذه المشكلة، بل غاية ما قاله: «يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله». ومضى شهر بأكمله، حتى نزل الوحي ببراءة عائشة، وطهارة بيت النبوة.

و- الوحي حالة غير اختيارية، وعارض غير عادي وقوة خارجية، وهو قوة عالمة؛ لأنها توحى علماً، وهو قوة خيرة معصومة؛ لأنه لا يأتي إلا بالحق، ولا يأمر إلا بالرشد. أما كيفية وحي الله تعالى إلى ملائكته فقد جاء في القرآن الكريم ما ينص على تكليم الله ملائكته، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟ وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} فوحي الله إلى ملائكته تكلم من الله، وسمع من الملائكة. ووحي الله تعالى إلى رسله يكون بوساطة وبغير وساطة:

١- فالوحي بوساطة: هو الملك جبريل عليه السلام، ويكون ذلك بإحدى حالتين:

أ- الحالة الأولى: أن يأتيه الملك بصوت مثل صلصلة الجرس وهي أشد على الرسول ﷺ فالصوت القوي يثير عوامل الانتباه، فتتهياً النفس بكل قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحي بهذه الكيفية على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه.

ب- الحالة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر، وهذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

وكلتا الحالتين المذكورة في سؤال الحارث بن هشام رضي الله عنه، قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

٢- والوحي بغير وساطة: ويكون ذلك بعكس الحالات السابقة.

الباب الثالث

الفصل الثالث

نزول القرآن الكريم مفرقاً

أنزل الله تعالى القرآن على محمد ﷺ هداية البشرية، فكان نزوله حدثاً جليلاً يؤذن بمكانته عند أهل السماء وأهل الأرض.

أ- فإنزاله الأول من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا وذلك في ليلة القدر من شهر رمضان أشعر العالم العلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس.

ب- وتنزيله الثاني مفرقاً على خلاف المعهود في الكتب السماوية قبله. أثار دهشة كفار العرب مما حملهم على الماراة، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية، فلم يكن الرسول ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة، ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف وعناد، فكان الوحي ينزل عليه تباعاً تثبيتاً لقلبه، وتسلياً له، وتدرجاً مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين وأتم النعمة.

أَمَّا سُورَةُ فَمِثَّةٌ وَأَرْبَعُ عَشْرَةَ سُورَةً بِإِجْمَاعٍ مَنْ يُعْتَدُّ بِهِ وَقِيلَ: وَثَلَاثَ عَشْرَةَ بِجَعْلِ الْأَنْفَالِ وَبِرَاءَةِ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ أَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ أَبِي رَوْقٍ قَالَ: الْأَنْفَالُ وَبِرَاءَةُ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَأَخْرَجَ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ قَالَ: سَأَلْتُ الْحُسَيْنَ عَنِ الْأَنْفَالِ وَبِرَاءَةِ: سُورَتَانِ أَمْ سُورَةٌ؟ قَالَ: سُورَتَانِ. وَثِقَلْ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي رَوْقٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سُفْيَانَ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَشْتَةَ عَنِ ابْنِ هَلِيعَةَ، قَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّ بَرَاءَةَ مِنْ يَسْأَلُونَكَ وَإِنَّمَا لَمْ تَكْتُبْ بَرَاءَةَ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} لَأَنَّهَا مِنْ {يَسْأَلُونَكَ} وَشُبِّهَتْهُمْ اشْتِبَاهُ الطَّرْفَيْنِ وَعَدَمُ الْبَسْمَلَةِ وَيُرَدُّ تَسْمِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ كَلَّا مِنْهَا.

وَنَقَلَ صَاحِبُ الْإِقْتِنَاعِ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ ثَابِتَةٌ لِبَرَاءَةِ فِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: وَلَا يُؤْخَذُ بِهَذَا.
قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: الصَّحِيحُ أَنَّ التَّسْمِيَةَ لَمْ تَكُنْ فِيهَا؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْزِلْ بِهَا فِيهَا.
وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَأَلْتُ: عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ: لِمَ لَمْ تُكْتَبْ فِي (بَرَاءَةِ) بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ: لِأَنَّهَا أَمَانٌ وَبَرَاءَةٌ نُزِّلَتْ بِالسَّيْفِ.

الباب الثالث

الفصل الرابع

جمع القرآن الكريم وتدوينه

أ- نزل القرآن الكريم من السماء السابعة إلى السماء الدنيا دفعة واحدة، ثم نزل منجماً حسب مقتضيات الوقائع والأحداث والتدرج والتكاليف والفرائض بمدة زمنية تصل إلى (٢٣ سنة). نقل العرب نقلة نوعية من حياة البداوة والتخلف والجهل والظلام إلى حياة التحضر والعلم، ونشر في الإنسانية سبل السلام والأمن والخير والمحبة وأول سورة نزلت هي: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق..) وآخر آية نزلت (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقد نزلت قبل وفاة الرسول عليه السلام بتسع ليالٍ.

ب- وكان محفوظاً في الصدور، ثم نقله الصحابة إلى السطور، وقد رتب جبريل عليه السلام بوحى من الله سوره وآياته كما نراها اليوم.

ج- وجمع على الجلود واللخاف والعظام في زمن الرسول.

د- وأسرع أبو بكر وعمر إلى كتابته بعد مقتل سبعين قارئاً من حفاظه، ثم جمع عثمان القرآن على قراءة واحدة في مصحف واحد ونسخه إلى خمس نسخ وزعها على الأمصار.

هـ- قسم القرآن إلى ثلاثين جزءاً، ثم إلى أحزاب لتسهيل حفظه.

و- قام بتفسيره مجموعة من الصحابة كابن عباس وعطاء بن رباح، ثم تدرج تفسيره إلى أن بلغ عدد التفاسير نحو (١٧٠٠) ونيف. نزل قسم منه في مكة وقسم في المدينة.

ز- وقد أحصى السيوطي في كتابه: الإتيقان في علوم القرآن. أكثر من تسعين فناً وعلماً متعلقاً به.

ح- اهتمت سوره المكية بالحساب والعذاب ونفي عبادة الأوثان وقصص الأمم السابقة بينما اهتمت السور المدنية بالتشريع الديني والسياسي، والعسكري ونظام الأسرة

والميراث والطلاق والزواج والبيع والشراء والزكاة. جُمع على لهجة قريش، ووحد اللغة العربية وحفظها من الانقراض وما تزال كنوزه تستخرج بفضل العلوم الحديثة. ط - وهو آخر الكتب السماوية بعد الزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وما نزل في مكة تُسمى آياته (مكية)، وما نزل في المدينة بعد الهجرة النبوية المشرفة تُسمى آياته (مدنية).

ي - مجموع سوره (أربع عشرة ومئة سورة) وكلما نزلت آية جمع رسول الله ﷺ (كُتِبَ الوحي) وحفظ القرآن ليكتبوها، ولم ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى كان القرآن الكريم محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور. وقد رُتبت سوره وآياته بوحي من الله تعالى، وتم هذا الترتيب في حياة النبي ﷺ وتلقاه الصحابة مرتباً.

ك - ولما كان يوم (اليامة) في عهد أبي بكر رضي الله عنه قُتل سبعون من حفظة القرآن الكريم فخشي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن يكثر فيهم القتل فيذهب القرآن بذهابهم فاقترح على أبي بكر أن يأمر بجمع القرآن، فأرسل أبو بكر وعمر إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وعهد إليه بجمع القرآن من العسب والكراديف والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع واللخاف وصدور الحفظة المشهور لهم بالإتقان مثل (أبي بن كعب - عثمان بن عفان - علي بن أبي طالب - عبدالله بن مسعود) وأمر أبو بكر ألا يعتبر الرجل من الحفاظ حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته، ثم حفظ في بيت أبي بكر، ثم في بيت عمر بعد وفاته، ثم بعد وفاة عمر في بيت حفصة بنت عمر وأم المؤمنين، وهذا الجمع الأول كان تاماً غير منقوص.

ل - أما في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد تنبه (حذيفة بن اليمان عندما كان في أرمينية وأذربيجان إلى اختلاف الناس في لهجاتهم فقال لعثمان: (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى)، فطلب عثمان نسخة حفصة لأجل أن ينسخ منها مصاحف متعددة وكلف زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وقال عثمان لـ (عبد الرحمن بن الحارث وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص): إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش

فإنما نزل بلسانهم فنسخوا عدة مصاحف أرسلت إلى الأمصار الإسلامية (مكة - الشام - اليمن - البحرين - البصرة - الكوفة) وحبس بالمدينة واحداً هو المصحف الإمام وقد قسم القرآن في العهد الأول إلى ثلاثين جزءاً، ثم إلى أحزاب، وقد كان ﷺ المرجع الأول لتفسيره و تبعه الصحابة العشرة الخلفاء الراشدون وأكثر الصحابة، ويعدُّ عبد الله بن عباس أكثر الصحابة تفسيراً له، ثم جاء تلميذه سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء بن رباح.

م- وقد جمع القرآن الكريم العرب على لغة واحدة (لهجة قريش) مع مراعاة اللهجات العربية الأخرى، وأصبحت اللغة العربية اللسان الأدبي والعلمي لمشارك العالم الإسلامي ومغاربه، وحوّل هذا القرآن اللغة العربية إلى لغة ذات دين سواوي ظاهر، وبفضل هذا القرآن تكونت علوم كثيرة ونشأت حضارة فكرية عجيبة.

الباب الثالث

الفصل الخامس

حفظ القرآن

أ- حفظ القرآن الكريم من التحريف:

أنزل الله تعالى كتابه القرآن الكريم ليكون الكتاب المهيمن، والرسالة الخاتمة، والشريعة الباقية، مما يتطلب رعايته عن عبث العابثين، وتحريف المغالين، وانتحال المبطلين، وقد اتفق له ذلك منذ اللحظة الأولى لنزوله وحتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا زيادة فيه ولا نقصان، وقد ورد إلينا متواتراً بنقل الكافة [الجمع الكبير من الناس الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب] التي لا تقع تحت عدّ ولا حصر عن مثلها حفظاً وكتابة، ولم يختلف في عصر من العصور في سورة، ولا آية، ولا في كلمة، بل كثير من هؤلاء النقلة لا يحسن العربية لكنه يقرأ القرآن كما أنزل.

وقد ضمن الله تعالى لكتابه السلامة من التحريف، كما في قوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} وقوله تعالى: {وَوَكَّلْتُ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} وهذا يقتضي حفظ عينه وهيئته التي نزل عليها.. وللحفظ وجوه عدة ووسائل متنوعة:

ب - وجوه حفظ كلام الله تعالى

أولاً: حفظ القرآن في عهد النبوة:

وتم ذلك بوسائل متنوعة منها:

1- الطريقة التي كان ينزل بها الوحي:

وهي أن ينزل على هيئة تكون أدعى إلى حفظه وضبطه، فقد سُئل الرسول عن كيفية نزول الوحي إليه فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول».

٢- مدرسة الملك النبي القرآن:

وكان ذلك في رمضان من كل سنة، يأتيه جبريل في كل ليلة من ليالي رمضان يعرض على رسول الله ﷺ القرآن، وقد عرض عليه القرآن مرتين في العام الذي قبض فيه. كل هذا حرصاً على حفظه ومراعاة لصحة لفظه.

٣- كتابة الوحي ومقابله:

فقد اتخذ الرسول إلى جانب ذلك كُتَّاباً يكتبون له الوحي أولاً بأول، ويراجع ذلك هو بنفسه، حتى يطمئن إلى صحة ما كتب.

٤- قصر الكتابة على القرآن:

لم يكتب في زمن الرسول ﷺ إلا القرآن الكريم وتركت كتابة الحديث النبوي الشريف، حتى جاء عمر بن عبد العزيز وأمر بتدوين الحديث الشريف.

أ- الحفظ خاص بالقرآن. إن الله تعالى تولى حفظ كتابه القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}؛ لأنه الرسالة الخاتمة والشريعة الباقية فناسب أن يحفظ حتى قيام الساعة.

ب- الكتب السماوية السابقة: أما الكتب السابقة فهي شرائع موقوتة، وكل الله حفظها للناس فضيعوها بالتحريف والتبديل والكتمان، كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ}.

الباب الثالث

الفصل السادس

قراءة القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ بأفصح ما ترقى إليه العرب من دقة التعبير وجزالة الألفاظ وجمال الأسلوب وغازرة المعاني وبلوغ الأحكام أهدافها من خلال تألف صوتي منغم متناسب الوقع الصوتي على الأذن فهو ميسر القراءة والحفظ ألفاظه تنقاد لمعانيه. وأقام القراء على طرائقهم بالتلاوة وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية.

وتعددت وجوه القراءات واعتبروا القياس في القراءات عندهم موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه سواء أكان أفصح أم فصيحاً مجمعاً أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يغير مثله؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها بالإسناد لا برأي، ثم يشترط في القراءة أن توافق أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

وأما قراءة التلحين أو ما يسمى (بالغناء التقي) أو (الترعيد) أو (الترقيص) أو (التطريب) أو (التحزين) أو (الترديد) أو (التطنين) فإنها جاءت بعد المئة الثانية للهجرة. وهي قراءة منتقدة؛ لأن قراءة الرسول ﷺ والصحابة الكرام كانت (تحقيقاً): إعطاء كل حرف حقه. أو (حدرًا): سرعة أو (تدويراً): بينهما.

الباب الرابع

نشأة التفسير وتطوره

الباب الرابع

الفصل الأول

التفسير والتأويل

مقدمة:

لقد نزل القرآن بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الكلام، قال الله تعالى: (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)، وقال (بلسان عربي مبين) والآيات التي تتحدث عن "عربية" القرآن تؤكد أن هذا القرآن الكريم جاء عربياً وما يذكره بعض المفسرين من كون كلمات من مثل ("القسطاس" "سجّيل") وكلمات أخرى أنها رومية وحبشية وفارسية إنما هو من باب اقتراض اللغات بعضها من بعض من خلال التلاقح الحضاري، وقد يكون المراد أن لغة العرب وافقت فيها لغة الروم، أو أن العرب أخذت هذه الكلمات وهضمتها وأجرت عليها قوانينها، فكان الحديث إنما هو من "أصل" هذه الكلمات - على طريقة جميع اللغات في الأرض - لا عن أنها غير عربية، وأن القرآن فيه ما ليس بعربي والمعلوم أن النبي - ﷺ - كان يتلو عليهم هذه الآيات فلو كان فيه لغة غريبة لردوا عليه هذه اللغة. والذي يؤكد أن هذه الكلمات كانت العرب قد أخذتها في الجاهلية فعربتها أن أكثرها تصرفاً واشتقاقاً، على القانون العربي.

ونزل القرآن كذلك على أساليب العرب في كلامها، ففيه الحقيقة وفيه المجاز، وفيه الصريح والكناية، وفيه التشابه والمجمل... إلخ، على نمط العرب في حقيقتهم ومجازهم، وهذا طبيعي؛ لأنه أتى يدعو العرب أولاً إلى الإسلام (وأندر عشيرتك الأقربين) (لتنذر أم القرى ومن حولها) فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها، وهذه هي سنة الله في أنبيائه (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أما لماذا اختيرت هذه اللغة واختير العرب لحمل آخر الرسالات، فحديثه طويل متشعب، وله مجال آخر غير هذا المجال.

١- التفسير في اللغة:

الاستبانة والكشف وفسر الشيء يفسره وفسره: أبانه قال تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) أي بياناً، ولم ترد لفظة " تفسير " في القرآن في غير هذا الموضع.

ولم يختلف المفسرون في أن المراد من (تفسير القرآن) - على تعدد تعريفاتهم للتفسير اصطلاحاً بيان معانيه على أي وجه من وجوه البلوغ قال بعضهم: " والتفسير هو علم بمعاني القرآن " وناسخه ومنسوخه، مجملة ومبينه ومتشابه ومحكمه".

٢- والتأويل في اللغة:

مصدر أول يؤول تأويلاً، وهو من آل الشيء إلى كذا، أي رجع إليه، فالتأويل: التفسير والمرجع والمصير.

فالتأويل في اللغة يراد به كما يراد به المرجع والمصير لا أن أحدهما مغاير للآخر، وإن كان اشتقاق الكلمة يرّجح أن يراد من التفسير ما يحتاج منه إلى النظر والفكر ليصح معنى الرجوع، ولهذا ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم في مواطن دقيقة يحتاج فيها المعنى إلى مثل ذلك، كقوله تعالى في سورة يوسف على لسان الملاء (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) وكقوله حاكياً عن يوسف عليه السلام (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) وكقوله في سورة الكهف: (سأنبئك بتأويل ما لم تسطع عليه صبراً) ويعرف أكثرهم التفسير بأنه "علم يبحث فيه القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".

وقد جرى استعمال التأويل على أنه مرادف للتفسير؛ أما التأويل في الاصطلاح فهو "إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب من التجوز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسبب أو لاحقه أو مقاربه... وكأن الحاجة إلى التأويل تظهر بعد "تفسير" الألفاظ الواردة من النص لمعرفة ما يدل عليه ظاهره فيحمل دليلاً ما - عقلياً أو نقلياً أو عرفياً - على أن المراد بالكلام غير ظاهره، وأنه يجب حمله على المجاز فيؤول، أي فيحمل على المجاز دون الحقيقة.

وبذلك يكون التأويل خطوة تالية لخطوة التفسير، وقد جعل التفسير أهم من التأويل؛ لأن أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني.

٣- مصادر التفسير:

اللغة العربية طريق معرفة القرآن الكريم، قال تعالى: (حم، تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) فالعالم باللغة محجوج بالقرآن الكريم، ويدل قوله: (لقوم يعلمون) على أن التفسير لمن عرف اللغة جائز. وكان الصحابة - الذين عاصروا التنزيل وشاهدوه - أقدر الناس على فهم القرآن الكريم على الرغم من قلة ما روي عنهم في التفسير، والذي اختلفوا فيه اختلف تنوع لا اختلاف تضاد، كما ويعود السبب في هذا الاختلاف إلى تفاوت حظهم من المعرفة بالأدب الجاهلي وغريبه، وإلى تفاوتهم في ملازمة النبي ﷺ - والوقوف على أسباب نزول الآيات. بالإضافة إلى اختلافهم في معرفة عادات العرب في أفعالهم وأقوالهم، ونحو ذلك من الأسباب.

الباب الرابع

الفصل الثاني

أنواع التفسير

أ- مناهج التفسير القرآني:

١ - التفسير بالمأثور: هو ما جاء في القرآن والسنة وكلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه وتفسير القرآن بالقرآن فهو من أولى خطوات المنهج السليم في تفسير القرآن الكريم، والمرفوع إلى النبي (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) - فهو لب التفسير بالمأثور، أما المنقول عن الصحابة فهو تفسير " بالمأثور " إن كان فيما لا مجال فيه للرأي - كسبب النزول ونحوه - وإلا فهو داخل في حدود " الاجتهاد " في تفسير القرآن، بحسب المعرفة باللغة وبشروط التفسير الأخرى؛ لأن المصدر الثاني للتفسير عندهم بعد " المأثور ":

٢ - التفسير بالرأي والاجتهاد: وذلك بتفسير القرآن بما يعرفه من كلام العرب ومناحيهم في القول، وعلى المفسر أن يعرف مع ذلك الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد في مثله من الشعر الجاهلي ونحوه. ويقف على ما صح عنده من أسباب النزول. يقدم المفسر مستعيناً بهذه الأدوات ويفسر القرآن حسب ما أداه إليه اجتهاده والواقع أن كثيراً من الصحابة كان يفسر الآيات من القرآن بهذا الطريق.

٣ - التفسير الإشاري: وهو تفسير يعتمد على مواجيد الصوفية في ظلال النصوص القرآنية بإشارات بعيدة أو قريبة كتفسير (اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى) أن نعلي موسى هما (العقل) وهذا النوع مما يخرج النص عن معناه الحقيقي ولا يجبذه إلا أصحاب الشطحات والتوهام الخيالية البعيدة عن الصواب.

٤ - التفسير البياني الأدبي: وهو تفسير يعتمد على الإعجاز وكتب البلاغة، لإظهار مواطن الجمال والإعجاز في النص القرآني، مثل كتاب الكشاف الزمخشري. وسواء أصح ذلك أم لم يصح فهو تفسير يقترب من الدراسات الأدبية.

ب- والأصل في منهج التفسير الأدبي أو البياني؛

أن يقدم الدارس على دراسة النص القرآني وتحليله على نحو ما يفعل في سائر النصوص الأدبية العالمية من منظوم ومثثور، وإن كان لا سبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم في إعجازه البياني - وليس في هذا ما يخرجنا من نطاق " التفسير " إلى نطاق " الأدب " من كل وجه. لأن التحليل الأدبي للقرآن لا يستغني عن بعض قواعد التفسير الخاصة حتى لا يخطئ الدارس في فهم المعنى المراد ويضيع عليه، من ثم، فهم المفردات والتراكيب ونواحي البيان.. ويمكن إجمال هذه القواعد بالأمور التالية:

١ - الوقوف على سبب النزول؛ لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، فالدارس مطالب بأن يتهيأ أولاً لما يريد، ويعد لمقصده عدته: من فهم مفردات القرآن وأساليبه فهماً يقوم على الدرس الأدبي الدقيق المتذوق، المدرك لأقصى ما يستطيع من إيحاء التعبير.

٢ - الوقوف على " الصور " و" الأفكار الأساسية " للنص القرآني، وإعطاؤها قيمتها الحقيقية.

٣- معرفة أحوال الجاهلية؛ فقد روي عن عمر بن الخطاب في ذلك كله كلمة بعيدة الدلالة حين قال: (إن جهل الناس أحوال الجاهلية هو الذي يخشى أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة) لأن من جهل تلك الأحوال يجهل معاني القرآن ويجهل أثره.. ويجهل جديده الذي جعله الله مغيراً لأحوال الناس.

٤- معرفة رسالة القرآن الأساسية؛ إنه "كتاب هداية وتشريع" على ما احتوى عليه من حقائق كثيرة وإشارات متنوعة عن النفس والطبيعة والسنن الكونية والحضارة والتاريخ والاجتماع.

٥- تنزيله النص القرآني عن الفروض العلمية، والآراء النظرية؛ وأن نخرجه عن أن يصبح كتاباً في "تاريخ العلم" أو تاريخ الأحياء وقد برزت ألوان من التفسير الأدبي اختلفت في " أدوات " العرض، ووسائل البحث "التطبيقي" من خلال دراسة الموضوع الواحد، ومتابعة " اللفظة " الواحدة كيف دار استعمالها في القرآن الكريم، وكيف تم تركيبها في الجمل في مناسباتها الكثيرة، ويرى أن هذه الطريقة تمكن من معرفة الدلالة القرآنية لألفاظ

القرآن، إلى استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية والعناية بجانب المفردات اللغوية والتصوير الفني، والتنغيم التي تنبعث من داخل "النص" القرآني، سواء أكانت من "الألفاظ" أم من طريقة تأليفها في التراكيب والجمل (الفاصلة، النغم،... إلخ) إلى جانب العناية بمزايا الأداء القرآني بوجه عام، والحديث عن مشاهد القيامة في القرآن الكريم.

ج- خطوات التفسير الأدبي:

- ١ - أن يقدم المعنى الإجمالي للسورة القرآنية أو النص القرآني.
- ٢ - الحديث عن أقسامه أو مقاطعه الرئيسة.
- ٣ - الحديث عن الخصائص الفكرية كالوحدة الموضوعية مثلاً، واحتفال النص بمشاهد الطبيعة، أو قضايا التاريخ... إلخ.
- ٤ - الحديث عن فن العرض، أو الطريقة الأدبية (قسم، تشبيه، تصوير، تخيل).
- ٥ - الحديث عن صياغة الآيات والجمل الاسمية والفعلية، والأفعال المبنية للمعلوم أو للمجهول والأثر الأدبي لجميع ذلك.
- ٦ - الحديث عن "نغمة النص" المنبعثة من الألفاظ المختارة ومن الفاصلة القرآنية والدور الذي تؤديه في ذلك...

الباب الرابع

الفصل الثالث

كيف يتم تفسير القرآن الكريم؟

يتبع في تفسير النص القرآني المنهج التالي:

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن؛ إذ إن أحسن طريق لمعرفة مراد المتكلم: الاستدلال ببعض كلامه على بعض - حسب قواعد لغته التي يتكلم بها - وهذا يقتضي معرفة اللغة التي نزل بها القرآن، ومعرفة أساليبها، واستعمالاتها، فالقرآن الكريم عربي، والرسول محمد ﷺ الذي أنزل إليه عربي، والقوم الذين خاطبهم أول مرة عرب، فجرى الخطاب بالقرآن الكريم على معتادهم في لسانهم لفظاً ومعنى. وقد يحتاج المفسر أن يجمع الآيات في الموضوع الواحد، ثم ينظر فيها مجتمعة ليعرف ما قد يكون بينها من علاقات، من تخصيص عام، وتقييد مطلق، وتفصيل مجمل.

ثانياً: تفسير القرآن بكلام النبي ﷺ؛ إن لم يتيسر فهم النص القرآني من القرآن نفسه طلبه المفسر من سنة النبي ﷺ فإنها البيان للقرآن، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فالسنة تأتي مفسرة لبعض ما أجمل في القرآن، نحو أصول الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج، فبينت السنة أركان هذه العبادات وواجباتها ومستحباتها ومحظوراتها ومكروهاتها، وهيئاتها، وأوقاتها، ومقاديرها، وأنصبتها على نحو من التفصيل الذي لم يأت في القرآن الكريم. وكذلك تأتي السنة بالمخصص لعموم القرآن، والمقيد لمطلقه، والمبين لمشكله، ويستدل على ذلك بقوله ﷺ: «ألا إني قد أوتيت القرآن ومثله معه».

ثالثاً: تفسير القرآن بكلام الصحابة؛ فإن تعذر فهم النص القرآني من القرآن الكريم ومن السنة طلبه المفسر من أقوال أصحاب النبي ﷺ فإنهم أعلم بذلك، لما شاهدوه من القرائن

والأحوال، واختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا سيما علماءهم وكبرائهم.

رابعاً: تفسير القرآن بكلام التابعين: تفسير القرآن بكلام التابعين ومن بعدهم من أهل العلم مع إضافة ما يناسب ذلك في المعتمدين، فإن تعذر فهم النص القرآني من كلام الصحابة لجأ المفسر إلى كلام من بعدهم من التابعين، فهم أقرب عهداً بنزول القرآن، وأعرف من غيرهم بلغته وأساليبه، وأكثر حفظاً للسنن والآثار، وهم أيضاً من أهل القرون المفضلة المشهود لها بالخيرية.

الباب الرابع

الفصل الرابع

تفسير سور من القرآن الكريم

١ - سورة تبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ * وَأُمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ }.

روى البخاري ومسلم في «الصحیحین» من حدیث سعید بن جبیر، عن ابن عباس قال لما نزل {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم، أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو هب: تبا لك ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ} ومعنى تَبَّتْ: خسرت يدا أبي هب {وَتَبَّ} أي: وخسر هو، الأول: دعاء، والثاني: خبر «تبت يدا أبي هب وتب».

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ: لما دعا رسول الله ﷺ أقرابه إلى الله عز وجل. قال أبو هب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي بهالي، وولدي، فقال الله عز وجل: {مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} ما أغنى عنه ماله وكسبه أي: ولده. وكذلك قال المفسرون: المراد بكسبه هاهنا، ولده و«أغنى» بمعنى يغني {سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ} أي: تلتهب عليه من غير دخان {وَأُمْرَاتُهُ} أي: ستصلي امرأته، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان كذلك. إذ لو قالوا بألستهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلقاً في الرد على رسول الله ﷺ غير أن الله علم أنها لا يسلمان باطناً، ولا ظاهراً، فأخبره بذلك.

- {حَمَالَةَ الْحَطَبِ} أنها كانت تمشي، بالنميمة شبهوا النميمة بالخطب، والعداوة: والشحناء بالنار؛ لأنها يقعان بالنميمة، كما تلتهب النار بالخطب.

- أنها كانت تحتطب الشوك، فتلقيه في طريق رسول الله ﷺ ليلاً.

إن المراد بالخطب الخطايا.

- أنها كانت تُعَيِّرَ رسول الله ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فعَيَّرت بذلك، وليس بالقوي؛ لأن الله تعالى وصفه بالمال.

أما نصب «حمالة» فعلى الظم. والمعنى: أعني: حمالة الخطب. والجيد: العنق. والمسد: الحبل إذا كان من ليف.

٢ - تفسير سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

روى البخاري في أفراده من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن، وروى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: إنها تعدل ثلث القرآن.

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة، قاله أبي بن كعب.

والثاني: أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله ﷺ: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: إلى الله عز وجل. قال: صفه لي، أمن ذهب هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة قاله ابن عباس.

والثالث: أن الذين قالوا هذا، قوم من أحبار اليهود قالوا: من أي جنس هو، ومن ورث الدنيا، ولمن يورثها؟ فنزلت هذه السورة قاله قتادة، والضحاك، والمعنى: الذي سألتم تبيين نسبته هو الله و«أحد» مرفوع على معنى: هو أحد فالمعنى: هو الله، وهو أحد. وقال أبو سليمان الخطابي: الواحد هو المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد.

والأحد: هو المنفرد بالمعنى، فلا يشاركه فيه أحد.

وفي «الصمد» أقوال.

الأول:

- أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج.

- السيد الذي قد كمل في سؤده.

- السيد الذي ليس فوقه أحد.

- هو الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء قصد قصده.

وتأويل صمود كل شيء له أن في كل شيء أثر صنعه.

الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم.

والثاني:

- أنه لا جوف له: فكأن الدال من هذا التفسير مبدلة من تاء، والمصمت من هذا.

والثالث:

- أنه الدائم.

والرابع:

- الباقي بعد فناء الخلق.

قوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ} لم يلد فيورث {وَلَمْ يُولَدْ} فيشارك.

وذلك أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الرحمن. وقالت اليهود: عزيز ابن الله.

وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فبرأ نفسه من ذلك.

قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}. والكفاء: المثل المكافى. وفيه تقديم وتأخير، تقديره:

ولم يكن له أحد كفواً، فقدم وأخر لتتفق رؤوس الآيات.

٣ - سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}

قيل: إن رسول الله ﷺ سُحِرَ وهو مع عائشة، فنزلت عليه المعوذتان.

فذكر أهل التفسير في نزولهما. أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ فلم يزل به اليهود حتى أخذ مشاطة رأس رسول الله ﷺ، وعدة أسنان من مشطه، فأعطاهم اليهود فسحروه فيها. وكان الذي تولى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي. ثم دسها في بئر لبني زريق يقال لها: بئر ذروان. ويقال: ذي أروان.

فمرض رسول الله ﷺ وانتشر شعر رأسه، وكان يرى أنه يأتي النساء وما يأتينهن، ويخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله، فبينما هو ذات يوم نائم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجله، فقال أحدهما للآخر: ما بال الرجل؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبُّ؟ قال: سُحِر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان، والجف قشر الطلع والراعوفة صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت. فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها، فانتبه رسول الله ﷺ فقال: يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي، ثم بعث علياً، والزبير، وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف، وإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان مشطه وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله تعالى المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة. ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن حاسد وعين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله أفلا نأخذ الخبيث فنقتله فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً. وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث عائشة حديث سحر رسول الله ﷺ.

وقد بينا معنى أعوذ ألتجىء وأعتصم بالله تعالى.

وفي الفلق ستة أقوال:

أحدها: أنه الصبح.

والثاني: أنه الخلق، رواه الوالبي عن ابن عباس وكذلك قال الضحاك: الفلق الخلق كله.

والثالث: سجن في جهنم، جب في جهنم، واد في جهنم.

والرابع: شجرة في النار.

والخامس: أنه كل من انفلق عن شيء، كالصبح، والحب، والنوى، وغير ذلك.. وإذا

تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات، والسحاب، بالمطر.

والسادس: أنه اسم من أسماء جهنم.

قوله تعالى: {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عام، وهو الأظهر.

والثاني: أن شر ما خلق: إبليس وذريته.

والثالث: جهنم.

وفي «الغاسق» أربعة أقوال:

أحدها: أنه القمر روت عائشة قالت: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر فقال: استعيذي بالله

من شره فإنه الغاسق إذا وقب. رواه الترمذي، والنسائي، في كتابهما. قال ابن قتيبة: ويقال

الغاسق القمر إذا كسف فاسودّ. ومعنى «وقب» دخل في الكسوف.

والثاني: أنه النجم رواه أبو هريرة. عن رسول الله ﷺ.

والثالث: أنه الليل، قال اللغويون: ومعنى «وقب» دخل في كل شيء فأظلم و«الغسق»

الظلمة. والغاسق: البارد، فقيل لليل: غاسق؛ لأنه أبرد من النهار.

والرابع: أنه الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام، والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند

طلوعها.

فأما {النَّفَّاثَاتِ}: هن السواحر ينفثن. أي: يتفلن إذا سحرن، ورقين: يتفلن بلا ريق كأنه

نفخ و نفث: نفخ نفخاً ليس معه ريق، ومعنى تفل نفخ نفخاً معه ريق.

وقال بعض المفسرين: المراد بالنفثات ها هنا بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن رسول

الله ﷺ.

{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ} يعني اليهود حسدوا رسول الله ﷺ. والحسد: أخس الطباع، وأول معصية عصي الله بها في السماء حسد إبليس لآدم، وفي الأرض حسد قابيل هابيل.

٤ - سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}

خصص الله تعالى الناس هاهنا بأنه ربهم، وهو رب كل شيء؟ لأنهم معظمون متميزون على غيرهم. ولأنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم أعلم أنه ربهم، ليعلم أنه هو الذي يعيد من شرهم. ولما كان في الناس ملوك قال تعالى: {مَلِكِ النَّاسِ} ولما كان فيهم من يعبد غيره قال تعالى: {إِلَهِ النَّاسِ}.

و{الْوَسْوَاسِ} الشيطان وهو {الْخَنَّاسِ} يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله، خنس، أي: كف، وأقصر. الوسواس هنا ذو الوسواس. الصدور هاهنا القلوب.

الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها، وغفل، وسوس، فإذا ذكر الله، خنس. قوله تعالى: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} الجنّة: الجن. ومن معنى الآية قولان.

أحدهما: يوسوس في صدور الناس جنتهم وناسهم، فسمى الجن هاهنا ناساً كما ساهم رجالاً في قوله تعالى {يُعْوِذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ} [الجن: ٦] وساهم نفرأ بقوله تعالى: {أَسْتَمَعِ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} [الجن: ١] هذا قول الفراء، وعلى هذا القول يكون الوسواس: موسوساً للجن، كما يوسوس للإنس.

والثاني: أن الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس، هو من الجنّة، وهم من الجن. والمعنى: من شر الوسواس الذي هو من الجن. ثم عطف قوله تعالى: «والناس» على «الوسواس» والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس هذا قول الزجاج.

الباب الخامس

تقنيات النص القرآني

الباب الخامس

الفصل الأول

المفردة القرآنية

١- أبعاد المفردة القرآنية:

تعد المفردة القرآنية الوحدة الأولى التي بُنيت منها الجملة القرآنية، والتي تألف منها التركيب القرآني، ثم الأسلوب القرآني والمفردة (الكلمة) القرآنية ذات أبعاد عدة متعددة بعد صوتي تنغمي، وبعد هيئة وصيغة. وبعد أصل لغوي تكونت منه، وبعد موقع وقعت فيه بدوائره المتعددة: دائرة الموقع في الجملة، ودائرة الموقع في الآية، ودائرة الموقع في السورة، ودائرة الموقع في القرآن كله، كل دائرة في داخل التي من بعدها وأعمها دائرة السياق الكلي للقرآن الكريم، وهذه الأبعاد كلها ينحدر منها العطاء الدلالي للكلمة القرآنية.

فالنظر في الكلمة القرآنية نظر في كلمة ربانية قامت في بناء جملة قامت في بناء آية قامت في بناء معقد قامت في بناء سورة قامت في بناء القرآن الكريم كله، وكلُّ بناءٍ من هذه الأبنية المتصاعدة يأخذ من سابقه ويعود عليه بفيض من عطائه، وهذا يجعل الناظر في المفردة القرآنية حالاً مرتحلاً، لا يحلّ في دائرة من دوائر السياق إلا ليرتحل منها إلى أخرى يجمع منها فيضاً من العطاء.

يستعمل القرآن الكريم بُنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال، فمن ذلك استعمال الفعل والاسم. فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت، ومن هذا الضرب قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]. فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت.

٢- جمالية المفردة القرآنية:

المفردة القرآنية ذات جمال صوتي أخذ يتجلى في:

أ - نظام القرآن الصوتي؛ المتمثل باتساق القرآن، وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته ونغماته، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجبياً، وائتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوِي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنتثور.

ب - جمال القرآن اللغوي؛ المتمثل بوصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيبٍ ونظامٍ تعاطاه الناس في كلامهم وعرفوا جماليته وذلك من خلال علمنا أن حروف الهجاء في لغة العرب موزعة بين حروف الإخفاء وحروف الإظهار والحروف المهموسة والحروف الجهرية، وحروف المد وحروف الاستعلاء وحروف القلقله وحروف التفخيم والترقيق إلى آخر هذه التقسيمات المعروفة في فقه اللغة وفي علم التجويد.... وأن اجتماع الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات يعطي هذه الجمالية الساحرة الآخذة بالألباب.

الباب الخامس

الفصل الثاني

الأساليب القرآنية

لا يشك أحد من أصحاب الحصافة والعقل ممن عرف أسرار الكلام العربي أن للقرآن الكريم أسلوباً خاصاً به يتميز عن أساليب بلغاء العرب السابقين واللاحقين وإن جاء على أساليب العرب، ومن أهم أساليبه:

١ - أسلوب النداء:

وهو أسلوب يقصد به التنبيه إلى فعل خيري أو تجنب فعل شري قال ابن مسعود: إذا ما سمعت الله عز وجل يقول: "يا أيها الذين آمنوا" فأرعه سمعك فإن من بعده خيراً يأمر به أو شراً ينهى عنه. وإن فقه النداء في القرآن الكريم يُعنى بتبصُّر ما يعبر به عن المنادى في سياقه والقصد المنصوب له الكلام، هذا تراه ظاهر التصريف البليغ المعجز في نداء سيدنا محمد صلى الله عليه وصحبه وسلم حيناً يناديه: يا أيها النبي، وحيناً يناديه: يا أيها الرسول، ولكل سياقه ومقامه ومقتضاه، ولم يأت البتة: يا محمد، كما جاء في نداء سائر الأنبياء على الرغم أن في اسمه: "محمد" من الثناء ما فيه، فهو دالٌّ على ذاته ونعته: أي المبالغ في حمده لعظيم خلقه ومنزلته عند ربه عز وجل وهذا من عظيم إجلال الله عز وجل، عبده ونبيه ورسوله محمداً ﷺ. وكذلك الأمر في نداء المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).

٢ - أسلوب الاستفهام:

تعدد غايات الاستفهام في القرآن الكريم بحسب سياق الآيات القرآنية بين إنكار أو توبيخ أو تقرير أو غير ذلك.

ومن روائع الاستفهام القرآني قوله تعالى: (ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) ففي قوله (مالكم) استفهام توبيخي يوبِّخ كل مثاقل عن الجهاد وقد هُمِّي له

فكيف بمن دُعي إليه وحثَّ وأُغريَ به، ولم يُجرم منه من يفعل، فقد باء بغضب الله تعالى. ومعنى الاستفهام: "أي شيء لكم في التناقل عن الجهاد وقت أن يقال لكم انفروا في سبيل الله تعالى؟

وهذا مسلك من مسالك النفي المؤكد الذي لا قبَلَ للمعانَد إلى نقضه، وقد هدى النبي ﷺ إلى أنه قد جعلت الجنة تحت ظلَّ السيف. روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: "اعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف" (الرواية لمسلم) فمن مال إلى ظلِّ شجرة وأعرض عن ظل السيف فقد غبن نفسه.

ومن ثمَّ جاء الاستفهام الإنكاري التوبيخي التسفيهي الدال على ضلال الاختيار في الجملة التي من بعدها: (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) الاستفهام في "أرضيتم" إنكاري توبيخي تسفيهي، بمعنى ما كان ينبغي لكم أن يكون منكم ذلك.

٣ - أسلوب القصر:

القصر أسلوب قرآني غايته التخصيص

قال تعالى: (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)

في عطف هذه الجملة بـ "الفاء" إشارة إلى تفرعها عمَّا قبلها، وفيها معنى التسبيب، فكأنَّ هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي منسول منه هذه الحقيقة المقررة المؤكدة قلة متاع الحياة الدنيا نظراً إلى متاع الآخرة. وفي هذا التخصيص إبلاغ في توسيع شقة المقايسة بين أمرين هما في الحقيقة ليسا بمنزلة ما تقام بينهما مقايسة، فإنَّ العاقل لا يقايس متاع دنيا بنعيم آخرة.

وكأنَّ البيان القرآني الكريم يتنزل هنا على ما هو قائم في نفوس أولئك، مجارة لهم وتأليفاً لقلوبهم.

٤ - أسلوب الشرط:

الشرط في العربية جملتان بُنيت الثانية على الأولى لتحقيق غرض بلاغي، ففي قوله تعالى: (إلا تنصروه فقد نصره الله....) جملة شرط بُنيت على (إن) التي هي أم أدوات الشرط، وإذا ما كان علماء البيان يقولون: إنَّ "إنَّ" الأصل فيها أن تكون فيما لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه

من فعل الشرط، وذلك في لسان العربية، فإنك إذا ما جئت للنظر في موقعها في بيان الله تعالى جده، فما يكون لك أن تقول: إن الله تعالى جده لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه كما تقول في بيان الناس، ولكننا نقول: إن الله تعالى جده إذ يأتي في بيانه هو غير محكي عن أحد من خلقه، وهذا إعلام من الله تعالى أصحاب رسوله ﷺ أنه المتوكل بنصر رسوله ﷺ على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه.

٥ - أسلوب التوكيد :

أسلوب يتخذ لتقوية الكلام حينما يكون السامع متردداً في قبول ما يُلقى إليه من أخبار، والقرآن الكريم قد يؤكد بـ (إنّ) وحدها مثلاً، أو قد يؤكد باللام أو يجمع بينهما وبمؤكدات أخرى، ولو أطلقت النظر لوجدت أن كل موضع يقتضي التعبير الذي عبر به فلا يصح أن تزداد اللام في الموضع المنزوع منه، ولا تحذف في موطن الدّكرِ أينما وردت في القرآن الكريم وكذلك (إنّ) ونحوها. فهو يقول مثلاً: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بيان وحدها في موطن عديدة من القرآن، يقول: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦] مؤكداً بيان واللام.

ويقول: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣] مؤكداً بيان، ويؤكد بيان واللام في مواضع أخرى متعددة. ويحذف ويؤكد في تعبيرات أخرى تبلغ المئات، وهو يراعي في كل ذلك الدقة في التعبير ووضع كل لفظ في مكانه حسبما يقتضيه السياق بحيث لا يصح وضع تعبير مُؤكّد في مكان غير مؤكّد، ولا ما أُكّد بأكثر من مؤكّد في موطن أُكّد بمؤكّد واحد.

وكذا الأمر في غير (إنّ): {وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣] بتوكيد الجواب. ويقول: {لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ١٤٩] بتوكيد الجواب وبذكر اللام الموطئة قبل الشرط، كل ذلك حسبما يقتضيه الموطن والسياق.

٦ - أسلوب القسم

أ - القسم :

هو الحلف واليمين بالله تعالى أو بأحد صفاته وإن كان الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته، والصيغة الأصلية للقسم أنه يؤتى بالفعل "أقسم" أو "أحلف" متعدياً بالباء إلى المقسم به،

ثم يأتي المقسم به - وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) فأجزاء صيغة القسم الثلاثة: الفعل الذي يتعدى بالباء، والمقسم به، والمقسم عليه. ثم اختصر، نظراً لكثرة القسم في الكلام، فصار يحذف فعل القسم، ويكتفي بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: (والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى) وبالتالي في لفظ الجلالة كقوله تعالى: (وتالله لأكيدن أوصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) واستعمال الواو أكثر. وأكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفعل لا تكون إلا بالواو، فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل، كقوله (وأقسموا بالله) ولا تجد الباء مع حذف الفعل.. والمقسم به في القرآن الكريم نفس الله تعالى الموصوفة، وصفاته، أو آياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في ثمانية مواضع، وسائر القسم بمخلوقاته سبحانه، كقوله: (والفجر وليال عشر والشفع والوتر) (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى، وما خلق الذكر والأنثى) وقوله: (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس)، (والتين والزيتون وطور سين...).

ب- أقسام القرآن:

الأول: إن الله تعالى إنما أقسم بنفسه وآياته، وأن القسم بالمخلوقات هو أيضاً من باب القسم بذاته؛ لأنها من آياته. وذلك لإزالة شبهة تعظيم المخلوق فوق مكانته، بناء على أن القسم يتضمن تعظيم المقسم به.

والثاني: هو أن الأقسام كلها دلالات على المقسم عليه (ولهذا جاء القسم في القرآن على أمور مهمة) (كالمعاد والتوحيد والرسالة تأكيداً للمنكرين) والقسم في الأصل أسلوب من أساليب التأكيد عند الأمم، وربما عبروا عنه بأخذ اليمين، كما كانت عليه عند العرب والروم والعبرانيين، فإذا أخذ بعضهم يمين بعض عند معاهدة أو أمر عظيم كان ذلك عنواناً على العزم والتأكيد، وكأنهم بذلك يقولون: (قد رهنا بهذا الأمر أياننا)، ولذلك سموا القسم يميناً. ومن هنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمانة، أو معنى التأكيد المطلق الذي لا يحتاج معه إلى وجود المقسم به، وإلى تقديره في كل موضع.

وإذا راجعنا سائر الكلمات التي كثر استعمالها للقسم يتبين لنا أن القسم لا يلزمه المقسم به، فضلاً عن تعظيمه؛ أما حين يتضمن القسم مقسماً به، فإن هذا المقسم به كان يرد في الأصل لمعنى الاستشهاد به، وإنما كان تعظيمه عارضاً من عوارض القيم حين يكون بالله وبشعائره، وهذا النوع كثير في كلام العرب، فقد يشهدون بأشياء لم يعبدوها ولا عظموها، وإنما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهداً على أقوالهم، وقد صرح القرآن بكون هذه الأمور المقسم بها من السماء والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والسحاب... وغيرها مسخرة مذللة طائعة، فتعظيمها غير مراد، ولكن المراد من القسم بها محض الإشهاد بها. ولذلك ترى بأن الأقسام التي جاءت في أوائل بعض السور جاءت للتعظيم كسورة الذاريات كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان، قال تعالى في سورة الواقعة: (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)، وفي هذا دلالة عظيمة وشهادة كبيرة، على عظمة القسم لا بعظمة المقسم به.

وقريب منه قوله تعالى: (والنجم إذا هوى) وقوله: (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وقوله: (والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً) وقوله: (والذاريات ذرواً فالحاملات وقرأ فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً) وقوله: (ولا أقسم بالنفس اللوامة).

لقد أقسم الله تعالى بالماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، وأقسم بالفجر، والضحى، والريح، والسحاب، والجبال والبحر، والبلد، والإنسان والوالد والولد، والذكر والأنثى.. قال تعالى: (إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون).

وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في ثمانية مواضع، استعملت فيها جميعاً لفظة "الرب" في ثلاث منها أمر من الله لنبيه أن يقسم به (قل: بلى وربى) في موضعين (قل أي وربى) في موضع واحد، والقسم هنا للتأكيد والتعظيم؛ لأنه جار على لسان النبي ﷺ. ولكن لفظ "الرب" في المواضع الأخرى ورد مضافاً إضافات تدعو إلى التأمل، وتذكر في الوقت نفسه بما

أشرنا إليه من معنى الاستدلال في القسم، حتى يكون القسم بالله تعالى، قال تعالى (فورب السماء والأرض إنه لحق) أضاف لفظ الرب إلى السماء والأرض لما في هذه الإضافة من الإشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره، وفي ذلك تنبيه إلى ضرورة الاستدلال بهما، فوق ما فيه من تعظيم لشأنه، وإيجاء بأن من كان هذا أمره لا يزوج باسمه إلا فيما هو حق لا مرية فيه. وفي آية أخرى أضيف لفظ الرب إلى المشارق والمغرب، فقال: (فلا أقسم برب المشارق والمغرب) لما توحى به هذه الإضافة من القدرة البالغة التي تسخر هذا الجرم الهائل، وهو الشمس، فيشرق ويغرب في دقة وأحكام.

أما الأقسام الكثيرة بمخلوقات الله فتأمل منها جمال القسم في قوله تعالى: (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاه، وقد خاب من دساها"). أو لا ترى هذا القسم مثيراً في النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون، أليس في ذلك كله ما يبعث النفس إلى التفكير العميق والاستدلال بها على الخالق لها المصرف لشؤونها، وأن هذا الخالق لا يذكر هو وما خلق محاطاً بهذا الإجلال إلا في مقام الحق والصدق.

وتأمل جلال القسم في قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وقوله سبحانه: (والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى) وانظر كيف وجه النظر إلى ما حفظ النجوم في مواقعها فلا تسقط ولا تضطرب، من قدرة قديرة على هذه الصيانة والضبط، وما يبعثه هويُّ النجوم من رهبة في النفس وكلا الأمرين دلالة على الخالق، ومثار إعجاب به. أما المقسم عليه فالغالب أن يكون جملة خبرية كقوله تعالى: (فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون) وقد يكون جملة طلبية كقوله: (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر. والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية ونحو ذلك، أو يأتي القسم على التوحيد أو القرآن الكريم أو على شيء من أصول الإيمان.

فمثال القسم على التوحيد قوله تعالى: (والصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً، إن إلهكم لواحد) ومثال القسم على القرآن وأنه حق قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم) وقوله تعالى: (حم، والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)(حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة) والقسم على الرسول كقوله: (يس، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم).

هذا وقد أقسم الله تعالى على الجزاء والوعد والوعيد، وعلى أحوال الإنسان وعلى صفاته.... وأما حذف جواب القسم، فإنه أكثر ما يرد إذا كان في المقسم به نفسه دلالة على المقسم عليه فإن المقصود يحصل بذكره فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، وكقوله: (ص، والقرآن ذي الذكر) فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون إليه.

وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، المقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه قوله تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام: (والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى) لترى روعة القسم.

ومثله قوله: (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى) اختار القسم بالنجم إذا هوى وخرج عن مداره على أن النبي لم يضل ولم يخرج عن حدود الرسالة التي أرسل بها، والتي أمر بإبلاغها إلى الناس، ولهذا قال: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) فليس الأمر أمره، ولا القرآن كلامه (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين). وفي سورة العاديات يقسم الله تعالى بصورة من صور الغزو (والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحاً، فالمغيرات صبحاً، فأثرن به نقعاً، فوسطن به جمعاً) صورة الخيل التي تضج بأنفاسها، وتوري النار بوقع حوافرها، تغير في وقت الأمن والنوم على قبيلة أخرى أو ناس آخرين، هذه الصورة من حياة الإنسان يقسم بها الله تعالى على أن الإنسان منكر للنعمة كنود جحود (إن الإنسان لربه لكنود) والمناسبة بين الأمرين واضحة....

ج- الدور البلاغي الذي تؤديه أقسام القرآن:

يتمثل في:

١- أن أسلوب القسم في القرآن على إظهار التأكيد والجد في القول، كما ترى في قوله تعالى: (والسواء ذات الرجوع، والأرض ذات الصدع: إنه لقول فصل وما هو بالهزل).

٢- القسم يبههم على الخصم طريق الإنكار؛ لأن القسم إنشاء ولي بخبر، فإن شاء الخصم أنكر جواب القسم حين يكون خبراً، ولكن لا تسنح له فرصة إنكار القسم نفسه كما أنه لا يتوجه إلى إنكار الصفة مع أنهما في الحقيقة من الأخبار. وربما جمعت بعض أقسام القرآن بين هذين الخبرين، كالقسم (بالقرآن المجيد) أو (باليوم الموعود أو (بالصفات صفياً) فإنك لو حللت هذه الأقسام لرأيت فيها جملتين خيريتين: أن هذا القرآن مجيد، أن لهم يوماً موعوداً وأن الملائكة صافون كالعبيد فإن كان ذلك مما ينتبه الخصم لإنكاره فتارة يصرف الخطاب إلى النبي كقوله تعالى: (يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين) وتارة يحذف جواب القسم الذي يكون جملة خبرية، ويكتفي بالمقسم به، ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف.. ليكلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فينازع فيه، وكأن القسم بهذا يهيئ فرصة للسمع وانتظار الجواب فيهجم عليه ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكلام السابق كقوله تعالى: (ص والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عزة وشقاق) فاكتفى بالجملة الإنشائية واجتنب الخبرية، واستغنى عنها بما ذكر وفي القسم من صفة القرآن، وكأنه قيل: قد شهد القرآن أنه ذكر لهم وناصح.

٣- إيجاز هذا الأسلوب للاستدلال على أنه يمكنك أن تجمع دلائل عديدة في قرب بعضها من بعض، فإذا وجدت في القرآن أنها دلت على أمر واحد من جهات مختلفة، كانت أشد أثراً وأحكم أمراً، كما ترى في أقسام سور (الطور، والبلد، والتين). قال تعالى في سورة الطور: (والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع.).

٤- هذه الأقسام أسهمت في التصوير وتوشية مطالع السورة بألوان كثيرة، ولعل القسم من أصح أساليب الكلام للتصوير، فإن الذي أقسمت به كأنك دعوته كالشاهد

فأوقفته بين يدي المخاطب، فلما أراد الله تعالى أن يوشي عنوان السورة بألوان الصور بدأها بأقسام خاصة. فترى أحياناً صورة أمر واحد " كالقلم الكاتب " و" النجم " الثاقب والخيل العاديات، والرياح الذاريات وتنظر أخرى إلى صور عديدة يضعها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين، أو كالطور والكتاب والمسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور. أو كالشمس والقمر والليل والنهار... إلخ وأهمية التصوير في عرض الفكرة وتجليتها وحمل المخاطب على فهمها والإحاطة بجوانبها والتأثر بها.

٧ - أسلوب الحذف

هو أسلوب يعتمد على ذكر جزء من الكلام وحذف جزء منه، ويستدل على المحذوف المذكور من الكلام وهذا الأسلوب أكثر أساليب العرب استخداماً وهو يدل على بلاغة العرب المتميزة.

نحو قوله تعالى: (قالوا سلاماً) أي: سلمنا سلاماً، ونحو (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) أي: أنزل الله خيراً، ونحو (قال سلام قوم منكرون) أي سلام عليكم أنتم قوم منكرون، ولذلك تستحيل صحة الكلام عقلاً إلا بتقدير محذوف ونحو (وجاء ربك) أي جاء أمره بمعنى عذابه؛ لأن الحق دل على استحالة مجيء الباري؛ لأنه من سمات الحادث وعلى أن الجائي أمره ونحو: (أوفوا بالعقود) و(أوفوا بعهد الله) أي بمقتضى العقود وبمقتضى عهد الله؛ لأن العقد والعهد قولان قد دخلا في الوجود وانقضيا فلا يتصور فيهما وفاء ولا نقض وإنما الوفاء والنقض بمقتضاهما وما ترتب عليهما من أحكامهما، ونحو (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أي أمره بدليل أو يأتي أمر ربك، ونحو (وجنة عرضها السموات) أي كعرض بدليل التصريح به في آية الحديد الآية - ٢٢ - وكذلك رسول من الله أي من عند الله، ونحو (وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها) وفي حديث (باسمك ربي وضعت جنبي) وفي (تالله تفتأ تذكر يوسف) التقدير لا تفتأ.

الباب الخامس

الفصل الثالث

فهم المعنى القرآني

لا يمكن للمرء أن يستوعب المعنى القرآني على حقيقته دون أن يكون مضطرباً بكثير من العلوم، صحيح أن أسلوب القرآن الكريم من السهل الممتنع الذي يفهم مقاصده العالم والأمي، إلا أن فقه المعنى القرآني يحتاج إلى قدرة مميزة، وهذا لا يتأتى إلا لمن يتابع قراءة سور القرآن الكريم وآياته قراءة ما بين السطور.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الزخرف: ١ - ٤)

فالتحليل البياني لهذه لسورة القرآنية هو القادر على إضاءة السورة داخلياً حيث تشرق مضامين الهدى منها في نفوسنا على نحو يحقق المضمون التشريعي ببعديه: العقدي والسلوكي، والمضمون التثقيفي كمضمونين متوازيين أو متمازجين.

من خلال القناعة والرضا القلبيّ المثمر زهداً في كلّ ما يشغل عن التلذذ بالعبودية لرب العالمين، فإنّ للمعاني القرآنية لذة تستوعب من الفهم الحقيقي هذه المعاني وهي الثواب الحقيقيّ للإخلاص في كلّ طاعة مما يجعل ذائقها في الفردوس على الرغم من أنّه قد يكون حينئذٍ أشعث أغبر ذا طمرين مدفوعاً بالأبواب لا يؤبه له.

وقد فهم أبو بكر رضي الله عنه المعنى الحقيقي لسبب نزول قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح.....) أن أجل رسول الله ﷺ قد دنا، وهذا هو الفهم الحقيقي مع أنه لم يذكر في الكلام.

الباب الخامس

الفصل الرابع

معرفة نظم القرآن الكريم

إذا كان الكلام يتألف من حروف وكلمات وجمل فإن سر إعجاز القرآن يأتي من توافق هذه الحروف وتلك الكلمات والجمل بشكل يرضي الروح والعقل والنفس، بل يسلبها إلى شفافيته ومن هنا يأتي سر إعجاز القرآن فكم من الكلمات تأسر عقلك أو تسبح بروحك في الفضاء أو ترضي نفسك وتبلغ بها مبلغ الرضا والقبول فإذا قرأت قوله تعالى في سورة الأنبياء - الآية - (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهدت أنفسهم خالدون) وتمعت في كلمة (حسيسها) وعرفت ما معنى الحسيس في النار من سماع صوت النار نفسها أدركت مدى قدرة التعبير القرآني على توصيل المعاني إلى أعماق النفس الإنسانية.

وإذا أنت قرأت قوله تعالى: (تلك إذن هي قسمة ضيزى) وعرفت أن معنى (ضيزى) هو جائزة عرفت أن أصوات الحروف في هذه الكلمة تعبر عن معاني الجور التي تأنف منها الفطرة البشرية السليمة فتتابع الأصوات بطريقة معينة على نسب معينة بين مخارج الحروف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان كذلك الفواصل القرآنية التي تنتهي بها آيات القرآن ما هي إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل التناغم التي تطرب لها النفس الإنسانية، وهذا يعني أن الله تعالى أوجد في عمق الإنسان استجابة للكلام الجميل، وهو ما نسميه مقاييس الجمال التي أودعها الله تعالى في العقل البشري والتي تستجيب بسرعة لجمالية الكلمة وتعبيرها عن المعنى المراد.

إن استجابات الفطرة البشرية لانعكاسات الكلمات إنما يتأتى من (صوت النفس وصوت العقل وصوت الحس) الذي يتناغم مع ما أودعه الله تعالى من مقاييس الجمال.

فالقرآن الكريم ذو قدرة على التأثير في الحس النفسي ولو تدبرت ألفاظ القرآن الكريم في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري مجرى الحروف نفسها فيما هي له من أمر الفصاحة بحيث لا تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم التناغمي، وإننا لنحار إذا ما تأملنا تركيب القرآن الكريم ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وما يمكن لنا أن نقول في كلام ترى لكل لفظ معنى، ثم يكون لهذا المعنى في التركيب معنى آخر يضيف إلى النفس روحاً جديدة تحمل وجوه التنفس في تلوين المعاني كأنها ركب هذا الكلام على مقادير العقول والقوى البشرية وأحوال العصور المغيبة وعبرة قرآنية مثل (ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب) تحمل من الاقتصاد في اللفظ والاتساع في المعاني ما يسحر العقول والألباب ويأخذ بالنفوس والأرواح.

الباب الخامس

الفصل الخامس

إعجاز القرآن الكريم

أ - تعريف الإعجاز:

ضعف في القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة واستمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه.

ب - مصدر الإعجاز:

وقد جاء إعجاز القرآن من أنه في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، وما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، ومن سلامة ألفاظه من التعقيد والاستكراه، ومن (نظم القرآن) ومن فصاحة ألفاظه والبلاغة في معانيه وصورة نظمه والإعجاز باق إلى يوم القيامة، وهذا الإعجاز يتأتى من عدة جوانب عرفنا بعضها، وستتعرف الأجيال على الباقي في كل العصور، وكان الله تعالى أراد أن يكون لكل عصر نصيبه من معجزات قرآنه، فإذا فتشنا فيما مضى من الدهور وجدنا أن العلماء كشفوا عن وجوه إعجاز في النظم والتركيب والأسلوب والتنظير والمقابلة واكتناه الروح التاريخية وفي وجوه البلاغة وأسرار الوضع اللغوي التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ.

فالقرآن الكريم معجز في تاريخه وأثره الإنساني، وفي حقائقه وأحكامه وشرائعه وموافقة من الطبيعة الإنسانية والفطرة البشرية والكونية والعلمية وعجائب آيات الله الكونية والوجه البياني لهذا الإعجاز والتصوير الفني القرآني لكثير من القضايا والمشاهد الماضية والحاضرة والمستقبلية إضافة إلى مشاهد تغيرات الكون وقيام الساعة، وكيف عبرت كلمات القرآن الكريم عن ذلك في إعجاز القرآن والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية ومعجزة هذه الأمة عقلية؛ لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت

بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر كما قال ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً) أخرجه البخاري.

فمعجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخارقة للعادة والقرآن الكريم معجز في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون... يدل على صحة دعواه والمعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار (كناقة صالح وعصا موسى) و(معجزة القرآن) تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً.

ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر واحد على معارضته بعد تحديهم بذلك قال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجزة، وقال تعالى: (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فأخبر أن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات من سواه من الأنبياء، ولما جاء به النبي إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصارع الخطباء وتحداهم على أن يأتوا بمثله وأمهلهم طول السنين فلم يقدرُوا كما قال تعالى (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنها أنزل بعلم الله) ثم تحداهم بسورة في قوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله..) الآية، ثم كرر في قوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله..) الآية.

فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشببه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا

بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) هذا وهم الفصحاء، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعاً للحجة.

ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامة، بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى فتارة قالوا سحر وتارة قالوا شعر وتارة قالوا أساطير الأولين، وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: (جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي فقرأ عليه القرآن فكأنه رَقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك كاره له قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال: دعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره) وقد بعث الله محمداً أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له.

لما ثبت كون القرآن معجزة نبينا وجب الاهتمام بمعرفة:

ج. وجه الإعجاز:

- ١ - زعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات.
- ٢ - أنه وقع بالدال على القديم وهو الألفاظ.
- ٣ - زعم النظام أن إعجازه بالصفة أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدوراً لهم لكن عاقبهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات، وهذا قول فاسد بدليل قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن.. الآية)، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز

الموتى مما يحتفل بذكره هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله وأيضاً فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول العظمى باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن.

٤ - قال قوم وجه إعجازه ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلية.

٥ - قال آخرون ما تضمنه من الإخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها.

٦ - وقال آخرون ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله: (إذ هم طائفتان منكم أن تفشلا) (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله).

٧- وجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم.

٨ - أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعضه أدق وأغمض.

٩- وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب.

١٠- وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة وعلت مركباته معنى بأن يوضع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى.

١١- وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره وكتاب الله تعالى لو نزعته منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ونحن نتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحرة وفي معجزة عيسى بالأطباء، فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره فكان السحر قد انتهى في مدة موسى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في زمن محمد.

١٢- وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاءها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام.

١٣- وجه المعجزة في القرآن تعرف بالتفكر في علم البيان.

١٤- أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه والثاني بصرف الناس عن معارضته، فالأول إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى فإن ألفاظه ألفاظهم قال تعالى: (قرآناً عربياً) بلسان عربي، ولا بمعانيه فإن كثيراً منها موجود في الكتب المقدمة قال تعالى: (وإنه لفي زبر الأولين) وما هو في القرآن من المعارف الإلهية وبيان المبدأ والمعاد والإخبار بالغيب فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن، بل لكونها حاصلة من غير سبق تعليم وتعلم ويكون الإخبار بالغيب إخباراً بالغيب سواء كان بهذا النظم أو بغيره مورداً بالعربية أو بلغة أخرى بعبارة أو بإشارة فإذا النظم المخصوص صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره.

١٥- الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه، ولهذا قال تعالى: (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الأخرى.

١٦- إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحظة وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما.

١٧- إن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى وتنزيهه له في صفاته ودعاء إلى طاعته وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيئاً أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من

مثيلات الله بمن مضى وعاند منهم منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصر الآتية من الزمان جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا عليه وإنباء عن وجوب ما أمر به ونُهي عنه، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشدتها حتى تتنظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة إنه شعر لما رأوه منظوماً، ومرة أنه سحر لما رأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه.

وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس يرهبهم ويحيرهم فلم يتماكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف، ولذلك قالوا: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وكانوا مرة بجهلهم يقولون أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً مع علمهم أن صاحبهم أُمي وليس بحضرة من يملي أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجها العناد والجهل والعجز.

١٨- في إعجاز القرآن وجه ذهب عنه الناس وهو صنيعة في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه قال تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) وقال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم).

١٩- هو الإيجاز مع البلاغة وقال آخرون: هو البيان والفصاحة وقال آخرون: هو الرصف والنظم وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم حتى أن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه، وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكمل وسامعه لا يمل وإن تكررت عليه تلاوته.

٢٠- هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية، وقال آخرون: هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع، وقال آخرون: هو كونه جامعاً لعلوم يطول شرحها ويشق حصرها.

٢١- أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده فإنه جمع ذلك كله فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتتاله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق فمنها الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقر والجاحد.

ومنها أنه لم يزل ولا يزال غرضاً طرياً في أسمع السامعين وعلى ألسنة القارئ ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعدوبة وهما كالمضادين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر، ومنها جعله آخر الكتب غنياً عن غيره وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه كما قال تعال: (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون).

٢٢- أن القرآن منظو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه والثناء كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن.

الثاني: صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آياته وانتهت إليه فواصل كلماته ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، قال: وكل واحد من هذين النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها والأسلوب الغريب بذاته نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما إذ كل واحد خارج عن قدرتها مابين لفصاحتها وكلامها خلافاً لمن زعم أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب.

الثالث: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن فوجد كما ورد.

الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده على وجهه، ويأتي به على نصه وهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب.

وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجير بن مطعم أنه سمع النبي يقرأ في المغرب بالطور قال: فلما بلغ هذه الآية: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) إلى قوله

(المسيطرون) كاد قلبي يطير قال: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي وقد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف ثم قال: ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه ومنها أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجحه بل الانكباب على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له محبة وغيره من الكلام يعادي إذا أعيد ويميل مع التردد، ولهذا وصف القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة.

د - القدر المعجز من القرآن:

اختلف في قدر المعجز من القرآن:

١ - أنه متعلق بجميع القرآن.

٢ - يتعلق بالإعجاز بسورة طويلة كانت أم قصيرة.

٣ - يتعلق بقليل القرآن وكثيره. لقوله: (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)

٤ - بسورة منه.

الباب الخامس

الفصل السادس

أسرار الإعجاز القرآني

من أسرار الإعجاز القرآني هذا الأسلوب القرآني المعتمد على:

١- التصوير باللون والحركة والإيقاع: عن طريق الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وتآلف السياق «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون على شيء مما كسبوا».

٢- تصوير الحالات النفسية والمعنوية: «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث».

٣ - رسم نموذج إنساني واضح للعيان: كحالة العناد السخيف والمكابرة العمياء التي لا يجدي معها حجة ولا برهان «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون».

٤ - إنه يلجأ في التصوير المشخص إلى مشاهد الحوادث الواقعة والأمثال المضروبة والقصص والمروية.

٥ - إنه يلجأ إلى التجسيم: للمعنويات وإبرازها أجساماً أو محسوسات (وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه)، فالأرض تضيق عليهم، ونفوسهم تضيق بهم كما تضيق الأرض ويستحيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقاً حسيماً أوضح وأوقع.

٦- العناية بالتنسيق اللفظي والعضوي والنحوي: ليعبر عن إيقاع نغمي عذب جاء نتيجة لهذا التناسق العضوي بين الأغراض والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض،

وكذلك عني القرآن بالتنسيق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص، هذا بالإضافة إلى التناسق الفني الذي عني بالتصوير عناية فائقة. (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) فصورة بث الدواب وصورة جمعها تلتقيان، «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. في سموم وحميم وظل من يحموم. لا بارد ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» فالسموم والحميم والظل الذي ليس له من الظل إلا اسمه؛ لأنه «من يحموم» «لا بارد ولا كريم» صورة هذا الشظف تقابل صورة الترف «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين»

٧ - الجمع بين مزايا تفوق مزايا النثر والشعر جميعاً؛ فقد أعفني التعبير القرآني من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة وفاق في الوقت ذاته خصائص الشعر (التنغيم الداخلي والفواصل المتقاربة).

٨ - الظاهرة القصصية؛ التي خضعت في موضوعها وفي طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية.

٩- تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية؛ وإبرازها في صورة حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية والحوادث الماضية والقصص المروية والأمثال القصصية ومشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب والنهاج الإنسانية كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخييل الحسي الذي يفهمها بالحركة المتخيلة.

١٠- قدرة المعاني القرآنية على حاجة النفس أحسن تقدير؛ فإننا لا نحس فيها بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير بكل معنى يؤدي لا يشوبه شيء مما هو غريب، عنه ولا يشد عنه شيء من عناصرها الأصلية أو جز لفظ وأنقاه. (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة.. أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها...) و(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب) و(والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) و(هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً) ووصف القرآن الكثير

من غرائز الإنسان وعواطفه وصفاته النفسية (إن الإنسان خلق هلوياً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) والمعاني الاجتماعية في النصوص القرآنية غير قليلة، فقد أوردتها القرآن في معرض الاعتبار والعظة وبيان عواقب الظلم والفساد واسترسال في الترف والنعيم.

١١ - طريقة القرآن في القصص طريقة خاصة به، إنه ينتقي أبرز حوادثها وأشدها صلة بالعبرة المقصودة ويغفل التفاصيل الزائدة والجزئيات التي لا فائدة منها ويجعل الأفكار التي يريد تلقيها متضمنة فيها ثانياً حوار جدل أو خطاب أو دعاء.

١٢ - يعرض لنا المعاني الحقيقية القريبة المحيطة؛ لينقلها إلى الحقيقة البعيدة الحقيقة اللانهائية يسير بنا من الطبيعية إلى مبدعها، ومن الإنسان إلى خاطره.

١٣ - المعاني التي أثارها القرآن في النفس الإنسانية كبرى: مسألة (المصير... مصير الإنسان والحياة) و(العادات ضيحاً، فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً، فأترن به نقعاً فوسطن به جمعاً. إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد. أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور. إن ربهم بهم يومئذ لخبير) إن القرآن بعد أن انتهى من إقرار فكرة المسؤولية والإيمان بالحساب في حياة أخرى بالعودة إلى حكم الله الذي يبدأ الخلق، ثم يعيده يرسم المعنى الحقيقي الأخلاقي.

١٤ - يرسم الحقيقة كما يجب أن تكون ويضع نظاماً جديداً لقيم الحياة هو ثورة على النظام القديم القائم على تقديم شرف النسب وصلة القرابة ووجاهة المال ونفوذ السلطان، ويستبدل به نظاماً يقوم على أساس المسؤولية والعمل النافع للمجتمع والإخلاص لله والمساواة بين عباده وإقامة العدل بينهم وفعل الخير والدعوة إليه واتخاذ المال والقوة والسلطان والقناعة وسائل لخدمة قيم أعلى منها وهي الحق والعدل والخير. (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله.. فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) هذه الآية تعبر عن كثير من المعاني التي سلف ذكرها تعبيراً واضحاً.

١٥ - التعرف لقيم الحياة وتحديد موقفه منها في جميع المجتمعات ومذاهبها الفلسفية والخلقية وتبين لنا كيف أثار القرآن أهم مشكلات الإنسان وقضاياها الكبرى وفي

مقدمتها المسؤولية ومصير الإنسان والحياة (أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه بل يريد الإنسان ليفجر إمامه يسأل أيا ن يوم القيامة).

١٦ - تجاوز الأمور المحلية الزمنية حدود البيئة؛ (ومن آيته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون).

١٧- إيقاظ ضمير الإنسان وربطه بخالقه؛ وإشعاره بمسؤولية وتحريره من الجزئيات ليسير في مبادئ واتجاهات وإقامة نظام حياته وسلوكه.

الباب الخامس

الفصل السابع

الأداء القرآني

أ- تعريف الأداء القرآني:

نعني بالأداء القرآني هو قدرة الكلمات على حمل المعاني وتأديتها بشكل ناجح، والقرآن الكريم يمتاز عن غيره من كلام البشر بمزايا مختلفة، فهو يعبر عن أمور ضخمة لها مدلولات عظيمة يستحيل على العقل البشري أن يقدر على اختراعها كذلك تجذب النص القرآني الواحد يحوي مدلولات متنوعة ومتناسقة، وكل مدلول منها يأخذ حقه من البيان والبلاغة والوضوح دون أن يكون هناك اضطراب في الأداء أو اختلاط في التدليل، كما وأن هذا الأداء القرآني قادر على استحضار المشاهد المعبرة عن القضية المطروحة فيه كما لو كان المشاهد حاضراً أمام أعيننا قال تعالى: (وجاوزنا بيني إسرائيل البحر.... حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) وتعقيب القرآن بعد ذلك في مشهد آخر (الآن وقد عصيت.... إلى قوله: (إن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) ثم متابعة ذلك بقوله تعالى: (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله.... وإنني بريء مما تشركون) وكذلك قوله تعالى حين يكرر الالتفاتات: (ويوم يحشرهم جميعاً.... يا معشر الجن...) إلى قوله تعالى: (ذلك أن لم يك ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) لو تفحصنا هاتين الآيتين وغيرهما من آيات القرآن الكريم لوجدنا أن من.

ب- خصائص الأسلوب القرآني:

للأسلوب القرآني خصائص متعددة منها:

١ - القصد في اللفظ.

٢ - الوفاء يحقق المعنى.

- ٣- البيان مع الإجمال.
- ٤ - إقناع العقل.
- ٥ - إمتاع العاطفة والإحساس.
- ٦ - خطاب العامة من الناس والخاصة.

الباب الخامس

الفصل الثامن

التعبير القرآني

أ- روعة التعبير القرآني:

من الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذ قارئيه بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه، ولذلك سعى المشركون من العرب إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس. سعوا إلى أن لا يصل إلى الأذن؛ لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُجِدُّ في النفس دَوِيًّا هائلاً وهزّة عنيفة، وقد حكى الله عنهم هذا الأسلوب فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} [فصلت: ٢٦].

وقد قال الوليد بن المغيرة في التعبير القرآني على الرغم من عداوته للرسول ﷺ وللقرآن الكريم: "والله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يُعلَى عليه".

ب- قصدية التعبير القرآني:

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِعَ وضِعاً فنياً مقصوداً، ولم تُراعَ في هذا الموضع الآية وحدها ولا السورة وحدها، بل رُوِيَ في هذا الموضع التعبير القرآني كله.

لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافية ترددت في سورة (ق) كثيراً والكلمات الصادية ترددت في سورة (ص) كثيراً وأن سبب بدء سورة (لقمان) بـ (ألم) وسورة يونس بـ (ألر): "أنه تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها الراء مثناً كلمة وعشرون كلمة أو نحوها.

ثم إن القرآن له خصوصيات في استعمال الألفاظ: فقد اختص كثيراً من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير فمن ذلك أنه:

ج- خصوصية التعبير القرآني:

١- استعمل (الرياح) حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة، واستعمل (الريح)

في الشر والعقوبات

ولم يستعمل الريح في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر، وهو قوله تعالى: {إِذَا كُنتُمْ فِي
الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبِيَّةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ}
[يونس: ٢٢] وهي خاتمة غير حميدة.

٢- ومن ذلك ذِكْرُ المطر فإنك " لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام بخلاف
الغيث الذي يذكره القرآن في الخير.

٣- ومن ذلك ما اختص به القرآن الكريم في استعمال العيون والأعين. فلم يستعمل
العيون إلا لعيون الماء. وقد وردت كلمة (العيون) في القرآن الكريم في عشرة مواطن كلها
بمعنى عيون الماء في حين جمع العين الباصرة على أعين مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ
فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي} [الكهف: ١٠١].

٤- ومن ذلك استعمال (وصى) و(أوصى) فكل ما ورد فيه من (وصى) بالتشديد فهو في
الدين والأمر المعنوية، وكل ما ورد من (أوصى) فهو في الأمور المادية.

٥- ومن ذلك قوله تعالى: (يشاقق) و(يشاقت) وهما لغتان: الْفَكُّ لُغَةُ الْحِجَازِ وَالْإِدْغَامُ لُغَةُ
تَمِيمٍ، فالتعبير القرآني هو في قمة الأدب والفن. فإنك إذا نظرت إلى آيِّ ضَرْبٍ من ضروب
التعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نُبوٌّ ولا اختلاف. أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم
كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة
أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟!

د- عمومية معارفه:

يراه الأديب معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء
الاقتصاد معجزاً، ويراه الربون معجزاً، ويراه علماء النفس والمُعْنِيُونَ بالدراسات النفسية معجزاً،
ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخٍ في علمه معجزاً.

الباب الخامس

الفصل التاسع

بناء السورة القرآنية

يقوم بناء السورة القرآنية الكريمة على (الوحدة الفنية): وهي (وحدة النص): وتنقسم الوحدة الفنية إلى قسمين:

أ- الأفكار: التي تتضمنها السورة الكريمة.

ب- وحدة العناصر اللفظية التصويرية والإيقاعية: التي توظف من أجل إلقاء إنارة على الفكرة التي يتضمنها النص، وقد لوحظ أن السور الكريمة تخضع لأنماط متعددة من البناء المتمثل بـ:

١ - أن السورة تتضمن فكرة واحدة، وتتضمن موضوعاً واحداً لتجسيد الفكرة، ومثالها: سورة (الفيل) التي تتضمن فكرة هي: أن الله تعالى يقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه التعرض للكعبة، وتتضمن موضوعاً واحداً هو الحادثة العسكرية التي هزم فيها العدو.

٢ - أن تتضمن موضوعات متنوعة لتجسيد الفكرة، ومثالها سورة (الكهف) حيث تتضمن فكرة {زينة الحياة الدنيا} والموقف منها.

٣ - أن السورة تتضمن أكثر من فكرة وأكثر من موضوع، ومثالها: سورة المطففين التي تتضمن جملة موضوعات وجملة أفكار مثل: التطفيف، السخرية من المؤمنين، الجزاء الأخروي. وكل واحد من هذه الموضوعات ينطوي على فكرة يعبر عنها الموضوع ذاته. من حيث الأسباب. إن وحدة السورة تعني أن كل جزء من السورة يعد سبباً للاحقه ومسبباً عن سابقه، من خلال أنماط متنوعة، إن هذه المستويات من بناء السورة القرآنية الكريمة تنسحب على جزئيات السورة أيضاً، أي أن الآية الواحدة تحمل الخصائص البنائية نفسها التي لحظناها، وإن الآيتين فصاعداً تحمل السمة ذاتها، وإن المقطع من السورة يحمل السمة ذاتها أيضاً، وأن القسم من السورة يحمل السمة ذاتها أيضاً، وأن السورة بأكملها تحمل السمة ذاتها.

الباب الخامس

الفصل العاشر

الفاصلة القرآنية

أ- تعريفها:

فالفاصلة القرآنية:

هي الكلمة التي تحتم بها الآية من القرآن، ولعلها مأخوذة من قوله تعالى: (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعملون) وبها يتم بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة، وهذا لأن التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، قال تعالى: (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته....) وتنزل الفاصلة من آيتها، فتكمل من معناها، ويتم بها النغم الموقع للآية فنراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وحروف المد، وتلك هي الحروف الطبيعية في التنغيم نفسه: والعرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون.

ب- كيف تأتي الفاصلة في القرآن الكريم:

تأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقلة يتعلق معناها بمعنى الآية كلفها تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية، فالآية القرآنية بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أتم تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها.

ج- دور الفاصلة القرآنية:

ودور الفاصلة يسهم في هذا البناء، قال تعالى في وصف القرآن: (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون) جاءت فاصلة الآية الأولى كلمة " تؤمنون " وفاصلة الآية الثانية " تذكرون "، فتم بهذا التلوين التنغيم للآية وختم الآية الأولى بـ: (تؤمنون). ومنه (رد العجز على الصدر) - ومثلوا له بقوله تعالى: (أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً) وقوله: (ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا

منهم ما كانوا به يستهزئون) وقوله تعالى: (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) وفي ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً، ولكن ربما ظن في بعض الأحيان أن الآية تهبيء لفاصلة بعينها، ولكن القرآن يأتي غيرها، لا في سبيل مراعاة سائر الفواصل السابقة واللاحقة في السورة - لتتم للنص نغميته الخاصة، هذه الفواصل لها قيمتها في إتمام المعنى وإحكام بناء الآية، ولها أثرها التنغمي في نظم الكلام، وأسلوب القرآن فيه هذه التنغمية المؤثرة.

وقد يشتد التقارب التنغمي في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى: (فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة)، وقوله: (إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم) فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الشعراء: ٤٧ - ٤٨] بتقديم موسى على هارون، فيجعل لكلمة (هارون) نهاية الفاصلة انسجماً مع الفواصل السابقة واللاحقة، ومرة يقول: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [طه: ٧٠] بتقديم هارون وجعل (موسى) نهاية الفاصلة؛ لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه. وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتتسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحذوف لم يتسجم، وذلك نحو قوله تعالى: {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ} [الشعراء: ٧٢ - ٧٣] إذ الأصل: (أو يضر ونكم) مقابل: (ينفعونكم).

فيجعل في نهاية كل آية ما يتسجم موسيقياً مع أخواتها، وذلك نحو قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤] وقوله: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: ١٨] فأنت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتم الآي، وقد ترى أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار، وذلك نحو قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٨] وقوله في مكان آخر من السورة نفسها: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١١٦]. مراعاة للانسجام النغمي.

لقد تبين أن القرآن الكريم لا يعني بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، فهو يختار الفاصلة مراعيًا فيها المعنى والسياق والجرس ومراعيًا فيها خواتم الآي وجو السورة ومراعيًا فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعيًا فيها عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه. وجمع بين كل ذلك ونسّقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن.

الباب الخامس

الفصل الحادي عشر

القرآن الكريم ليس سجعاً ولا شعراً

أ- تعريف السجع:

السجع في اللغة: هو صوت الحام المتناغم الذي يوقع القبول والاستجابة في النفس فرحاً وحرزناً، وهو في الأدب توافق آخر الكلمات من الجمل النثرية.

ب- فنية السجع:

ولقد كان السجع الفني سمة جميلة بارزة لبعض النصوص المتفردة في أدبنا الحافل على مر العصور والذي لم يكن يحفل بهذا السجع تكلفاً. إذ كانت العصور المتأخرة قد أساءت إليه لمحيته على نحو متكلف، فإن ذلك لم يطفئ بريق الأصيل من إنتاجه في سالف العهود ولم يذهب متعة المتذوقين لفنه التنغمي.

وقد بقي الكلام المسجوع على هذا النحو أعني بالحافظة من أساليب الترسل. لذلك ضمن من البقاء خطأً لم يتح للكلام المطلق إذ كان أدنى إلى الشعر بإحكام مقاطعه ووزنه وموسيقاه. ولم يكن السجع المطبوع مجرد حلية لفظية تقف عند الشكل وحده، وهو في حقيقة أمره عمل وجداني أدبي صدى لأحاسيس حية يزيد في تجليتها، ويترجم عنها ترجمة ذات إيحاء وتأثير. ولهذا كان السجع المطبوع عملاً ضرورياً يزيد في الإفصاح عن المشاعر، ولا يستريح القارئ للفاصلة الجيدة والقطع القوي؛ لأن في ذلك إمتاعاً لأذنه فحسب بل لأنه صادف من نفسه هزة.

ج- القرآن الكريم والسجع:

والقرآن الكريم ميدانه ميدان النقاش المفحم والحجاج الملجم. والذي يثبت به بعض الباحثين بحق أن السجع المطبوع يقنع ويستميل: يقنع بالمنطق الجاد والرأي النافذ والحجاج الناصع:

ويستميل بالتصوير الجهد والملاءمة المنسقة والإيقاع المؤثر، والقرآن الكريم وإن ظهر لنا أنه يشابه السجع في فواصله القرآنية إلا أنه يبقى ذا أسلوب خاص به، واستمع معي إلى قول الله عز وجل في سورة الواقعة: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفأرأيتم ما تمنون، أنأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعملون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون، أفأرأيتم ما تحرثون، أنأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون، إنا لمغرمون، بل نحن محرمون، أفأرأيتم الماء الذي تشربون، أنأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون، أفأرأيتم النار التي تورون، أنأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتعاً للمقوين، فسيح باسم ربك العظيم فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعملون عظيم، إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين».

أو إلى قوله تعالى في سورة البلد: «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد، ووالد وما ولد، لقد خلقنا الإنسان في كبد، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد، يقول أهلكت مالاً لبدأً، أيحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفيتين، وهديناها النجدين، فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتبها ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، أولئك أصحاب الميمنة، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة، عليهم نار مؤصدة» لتتأكد من أن القرآن الكريم غير مسجوع.

وإذا ثبت أن السجع المطبوع فن ضروري لا زينة شكلية، وأنه يقدم من ألوان الحجاج والإقناع قدر ما يتيح من فنون البهجة والإمتاع إلا أنه أسلوب بشري لا يداني أسلوب القرآن الكريم ولا يمكن له أن يشابهه ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج من أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز.

د- الفواصل التنغيمية في القرآن الكريم:

والفواصل التنغيمية التي يختلف جرسها وتنوع نبراتها.. شدة وليناً. وعنفاً وهدوءاً وتماوجاً وطولاً وقصراً تأتي بحسب الموضوع الذي تعالجه الآيات والصور التي ترسمها هذه

الفواصل تأتي دون أن تحيف الفاصلة على المعنى، أو الشكل على المضمون، بل على العكس من ذلك تماماً. والتناغم الذي ورد في القرآن الكريم يختلف عن السجع. وهذه السور القرآنية بين أيدينا، توضح هذا الذي نقول قال تعالى في سورة الشمس: (والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها. ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاه. وقد خاب من دسّاه كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعثت أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها. فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها. ولا يخاف عقباها) نغمة تبعث الطمأنينة في النفس دون أن تحلّ بالمعنى.

هـ- الخصائص الفنية للنص القرآني:

والخصائص الفنية للنص القرآني تقتضي أن لكل موضوع حليلة لفظية تناسبه قد لا تناسب موضوعاً آخر وإن الفاصلة القرآنية ليست زينة يؤتي بها بحيث يكون المعنى تابعا للفظ ذلك أن الطويل من الكلام قد لا تناسبه الفاصلة القرآنية لأداء الأحكام التشريعية الدقيقة على نحو ما جاءت الآيات المدنية، حيث تبقى الفاصلة الحلية المناسبة، والبيان الملائم، بمقدار ما يؤدي هذا الدور في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وذكر الجنة والنار، والزراية بالأصنام والأوثان، وسرد القصص التاريخية المتعلقة بالأنبياء السابقين..... ومن هنا كثر هذا الأسلوب في الآيات المكية دون المدنية، كما لاحظنا ذلك في هذه الآيات المكية فلعل منحى إيقاعه ولكل حديث نبرة ونغم؛ لأن النغمة لا تأتي على وتيرة واحدة إلا إذا اتحد الغرض فوافق الثوب الجسم موافقة تنطق بالتلاؤم والتجانس، وتقرن المثل بالمثل.

الباب الخامس

الفصل الثاني عشر

اللغة القرآنية وتأثيرها في الأدب واللغة العربية

أ- أثر الإسلام في تطور الأدب: يقصد بالأدب في عصر صدر الإسلام النتاج الثقافي والأدبي من لغة وأدب وشعر ونثر خلال الفترة من بعثة النبي محمد ﷺ إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين، والذي ينتهي بمقتل علي بن أبي طالب عام ٤٠ هـ.

وتعرضت هذه الحقبة من الزمن لأقوى مؤثر يمكن للأدب أن يتأثر به، وهو نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ.

أولاً: القرآن الكريم:

١- القرآن هو كلام الله ومعجزة النبي ﷺ، تحدّى الله به بلاغة الإنس والجن؛ لما كان العرب في الجاهلية يتباهون بالبيان والبلاغة.

٢- فقد تحدّى الله العرب أن يأتوا بمثله. ولذا عندما سمعوه أكبروه وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر، أو فعل ساحر، أو سجع كاهن.

٣- وصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم. فكان يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم، سواء كانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه؟. وأكبر شاهد على هذا ما قاله الوليد بن المغيرة بعد سماعه آي القرآن الكريم، حيث توجه إلى نفر من قريش فقال لهم: "والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه" لا شك أنه أحس أن هذا الكلام نمط معجز ببيانه وبلاغته، عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً. وببلاغة القرآن تحدّى الله العرب.

٤- هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن لم يقع فيها التحدي وهي: الإخبار عن الغيبات والأمور المستقبلية، والإخبار عن الأمم الماضية، كما ظهر في هذا العصر وجه جديد وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي، ولكل من هذه الوجوه أمثلة لا يتسع المقام لذكرها.

أثر القرآن في اللغة والأدب:

١- جمع العرب على لهجة قريش التي كانت تسود القبائل الشمالية في الجاهلية سيادة غير تامة؛ فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها، أما قبائلهم فتكلم بلهجاتها المختلفة. فعمل القرآن على تقريب هذه اللهجات واستكمال سيادة اللهجة القرشية.

٢- حفظ اللغة العربية من الضياع، ونشرها في أقطار الأرض، وجعلها لغة حية خالدة. إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها على مر العصور.

٣- الإسلام دين سماوي، له مضمونه الجديد. فأحل في اللغة معاني لم تعرفها العرب، ولا كانت تعرف كيفية التعبير عنها إلا بالألفاظ التي ابتدأها القرآن ابتداءً، مثل: الفرقان والكفر والإيمان والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتميم والركوع والسجود، وغيرها.

٤- تكونت حول القرآن الكريم علوم كثيرة اشتقها العلماء منه لخدمته: كعلم القراءات والتفسير وأسباب النزول ونحو القرآن وإعرابه وبلاغته، وعلم الفقه وأصوله. مما هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية.

٥- هدب القرآن اللغة العربية من الحوشية والغريب، وجعل لها أسلوباً جزلاً واضحاً قريباً من الأفهام وله رونق وطلاوة. فالقرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوب السهل الممتنع الذي تلذذ الأسماع والأفواه والقلوب.

٦- ألفاظ القرآن لها نسق بلاغي حيّر العقول وأعجز البلغاء، فما تستطيع مهما أوتيت من بلاغة أن تستبدل بكلمة واحدة من القرآن كلمةً مثلها في بلاغتها. وعلى هذه البلاغة قام عمود الأدب العربي منذ ظهوره، فاحتذاه الخطباء والكتاب والشعراء

٧- وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش فقد راعى لغات العرب الأخرى التي وافقت لغة قريش في أداء المعاني القرآنية والحكم المأخوذة من نزول القرآن بلغة قريش توحيد العرب على لغة واحدة وجعل اللغة العربية لغة دينية ذات بعد

حضاري، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك) والغاية من مراعاة اللغات الأخرى التدليل على أهمية فروع العرب ولغاتهم وقدرتها على أداء المعاني القرآنية وتوافقها مع لغة قريش.

٨- وقد كان من اللغات التي نزلت بها القرآن الكريم غير لغة قريش (لغة بني سعد بن بكر) (لغة جشم بن بكر) (لغة نصر بن معاوية) (لغة ثقيف) (لغة خزاعة) (لغة هذيل) (لغة كنانة) (لغة أسد) (لغة ضبة).

٩- وقال بعض العلماء: إني تدبرت الوجوه التي تختلف به لغات العرب فوجدتها سبعة:

أ- إبدال لفظ بلفظ (كالحوت بالسماك).

ب- إبدال حرف بحرف (كالتابوت - التابوه).

ج- تقديم وتأخير بالكلمة أو بالحرف (سلب زيد ثوبه - سلب ثوب زيد) (أفلم يأس - أفلم يأس).

د- زيادة حرف أو نقصانه (ما ليه - سلطانيه) (فلاتك في مرية).

هـ- اختلاف حركات البناء (فلا تحسبن - فلا تحسبن).

و- اختلاف الإعراب (ما هذا بشراً - ما هذا بشر).

ز- التفخيم والإملالة (وهذا في اللحن والتزيين).

١٠- وفي القرآن الكريم ألفاظ تسمى (بالغرائب) وهي حسنة في اللفظ مستغربة في التأويل بلغت (٧٠٠) لفظة أو تزيد قليلاً فهي من لغات متفرقة كما وعد العلماء أكثر من مئة لفظة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط، وجدوا فيه ألفاظاً تسمى (الوجوه والنظائر) كلفظ الهدى فيه / ١٧ / وجهاً (الثبات - الدين - الدعاء) وكذلك ألفاظ (الصلاة - الرحمة - السوء - الفتنة - الروح).

١١- وقد أثر القرآن الكريم بمفردات اللغة العربية فصفاها من أكرارها وأجراها في مظاهرها على بواطن أسرارها وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز وطاوعها في قلب الأساليب وتحول التراكيب وطبع الكثير من شعرها وكلامها بطابع الروعة والجمال.

الباب السادس

كيف نتذوق القرآن الكريم؟

الباب السادس

الفصل الأول

القرآن الكريم والأدب

١ - لقد استطاعت الموجة الأدبية في هذا العصر - عصر صدر الإسلام - أن تخطو خطوة واسعة في مضمار الرقي الفكري والأدبي (النثر الفني) وذلك بفضل هذا الانقلاب الفكري الخطير الذي أحدثه ظهور الإسلام، والذي يتمثل بالقرآن الكريم إذ كانت الأمة العربية أدنى إلى الجذب الفكري، فلما جاء القرآن الكريم ملأ هذا الفراغ بما حمله من أفكار جديدة ملأت على العرب حياتهم وفتحت أمام الفكر العربي نوافذ جديدة يطل منها على عالم الفكر وآفاقه. ومن الطبيعي أن ينعكس مدى هذا الغنى الفكري في ألوان الحركات الأدبية وآية ذلك الشعر والخطابة وفنون الكلام الأخرى، فإننا نشتم من تلك الحركات عمق التأثير القرآني، فما كاد الإسلام يسطر ظله على الأمة العربية، وما كاد القرآن الكريم يتلى على ألسان العرب حتى اكتسبت هذه الحركة طابعاً إسلامياً واضح السمات، ومن المحقق أن كثيراً من الخصائص الفنية والأدبية التي تجلّت في الحركات الأدبية مصدرها القرآن الكريم..

٢ - فقد أوتي القرآن نفوذاً مزدوجاً في هذا التأثير باعتباره كتاباً دينياً شرع للمسلمين أحكام دينهم، وباعتباره أثراً أدبياً أعجز الفصحاء بروعة بيانه وبلاغة نظمه، ولذلك كان المتأدبون يحرصون أول ما يحرصون على أن يجعلوا كتاب الله مادة ثقافتهم الأولى. لقد رفعت تعاليم القرآن المستوى العقلي للعرب إلى درجة كبرى.. فقد كان للقرآن أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء الأدبية والأخلاقية في نظر العرب، فارتفعت قيم وانخفضت قيم أخرى. لقد حققت الحركة الأدبية انتصاراً فذاً بهذه النقلة إلى جو جديد، ذلك الجو الذي غير مسيرة الأدب عبر القرون وأعطاه زخماً لا ينفد... وحسبنا أن نقول: إن القرآن كان رسالة أدبية إنسانية رسالة فوق التاريخ وأحداثه فوق المحلية والزمنية.. فوق اللغة وآدابها فوق كل شيء.

الباب السادس

الفصل الثاني

القرآن الكريم والبيئة الاجتماعية والطبيعية

١ - لا نستطيع فهم مغازي القرآن الكريم دون الاطلاع على البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم؛ لما لذلك من الأثر الواضح في فهمه مع لفت الانتباه للبيئة الكونية التي تحيط بالإنسان.

٢ - وإن من وسائل فهم القرآن الضرورية معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، ويجب علينا دراسة البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم لا يفسر إلا بمعرفة البيئة، ولأن الله تعالى خاطب العرب بالمواد التي بين ظهرانيهم.

٣ - فنحن نجد سورة الغاشية متلاقية مع بيئة العربي (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت).

٤ - من هنا كانت معرفة عادات العرب وبيئتهم التي كانوا يعيشون فيها ضرورية لفهم الكثير من آيات القرآن، فعاداتهم وأحكامهم قبل الإسلام منها ما أقره القرآن ومنها ما أبطله ونهى عنه، وإن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق واتصاف بمحاسن شيم فحصدت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه وأبطلت ما هو باطل.

٥ - إن أمثلة القرآن التي أتت لتوضيح مبادئه وقواعده الكلية والبراهين قد روعي فيها هذه الأمثلة والبراهين والقواعد أن تكون بلغة العربي. ولم يكتف بذلك حتى خوطبوا أيضاً مع الإنسانية جمعاء بدلائل التوحيد فيما يعرفون من سماء وأرض وجبال وسحاب ونبات وهي بيئة كونية، وكذلك بدلائل الآخرة والنبوة وبما أنعم الله على الناس جميعاً مما هو لديهم وأخبروا عن نعيم الجنة وإضافة بما هو معهود في تنعمهم في الدنيا وتبين في مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعشاب وسائر ما

هو عندهم مألوف دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى، وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم، بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة. وقد كانوا عارفين بالحكمة وكان بينهم حكماء فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله، ولم يجادلهم إلا على طريقة ما يعرفون من الجدل.

٦- إن المنظر المعجز في القرآن الكريم لا يخرج عن حالته عربياً بنهج أساليبهم وكلامهم ويضرب الأمثلة مأخذه مما يلف حولهم. ولكن المجاز القرآني ليس دائماً ولا غالباً انعكاساً للحياة البدوية في الصحراء عناصره وألفاظ تشبيهاته من بيئات وأجواء ومشاهد جد مختلفة، فقد يكون المجاز انعكاساً لحياة الناس جميعاً، فالأفكار المتصلة بالنبات كالشجرة وأنواع الرياض تصور لنا طبيعة أرض كثيفة الزرع طيبة الهواء أكثر من أن تصور أرض الصحراء القاحلة والأنهار التي تخرق المروج الخضراء تذكرنا بالأرض الخصبة على ضفاف النيل أو الفرات أكثر مما تذكرنا بمفازات بلاد العرب، والسحب التي تسوقها الرياح لتحبي الأرض بعد موتها ليست من المشاهد اليومية في سماء بلاد العرب، فإن هذه السماء القارية صافية ملتفة وفضلاً عن ذلك فإننا نجد في القرآن صوراً ذهنية كثيرة لا تتصل بسماء الجزيرة ولا بأرضها. على أية حال فإن الكثرة المطلقة من الصور القرآنية جاءت على طريقة الخيال الإنساني، ذلك الخيال الذي كان انعكاساً لماديات الحياة... تلك الماديات التي بين ظهراني الكون كله.

الباب السادس

الفصل الثالث

القرآن الكريم والبلاغة العربية

أ- القرآن الكريم.... ذلك الكلام المعجز المنزل على الرسول صلى عليه وسلم المكتوب في المصاحف الذي سحر العرب منذ اللحظة الأولى. لقد كانت ألفاظ القرآن محكمة وكانت دلالاته منتظمة وافية، وكانت الألفاظ يسهل جريانها على اللسان ويخف وقعها على السمع ويألفها الذوق غير ناب عنها، وهي مع ذلك جارية على ما ينطق العرب أو يجري على قياس لغتهم... إن للبحث في إعجاز القرآن آفاقاً كثيرة اتجه إليها المفسرون وعلماء البيان بتفصيل فكشفوا الغطاء عن كثير من أسرارها. وأول ظاهرة تثير انتباهنا هي ظاهرة:

١- انتظام الدلالة في القرآن العظيم.... حيث يطرق اللفظ سمعك فيخطر معناه في قلبك، انظر إلى قوله تعالى في سورة الإخلاص: (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد) تجد قولاً يسبق معناه لفظه ويسهل فهمه دون عناء، ويقول الله تعالى في سورة الانشراح: (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب) هذه الوجوه التي يرجع إليها حسن البيان يتنافس فيها البلغاء من الكتاب والشعراء؛ يتفاضلون درجات، فإذا أردنا دراسة البلاغة الأدبية في نص قرآني ما أتينا إلى البحث عنها من هذه الوجوه ننظر في الألفاظ وفصاحتها، ومن جهة مواقعها ننظر من جهة تصويرها المعاني وإيصالها إلى الأذهان من غير تعسف ولا التواء، ثم ندرسها من جهة ما تحمل من المعاني التي يستدعي المقام مراعاتها.

٢- فصاحة الألفاظ: فلا نمُرُّ بكلمة إلا وجدناها محكمة الوضع خفيفة الوقع على

السمع.

٣- متانة نظمه: فقد بلغت الغاية التي ليس وراءها مطمع.. يصل الكلمة بما يلائمها

يعطف الجملة على ما يناسبها ويضع الجملة معترضة بين الكلمتين المتلائمتين أو الجملتين

المتناسبتين... فترى الكلمتين أو الجملتين مع الجملة المعترضة بينهما كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء.. فلا يكاد الفكر يشعر بأنه انقطع بالجملة المعترضة عن الكلمة الأولى أو الجملة.

٤- حسن البيان: في التشابه الرائعة والأمثال البارعة والاستعارات الطريفة والمجازات اللطيفة والكنيات المنطقية النظير والتعريض الذي يقتضيه المقام فيكون أقرب إلى حسن البيان من القول الصريح

٥- استيفاءه للمعاني: التي يستدعي الحال الإفصاح عنها أو الإيحاء إليها فإنك تنظر في الآية وتدبر المعنى الذي سيقى من أجله، فتعود منها ويدك مملوءة من الفوائد التي تقع عليها من حيث تقرير شريعة أو تقييم حجة أو تلقي موعظة أو ترسل حكمة.

٦- بلوغ القرآن الطرف الأعلى من البلاغة: إنك ترى البليغ من البشر يحسن البيان ويأخذ لبك بالمنشآت الرائعة حتى إذا طال به مجال القول وقطع فيه أشواطاً واسعة رأيت في جملة وأبياته تفاوتاً في البراعة، ولكن القرآن على طول أمده وكثرة سورة نزل متناسباً في حسن بيانه (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) يتصرف في فنون كثيرة فلا تتفاوت فيها ألفاظه الرشيقة وأساليبه البديعة.

٧- حقائق القرآن الكريم: المعروف أن القرآن أتى بحقائق أسس بها شريعة واسعة النطاق وليس من شأن هذه المعاني أن تظهر فيها براعة البلغاء كما تظهر فيما القوة من نحو المديح والثناء والتهنئة والغزل ووصف المشاهد إلى غير ذلك مما يطلقون لأفكارهم فيه العنان فتذهب مع الخيال كل مذهب وترتكب من المبالغات ما استطعت أن ترتكب والقرآن يعبر عن تلك المعاني التي تستدعي صدق اللهجة وصوغ الأقوال على أقدار تلك الحقائق.. فترى الفصاحة ضاربة أطنابها والبلاغة مرسله أشعتها.

٨- أنه يورد القصة: في أوفى درجة من حسن البيان، ثم يعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه مقام الوعظ حتى إذا عقدت موازنة بين حكايتها هنا وحكايتها هناك وجدتها في مرتبة واحدة من البلاغة لا تنزل إحداها عن الأخرى بحال. - ووصل القرآن بالبلاغة - وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال - إلى أعلى مما وصلت إليه بلغاء العرب فتحدهم بقوله: «فأتوا بسورة من مثله» وائتمنهم حكماً على هذا التحدي. والفرق بين بلاغة القرآن وأبلغ متكلم باللغة العربية فرق بعيد وهيئات هيئات بين الاثنين.

الباب السادس

الفصل الرابع

الصورة الأدبية

(التشبيه والاستعارة) في القرآن الكريم

أ- التشبيه:

١- تعريف التشبيه: التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعها النفسي، وبه يوضح الأديب شعوره نحو شيء ما، حتى يصبح واضحاً وضوحاً وجدانياً، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية هذه الدلالة تدل على مشاركة أمر لأمر في معنى من خلال إخراج الأغمض إلى الأظهر وإلحاق شيء بذي وصف في وصفه بحيث تثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به.

٢- الغرض منه: الوضوح والتأثير وتأنيس النفس بإخراجها من خفي إلى جلي وإدناؤه البعيد من القريب ليفيد بياناً، وقيل: الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار.

٣- أدواته: حروف وأسماء وأفعال فالحروف الكاف نحو كرماد، وكأن نحو كأنه رؤوس الشياطين، والأسماء مثل وشبه ونحوهما مما يشتق من المماثلة والمشابهة، ولا تستعمل مثل إلا في حال أو صفة لها شأن وفيها غرابة نحو (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر) والأفعال نحو (يحسبه الظمآن ماء) (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وربما يذكر فعل ينبئ عن التشبيه فيؤتى في التشبيه القريب بنحو علمت زيدا أسداً الدال على التحقيق، وفي البعيد بنحو حسبت زيدا أسداً الدال على الظن وعدم التحقيق، فقالوا في كون هذه الأفعال تنبئ عن التشبيه نوع خفاء والأظهر أن الفعل ينبئ عن حال التشبيه في القرب والبعد وأن الأداة محذوفة مقدرة لعدم استقامة المعنى بدونه.

٤- استخدامه في القرآن الكريم: وإذا كان التشبيه هو أكثر كلام العرب وأهم عناصر البلاغة العربية فإن القرآن الكريم قد أكثر من استخدامه؛ وإذا كان النقاد العرب قد قسموا

الشعر إلى ثلاثة أقسام: (المثل السائر، والاستعارة الغريبة، والتشبيه النادر). وما وراء ذلك " كلام وسط ودون، لا طائل فيه ولا فائدة معه فقد حكموا بأن أجل هذه التقسيمات الشعرية وأصعبها على صانعها هو التشبيه. والقرآن الكريم قد أكثر من هذه التشبيهات والتي كان أكثرها على نوعين:

(تشبيه الأشخاص، وتشبيه الأفعال).

أ- تشبيه الأشخاص؛ ومثل النوع الأول تشبيه القرآن الكريم القمر بالعرجون قال تعالى: (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم).

ب- تشبيه الأفعال؛ ومثل النوع الثاني تشبيهه أعمال الكفار بالسراب... (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده) ولتشبيهات القرآن وما تمتاز به من الدقة وإيجاز العبارة، وإحكام المعنى، ما يدل على إعجاز القرآن وأنه تنزيل من حكيم حميد. ويمكن أن نميز بين أن القرآن الكريم نزل على مقتضى كلام العرب ولغتها، وعلى عاداتهم في التشبيه والاستعارة وضروب البيان، ومن هنا جاء استشهاده بكثير من شعر الجاهلية بخاصة. ومدى تأثير العرب بالقرآن، ومحاولتهم محاكاته في هذا النوع من البلاغة، على ما في محاولاتهم من القصور عنه. قال في قوله تعالى: (خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) (الآية ٧ من سورة القمر ٥٣).

شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، كما شبههم بالفراش المبعوث في قوله تعالى: (القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) لأنهم يومئذ يموج بعضهم في بعض. وأما قوله في سورة القارعة: (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) فالفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار. وهذا التشبيه كأول. وقد اعتمد القدماء في عقد التشبيه على العقل "يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما" مغفلين وقع الشيء على النفس، وشعورهم به سروراً أو ألماً. كما اعتمدوا في عقد التشبيه أيضاً على الحواس.. وأدوات التشبيه منها "الكاف" و"كأن" و"مثل" و"كذلك" - في بعض الأحيان - وربما استغني عن هذه الأدوات بالمصدر، نحو: خرج خروج الأسد، وطلع طلوع النجم، ومرق مرور السهم وربما جاءت "الكاف" لهذا التشبيه الفني الخالص -

علمًا بأنها من أكثر أدوات التشبيه دوراناً - بل لإيقاع التساوي بين أمرين، كقوله تعالى: " (وعد الله المنافقين والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم، ولعنهم الله، ولهم عذاب مقيم، كالذين من قبلكم، كانوا أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فاستمتعوا بخلاقهم، فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) وقوله تعالى: (إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه، أخذاً وبيلاً) فهو يعقد موازنة بينهم وبين من سبقهم، ويبيّن لهم الوجوه التي يتفوقون فيها معهم، ولا ينسى أن يذكر ما أصاب سابقهم، وإلى هنا يقف تاركاً لهم أن يرقبوا بأنفسهم إلى ما ينتظرهم من العواقب، وربما جاءت هذه الكاف أيضاً للإيضاح، كقوله تعالى: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) وقوله: (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فتكون طيراً بإذني).

- تشبيه المحسوس بالمحسوس وتشبيه المعقول بالمحسوس في القرآن الكريم:

وفي الوقت الذي نجد أن القرآن ليس فيه سوى هذين اللونين من التشبيه: (المحسوس بالمحسوس وتشبيه المعقول بالمحسوس) إلا أن الذي يجمع بين المشبّه والمشبّه به ليس هو الحس وحده ولكنه الحس والنفس جميعاً، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأولى، وهذا بالإضافة إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس، فيؤدي التشبيه بكل ذلك غرضه في الوضوح والتأثير على أحسن وجوه الأداء. انظر إلى قوله تعالى يصف سفينة نوح: (وهي تجري بهم في موج كالجبال) ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة، وتصور في الوقت نفسه ما كان يحس به ركاب هذه السفينة، وهم يشاهدون هذه الأمواج من رهبة وجلال معاً، كما يحس بها من يقف أمام شامخ الجبال، وفي قوله تعالى: (وتكون الجبال كالعن المنفوش) يمكن أن نضيف أن الصوف المنفوش هو الذي صوّر لنا منظر هذه الجبال وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها.

وقد يوضح لنا القرآن الكريم الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة، عن طريق التشبيه - وشواهد هذا الموضوع في القرآن كثيرة - قال تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء

كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً - وإن أوهن البيوت لبيت لعنكبوت لو كانوا يعلمون) فهو لاء المشركون يعهدون ويبدلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدي... هذا الأمر المعنوي... وهو زوال أعمالهم وأنها لا تنفعهم - شبهه بذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء، ويبدل جهده في التنظيم ليخرج بيتاً متهاوناً ضعيفاً، ومثل ذلك في قوله تعالى: (مثل الذين كفروا: أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد)؛ وربما جاء المشبه به خيالياً - غير محسوس - إذا كانت صورته كالمحسوس لرسوخها وقوة فعلها في النفس، كما قال تعالى: (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعتها كأنه رؤوس الشياطين) لما استقر في النفس من بشاعة رؤوس الشياطين. حتى لكأن صورة هذه الرؤوس محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح.

ولا نستطيع أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس. ويستمد التشبيه في القرآن عناصره من الطبيعة، وذلك سر خلوده - فهو باق ما بقيت الطبيعة - وسر عمومية للناس جميعاً يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصرها ويرونها قريبة منهم، وبين أيديهم. وقد اتخذ القرآن من الطبيعة ميداناً يقتبس منها صورة تشبيهاته، من نباتها، وحيوانها، وجمادها. فما اتخذ منها مشبهاً به من نبات الأرض (العرجون، وأعجاز النخل، والعصف المأكول، والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه وغير ذلك. وما اتخذ مشبهاً به من حيوانها وحشراتهما: (العنكبوت والحمار والكلب، والفراش، والجراد، والجمال، والأنعام). وما اتخذ مشبهاً به من جمادها: (العهن المنفوش، والصخر، والجمال، والحجارة، والرماد، والياقوت، والخشب.....) الخ. وهذا يذكرنا بالغرض الأساسي من التشبيه الذي سبقت الإشارة إليه - وهو الوضوح والتأثير - ويذكرنا أيضاً بأن " نفاسة " المشبه به ليست محل عناية القرآن الكريم؛ لأنها ليست مما يزيد المعنى، وضوحاً، والصورة أثراً وتأثيراً..... وما أجمل هذه الصورة التي تعبر عن الإحساس البصري والشعور النفسي معاً حينما تحدث القرآن عن الهلال، فقال: (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) فهذا العرجون القديم الدقيق النحيل المحدودب الذي لا تكاد العين تنتبه إليه بعد أن كان قمراً منيراً بيدد ظلمة

الليل، ويملاً النفس حبوراً وأنساً... هذا العرجون يصور لعينك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضالة أمره معاً لتصل أخيراً إلى أن حياة الإنسان نفسه ستؤول إلى ذلك.

وتستمد تشبيهات القرآن عناصرها من الطبيعة، وهذا سر خلودها ومن تلك التشبيهات تشبيه أعمال أكفار، من حيث لا تنفعهم وهم يظنون ذلك، بهذين التشبيهين: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) دع عنك هذا التصوير المبدع للبحر اللجّي الذي يغشاه موج... إلخ، والذي صورته الحروف بأوضح وأدق مما ترسمه لك ريشة ذات أصباغ وألوان... ولأنها أضافت إليه أيضاً عنصر الحركة في الصورة، وانظر إلى التشبيه الذي استمد عنصره من الطبيعة التي تنقسم إلى بر وبحر، وكيف شبّهت أعمال الكافرين بتشبيهين مستمدّين من هذين الشطرين... ليتأملها ويتعظ بها أبناء البر والبحر على حد سواء.

وانظر كيف يجد القرآن الكريم في أعجاز النخل المنقعر المقتلع عن مغرسه، وفي الهشيم الضعيف الداوي صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى؟، قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم من أماكنهم، فألقوا على الأرض مصرعين هنا وهناك فيقول: (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) و يقول: (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر).

٥- خصائص التشبيه القرآني:

أ - إن له مكانه الأساسي في نقل الفكرة وتصويرها: فهو ليس عنصراً إضافياً في الجملة، ولكنه جزء أساسي " لا يتم " المعنى دونه، فكأنه ليس مقصوداً لذاته، بمقدار ما هو ضروري لإيضاح وتجليته أتم جلاء انظر إلى شدة الفزع والرغبة التي ألت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفعهم إيمانهم إليه في رضا وتسليم، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت في انتظارهم مع داعي الجهاد. قال تعالى (يجادلونك في الحق بعدما تبين، كأنها يساقون إلى الموت وهم ينظرون) ويدرك القارئ اضطراب المرأة وقلقها، وعدم استقرارها على حل

لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء، من قوله تعالى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء، ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) وقلّ أن يأتي التشبيه في القرآن بعد أن تتضح الفكرة نوع وضوح، كما في قوله تعالى: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وأنت إذا تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: إذ صار الجبل كأنه ظلة، لما في كلمة "نتق" من تصوير انتزاع الجهل من الأرض تصويراً يوحي إلى النفس بالرهبة والفرع ولما في كلمة "فوقهم" من زيادة هذا القصور المفرع وتأكيده في النفس، وذلك كله يمهد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكن للصورة في النفس، ووطد من أركانها. ومع ذلك كله فليس التشبيه في الآية عملاً إضافياً، بل فيه إتمام المعنى وإكماله، فهو يوحي بالإحاطة بهم، وشمولهم، والقرب منهم قرب الظلة من المستظل بها، وفي ذلك ما يوحي بخوف سقوطه عليهم.

ب . الدقة التامة والإحاطة والإحكام؛ حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخذاً، قال تعالى في شأن المعرضين عن الهداية والتذكر بالقرآن: (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) فلم يكتف في تصوير إعراضهم بقوله: إنهم كالحمير، بل صور نفرتهم، وحركتهم الهوجاء التي لا تعقل في الابتعاد عنها، بقوله: (كأنهم حمر مستنفرة) تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، ثم أضاف إلى ذلك أن الذي يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجري خلفها، فهي تحرق في كل مكان، وتجري غير مهتدية في جريها وهي جادة لا تلوي على شيء...

ولم يكتف القرآن في تشويه الناس وهم يبعثون يوم القيامة بأنهم كالجراد، بل وصف هذا الجراد " بالمنتشر " فقال: (يخرجون من الأحداث كأنهم جراد منتشر) حتى يكون دقيقاً في تصوير هذه الجموع الحاشدة، خارجة من أحداثها منتشرة في كل مكان تملأ الأفق، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف، ولعل من أهم ما يساعد على هذه الدقة والكمال في التشبيه القرآني اختيار الفاصلة الدقيقة المصورة الموحية.

ج . الاختيار الدقيق للألفاظ؛ تجد ذلك في كل تشبيه قرآني: " و نجد القرآن الكريم قد شبه السفن الضخمة بالجبال في موضعين، فقال: (وهي تجري بهم في موج كالجبال) وقال:

(ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام) ولكنك تراه قد أثر كلمة " الجبال " عند الموج، لما أنها توحى بالضخامة والجلال معاً، أما عند وصف السفن - الجوارى جمع جارية وهى الصفيقة - فقد أثر كلمة " الأعلام " جمع عَلمَ بمعنى جبل، وسرُّ إيثارها هو أن للكلمة المشتركة بين عدة معانٍ تتداعى هذه المعانى عند ذكر هذه الكلمة، ولما كان من معانى العلم: الراية التى تستخدم للزينة والتجميل، كان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وعند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً، وفى كلمة " الأعلام " وفاء " بتأدية هذا المعنى أدق وفاء " وشبه القرآن الموج بالجبال فى موضعين، فقال تعالى فى سفينة نوح: (وهى تجري بهم فى موج كالجبال) وقال: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين).

وسر هذا التنوع أن الهدف فى الآية الأولى يرمى إلى تصوير الموج عالياً ضخماً حتى أن الغرق شمل كل شيء إلا هذه السفينة - وكلمة " الجبال " تستطيع أن توحى به إلى النفس، أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة وينسونه عند الرخاء، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس؟ هنالك يملأ الخوف القلوب، وتذهل الرهبة النفوس وتبلغ القلوب الحناجر، وفى تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق فى تصوير هذا المقام وأصدق.

الباب السادس

الفصل الخامس

الكنائيات والتعريض في القرآن الكريم

أ- الكنائيات:

عرف أهل البيان الكناية بأنها - لفظ أريد به لازم معناه - وهي ترك - التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم، فينتقل منه إلى الملزوم - وإنما يعدل عن التصريح إلى الكناية لإيضاح أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله أو القصد إلى المدح أو الذم أو الاختصار، أو الستر أو الصيانة أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وأنكر وقوعها في القرآن من أنكر المجاز فيه بناء على أنها مجاز.

وللكناية أسباب:

أحدها: التنبيه: على عظم القدرة نحو (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) كناية عن آدم.

ثانيها: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل: نحو (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) فكنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك؛ لأن ترك التصريح بذكر النساء أجمل منه، ولهذا لم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم، قال السهيلي: وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء؛ لأن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملاء ولا يتدلون أسماءهن، بل يكونون عن الزوجة بالفرش والعيال ونحو ذلك فإذا ذكروا الإمام لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر، فلما قالت النصارى في مريم ما قالوا صرح الله باسمها ولم يكن تأكيداً للعبودية إلا التي هي صفة لها وتأكيداً لأن عيسى لا أب له، وإلا لُنُسِبَ إليه.

ثالثها: أن يكون التصريح مما يستقبح ذكره: ككناية الله عن الجماع بالملامسة والمباشرة والإفضاء والرفث والدخول والسر في قوله: (ولكن لا تواعدوهن سرّاً)، والغشيان

في قوله (فلما تغشاها) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المباشرة الجماع ولكن الله يكني وأخرج عنه قال: إن الله كريم يكني ما شاء وإن الرفث هو الجماع وكنى عن طلبه بالمرادة في قوله: (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) أو عن المعانقة باللباس في قوله: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وبالحرث في قوله: (نساءؤكم حرث لكم) وكنى عن البول ونحوه بالغائط في قوله: (أو جاء أحد منكم من الغائط) وأصله المكان المطمئن من الأرض وكنى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام في قوله في مريم وابنها: (كانا يأكلان الطعام) وكنى عن الأستاذ بالأدبار في قوله (يضربون وجوههم وأدبارهم). أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في هذه الآية قال: يعني أستاذهم، ولكن الله يكني، وأورد على ذلك التصريح بالفرج في قوله: (التي أحصنت فرجها) وأجيب بأن المراد به فرج القميص والتعبير به من أطف الكنايات وأحسنها أي لم يعلق ثوبها بريبة فهي طاهرة الثوب كما يقال: نقي الثوب وعفيف الذيل كناية عن العفة، ومنه (وثيابك فطهر) وكيف يظن أن نفخ جبريل وقع في فرجها وإنما نفخ في جيب درعها ونظيره أيضاً (ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن) وعلى هذا ففي الآية كناية عن كناية ونظيره ما تقدم من مجاز المجاز.

رابعها: قصد البلاغة والمبالغة: نحو (أو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) كنى عن النساء بأنهن يُنشأن في الترفه والتزين الشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك، والمراد نفي ذلك عن الملائكة وقوله: (بل يدها مبسوطتان) كناية عن سعة جوده وكرمه جداً.

خامسها: قصد الاختصار: كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ فعل نحو (لبس ما كانوا يفعلون) (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

سادسها: التنبيه على مصيره: نحو (تبت يدا أبي لهب) أي جهنمي مصيره إلى اللهب (حمالة الحطب في جيدها حبل) أي تمامة مصيرها إلى أن تكون حطباً لجهنم في جيدها غلٌّ.

ب- وأما التعريض:

فهو لفظ استعمل في معناه - للتلويح بغيره - نحو (بل فعله كبيرهم هذا) نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة كأنه غضب أن تعبد الصغار معه تلويحاً لعابدها بأنها لا تصلح أن

تكون آلهة لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل والإله لا يكون عاجزاً فهو حقيقة أبداً، ونحو (وما لي لا أعبد الذي فطرنى) أي وما لكم لا تعبدون بدليل قوله: (وإليه ترجعون) وكذا قوله: (أأخذ من دونه آلهة) ووجه حسنه إسراع من يقصد خطابه الحق على وجه يمنع غضبه إذ لم يصرح بنسبته للباطل والإعانة على قبوله إذ لم يرد له إلا ما أرادته لنفسه، وإما لاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم فمنه قوله تعالى: (لئن أشركت ليحبطن عملك) خوطب النبي وأريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعاً، وإما للذم نحو (إنما يتذكر أولوا الألباب) فإنه تعريض بدم الكفار وأنهم الذين لا يتذكرون، وإما للإهانة والتوبيخ نحو قوله تعالى: (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) فإن سؤاها للإهانة قاتلها وتوبيخه.

والتعريض قسمان قسم يراد به معناه الحقيقي ويشار به إلى المعنى الآخر المقصود، وقسم لا يراد، بل يضرب مثلاً للمعنى الذي هو مقصود التعريض كقول إبراهيم: (بل فعله كبيرهم هذا).

الباب السادس

الفصل السادس

الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم

أ- الكلام الحقيقي في القرآن الكريم:

لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن- وهي كل لفظ بقي على موضوعه ولا تقديم فيه ولا تأخير- وهذا أكثر الكلام.

ب- الكلام المجازي في القرآن الكريم:

وأما المجاز فالجمهور أيضاً يشير إلى وقوعه فيه، وأنكره جماعة وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب والقرآن منزّه عنه وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وذلك محال على الله تعالى، وهذه شبهة باطلة ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها.

ج- ومن المجاز في التركيب:

ويسمى مجاز الإسناد والمجاز العقلي الذي علاقته الملابس بأن يسند الفعل أو شبهه إلى ما هو له أصالة للملابسته له كقوله تعالى: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) نسبت الزيادة وهي فعل الله إلى الآيات لكونها سبباً لها وقوله: (يذبح أبناءهم)، (يا هامان ابن لي) نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون والبناء وهو فعل العملة إلى هامان، لكونها أمرين به، وكذا قوله: (وأحلوا قومهم دار البوار) نسب الإحلال إليهم لتسببهم في كفرهم بأمرهم إياهم به، ومنه قوله تعالى: (يوماً يجعل الولدان شيباً) نسب الفعل إلى الظرف لوقوعه في هو (عيشة راضية)، أي مرضية (فإذا عزم الأمر) أي عزم عليه بدليل فإذا عزمت.

الباب السابع

الفصل السابع

بنية النصوص القرآنية خارجياً

إذا كنا نريد التعرف على البنية الخارجية للنصوص القرآنية لابد لنا من معرفة:

أ- سبب نزول هذه النصوص ولمعرفة أسباب النزول فوائده:

١- الوقوف على المعنى.

٢- إزالة الإشكال.. فلا يمكن معرفة تفسير آية من الآيات دون الوقوف على قصتها

وبيان سبب نزولها.

٣- بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني النص القرآني.

٤- العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. لقد أشكل على جماعة من السلف معاني آيات

كثيرة حتى وقفوا على أسباب نزولها فزال عنهم الأشكال أو كاد. وليس لنا في أسباب النزول

إلا أن نستوحي الواقع والإنسان والحق وحسب، فالتعبير عن سبب النزول ومعرفة القصة ينم

عن ذوق رفيع، فما سبب النزول إلا قصة تستمد من الواقع عرضها، فصلها، عقدتها، حبكتها

أشخاصها وأحداثها. من أجل هذا كان جهل الناس بأسباب النزول كثيراً ما يبعدهم عن

إحضار النص القرآني ذهنياً ويبعدهم عن تذوقه وربطه المنطقي.

وانطلاقاً من ذلك كان علماء السلف يتشددون كثيراً في الروايات المتعلقة بأسباب النزول

وشددوا أيضاً في التمييز بين الزيف الدخيل من الروايات وبين الأصيل الصحيح. ونحن يجب

ألا نقف عند اختلاف العلماء بأسباب نزول سورة ما.. لأن أسباب النزول لا تعدو أن تكون

قرائن مما حول النص والأصح عند الأصوليين (أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب). وإن للسورة وللآيات مكية كانت أو مدنية خصائص وسمات تميّز بعضها عن

بعض.

ب- المكان الذي نزلت به تلك النصوص وأعني بالمكان المهدين للذين نزلت تلك النصوص القرآنية بين ظهرانيها.. أعني مكة المكرمة، والمدينة المنورة صرح الرسالة المحمدية ونحن إذ نستقصي السبب والمهد فلغاية من وراء ذلك:

١- لأن التعبير القرآني يحمل في خلفيته عادات وتقاليد تلك البيئات.. فإذا كان الأمر كذلك كان لابد لنا من معرفة أسباب نزول ذلك النص القرآني الذي نحن بصدد التعمق فيه والتقصي والدراسة ذلك النزول الذي يحمل لنا فوائد جمّة ويسلط وميضاً على فهم النص القرآني. وذلك الوميض الذي يكشف لنا شيئاً من ماهية النص، وليست معرفة البيئة أقل من ذلك.. إن معرفة البيئة مكّية كانت أو مدنية ضرورية لفهم الكثرة المطلقة من آيات وسور القرآن الكريم.

٢- إن الغشاء الذي يحيط بالنص المدني يختلف عن ذلك الغشاء الذي يحيط بالنص المكي في قليل أو كثير وقل ذلك في المحتوى ولا تخفف.

٣- إن اللهجة المدنية تختلف عن اللهجة المكية.. وشتان بينهما هناك في المدينة الإطناب والأسلوب التشريعي الهادئ وتفصيل البراهين والأدلة على الحقائق. وهنا في مكة الإيجاز وحرارة التعبير والدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار وأفانين العذاب.

ج- معرفة قصة السورة أو الآية والأسباب التي اقتضت نزولها أعون على دقة الفهم وأدنى إلى استلهاهم أرجح التأويل وأوضح التفسير، ذلك أننا من القرآن الكريم أمام شيء أسمى من علم التفسير ونحن من القرآن إزاء شيء فوق اللغة وآدابها.. أمام شيء فوق التاريخ. ونحن من القرآن إزاء شيء فوق اللغة وقواعدها وآدابها فإن ظلال التعبير في القرآن وإيحاءات المفردات في آياته وألوان التعابير في قصصه ولوحاته لترتبط أوثق الارتباط بالواقع الحي والأحداث والمشاهد الشواخص.

الباب السادس

الفصل الثامن

خصائص الآيات والسور القرآنية

أ. خصائص الآيات والسور المكية:

- ١ - قصر آياتها وسورها وإيجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي.
- ٢ - الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.. وأفانين العذاب والآلام.
- ٣ - الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
- ٤ - مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
- ٥ - كثرة القسم جرياً على أساليب العرب.
- ٦ - كل سورة فيها سجدة فهي مكية.
- ٧ - كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية.
- ٨ - كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية إلا سورة الحج ففي أواخرها «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا».
- ٩ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة.
- ١٠ - كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة.
- ١١ - كل سورة تفتح بأحرف التهجي كـ «ألـم» و«ألر» ونحو ذلك فهي مكية سوى البقرة وآل عمران.

١٢ - نزول الآيات التي تقرع المشركين.

١٣ - نزول الآيات تشتد في تسفيه أحلامهم.

١٤ - نزول الآيات التي تسلي الرسول والمؤمنين وتعليمهم السباحة والصفح الجميل.

ب. خصائص الآيات والسور المدنية:

١ - طول أكثر سورها وبعض آياتها وإطنابها وأسلوبها التشريعي الهادئ.

٢- تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق.

٣- كل سورة فيها إذن بالجهاد أو ذكر له وبيان لأحكامه فهي مدنية.

٤- كل سورة فيها تفاصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية فهي مدنية.

٥- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ماعدا سورة العنكبوت.

٦- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو في دينهم فهي مدنية. هذه الخصائص تصور الخطى الحكيمة المتدرجة التي كان يخطوها الإسلام في تشريعه فخطاب أهل المدينة لا يمكن أن يكون مماثلاً لخطاب أهل مكة.. لأن البيئة الجديدة في المدينة أصبحت تستدعي التفصيل في التشريع وفي بناء المجتمع الجديد.. كان في مكة قوم طغاة معاندون يضطهدون رسول الله ﷺ والمؤمنين، وهكذا كثر في مكة نزول الآيات التي تفرع المشركين وتشتد في تسفيه أحلامهم وتسلي الرسول والمؤمنين وتعليمهم الساحة والصفح الجميل.

أما المدنية فكان فيها بعد الهجرة ثلاثة أصناف من الناس: (المؤمنون من مهاجرين وأنصار، ثم المنافقون، ثم اليهود)، فأما اليهود فجادلهم القرآن ودعاهم إلى كلمة سواء. وأما المنافقون ففضحهم وكشف مساوئهم. وأما المؤمنون فشجعهم على المضي في الصراط المستقيم.. وشرع لهم ما يتعلق بالسلم والحرب وبحياة الفرد والمجموع وبالسياسة والاقتصاد. إذن: كان من المعروف أن القرآن الكريم في العهد المكي وأوائل المدني معني بأصول الدعوة ومنها ما يتصل بالغيب واليوم الآخر.. ثم اتجهت عنايته بعد ذلك إلى الشؤون العملية بعد أن صار المسلمون مجتمعاً متميزاً يحتاج إلى تنظيمه بأحكام تشريعية وخلقية واجتماعية.

ولا يمنع هذا من مجيء آيات في العهد المدني معنية بأصول العهد المكي كأصول الدعوة.. كآية الحج (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما وضعت أرضعت كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد). كما لا يمنع من مجيء آيات في العهد المكي الأولى خاصة بالأحكام والنظم الاجتماعية من العهد المدني مثل آيات البلد: (فلا اقتحم العقبة... وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيماً ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة).

الباب السادس

الفصل التاسع

بنية النصوص القرآنية داخلياً

١- في سبيل التعرف على البنية الداخلية للنصوص القرآنية لابد من معرفة الخصائص القرآنية الفنية وطرائق التعبير والتركيب والكلام فيها، وما استعمله القرآن من ألفاظ وكلمات وأنغام متناسبة مع الموضوع ومسيرة للفكرة.

٢- لقد غدا القرآن الكريم من جراء ذلك فكراً مصوراً نغمياً لا ينفصل فيه الفكر عن الفن ولا الفن عن الفكر، والحديث عن الأمر الواحد يجزّ إلى أمور غيره، ولكنها إنما تندرج جميعاً في سياق الحديث تبعاً لمقتضيات التفكير ومنطق الوقائع وطبيعة تشعب النفس.. وإن منافذ البحث يدخل إليها عن طريق تقصي الأساليب القرآنية والمعاني الموحية من الأسلوب إلى المعنى حيث تتضح لنا تلك الخصائص القرآنية التي شعت في تلك النصوص.

٣- ولقد سجلت لنا السيرة النبوية في ذلك العصر معلومات واسعة عن التأثير الغلاب الذي كان لآيات القرآن على النفس البدوية. إن اللغة العربية تحت تأثير الموجة القرآنية لم تتطور تدريجياً، بل أصابها ما يشبه الانفجار الثوري المباغت، وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت في طفرة من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنياً. لقد استخدم القرآن في أسلوبه ألفاظاً جديدة غير التي نجدها في الحجاز وبخاصة تلك الألفاظ الآرامية التي استخدمها لتعيين مفاهيم توحيدية جديدة من الناحية النوعية، فمن وجهة الدراسات اللغوية يبدو القرآن كأنها قد استحضر ثروته اللفظية الخاصة وأنشأها إنشاءً بطريقة فجائية وغريبة، لقد كان القرآن إذا أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته الدينية ومفاهيمه التوحيدية يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي.

والحق أنه قد أحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير فهو:

أ- قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون.

ب- أدخل مفاهيم وموضوعات جديدة قد هضمها القرآن وتمثلها، ثم كيّفها حتى تناسب العقلية العربية والإنسانية.

ج- والقرآن يتحاشى بهذا التكييف اللبس فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهبي، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحركة والحياة. فإذا المعنى الذهبي حياة وحركة. وهكذا فقد جاء القرآن الكريم بلغة جديدة مميزة عن اللغة الجاهلية.

الباب السادس

الفصل العاشر

التشابه والاختلاف في تعبيرات القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة. أو نحو ذلك.

وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم. فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و(بكة) لأم القرى. جاء في قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرِّئُوا مِنِّي وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: 96 - 97]. فاستعمل اللفظ (بكة) بالباء في حين قال: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الفتح: 24]. فاستعمل لفظ (مكة) بالميم وهو الاسم المشهور لأم القرى. وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [آل عمران: 97] فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام؛ لأنه في الحج يركب الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها. وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني: (مكة) بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه؛ والأمثلة على ذلك كثيرة.

الباب السادس

الفصل الحادي عشر

دراسة تطبيقية لنص قرآني - سورة الحاقة -

قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ * وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ * وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ * يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَتُهُ * خُدُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ * فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ * وَمَا لَا تُبْصَرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * ۞

أ- التحليل للسورة:

أ- مقصد السورة المكية... نزلت لتوطيد أسس العقيدة الجديدة، ولقد كان من الحكمة أن تتعرض السور المكية الأولى للجزئيات، ولكنها تقابل عقيدة بعقيدة، وأفكار بأفكار. والمعلوم أن السور المكية تنقسم إلى قسمين:

١- السور التي طريقتها إثارة السامع ومفاجأته بما يهزه ويحركه عن طريق الألفاظ الجديدة أو الصور الرهيبة أو النغمات الشديدة أو غير ذلك مما يوقظ الفكر ويحرك القلب.

٢- السور التي طريقتها الجدال وبسط الأفكار وعرض المشاهد وتفصيل القصص واستنتاج العبر. وسورة الحاقة من النوع الذي تغلب عليه طريقة الإثارة والاتعاض.

ب- مضامين السورة

١ - أن جوها جو تهديد وإرهاب.. فقد افتتحت بـ (الحاقة والقارعة) وتلا ذلك (هلاك الأقسام) - وأحوال يوم القيامة.

٢ - معارضة المشركين وتكذيبهم للرسول ودعوته...

٣ - أنها تضمنت الوعيد والتهديد.

٤ - أنها تضمنت تثبيت الرسول ﷺ في دعوته وفي صلته برب العالمين.

ج- أقسام السورة

تقسم السورة إلى أقسام عدة:

١ - ثلاث آيات قصيرة شديدة الوقع جديدة في التعبير تطول بالتدرج شيئاً فشيئاً.. تعبير جديد وتسمية جديدة لموضوع يجهله السامع وتلهف لمعرفة... فإذا سمع الآية الثانية (ما الحاقة) زاده الأمر غموضاً وذلك مما يزيد شوقه وتلهفه إلى معرفة الجواب، فإذا بالآية الثالثة وهي أطول الثلاثة وأشدها تساؤلاً واستفهاماً لتضمنها لاستفهامين وأدعاها لترقب الجواب والتلهف لمعرفة الحقيقة ثلاث موجات متعاقبة، متدرجة في الطول وكلها قصيرة يتوالى فيها السؤال.. والاستفهام وتكرر فيها كلمة (الحاقة) وهي الكلمة الجديدة التي تعبر هنا عن يوم القيامة والحساب متكرر فيها هذه القاف المشددة التي تفرع السمع قرعاً من حيث معناها، ومن حيث نغمها وجرسها... يتهيأ بها السامع كل التهيؤ للإصغاء.

٢- فيها مجموعة من أخبار التاريخ وقصص الماضي، معروضة عرضاً سريعاً قوياً موجزاً، غايته التفكير في المصير.

ابتدأت الآيات بذكر قوم عاد وثمود، وليس خبرهم عن أهل الجزيرة ببعيد، والمهم في أمرهم هنا أنهم كذبوا (بالقارعة) والقارعة لفظ جديد استعمل في القرآن لأول مرة بمعنى يوم القيامة والحساب. وكانت نتيجة التكذيب بالحساب الهلاك، وتصف هذه الآيات هلاك ثمود وعاد. ونحيم بهذه الصورة الحسية القوية (فترى القوم فيها صرعى كأنهم إعجاز نخل خاوية) ثم بهذا الاستفهام الداعي إلى التأمل والتفكير (فهل ترى لهم من باقية). ثم تطوي الآيات صفحات التاريخ رجوعاً إلى الماضي البعيد، فتشير إشارة سريعة إلى فرعون ومن قبله وإلى قرى قوم لوط المنقلبة (المؤتفكات) ومن وراء هؤلاء الأقوام جميعاً قصة الطوفان التي لخصت هنا في آيتين، بل في آية واحدة وفيه في الثانية لما في الحادثة من عبرة (إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية).

٣- تنقل السورة السيرة من التاريخ البعيد والماضي السحيق، إلى المستقبل البعيد إلى ما بعد هذه الحياة، وهذا الانتقال وحده ضرب من المفاجأة المثيرة، وفي هذا القسم تصوير مخيف لليوم الذي تنتهي فيه الحياة، ويضرب فيه نظام الكون ويؤذن بذلك نفخة الصور ويعقبها تداعي الجبال، وانشقاق السماء وانفراط عقد نجومها، ثم تظهر العظمة الإلهية مستوية على العرش الذي تحمله الملائكة، ويعرض الناس على الحساب وتبدو في هذا القسم الفكرة الأساسية التي هي هدف السورة، وما ورد فيها من صور التاريخ ومشاهد القيامة، وهي فكرة الحساب فكرة مسؤولية الإنسان عن أعماله. وفي هذا القسم صور موجزة سريعة ولكنها قوية مثيرة، تبعث على التفكير..

٤- في هذا القسم الحساب والجزاء.. ويبدو فيه مشهذان:

أ- مشهد أهل النعيم الذين آمنوا بالحساب في الحياة الأخرى.. حيث يتحدث عن أمن أوتي كتابه بيمينه - وإتيان الكتاب باليمين كناية عن اليمن والخير - فرحاً مسروراً فيقول (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ويذكر سبب سعادته، ذلك أنه اعتقد بالمسؤولية والحساب، وسلك في حياته السلوك الذي يقتضيه هذا الاعتقاد فكان صالحاً محسناً، ثم تأتي الآيات على وصف حياته (فهو في عيشة راضية: في جنة عالية قطوفها دانية) آيات ثلاث قصيرة، ولكنها تعبر كل التعبير عن

سعادته مع خطوط سريعة لصورة حسية يزينها التقابل بين العلو والدنو فالجنة عالية مرتفعة قطفها دانية متدلية، ثم يوجه الخطاب إلى هذا الإنسان السعيد بطريقة تمثيلية تجعل الصورة حية بهذا الخطاب الموجه له ولأمثاله من أهل اليمين (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) فقد تضمن هذا الخطاب الربط بين العمل الصالح في الحياة الماضية ومكافأته بالحياة الرغيدة في يوم الجزاء والحساب.

ب- ومشهد أهل الشقاء الذين اعتمدوا على المال والسلطان، حيث يتحدث عنمن أوتي كتابه بشماله - وذلك كناية عن الشؤم وسوء العاقبة.. فيتمنى أنه لم يؤت كتابه ولم يدر حسابه ويتمنى لو كانت ميته مئة الفناء النهائي.. ويندم على اعتماده على المال والسلطان ثم يتوجه إليه الخطاب من غير لفظ يشعر بقائل، وذلك أقوى في التمثيل واستحضار المشهد. والخطاب الموجه لفاعل الشر ومستحق العقاب يتضمن صوراً رهيبة مخيفة: «خذوه - فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة - ذرعها سبعون ذراعاً - فاسلكوه» وكل ذلك صور حسية ومشاهد تبعث الرعب.. ثم يأتي بيان سبب العقاب الشديد: (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحض على طعام المسكين) ذلك هو عدم الإيمان بالله والإعراض عن الحض على إطعام المساكين.

هـ - أن القرآن وحي من الله وما محمد بن عبد الله صلوات الله وسلاماته عليه إلا رسول مبلغ لرسالة ربه. (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) أقسم بالوجود كله، ما يرى منه ويشاهد وما وراءه مما لا يبصر ولا يشاهد من العالم المغيب عن حواس الإنسان. وهل هنالك قسم أجمع في مضموناته من هذا القسم الذي تضمن (عالم الشهادة) و(عالم الغيب). وقد صدر القسم بالنفي وهو أسلوب معروف عند العرب تنفي الآيات التالية عن الرسول ﷺ صفة الشعر والكهانة رداً على المعاندين من المشركين وثبت له صفة الرسالة وللقرآن صفة النزول من عند الله (رب العالمين) ثم يؤكد هذا المعنى بآيات تتضمن التهديد تهديد الرسول ﷺ نفسه (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) والمتكلم هنا بصفة الجمع هو الله تعالى موحي القرآن العظيم ومنزله على رسوله والتهديد الموجه للرسول مصوغ في صيغ شديدة ولكنه مصدر بـ(لو) وهي أداة امتناع لامتناع وتختتم السورة بتعابير تتضمن وصف القرآن فهو للمتقين تذكرة أي تعليم وإرشاد وهو على الكافرين به المعرضين عنه سبب للحسرة والندامة، وهو في ذاته يقين وحق، بل هو (حق

اليقين) والآية الأخيرة التي ختمت بها السورة حوَّط بها الرسول نفسه صلوات الله عليه تشبيهاً له وحضاً له على الاتصال بربه والتسبيح بحمده (فسبح باسم ربك العظيم)..

د- معاني السورة

و تتضمن السورة عدة معاني وهي:

- ١- مسؤولية الإنسان عن أعماله أمام الله في الحياة الآخرة في يوم الجزاء وتبين بوضوح في قوله تعالى (يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية).
- ٢- القرآن كلام الله المنزل على رسوله فهو تنزيل من رب العالمين وهو تذكرة للمتقين المؤمنين.
- ٣- والرسول مبلغ عن ربه كما تلقاها من غير زيادة ولا نقصان.
- ٤- فكرة الإيمان بالله تعالى فكرة مسلم بها ولم تأت السورة لبيانها، بل هي متضمنة في الفكرتين السابقتين: مسؤولية الإنسان أمام الله وكون القرآن الكريم تنزيلاً من الله يبلغه رسوله المكلف بتبليغه.

هـ- الأفكار الجزئية فيها

- ١- إن المال والسلطان زائلان وليس خالدين حتى يعتمد عليهما (ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه).
 - ٢- الحظ على إطعام المساكين والإحسان إليهم.
 - ٣- إن ارتكاب الخطايا ومعصية الرسول تسبب الهلاك.
- و- أسلوب عرض المعاني

تنوع أسلوب هذه المعاني في العرض واحتوت على فنون متعددة منها:

- ١- العرض التاريخي: وهو عرض سريع لحوادث تاريخية بارزة في خطوطها الكبرى وانتقاء لصور موجزة مؤثرة يراد منها العبرة.
- ٢- الوصف والتصوير بطريقة موجزة: وذلك في عرض حوادث التاريخ ووصف مشاهد القيامة ويوم الحساب. فمن الصور الحسية: الريح الصرصر العاتية و(ترى القوم فيها صرعى. كأنهم إعجاز نخل خاوية) و(لما طغى الماء) و(نفخ في الصور)...

٣- التمثيل والحوار: إن في فسح المجال لأهل الجنة والنار أن يتحدثوا وفي توجيه الخطاب لهم بدلاً من الكلام عنهم بصيغة الغائب إحضاراً للصورة وإبرازاً لها وإحضاراً للمشهد (هاؤم اقرؤوا كتابيه) (يا ليتني لم أوت كتابيه).

٤- العرض المجرد: فمن الأفكار ما عرض عرضاً مباشراً كالقسم الأخير من السورة (إنه لقول رسول كريم).

ز- مميزات أسلوب الآيات

١- قد تكون الآية كلمة واحدة كالحاققة أو كلمتين أو بضع كلمات ولكنها لا تطول كثيراً على كل حال ونلاحظ بين الآيات ترابط واتصال ولاسيما في كل قسم من أقسام السورة.

٢- كل قسم من أقسام السورة يتضمن موضوعاً أو فكرة واحدة وتتسلسل آيته وتتصل حتى تؤدي المعنى وتعبر عن الفكرة.

٣- تنوع الآيات واختلافها في الطول والقصر أكسبها جدة وحيوية وكذلك اختلاف تراكيبيها..

٤- تنوع الجمل بين الفعلية حين تصوير الحوادث (فإذا نفخ في الصور.. وحملت الأرض.. فيومئذ وقعت الواقعة.. وانشقت السماء والاسمية للتعبير عن الحقائق الثابتة: (إنه لقول رسول كريم) (وإنه لتذكرة للمتقين)، ومنها ما ورد بصيغة التمني للتعبير عن الحسرة (يا ليتني لم أوت كتابيه، يا ليتها) وأما سائر الجمل فقد جاءت بصيغة الخير، ولكن تنوع فيها الفصل فقد يأتي بصيغة الماضي للتأكيد والتحقيق (فيومئذ وقعت الواقعة) وقد يأتي بصيغة المضارع لاستحضار الماضي البعيد (فترى القوم فيها صرعى).

٥- جاءت التعابير في السورة مجسمة للحوادث مبرزة لها وذلك كقوله تعالى: (ريح صرصر عاتية) فلفظ (صرصر) يصور صوت الريح، ولفظ (عاتية) يفيد معنى الشدة وقد رتبت الجمل في بعض الآيات على غير الترتيب الطبيعي فقدم ما حقه التأخير أو أخر ما حقه التقديم. وذلك كقوله: (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فوضع الفاعل في آخر الجملة وقدم عليه المفعول والظرف فاكسبت الجملة بذلك جمالاً في الجرس والنغمة، وكذلك أخر الفعل وقدم المجرور في قوله: (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) للتقديم والتأخير أثر واضح في حلاوة النغمة بالإضافة إلى دقة المعنى.

٦- في السورة من الألفاظ ما هو جديد في استعماله للمعنى الذي استعمل له (كالخاقة) و(القارعة) و(الواقعة) وكلها ألفاظ معروفة من حيث اشتقاقها، ولكنها جديدة في إطلاقها على معنى يوم القيامة وهذه الجدة أثر في نفس السامع، في إثارتها وتنبهه إلى المعنى المقصود. ومن الألفاظ القرآنية الجديدة في السورة (يؤمن) و(الكافرين) و(المتقين) ونلاحظ أيضاً قوة التصوير والمناسبة بين المعنى واللفظ ففي السورة ألفاظ مصورة لمعناها مثيرة لمدلولها كلفظ (غسلين) فهي بجرس حروفها وصيغتها المنتهية بالياء المحدودة بعدها نون توحى بمعناها، وكذلك (الدك) في دكتا دكة واحدة مقابلة لمعناها.

ونلاحظ أخيراً دقة التعبير وحسن الاختيار ويبدو ذلك في مثل الألفاظ التالية (تقول علينا - تعرضون - دكتا - الأقاويل) وأما النغمية فإنك تشعر عند قراءة هذه السورة بالمناسبة التامة والانسجام الواضح بين موضوعها ونغمتها، فقد جاءت مقدمتها قوية الجرس ذات فواصل قصيرة متلاحقة متدرجة في الطول، ثم أعقبتها آيات يغلب عليها القصر وتتوازن فيها المدود والحركات في توزيع منسجم، وهي الآيات التي صورت حوادث التاريخ: (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية).. فإذا ما بلغت قوله تعالى: (فترى القوم فيها صرعى كأنهم إعجاز نخل خاوية) شعرت أنك ترتل قطعة منغمة موزونة وتسير في هذه الموجات المنسجمة حتى آخر هذا القسم من السورة، ثم تنتقل إلى نغمة أخرى وفواصل مختلفة حين يبتدئ القسم الثالث من السورة، وفيه تصوير ليوم القيامة (إذا نفخ في الصور نفخة واحدة... إلى...)

تناسب المعاني مع النغمات وتنسجم الأفكار مع الأصوات والأوزان فتشعر بالحسرة والتأوه حينما تصغي إلى من أوتي كتابه بشماله (يا ليتني لم أوت كتابيه ولو أدر ما حسابه) وتحس بوقع ذلك الصوت الأجلش الشديد الذي يأمر بزجه في جهنم في قوله تعالى: (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه) وهكذا نجد المقابلة بين موضوع السورة ونغمة آياتها وحسن تقطيعها والانسجام بين معانيها وأفكارها من جهة ونغمية ألفاظها وتراكيبها من جهة أخرى.

الباب السابع

القصة القرآنية

الباب السابع

الفصل الأول

ماهية القصة القرآنية

القصة القرآنية أحد فنون القول التي اعتمدها القرآن الكريم لعبور وعظات وللتدليل على صدق هذا القرآن وأنه من عند الله تعالى، وإن القصة الواحدة في القرآن الكريم قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكبر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يُراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاعتراض به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه. وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

إن قصة موسى مثلاً فيها مواطن عبر كثيرة ومواطن استشهاد متعددة منها:

١- بيان أن قدر الله ماضٍ لا محالة وأنه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجئه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل، ويتجلى ذلك في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، إلا أنه رُبِّي في حجر الشخص الذي كان مُقَدَّرَ له أن يُزِيلَ مُلْكَهُ.

٢- بيان عاقبة الظلم والظالمين، ويتجلى ذلك في نهاية فرعون النهاية الويلة.

٣- بيان لنفسية الشعوب المستضعفة المُستَدَلَّة ولتكوُّنِها والسبل التي ينبغي أن تسلكها لتتحرر. ويتجلى ذلك في ذكر نفسية وتكوين بني إسرائيل الذين تربَّوا على الذلة والجبن والخنوع وذكر عنادهم وصَلَفِهِمْ وجُبْنِهِمْ وحبهم للدنيا، ومحاوله سيدنا موسى إعدادهم إعداداً آخر يرفعهم من وهدة الوحل الذي يتمرغون فيه، فلم يستجيبوا له حتى قضى الله عليهم بالتيه أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل وأخرج جيلاً آخر لم يتكون مثل هذا التكوين الذليل ولم ينشأ تلك النشأة المهينة.

٤ - بيان أن الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وآمنت به، وأنه ليس بوسع أيّ أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتخذ من وسائل إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى وفي دخول الحق بيت فرعون أعني إيمان امرأة فرعون، فذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق منها. ولذا نراه لا يذكر القصة على صورة واحدة، بل نراه يذكر في موطن ما يطوي ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر. بل نراه أحياناً يغير في التعبيرات ونظم الكلام تغييراً لا يخل بالمعنى. كل ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلبه المقام، وذلك في حشد فني عظيم.

الباب السابع

الفصل الثاني

أهداف القصة في القرآن الكريم

لا يخفى على أحد ما تدل عليه أخبار الأمم مع أنبيائها، ووقائع الماضي البعيد الذي عفت عليه الأيام، وذهب بعلمه ومعرفته، فالقصص عن الأمم السابقة معجزة بينة، وحجة حاسمة من دلائل علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، كما أنه دروس وعبر، وحكم بأنباء السابقين أيما عناية، وبث هذه الأخبار في ثنايا دعوته، ولتأييد حججه وبياناته.

وللقصة في القرآن أهداف:

أولاً: أن القرآن وحي يُوحى من الله تعالى، وذلك لأن علم الماضي قد ذهب واندرثر، والنبي صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب وقومه كذلك، ولا خالط أحداً من أهل العلم بالكتاب السابق ولا تلقى عن أحد منهم شيئاً قط.

فكان كما قال تعالى في وصف القرآن: «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه». مع أن علماء أهل الكتاب كانوا يخفون تلك العلوم التي عندهم ولا يطلعون أحداً عليها، فذل ذلك القصص على أنه لا يمكن إلا أن يكون تلقياً من عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوجه من الإعجاز، وصرح به في مواضع متعددة، تأكيداً لإعجازه، وتأكيداً لتحدي المرتاب الشاك، والمنكر المعاند. فتجده عقب ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون)، ويقول في سورة هود: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)، كذلك يقول في سورة القصص عقب قصة موسى عليه السلام: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو آياتنا ولكننا كنا مرسلين. وما كنت بجانب طور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون).

فقد كان النبي ﷺ أمياً لم يقرأ كتاباً قط، ولا تعلم من عالم قط، وقومه كذلك أميون، وهو لم يشاهد تلك الحوادث، ولا التقى بشخصيات تلك الوقائع التي قصها القرآن، بل قد تعرض للامتحان فيما يأتي به قصص الغيب الماضي، فطرح عليه أهل الكتاب أسئلة مما يعلمونه مغيباً عنه فسأله بواسطة أهل مكة عن (أهل الكهف والروح وذوي القرنين)، فأجابهم عن ذلك بدقة وتفصيل.

ثانياً: بيان أن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسوله في النهاية، ويهلك الكافرين المكذبين، ولا يخفى ما في ذلك من تثبيت قلب النبي ﷺ، وتقوية نفوس المؤمنين وزجر الضالين المعاندين وزحزحتهم عن مواقفهم، فتتأثر النفوس كل نفس بحسب ما تحتاج إليه، إذ يتوالى عليها بيان نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين،

وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ويتكرر رفع راية العدل، ومحق قوة الظلم من خلال وقائع القصص التي يذكرها القرآن، بل بما يقع فيه من التصريح بهذا التنبيه، وإثارة هذه القضية، في كثير من مناسبات القصص.

تأمل هذه الآيات تعقيباً على قصص الأنبياء في سورة هود: (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم، وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تثبيت، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وفي سورة غافر يقول تعالى عقب قصة موسى وفرعون ومؤمن آل فرعون وإنجاز الله لموسى وعده وإهلاك فرعون: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار).

ثالثاً: بث المعاني الدينية الواضحة وترسيخ قواعد الدين، بما يقع في ثنايا القصص من حوار، ومواعظ وحجاج، يُصنغي إليها السامع ويتابعها القارئ، تأمل ما يليه مؤمن آل فرعون لما خشي على موسى من طغيان فرعون وبطشه: (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم). ... الآيات إلى آخر القصة في سورة غافر. ففي قصة موسى مع فرعون هنا برزت التوجيهات على لسان الرجل المؤمن بقرر أموراً على غاية الأهمية وهي جميعها معاندينية، وتوجيهات صريحة تضمنها الحوار القصصي، مما يجعل وقعها في النفوس أبلغ وأعمق.

الباب السابع

الفصل الثالث

طريقة القصص في القرآن الكريم

لما كانت القصة في القرآن تهدف إلى مقاصد دينية وإيمانية كانت طريقة القصص في القرآن متميزة عن المألوف في هذا الفن، لكي يتلاءم أسلوب عرض القصة مع الوفاء بحق الغرض الذي سيقت لأجله، ومن أبرز سمات طريقة القرآن في القصص ما يلي:

أولاً. القصة لا ترد في القرآن بتمامها دفعة واحدة؛ بل يقتصر على الجزء الذي يناسب الغرض الذي تساق القصة لأجله، كما يكتفي بالجملة من الآية أو شطر البيت من الشعر للاستشهاد به. وهذا الجزء الذي يذكر إنما يذكر بالحدود الملائمة للغرض كذلك. فقصة موسى مع فرعون في سورة غافر وردت في جو كأنه جو معركة؛ لأن فيها بيان الصراع بين الحق والباطل، والمعركة بين الإيمان والكفر واحتيال فرعون للتهرب من دلائل الحق وبراهينه إلى أن تأتي نهايته بالهلاك: (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) فكان الختام ملائماً لجو السورة، كما أنه في الوقت نفسه ختام فني رائع لذلك المشهد الذي يبرز فيه فرعون وقومه قد حل بهم سوء العذاب (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً...).

ثانياً- استخراج التوجيهات والعظات؛ والإعلان بها في القصة وختامها، مما توحى به القصة من العبر والدروس. ففي قصة لقمان مثلاً: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم). يأتي البيان القرآني بتعقيب على هذه الموعدة بقوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه.. الآيات..). فهذه وصية لقمان الأولى ليس من كلام لقمان. بل هو من كلام الله تعالى يوجهه سبحانه لعباده لمناسبة وعظ لقمان، يحقق غرضين كبيرين:

١- التأكيد على وصية لقمان (لا تشرك بالله) بيان أنه أعظم الحقوق، وأنه لا يجوز التساهل إزاء قضية الإيمان وتوحيد الله تعالى لأي اعتبار، ولو كان هو حق الوالدين البالغ غاية التقديس.

٢- تأكيد حق الوالدين، وبيان أنه أجل حقوق العباد على الإنسان، وأقدس واجبات الإنسان تجاه الإنسان لكنه مع ذلك لا يقاوم حق الله تعالى. ومن ذلك ما نقرؤه في ثنايا حوار موسى ومؤمن آل فرعون، فموسى يقول: (إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب). وهذا يشير إلى فظاعة من اتصف بذلك، وفي ثنايا كلام مؤمن آل فرعون: (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب): (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار). وتقرأ في سورة غافر هذا التعقيب على القصة، وكأنه استنتاج من وقائعها: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار).

ثالثاً- التكرار؛ والتكرار خاصة من خصائص أسلوب القرآن بصورة عامة، وهو في طريقة عرض القرآن للقصة جزء من تلك الطريقة. ولهذا نجمع بحث هذه السمة لنلخص بحثها في هذه المناسبة في فقرتين: تكرار القصة في القرآن، تكرار العبارات في القرآن.

١- تكرار القصة في القرآن؛

إن إطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل، وما يعرضه القرآن من أحداث مع نبي من الأنبياء مع قومه في أكثر من موضع هو ليس تكراراً بالمعنى الحقيقي، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة، لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض والقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع.

أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادراً، ولاستنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر. وهكذا وردت قصة آدم في القرآن لتثير العبر حول خطر اتباع الهوى ومخالفة أمر الله تعالى، وضعف الإنسان أو توبته وقبول توبته وهكذا. كذلك وردت قصة إبراهيم في نحو عشرين موضعاً تثير في كل موضع عبرة ودرساً، في التوحيد، أو تأسيس البيت العتيق، أو الأذان في الحج.. إلى آخر ما هنالك. وهكذا تكررت قصة موسى، مع فرعون، ومع قومه، ومع نبي الله شعيب في مدين.... وفي كل موضع عبرة وعظة وحكمة ودروس....

٢. تكرار العبارات في القرآن؛

هذا القسم من التكرار يبرز بعض خصائص أسلوب القرآن، وأسرار بلاغته المعجزة؛ فتارة يكرر الجملة أو العبارات بنصها دون تغيير فيها، لما في ذلك من التأكيد، أو التهويل، أو

التصوير، وكل ذلك له أثر عظيم في تعميق المعنى في النفس وصدعها عما تصر عليه ويظهر سورة ذلك بوضوح بالمثل الذي يتبادر للذهن أول شيء لدى ذكر التكرار، وهو سورة الرحمن التي تكرر فيها كثيراً قوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان). فإن هذه السورة تعدد للمنكرين نعم الله عليهم وكل نعمة تؤكد على وجوب الانقياد لله تعالى شكراً له. وخضوعاً لعظمته. لكنهم كفروا هذه النعم فوضعوها في غير موضعها، وكفروا بالنعم وأشركوا بها غيره فعبدوا الأوثان والشركاء، فجاءت سورة الرحمن تحاجهم على كل واحدة منها بالحجة الملزمة، وهكذا بالتعداد المفصل لتلك النعم والدلائل حتى تزحزح المعاند عن عناده، وترسخ في أعماق النفس الشعور بوجوب شكره تعالى، فعقب ذكر كل واحدة من النعم والدلائل وتارة يكون التكرار مع اختلاف في نظم الجملة، أو إيجاز أو إطباب أو نحو ذلك، وذلك يبرز سرا من أسرار إعجاز القرآن، وهو التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من أسلوب دون أن ينال تكرار المعنى من سمو الأسلوب وإعجازه.

بينما لا يخلو كلام البشر في مثل هذا الحال من تفاوت بين الأسلوبين واختلاف مستوى الأداءين. وذلك من جملة تصريف البيان في القرآن في مناسبات متعددة. كقوله تعالى: (وكذلك صرفنا فيه من الآيات وليقولوا درست..). وقوله: (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) وحقيقة التصريف: (إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به).

وبهذا التصريف المعجز حقق القرآن هدفاً عظيماً هو خطاب الناس كافة، من تكفيه الإشارة والمجاز من القول، ومن لا يسد خلل فهمه إلا التفصيل، وهكذا تنوع أسلوب القرآن. وقد لفت هذا التصرف المعجز أنظار البلغاء وراحوا يكشفون ما في كل موقع من سر بلاغي، وإعجاز بياني، حتى في الكلمة الواحدة تختلف بها العبارة من موقع إلى موقع، ونشأ عن هذا العرض الأخير فن هو (متشابه القرآن اللفظي) قال تعالى في سورة الأنعام: (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم). وقال في سورة الإسراء: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم). فالسؤال هنا: ضمير المخاطب (نحن نرزقكم). وفي الثاني ضمير الغائب: (نحن نرزقهم..). والجواب عن هذا من أكثر من وجه نذكر منها ما

يختص بالمعنى: أن الآية الأولى تحرم قتل الأولاد الذي يدفع إليه الفقر النازل فعلاً بالآباء كما قال (من إملاق). فناسب لذلك تقدم ذكر الآباء؛ لأنهم هم الذين يعانون الفقر فعلاً، وهو يدفع بعضهم للتخلص من أعز شيء عليه، فكان الملائم للمقام هنا تقدم ذكر الآباء. أما في الآية الثانية: فتحرم قتل الأولاد الذي يدفع إليه خوف الفقر في المستقبل (خشية إملاق) لتضاعف مسؤوليات النفقة بسبب الأولاد. فناسب لذلك تقدم ذكر الأبناء (نحن نرزقهم) لضمان مستقبلهم من الله وإزاحة هذا التخوف والوسواس الذي تحرك في القلب بسببهم، ولذلك أمثلة كثيرة أتت في دراستها العلماء بروائع الإعجاز القرآني.

رابعاً . أسلوب القصة الفني في القرآن:

وأسلوب القصة في القرآن جزء من أسلوبه المعجز بخصائصه العامة. لكننا هنا نقف على جديد في الأسلوب هو تجاوب أسلوب القص الفني في القرآن أحدث فنون القصة، فأنت واجد في قصص القرآن مقومات القصة الفنية من تمهيد وعرض أحداث وعقدة وحل للعقد، ثم خاتمة ونهاية للقصة. بل تجد في قصص القرآن ما لا يخطر على بالك، ذلك هو خصوصية المسرحية والأسلوب التمثيلي حتى إن القصة في القرآن ليتمكن أن تعرض مسرحياً دون أي تعديل فيها، وذلك ما لا يتأتى في غيره من القصص إلا أن تكون قد كتبت وأعدت إعداداً خاصاً لهذا الغرض.

ومن يتأمل ما ورد في سورة غافر من حوار موسى مع فرعون وجد مصداق ذلك في تلك الآيات، فقد ذكرت هذه السورة من قصة موسى مع فرعون ما يلائم غرض السورة العام وهو معالجة قضية الحق والباطل، وبدأت أولاً بهذا التمهيد: (أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم) فتهيأت الأذهان بهذا التمهيد للقصة التي جاءت بمثابة المثال التطبيقي لهذه القاعدة الكلية التي مهدت بها السورة. ثم جاءت العقدة مبكرة وقد تأتي في مواضع أخرى متأخرة عن مثل هذا الموقع والعقدة: (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه...). وهنا يأتي دور مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه من قبل. لكنه الآن يرى الواجب يدعوه لقولة الحق، فتصرف بما يوجهه عليه الوقف بحكمة وتبصر. ودار الحوار وسط تشويق العقل لمعرفة النتيجة

وكيف حل العقدة التي لم تتأثر بهذا النطق السيد الحكيم، فكان الحل أخيراً بهذا الأخذ الإلهي: (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب...).

وكان بعد حل العقدة انتهاء القصة بمشهد ختامي رائع، هو مشهد الطغاة الجبارين يذوقون أليم العذاب: (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) إلى آخر الصورة وما فيها من اختصاصهم في النار.... ونلمح في القصة خصوصيتين من خصائص فن القصص المسرحي:

١- الاعتناء بفض التصوير، ويظهر هنا واضحاً في رسم الشخصيات:

فشخصية موسى تظهر هنا بصورة ذلك النبي الواثق بقضيته فهو يواجه تهديد فرعون باللجوء إلى الله تعالى، وشخصية الرجل المؤمن تبدو من خلال الحوار شخصية الحكيم الذي يتبع النطق المعقول، مع إثارة عواطف قومه بالنداء التكرار يا قوم...، يا قوم...)

وشخصية فرعون تبدو بجبروتها وخبثها وإصرارها على الباطل، يقابل دعوة الحق بسفك الدماء، ويواجه النطق المفحم بالحيلة والدهاء: (يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب...).

٢- حذف الثغرات بين الوقائع مما لا حاجة إليه لفهم القصة، بطريقة فنية عجيبة اخترق بها قصص القرآن أستار القرون ليأتي متلائماً مع العرض التمثيلي الذي نما في هذا العصر إلى أبداع أسلوب وصل إليه الأدب. فتجدنا مع قصص القرآن نتقل من مشهد إلى مشهد، كما كنا أمام القضية تعرض علينا صوراً. فمن مشهد إرسال موسى ودعوته فرعون وتهديد فرعون بالقتل، إلى مشهد مجلس خاص بين فرعون وحاشيته يبرز فيه آل فرعون حيث يدور بهم سوء العذاب في ختام القصة.

ومن تأمل سائر قصص القرآن تبين له ما عرضناه هنا، وتدوق إعجاز أسلوب القرآن في القصة، وزاد إحساسه بذلك إذا لاحظ البون الهائل بين القصة في الأدب العربي وآداب العالم في عصر نزول القرآن وما تطور إليه فنُّها في العصر الحديث.

الباب السابع

الفصل الرابع

قصص القرآن حقيقة تاريخية

لقد صرح القرآن بأنه يقص القصص الحق أي الثابت الواقع، فكان ذلك دلالة على أن ما جاء في هذا الكتاب الكريم تبياناً لوقائع في غيب الماضي الذي اندثر علمه عن الناس، وكان هذا القصص وجهاً من إعجاز القرآن الدالة على أنه من عند الله تعالى. غير أن التحريف والدس في قصص الأنبياء الذي وقع في تراث الأمم السابقة عامة، وفي المرويات الإسرائيلية خاصة دفع الباحثين العلميين الأجانب إلى التشكك في هذه القصص، بل إلى الغلو في التشكك، حتى في القضايا البديهية، مثل وجود بعض الأنبياء الذين كان له الأثر الكبير في تحول الإنسانية مثل إبراهيم أبي الأنبياء أو موسى وعيسى عليهم السلام، والعجب أن القرآن الكريم أحال الناس من قديم على مخلفات الأمم السائدة وآثارها، قبل أن يتقدم علم الآثار ليقرأ فيها الباحثون أخبارها ويستنتقونها أحوالها، تأمل قوله تعالى: (وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل..) وقال لفرعون: (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية).

لقد أثرت أسئلة حول موسى عليه السلام وعلاقة فرعون بقومه، وزعم بعض المبطلين أنه كان مجرد طاغية كافر، ليس بينه وبين قومه علاقة عبادة، وأطلق بعض المشككين ألسنتهم بما شاء لهم أديهم في حق القرآن. وأثيرت أيضاً ريبة حول إبراهيم عليه السلام ووجوده، أثار المستشرق اليهودي جولد تسيهر هذه الريبة. لكن تقدم علم الآثار وتفوق العلماء في قراءة الأحافير جاء ليسجل مصداق ما جاء به القرآن الكريم، وأنه صحح أخطاء في تراث الأمم السابقة، وتفرد بمعلومات دقيقة لم تكن معروفة عند أحد من العالم. أما بشأن فرعون فقد تبين من الآثار أنه كان يقيم نوعاً من علاقة التأليه مع شعبه. كما اكتشف جثته التي تفرد القرآن بالإخبار عن نجاتها: (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية).

وعقد الدكتور موريس بوكاي فصلاً مهماً حول هذه القضية وهو شاهد (مومياء) فرعون هذا بنفسه في متاحف القاهرة واختتم الفصل بقوله: (أي بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون والذي تهبه قاعة المومياء الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة). وأما بشأن إبراهيم الخليل عليه السلام فقد جاءت الحفريات لتثبيت أخبار القرآن عنه وعن قومه تلك التي قام بدراستها (ليوناردو وولي) وألف بناء عليها كتابه عن إبراهيم، وإذا به يخبر عن قوم بابل وعبادتهم للنجوم، وأن عبادة القمر سابقة على عبادة الشمس خلافاً لما قد يتبادر للذهن، وأن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر، ومن ذلك قدم القرآن ذكر الكوكب في قصة إبراهيم (فلما رأى كوكباً قال هذا ربي...) يقول الدكتور بوكاي عن جثة فرعون: (في عصر محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثة إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وكما يقول القرآن فقد أنقذ بدن هذا الفرعون، وأياً كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة، ويستطيع الزوار أن يروه).

وأخيراً صدق الله العظيم: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون).

الباب الثامن

المثل في القرآن الكريم

الباب الثامن

الفصل الأول

تعريف وماهية الأمثال في القرآن الكريم

إذا كان المثل هو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة في النفس، فإن القرآن الكريم قد استخدمه لإبراز الحقائق والإفادة منها فالحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس. وقياس النظر على النظر، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه. والأمثال: جمع مثل والمثل: هو الشبيه والمثل في الأدب: قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبهه مضر به بمورده، ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن.

الباب الثامن

الفصل الثاني

أنواع الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

(الأمثال المصرحة، والأمثال الكامنة، والأمثال المرسلّة)

النوع الأول (الأمثال المصرحة): وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه. وهي كثيرة في القرآن نورد منها ما يأتي:

أ - قوله تعالى في حق المنافقين (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق - إلى قوله - إن الله على كل شيء قدير) ١٧ - ٢٠ البقرة ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلاً نارياً في قوله: (كمثل الذي استوقد ناراً...) لما في النار من مادة النور، ومثلاً مائياً في قوله: (أو كصيب من السماء...) لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمناً لاستنارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن قد أثمر النور في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة (ذهب الله بنورهم) وأبقى ما فيها من الإحراق، وهذا مثلهم الناري. وذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع إصبعيه في عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه؛ لأن القرآن يزواجه وأوامره ونواهيته وخطابه نزل نزول الصواعق.

ب - وذكر الله المثليين (المائي والناري): في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) ١٧ - الرعد. شبه الوحي الذي

أنزله من السماء حياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبداً وغطاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها وهذا هو المثل المائي في قوله (أنزل من السماء ماء...) وهكذا يضرب الله الحق والباطل. وذكر المثل الناري في قوله (ومما يوقدان عليه في النار...) فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

النوع الثاني من الأمثال (الأمثال الكامنة): وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة في إيجازه، يكون لها وقعها إذا انقلب إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١- ما في معنى قولهم (خير الأمور الوسط):

أ- قوله تعالى في البقرة: (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ٦٨ - البقرة).

ب- قوله تعالى في النفقة: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ٦٧ - الفرقان).

ج- قوله تعالى في الصلاة: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ١١٠ - الإسراء)

٢- ما في معنى قولهم (ليس الخبر كالمعاينة):

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: (قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن ٢٦٠ - البقرة).

٣- ما في معنى قولهم (كما تدين تدان) قوله تعالى: (من يعمل سوءاً يُجْزَ به ١٢٣ - النساء).

٤- ما في معنى (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين). قوله تعالى على لسان يعقوب (قال هل أمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ٦٤ - يوسف).

النوع الثالث: الأمثال المرسلّة في القرآن: وهي جملة أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال.

- ١- (الآن حصحص الحق ٥١ - يوسف).
- ٢- (ليس لها من دون الله كاشفة ٥٨ - النجم).
- ٣- (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ٤١ - يوسف).
- ٤- (أليس الصبح بقريب ٨١ - هود).
- ٥- (لكل نبأ مستقر ٦٧ - الأنعام).
- ٦- (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ٤٣ - فاطر).
- ٧- (قل كل يعمل على شاكلته ٨٤ - الإسراء).
- ٨- (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ٢١٦ - البقرة).
- ٩- (كل نفس بما كسبت رهينة ٣٨ - المدثر).
- ١٠- (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ٦٠ - الرحمن).
- ١١- (كل حزب بما لديهم فرحون ٥٣).
- ١٢- (ضعف الطالب والمطلوب ٧٣ - الحج).
- ١٣- (مثل هذا فليعمل العاملون ٦١ - الصافات).
- ١٤- (لا يستوي الخبيث والطيب ١٠٠ - المائدة).
- ١٥- (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ٢٤٩ - البقرة).
- ١٦- (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ١٤ - الحشر).

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعمال الأمثال؟
 فرآه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسيره قوله تعالى: (لكم دينكم ولي دين) (جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه)، ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجدل كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد كشفها عن الناس فيقول: (ليس لها من دون الله كاشفة) أو يجاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول: (لكم دينكم ولي دين) والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح.

الباب الثامن

الفصل الثالث

فوائد الأمثال في القرآن الكريم

للأمثال في القرآن الكريم فوائد جمة منها:

- ١- أنها تبرز المعقول في المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلاً لحال الإنفاق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: (فمثلته كممثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ٢٦٤ - البقرة).
- ٢- وتكشف الأمثلة عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ٢٧٥ - البقرة).
- ٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال المرسلّة في الآيات الآتية الذكر.
- ٤- ويضرب المثل للترغيب في المثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كممثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ٢٦١ - البقرة).
- ٥- ويضرب المثل للتنفير حيث يكون المثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ١٢ - الحجرات).
- ٦- ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة: (ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ٢٩ - الفتح) وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحکم أمرهم. وامتألت القلوب إعجاباً بعظمتهم.

٧- ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل وانحدر في الدنيا منغمساً. فقال تعالى (واتلّ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهب أو تتركه يلهب ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا (١٧٤، ١٧٥ - الأعراف).

٨- والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى في الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة، قال تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ٢٧- الزمر) وقال: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العاملون ٤٣- العنكبوت) وضربها النبي ﷺ في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها الربوب، ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح والذم.

حكم ضرب الأمثال بالقرآن:

جرت عادة أهل الأدب أن يسوقوا الأمثلة في مواطن تشبه الأحوال التي قيلت فيها، وإذا صح هذا في أقوال الناس التي جرت مجرى المثل، فإن العلماء يكرهون ضرب الأمثال بالقرآن، ولا يرون أن يتلو الإنسان آية من آيات الأمثال في كتاب الله عند شيء يعرض من أمور الدنيا، حفاظاً على روعة القرآن، ومكانته في نفوس المؤمنين قال أبو عبيد: «وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهيم بحاجته، فيأتيه من غير طلب فيقول كالمأزح: (جئت على قدر يا موسى) - طه) فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ، قال أبو عبيد: يقول: لا تجعلها نظيراً من القول ولا الفعل.

الباب الثامن

الفصل الرابع

من أمثال القرآن الكريم

- ١ - إنها يخشى الله من عباده العلماء.
- ٢ - وما يعقلها إلا العالمون.
- ٣ - قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.
- ٤ - واعتصموا بالله جميعاً ولا تفرقوا.
- ٥ - ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.
- ٦ - عفا الله عما سلف.
- ٧ - إن العهد كان مسؤولاً.
- ٨ - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً.
- ٩ - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.
- ١٠ - وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض.
- ١١ - لئن شكرتم لأزيدنكم.
- ١٢ - وقليل من عبادي الشكور.
- ١٣ - ادفع بالتي هي أحسن.
- ١٤ - ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك.
- ١٥ - وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.
- ١٦ - وإنك لعلی خلق عظیم.
- ١٧ - ختامه مسك.
- ١٨ - ذرية بعضها من بعض.

- ١٩- سيأهم في وجوههم.
- ٢٠- ما شاء الله.
- ٢١- صنع الله الذي أتقن كل شيء.
- ٢٢- فمن ينكث فإنما ينكث على نفسه.
- ٢٣- ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.
- ٢٤- ولا تصعر خدك للناس.
- ٢٥- ولا تمش في الأرض مرحاً.
- ٢٦- كل حزب بما لديهم فرحون.
- ٢٧- لم تقولون ما لا تفعلون.
- ٢٨- كمثل الحمار يحمل أسفاراً.
- ٢٩- إنهم لفي سكرتهم يعمهون.
- ٣٠- أن رآه استغنى.
- ٣١- قتل الإنسان ما أكفره.
- ٣٢- بل أنتم شر مكاناً.
- ٣٣- يعرف المجرمون بسيماهم.
- ٣٤- ومن يهن الله فما له من مكرم.
- ٣٥- ليس لها من دون الله كاشفة.
- ٣٦- لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.
- ٣٧- الآن حصحص الحق.
- ٣٨- وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه.
- ٣٩- ذلك بما قدمت يداك.
- ٤٠- قضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

- ٤١- أليس الصبح بقريب .
- ٤٢- وحيل بينهم وبين ما يشتهون .
- ٤٣- لكل نبأ مستقر .
- ٤٤- ولا يحق المكر السيء إلا بأهله .
- ٤٥- قل كل يعمل على شاكلته .
- ٤٦- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .
- ٤٧- كل نفس بما كسبت رهينة .
- ٤٨- ما على الرسول إلا البلاغ .
- ٤٩- ما على المحسنين من سبيل .
- ٥٠- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .
- ٥١- كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة .
- ٥٢- الآن وقد عصيت من قبل .
- ٥٣- تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .
- ٥٤- ولا يثبتك مثل خير .
- ٥٥- ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم .
- ٥٦- وقليل من عبادي الشكور .
- ٥٧- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .
- ٥٨- قل لا يستوي الخبيث والطيب .
- ٥٩- ظهر الفساد في البر والبحر .
- ٦٠- ضعف الطالب والمطلوب .
- ٦١- لمثل هذا فليعمل العاملون .
- ٦٢- فاعتبروا يا أولي الأبصار .

الباب التاسع

الأدب النبوي الشريف

الباب التاسع

الفصل الأول

حياة الرسول ﷺ

(١) أسرته ونشأته

أ - نسب الرسول ﷺ:

يرجع الرسول بنسبه إلى بني هاشم، وهم من أهم بطون قريش. وكان جدة عبد المطلب من سادات قريش وزعمائها البارزين، وهو الذي تفاوض مع أبرهة الحبشي عندما حاول هدم الكعبة، وكان عظيم الشأن في قومه، كما كان يشرف على الأمور التي لها علاقة بسقاية الحجاج. ومن أعمام الرسول البارزين أبو طالب وحزمة والعباس.

ب - نشأة الرسول ﷺ:

ولد الرسول ﷺ في مدينة مكة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ٥٧١ م (عام الفيل). وهو العام الذي جاء فيه أبرهة الحبشي على ظهر فيل لغزو مكة وهدم الكعبة، ولكنه باء بالهزيمة والفشل.

توفي والد الرسول ﷺ واسمه عبد الله بن عبد المطلب في يثرب قبل ولادة الرسول، حيث كان عائداً من تجارة له ودفن عند أخواله بني النجار.

وبعد فترة من ولادته تولت رضاعته السيدة (حليمة السعدية) رضي الله تعالى عنها التي كانت تقيم في بادية بني سعد، حيث الهواء الطلق واللغة العربية السليمة. وكان من عادة أشرف العرب في قبيلة قريش في تلك الفترة إرسال أولادهم للرضاعة في البادية لفترة من الوقت.

وعندما أصبح عمره ست سنوات توفيت والدته آمنة بنت وهب فكفله جده عبد المطلب.

ولما بلغ الثامنة من عمره توفي جده عبد المطلب فكفله عمه أبو طالب الذي كان شديد المحبة له والاهتمام به، وكان يعامله مثل معاملته لأولاده (علي، وعقيل، وجعفر) وقد رعاه وتعهده إلى أن أصبح شاباً يافعاً.

وعندما كان صغير السن وفي التاسعة من عمره رافق عمه أبا طالب في تجارة له في بلاد الشام. وقد التقيا في مدينة بصرى الشام مع الراهب النصراني (بحيرى) الذي رأى فيه علامات النبوة، ونصح عمه أبا طالب أن يعود بابن أخيه محمد ﷺ إلى مكة خوفاً عليه من غدر اليهود، ففعل أبو طالب ذلك.

اشتغل الرسول ﷺ في صباه برعي الغنم وكان يفتخر بهذا العمل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن معظم أهالي قریش في تلك الفترة كانوا يعملون في التجارة وإليها يرجع سبب غناهم و ثرائهم. وكانت القوافل التجارية تتجه شمالاً نحو بلاد الشام، حيث يتم التبادل التجاري في مدينة بصرى، أو تتجه جنوباً نحو اليمن والحبشة، وقد سميت رحلاتهم هذه برحلة الشتاء والصيف. وقد ورد ذلك في القرآن حيث يقول الله تعالى في سورة قریش: «لإيلاف قریش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» وكانت القوافل التجارية تتجه نحو بلاد الشام في فصل الصيف غالباً بينما تتجه القوافل إلى اليمن والحبشة في فصل الشتاء.

ج - رضاعة الرسول ﷺ:

كانت عادة العرب أن تسترضع أولادها في البادية، ليتعلموا فصاحة الأعراب وخشونة العيش في البادية، ويستنشقوا هواءها وعبيرها صافياً بعد كدر.

دفعت أمّة رضي الله تعالى عنها طفلها محمد ﷺ إلى حليلة السعدية لترضعه في منازل قومها بني سعد قرب الطائف، وذلك على عادة العرب في تربية أولادهم في البادية، لتقوى عزائمهم وتشتد همهم. فكان قدومه على بني سعد بركة وخيراً.

ومكث الرسول ﷺ عند حليلة ثلاث سنوات حتى بلغ الخامسة، حيث كانت حليلة ترعاه فيها أحسن رعاية وتكرمه أحسن الإكرام كما لو كان واحداً من أولادها.

(٢) أسرته ونشأته

أ - مكانة الرسول ﷺ في قومه:

كان الرسول ﷺ على خلق عظيم، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى «وإنك لعلی خلق عظیم» سورة القلم، الآية (٤).

وقد اشتهر بين قومه بالبروءة، والوفاء بالعهد، وحسن الجوار، والحلم والعفة والتواضع والصدق والأمانة، حتى لقبوه بالصادق الأمين.

ب - حلف الفضول

كان الرسول ﷺ يشارك في أعمال مجتمعه ويتعاون مع أبناء قومه في كل ما يعود عليهم بالخير والنفع. فقد شارك وهو في السابعة عشرة من عمره في حلف الفضول الذي عقده سادات مكة لنصرة الضعيف والمظلوم. وكلمة فضول مشتقة من الفضل والفضيلة وسبب هذا الحلف أن رجلاً قدم إلى مكة ومعه بضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، ثم رفض أن يدفع له ثمنها، فاستنجد بأشراف قريش الذين اجتمعوا وأعادوا له ثمن بضاعته وتعاهدوا على نصرة المظلومين والضعفاء ضد من يعتدي عليهم.

وكان له الفضل في إنهاء الخلاف الذي نشب بين القبائل المختلفة. وكاد يتطور إلى القتال بينهم بشأن وضع الحجر الأسود في المكان المخصص له من الكعبة، حيث أشار عليهم بطريقة أرضت الجميع ودلت على ذكائه ورجاحة عقله، وثقة قومه به.

ج - زواجه من خديجة بنت خويلد:

كانت خديجة إحدى نساء قريش الفاضلات، وهي معروفة برجاحة عقلها وعراقة نسبها. وكان لديها مال تعمل فيه في التجارة، حيث تستأجر من يشرف على تجارتها لقاء مبلغ من المال. وعندما سمعت بصدق الرسول ﷺ وإخلاصه وأمانته طلبت منه أن يذهب بتجارته إلى بلاد الشام، فوافق على ذلك. ورافقه في الرحلة غلامها ميسرة وقد كانت الرحلة ناجحة. وربحت خديجة مبلغاً كبيراً من المال، وشجّعها ذلك على الزواج منه وكان عمر الرسول ﷺ

خمساً وعشرين سنة. ولقد ساعده زواجه من خديجة على العيش بهدوء، حيث وقفت إلى جانبه بقوة وإخلاص ولاسيما في بداية نزول الوحي عليه.

د - انصراف الرسول ﷺ للتفكير في الأمور الدينية:

لم يكن الرسول ﷺ راضياً عن معتقدات قومه الوثنية وعبادتهم للأصنام، وإيمانهم بتعدد الآلهة. وكان يشعر في قرارة نفسه بوجود إله واحد عظيم لا شريك له. وهو الذي خلق هذا الكون الفسيح والرائع بجميع محتوياته. ولذلك كان يذهب إلى خارج مكة المكرمة ويتجول بين شعابها ووديانها حتى يصل إلى غار حراء، حيث يعتكف هناك لفترة من الوقت يقضيها بالتأمل في جمال الكون وروعة نظامه، وقدرة الخالق العظيم التي لا حدود لها.

هـ - إعادة بناء الكعبة:

كانت قريش قد قررت إعادة بناء الكعبة بعد أن تصدعت جدرانها، وعندما تم هدمها جمعت القبائل الحجرية لبنائها، ثم بنوا حتى إذا بلغ البنيان موضع الحجر اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوزوا وتحالفوا وتواعدوا للقتال فمكثت قريش أربع ليال - أو خمس ليال - على ذلك. ثم اجتمعوا في الكعبة فتشاوروا وتناصفوا. ثم اتفقوا أن يجعلوا بينهم فيما يختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينهم فيه، فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال: هلم لي ثوباً. فأتي به. فأخذ الركن، فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده، ثم بنى عليه وكانت قريش تسمي الرسول ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين).

الباب التاسع

الفصل الثاني

جهاد الرسول ﷺ لنشر الدعوة

(١)

أ - نزول الوحي على الرسول ﷺ:

بينما كان الرسول ﷺ جالساً في غار حراء يتأمل في الكون والحياة، أوحى إليه وهو في الأربعين من عمره بأن الله تعالى قد اختاره لنشر دعوة التوحيد والتبشير بدين الإسلام، ولقد نزل عليه جبريل عليه السلام وأخبره بذلك وطلب منه أن يقرأ، ثم علمه الآيات الخاصة بسورة العلق، وبدايتها قوله سبحانه وتعالى «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم.....»

وقد عاد الرسول ﷺ إلى بيته وأخبر زوجته خديجة بما جرى له، فسألت قريبتها ورقة بن نوفل عن ذلك، وكان من حكماء العرب فأخبرها بأن زوجها جاءته النبوة الصادقة، ولذلك فإن خديجة آمنت بالرسول وشجعته ووقفت إلى جانبه.

ب - أدوار الدعوة الإسلامية:

للدعوة الإسلامية دوران أساسيان أولهما الدور المكّي الذي يتضمن الحوادث التي حصلت في مكة المكرمة. أما الثاني فهو الدور المدني يشمل الحوادث التي جرت في مدينة يثرب (المدينة المنورة) حرسها الله بعد هجرة الرسول إليها.

أما الدور المكّي فهو يتألف من فرعين أيضاً وهما:

١ - الدور السري:

بعد نزول الوحي على الرسول ﷺ بنزول آيات القرآن الكريم بدأ يدعو الناس إلى الدخول في الإسلام، ولكنه كان يفعل ذلك سراً؛ لأنه كان يخاف من قريش زعيمة الشرك والوثنية في شبه جزيرة العرب.

ولقد استمر هذا الدور ثلاث سنوات تقريباً، كان الرسول من خلاله يدعو أهل بيته وأصدقائه إلى عبادة الإله الواحد وترك عبادة الأوثان. وكان أول من آمن به من الرجال صديقه أبو بكر رضي الله عنه، ومن النساء زوجته خديجة رضي الله عنها ومن الصبية ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما آمن به مولاه زيد بن حارثة (والمولى معناه في تلك الفترة العبد المعتق أو طالب الالتجاء)، ثم بدأ عدد المسلمين يزداد تدريجياً، وكان الرسول يلتقيهم في دار الأرقم.

٢ - الدور العلني:

بعد ذلك صعد الرسول إلى جبل الصفا وأخذ يدعو أهله وأعمامه وأهل مكة للدخول في دين الإسلام. وقد حصل ذلك جهراً وعلناً امتثالاً لأوامر الله عز وجل، حيث ورد في سورة الشعراء قوله تعالى: «وأندر عشيرتك الأقربين» الآية ٢١٤، كما ورد في سورة الحجر قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» الآية ٩٤

لقد دعا الرسول ﷺ قومه للإيمان برسالة الإسلام ومناصرته، ولكن قريشاً رفضت الاستجابة لدعوته، وأخذت تقاومه وتعارضه وتكيد له؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن انتشار الإسلام سوف يهدد مكانة قريش وزعامتها الدينية والاقتصادية. وطبعاً كان ذلك الاعتقاد خاطئاً؛ لأن انتصار الإسلام أعطى لقريش ومكة مكانة عظيمة وأهمية كبيرة، واستمر ذلك حتى الوقت الحاضر.

لقد استمر هذا الدور عشر سنوات كانت خلاله قريش تسيء معاملة الرسول ﷺ، كما تسيء إلى المسلمين بأشكال مختلفة، وقد تم تعذيب عدد كبير منهم أيضاً. ومن الواضح أن السبب الرئيس لمقاومة قريش للرسول يكمن في أنه دعاهم إلى أمور تختلف عما عرفوه عن آبائهم وأجدادهم، ولم يكونوا في قرارة أنفسهم يرفضون مبادئ الدين الجديد. يقول تعالى في سورة الزخرف موضحاً رأي قريش: «قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون» الآية ٢٢.

ج . أبو طالب وموقفه من الرسول:

طلبت قريش من أبي طالب أن يمنع ابن أخيه عن المضي في دعوته إلى الدين الجديد، عن طريق إغرائه بالمال والجاه، ولكنه رفض ذلك وقال: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» واستمر الرسول ﷺ في دعوته وبقي أبو طالب يدافع عنه مما زاد من حقد قريش وأذاها للمسلمين، وبخاصة للذين لا ينتمون إلى بطون قوية تحميهم أو كانوا من الأرقاء والموالي، مثل عمار بن ياسر وبلال الحبشي.

الباب التاسع

الفصل الثالث

جهاد الرسول ﷺ لنشر الدعوة

(٢)

أ. هجرة المسلمين إلى الحبشة:

عندما تزايد اضطهاد المشركين من قريش للمسلمين عرض عليهم الرسول ﷺ أن يهاجر بعضهم إلى الحبشة تخلصاً من أذى المشركين. وقد اختار الحبشة دون غيرها من البلدان؛ لأن سكانها يدينون بالمسيحية، وما عرف عن ملكها (النجاشي) من تسامح وعدل ولبعدها أيضاً عن قوافل قريش وتجارها.

هاجر عدد من المسلمين إلى الحبشة على دفعتين. وقد رحب النجاشي بالمهاجرين وأكرم وفادتهم، وترك لهم الحرية في ممارسة شعائر دينهم.

ب. موقف قريش من الهجرة إلى الحبشة:

غضبت قريش من هجرة المسلمين إلى الحبشة واستاءت من موقف النجاشي، فأرسلت وفداً محملاً بالهدايا ليطلب منه طرد المهاجرين من بلاده، إلا أن النجاشي رد وفد قريش على أعقابهم خائباً عندما تأكد من سلامة نوايا المهاجرين وصدق إيمانهم.

ج. مقاطعة قريش لبني هاشم:

خافت قريش من ازدياد عدد المسلمين، وبالتالي استفحال خطرهم وبخاصة بعد أن أسلم رجلان مهمان، وهما حمزة عم الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب، فقررت مقاطعة بني هاشم حتى يسلموا الرسول ﷺ ليقتلوه، ووقعوا وثيقة تنص على عدم مخالطتهم والتعامل معهم بيعاً أو شراءً أو مصاهرةً.

رفض بنو هاشم طلب قريش ولجؤوا إلى شُعْبِ أَبِي طالب شرقي مكة حيث أقاموا ثلاث سنوات لاقوا خلالها الكثير من التعب والعناء.

اجتمع بعض عقلاء قريش وقرروا تمزيق الوثيقة وإنهاء المقاطعة وعاد بنو هاشم إلى بيوتهم، وعاود المسلمون نشر دعوتهم فازداد عددهم.

د . عام الحزن:

بعد انتهاء المقاطعة وفي العاشر من البعثة توالى المحن على الرسول الله ﷺ، فقد توفيت زوجته خديجة، كما توفي عمه أبو طالب، ففقد بموتها ما كان يتمتع به من حماية ودعم، ولهذا سُمِّي هذا العام بعام الحزن. بعد ذلك تجرأت قريش واشتدت في إيذائها للمسلمين، ففكر الرسول بالخروج إلى الطائف لعله يجد فيها نصيراً له.

الباب التاسع

الفصل الرابع

جهاد الرسول ﷺ لنشر الدعوة

(٣)

أ - الخروج إلى الطائف:

قرر الرسول ﷺ الخروج من مكة إلى الطائف، لكي يدعو أهلها إلى مساعدته والدخول في الإسلام. ولكن أهالي الطائف لم يستجيبوا له، بل عمدوا إلى إيذائه لأسباب متعددة منها تأصل المعتقدات الوثنية في نفوسهم، وكذلك حرصهم على الاستمرار بالعلاقات الودية بينهم وبين قريش، لاسيما وأن بلدهم يعدُّ منطقة اصطيف لأغنياء مكة.

عاد الرسول إلى مكة وهو أكثر تصميمًا على متابعة دعوته الناس للدخول في الإسلام، ولاسيما بالنسبة لأفراد القبائل الذين يزورون مكة في موسم الحج، ومن أكثرهم أهمية وفود يثرب.

ب - الإسراء والمعراج:

بعد عودة الرسول ﷺ من الطائف إلى مكة حصلت حادثة الإسراء والمعراج، والإسراء معناه انتقال الرسول ﷺ ليلاً من مكة إلى المسجد الأقصى في القدس بمساعدة جبريل عليه السلام. أما المعراج فهو يعني صعود الرسول إلى السماء بمساعدة جبريل أيضاً، ثم عودته إلى مكة. وقد وردت في القرآن الكريم سورتان لهما علاقة بهذه الحادثة، وهما الإسراء والنجم. قال تعالى في سورة الإسراء: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير).

ج - بيعة العقبة الأولى:

توجه الرسول ﷺ بدعوته إلى الوافدين من أهل يثرب في موسم الحج، فاستجاب لدعوته اثنا عشر شخصاً، وبايعوه على اعتناق الإسلام، فأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير لكي

يعلمهم القرآن ويشرح لهم أصول الدين الإسلامي، وقد حصلت هذه البيعة في منطقة قريبة من مكة تقع إلى الشمال منها وتُسمى العقبة، ولذلك سُميت ببيعة العقبة الأولى، وكان لهذه البيعة أثر كبير في انتشار الإسلام في مدينة يثرب.

د - بيعة العقبة الثانية:

وفي موسم الحج التالي اجتمع الرسول ﷺ مع مجموعة ثانية من أهل يثرب بلغ عدد أفرادها ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين حيث بايعوا الرسول على اعتناق الإسلام ونصرته، ودعوه للهجرة إلى يثرب لكي يتولوا حمايته ومساعدته على نشر الدين الإسلامي.

هـ - الأوس والخزرج:

والواقع أن مدينة يثرب كان يعيش فيها في تلك الفترة قبيلتان هامتان وهما الأوس والخزرج، وكان هناك خلافات كبيرة بينهما، ولذلك فإن قبولهم دعوة الرسول للدخول في الإسلام من خلال بيعتي العقبة الأولى والثانية ساعد على إيجاد الوُحدة والمودة بينهما.

و - موقف قريش:

استاءت قريش من موقف أهل يثرب، وبخاصة بعد هجرة المسلمين إليها وتشكيلهم قوة لا يستهان بها تهدد طريق القوافل التجارية المتجهة من مكة إلى بلاد الشام، وأخذت تفكر جدياً بالتخلص من الرسول ﷺ وأصحابه.

ز - موقف أهل الطائف:

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ ساداتها، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه ردّاً منكرًا، وفاجؤوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمح القول.

فقام الرسول من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه، فلم يجيبوه إلى ذلك، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونونه ويصيحون به. وجعلوا يرمونونه بالحجارة.

الباب التاسع

الفصل الخامس

هجرة الرسول إلى المدينة المنورة وتأسيس الدولة العربية الإسلامية

أ - الهجرة النبوية:

بعد بيعة العقبة الثانية ازداد عدد المسلمين في يثرب، وأصبحوا قوة لا يستهان بها مما جعل الرسول ﷺ يفكر بنقل مقر دعوته من مكة إلى يثرب. ولذلك أذن لأصحابه المسلمين في مكة بالهجرة إلى مدينة يثرب على دفعات حتى لا يشعر بهم المشركون، فيكيدون لهم ويمنعونهم من الهجرة وقد استقبلهم مسلمو يثرب بالمحبة والترحاب.

ونتيجة لذلك قرر سادة قريش منع المسلمين من الهجرة إلى يثرب، كما قرروا قتل الرسول ﷺ بمشاركة عدد من الشباب الذين يمثلون قبائل مكة المختلفة فيضيع بذلك دمه، ولا يتمكن بنو هاشم من محاربة جميع القبائل لأخذ ثأرهم منهم.

وعندما أذن الله لرسوله بالهجرة غادر مكة سرّاً مع صاحبه أبي بكر وطلب من ابن عمه علي بن أبي طالب أن يبيت في فراشه. وعندما اكتشف المشركون خروج الرسول وصاحبه من مكة أسرعوا إلى اللحاق بهما، ولكنهم أخفقوا في ذلك إذ كان الرسول وصاحبه مختبئين في غار ثور، فلما علما بأن قريشاً عادت إلى مكة بعد أن أخفقت في القبض عليهما تابعا سيرهما، ولحق بهما علي بن أبي طالب. وقبل دخول يثرب توقف الرسول ﷺ في (قباء) ووضع أساس أول مسجد في الإسلام وهو (مسجد قباء). وقد دخل مدينة يثرب في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ٦٢٢ م، واستقبله أهلها بالبهجة والأناشيد.

أصبحت يثرب منذ ذلك التاريخ تعرف باسم المدينة المنورة، وأصبح سكانها من الأوس والخزرج الذين أسلموا يعرفون باسم الأنصار، بينما أطلقت على المسلمين المهاجرين من مكة

كلمة المهاجرين، وأصبح مجتمع المدينة المنورة الإسلامي مؤلفاً من المهاجرين والأنصار، وهم الذين شاركوا في غزوات الرسول. وأصبحت حادثة الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي (التاريخ الهجري).

ب. تأسيس الدولة العربية الإسلامية:

بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بدأت مرحلة جديدة من الدعوة الإسلامية تعرف باسم الدور المدني، بينما كانت المرحلة السابقة لها تُسمى بالدور المكّي. ومن أهم الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ من أجل بناء الدولة العربية الإسلامية:

- ١ - بناء مسجد المدينة المنورة.
 - ٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
 - ٣ - إصدار الصحيفة (الوثيقة).
 - ٤ - إعداد الجيش الإسلامي للجهاد في سبيل الله.
- ويتبين من مراجعة الوثيقة وما يتعلق بها أن مجتمع المدينة أصبح منظماً على أسس جديدة من أهمها:

- ١ - الرسول ﷺ هو رئيس المسلمين وقائدهم دينياً ودينيّاً، وينبغي الرجوع إليه لأخذ رأيه في جميع الأمور قبل تنفيذها.
- ٢ - حلّت رابطة العقيدة الإسلامية والأخوة الدينية محلّ رابطة النسب والعصبيّة القبليّة.
- ٣ - يتم التعامل بين المسلمين بما ينسجم مع أحكام الشريعة الإسلامية.
- ٤ - كفل الإسلام حرية العقيدة لجميع سكان المدينة.
- ٥ - كفل الإسلام الأمن لجميع سكان المدينة وحدد حقوقهم وواجباتهم.
- ٦ - أصبح الدفاع عن المدينة واجباً على كل من يقيمون فيها.
- ٧ - أصبح مسجد الرسول المقرّ الرئيسي لإدارة شؤون المسلمين.

ج . عناية الله تعالى في الغار:

أما - المشركين - فقد انطلقوا بعد أن علموا بخروج الرسول ﷺ يتشرون في طرق المدينة، ويفتشون عنه في كل مكان حتى وصلوا إلى غار ثور. وسمع الرسول ﷺ وصاحبه أقدام المشركين تحفق من حولهم، فأخذ الروع أبا بكر، وهمس يحدث الرسول ﷺ (لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا) فأجابه عليه الصلاة والسلام: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» فأعمى الله أبصار المشركين، حتى لم يحن لأحد منهم التفاتة إلى الغار، ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتساءل عما يكون بداخله.

الباب التاسع

الفصل السادس

غزوة بدر الكبرى

٢ / هـ، ٦٢٤ / م

استمرت قريش والقبائل الموالية لها في مقاومة الدعوة الإسلامية، وأخذت تخطط للقضاء عليها، وذلك خوفاً على مصالحها الدينية والتجارية. وقد فرض الله تعالى الجهاد على المسلمين، دفاعاً عن النفس من جهة، وإزالة للعقبات التي تعرض سير الدعوة الإسلامية من جهة أخرى.

أ - أسباب غزوة بدر الكبرى؛

- ١ - إظهار قوة المسلمين.
- ٢ - تهديد مصالح قريش التجارية.
- ٣ - التعويض على المهاجرين الذين صادرت قريش أموالهم.

ب - أحداث غزوة بدر الكبرى؛

علم الرسول ﷺ أن قافلة تجارية كبيرة لقريش مؤلفة من ألف بعير قادمة من بلاد الشام بقيادة أبي سفيان، فخرج مع أصحابه وعددهم ٣١٣ رجلاً لاعتراضها، ولكن أبا سفيان، غيرَ خط سير القافلة واتجه بها نحو الطريق الساحلي، وأرسل يستنفر قريشاً لحماية قافلته من المسلمين.

وعلى الرغم من نجاة القافلة، فقد أصرَّ بعض زعماء قريش وعلى رأسهم أبو جهل على محاربة المسلمين؛ لأنهم أصبحوا يهددون طريق التجارة الرئيسي الذي يصل بين مكة وبلاد الشام.

قاد زعماء قريش وفي طليعتهم أبو جهل جيشاً مؤلفاً من ٩٥٠ رجلاً، ودارت المعركة بينهم وبين المسلمين عند - ماء بدر - .

كانت نتيجة المعركة انتصاراً رائعاً للمسلمين بسبب شجاعتهم وإيمانهم العميق بالعتقفة التي يءافعون عنها، والتزامهم بأوامر الرسول ﷺ. وكذلك بسبب دعائهم الله عز وجل بأن ينصرهم على أعدائهم المشركين.

أما بالنسبة للمشركين فقد انهزموا هزيمة منكراً، ولقي بعض زعمائهم الشهيرين مصرعه، ومن بينهم أبو جهل نفسه. وقد سقط كثير من القتلى في صفوف المشركين، كما تم أسر عدد كبير منهم. أما عدد شهداء المسلمين فقد كان قليلاً للغاية.

ولقد بلغ من اهتمام الرسول ﷺ بالعلم أن افتدى الأسير المتعلم عن طريق تعليم عشرة من أبناء المسلمين.

والواقع أن كلمة غزوة تعني (الحملة العسكرية التي قادها الرسول بنفسه لمحاربة أعداء المسلمين)، وقد بلغ عدد غزوات الرسول بمجموعها ٢٧ غزوة، أما السرية فهي تعني (الحملة البسيطة التي كان يرسلها الرسول لأداء مهمة معينة ولم يكن قائداً لها). وقد سُميت هذه الغزوة بغزوة بدر الكبرى، بسبب وجود غزوة سابقة حصلت في العام نفسه ٢ هـ وسميت غزوة بدر الأولى. ولقد نزلت في القرآن الكريم بعض الآيات حول غزوة بدر، ومنها قوله تعالى في الآية ١٢٣ من سورة آل عمران: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة». وبعد معركة بدر تم إجلاء بني قينقاع عن المدينة بسبب غدرهم بالمسلمين.

ج . نتائج غزوة بدر الكبرى:

١ - هي أول معركة يخوضها العرب ضد بعضهم تتم على أساس العتقفة والدين، وليس على أساس النسب والعصبية القبلية.

٢ - هي أول انتصار عسكري للمسلمين على المشركين.

٣ - زادت ثقة المسلمين بأنفسهم.

٤ - أصبح المسلمون يهددون الطرق التجارية لمدينة مكة.

الباب التاسع

الفصل السابع

غزوة أحد

٣ / هـ، ٦٢٥ / م

أ - أسباب غزوة أحد:

١ - رغبة قريش في الأخذ بثأرها من المسلمين.

٢ - رغبة قريش في استرداد هيبتها بين القبائل.

ب - أحداث غزوة أحد:

خصمت قريش أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها للإنفاق على غزوة الثأر، وجهزت جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان لمحاربة المسلمين. وقد خرج جيش المشركين من مكة، ثم عسكر عند جبل أحد قرب المدينة المنورة.

شاور الرسول ﷺ أصحابه، واستقرّ الأمر على ملاقاته العدو خارج المدينة، فخرج الرسول ﷺ مع ألف رجل لملاقاة المشركين. وفي الطريق انسحب المنافق (عبد الله بن أبي) مع عدد من المنافقين وعادوا إلى المدينة، بهدف خلق الفوضى وتمزيق وحدة صف المسلمين.

تمركز المسلمون في وادي جبل أحد، ووضع الرسول ﷺ بعض رماته على جبل أحد، وأمرهم بحماية ظهر المسلمين من الخلف وعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت النتيجة.

دارت المعركة واشتد القتال بين الطرفين، وكاد النصر يكون حليف المسلمين، ولكن المعركة تحولت في نهاية المطاف لصالح قريش بسبب:

١ - مخالفة الرماة لأوامر الرسول ﷺ، حيث إنهم اعتقدوا أن المسلمين قد انتصروا، فتركوا أماكنهم وانصرفوا لجمع الغنائم.

٢- أشاع بعضهم أن الرسول ﷺ قد قتل، وهذا أحدث ارتباكاً كبيراً في صفوف المسلمين.

٣- استغل خالد بن الوليد- وكان لا يزال من المشركين- نخلي الرماة عن مواقعهم، فقام بعملية التفاف حول الجبل، وبذلك أصبح جيش المسلمين بين قوتين من المشركين، وأدى ذلك إلى هزيمة المسلمين وقلب المعركة لصالح المشركين.

ج - نتائج غزوة أحد :

- ١ - هزيمة المسلمين بسبب مخالفة الرماة لأوامر الرسول ﷺ.
- ٢ - استشهاد عدد من المسلمين من بينهم حمزة عم الرسول.
- ٣ - عرف المسلمون أن بينهم عدداً من المنافقين خذلوهم وعادوا من منتصف الطريق.
- ٤ - عدم تحقيق قريش لأهدافها، وعودتها إلى مكة مهددة متوعدة بأنها ستعود لقتال المسلمين والقضاء عليهم.
- ٥ - إجبار يهود بني النضير على الجلاء عن المدينة المنورة بسبب تأمرهم على الرسول والمسلمين.

د - وصف معركة أحد :

وراح رسول الله ﷺ حين صلاة الجمعة فأصبح بالشعب من أحد فالتقوا يوم السبت في النصف الأول من شوال سنة ثلاث، وكان رأي الرسول الله ﷺ «ألا يخرج إليهم» فقال رجال من المسلمين: ... يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جبننا عنهم أو ضعفنا، ... فلم يزل الناس برسول الله ﷺ... حتى دخل بيته ولبس لأمته... فخرج في ألف من أصحابه. وفي الطريق انخذل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس... ومضى رسول الله ﷺ على وجهه حتى نزل بالشعب من أحد... فجعل ظهره وعسكره إلى أحد... وتعباً رسول الله ﷺ للقتال في سبعمئة رجل وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم متنا فرس فقد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل وأمر الرسول ﷺ على الرماة وهم خمسون رجلاً عبد الله بن جبير... وقال: انضح عنا الخيل

بالنبيل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، اثبت مكانك لا تؤتينا من قبلك... فاقتتل الناس حتى حميت الحرب... فأنزل الله نصره وصدقهم وعده وكانت الهزيمة لا يشك فيها... لولا أن الرماة الذين عينهم الرسول (ﷺ) على الجبل تركوا أماكنهم وانحدروا ليجمعوا الغنائم مما أعطى فرصة لخالد بن الوليد للالتفاف على المسلمين ومباغتتهم من خلف، فتراجعوا وصاح أحد المشركين أن محمد قد قتل، وفي الحقيقة أصيبت رباعيته وشح في وجنتيه وكُلِّمَت شفتاه... وقاتل مصعب بن عمير دون الرسول الله (ﷺ) ومعه لواءه حتى قتل فأعطى رسول الله (ﷺ) علي بن أبي طالب اللواء. ثم عرف المسلمون ما برسول الله فنهضوا به ونهض معهم نحو الشعب ومعه صحابته. ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هي بيننا وبينكم موعد.

الباب التاسع

الفصل الثامن

غزوة الخندق - الأحزاب

٥ / هـ، ٦٢٧ / م

أ - أسباب غزوة الخندق:

قام يهود بني قريظة بتأليب القبائل ضد المسلمين وشجعوهم على التحالف مع قريش لمحاربة المسلمين.

ب - أحداث غزوة الخندق:

ألقت قريش حلفاً مع عدد من القبائل المعادية للإسلام، ثم توجهت جموعهم في حوالي عشرة آلاف مقاتل نحو المدينة المنورة، بقصد احتلالها وتدميرها وقتل سكانها.

استشار الرسول ﷺ أصحابه، فأشار عليه الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول القسم المكشوف من المدينة، وقد شارك الرسول ﷺ بحفر الخندق، كما جهّز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مجاهد بقصد التصدي للمشركين.

فوجئت قريش وحلفاؤها بوجود الخندق، وهو أمر لم يألفه العرب في حروبهم السابقة، ولذلك لم يتمكن جيش المشركين من اجتياز الخندق للوصول إلى المدينة المنورة.

لم تحدث معركة حاسمة أو مواجهة مباشرة بين الطرفين، واقتصر الأمر على بعض المبارزات الفردية مع المشركين الذين تمكن بعضهم من القفز فوق الخندق، فتصدى لهم المسلمون فبعضهم قتل وبعضهم الآخر هرب.

لجأ الرسول إلى العمل السياسي لفك الحصار عن المدينة المنورة عن طريق بث الفرقة في صفوف الأحزاب، وقد نجح في ذلك. كما أن تسخير عوامل الطبيعة التي أرسلها الله تعالى من عواصف وأمطار غزيرة أسهمت في فشل الحصار، حيث تم اقتلاع الخيام وتشرد الخيول فانسحب المشركون وعادوا خائبين.

ج . نتائج غزوة الخندق:

- ١ - هزيمة الأحزاب وفشلهم في تحقيق أهدافهم.
 - ٢ - فقدان قريش هيبتها بين القبائل.
 - ٣ - ارتفاع شأن المسلمين بين القبائل العربية.
 - ٤ - اكتساب المسلمين أساليب جديدة في القتال.
 - ٥ - معاينة الرسول ﷺ بني قريظة عقاباً شديداً بسبب غدرهم بالمسلمين، ونقضهم العهد مع الرسول، وانحيازهم إلى الأحزاب.
- سُميت هذه الغزوة بغزوة الخندق نسبة إلى الخندق الذي حفره المسلمون حول القسم المكشوف من المدينة المنورة. وتسمى أيضاً (غزوة الأحزاب) نسبة إلى اتفاق جماعات مختلفة ضد المسلمين.

د . المباراة بين علي بن أبي طالب وعمرو بن ود العامري في غزوة الخندق (السنة الخامسة للهجرة):

فلما كان يوم الخندق خرج عمرو بن ود وهو مقنع بالحديد فنادى: من يبارز؟ فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله، فقال النبي: اجلس. ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟ فقام علي فقال: أنا يا رسول الله! فقال: اجلس. ثم نادى الثالثة فقام علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمراً. فأذن له رسول الله ﷺ، فمشى إليه، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي، قال أبنُ عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فيني أكره أن أقتلك؟ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أقتلك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في درقته وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشججه، وضربه علي على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج، وسمع رسول الله التكبير فعرفنا أن علياً قد قتل، ثم أقبل علي نحو رسول الله ووجهه يتهلل.

الباب التاسع

الفصل التاسع

صلح الحديبية

٦ / هـ، ٦٢٨ / م

أ - رغبة الرسول (ﷺ) في أداء العمرة:

من شعائر ديننا الإسلامي أداء فريضة الحج مرة في العمر لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً. ويتم الحج في أيام محددة من العام الهجري. أما العمرة فهي تعني أداء مناسك الحج في غير موسمه. وفي السنة السادسة للهجرة، وبعد أن ازدادت قوة المسلمين قرر الرسول ﷺ زيارة مكة لأداء العمرة، وإظهار قوة المسلمين وتعظيمهم للكعبة المشرفة.

خرج الرسول (ﷺ) من المدينة على رأس ألف وأربعمئة من المسلمين قاصداً مكة. وقد حاولت قريش إقناعه بالعدول عن دخول مكة، ولكنه أصر على موقفه، وأرسل إليها وفداً برئاسة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ليبيّن للمشركين أنه جاء إلى مكة مسالماً لا محارباً.

تأخر وفد المسلمين لدى قريش ثلاثة أيام، وسرت إشاعة مفادها أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد قتل، فبايع المسلمون الرسول على محاربة قريش، وسمّيت هذه البيعة (بيعة الرضوان) لكن الوفد عاد سالماً وتم عقد الصلح بين الطرفين، وسمي صلح الحديبية نسبة إلى المكان الذي عقد فيه الصلح.

ب - شروط صلح الحديبية:

- ١ - إيقاف الحرب بين الطرفين أي الرسول وقريش لمدة عشر سنوات.
- ٢ - أن يردّ الرسول ﷺ من يأتيه مسلماً من قريش دون إذن وليه ولا تلتزم قريش بردّ من يأتيها من المسلمين.

٣- أن يرجع الرسول ﷺ وصحبه هذا العام، فإذا كان العام القادم دخلوا مكة لأداء العمرة بعد أن تخرج منها قريش.

٤- من أراد الدخول في حلف قريش فله ذلك، ومن أراد الدخول في حلف المسلمين فله ذلك.

ج . نتائج صلح الحديبية:

١- اعترفت قريش رسمياً بالجانب الإسلامي مثلاً بالرسول ﷺ وأصحابه المؤمنين.
٢- بدأ عدد من مشاهير الرجال في مكة بالدخول في الإسلام مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

٣- أتاح هذا الصلح الفرصة لتأديب من تبقى من اليهود وهم يهود خيبر.
٤- أتاح هذا الصلح الفرصة للرسول ﷺ لنشر دعوته في بقية أجزاء الجزيرة العربية وخارجها فأرسل عدة رسائل إلى الملوك والأمراء في عصره يدعوهم فيها إلى الإسلام.

د . الرسائل إلى الملوك والحكام:

من الملوك والحكام الذين تم إرسال رسائل إليهم لدعوتهم إلى الإسلام كسرى ملك الفرس، وهرقل ملك الروم، والمقوقس حاكم مصر، وكذلك النجاشي ملك الحبشة. وقد كان ردُّ الملوك والحكام مختلفاً. فمنهم من كان رده لطيفاً مع أعضاء الوفد، ومنهم من كان رده قاسياً وجافاً. ولكن لم يقبل أحد منهم الدخول في الإسلام.

هـ . غزوة خيبر ٧ هـ - ٦٢٩ م:

شعر الرسول الله ﷺ بأن الوقت قد حان لمعاقبة يهود خيبر بسبب مواقفهم المملوءة بالخداع والتآمر، وتعرضهم لقوافل المسلمين الذاهبة إلى بلاد الشام. وقد حاصر الرسول حصونهم وفتحها، وتم إجلاء قسم منهم عن المنطقة، وسمح للقسم الآخر بالبقاء فيها شريطة تقديم قسم من غلالها للمسلمين.

و. غزوة مؤتة (١) ٨ هـ - ٦٣٠ م:

تقع قرية مؤتة على مشارف بلاد الشام. وفي السنة الثامنة للهجرة أرسل الرسول جيشاً لمحاربة الروم في تلك المنطقة، وكان يقوده زيد بن حارثة وعدده ثلاثة آلاف مقاتل. وعندما وصل إلى هناك وجد أن الروم قد حشدوا له ما يزيد على مئة ألف مقاتل. وقد دارت معركة قاسية قتل فيها قائد المسلمين زيد بن حارثة، واستشهد بعضهم في المعركة، وتمكن خالد بن الوليد من إعادة جيش المسلمين إلى المدينة.

وتكمن أهمية غزوة مؤتة أنها أول توجيه من الرسول ﷺ للمسلمين بضرورة محاربة الروم وطردهم من بلاد الشام.

الباب التاسع

الفصل العاشر

فتح مكة المكرمة

٨ / هـ، ٦٣٠ / م

أ - فتح مكة:

نقضت قريش صلح الحديبية؛ لأنها ساعدت قبيلة بكر المتحالفة معها ضد قبيلة خزاعة المتحالفة مع المسلمين، ولذلك صمّم الرسول ﷺ على تنفيذ الاتفاق الذي عقده مع القبيلة المتحالفة معه.

جهّز الرسول جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل وخرج قاصداً مكة وقد حاولت قريش تجديد الصلح مع المسلمين، ولكن الرسول رفض ذلك.

قبل وصول المسلمين إلى مكة التقوا أبا سفيان فأسلم وعاد إلى مكة يدعو أهلها للدخول في الإسلام ويبلغهم قول الرسول (ﷺ) من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن.

قسم الرسول ﷺ جيش المسلمين إلى أربعة أقسام ليدخل كل قسم من جهة، ودخل المسلمون مكة دون مقاومة. وطاف الرسول ﷺ مع المسلمين حول الكعبة وحطموا الأصنام. ولقد عفا الرسول ﷺ عن أهل مكة، وقال لهم عبارته المشهورة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

ب - نتائج فتح مكة:

- ١ - تحطيم الأصنام وانتهاء عهد الوثنية في مكة.
- ٢ - إعلان قريش ومعظم القبائل دخولها الإسلام.
- ٣ - تمهيد الطريق لتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام.

ج - غزوة حنين وحصار الطائف: ٨ / هـ، ٦٣٠ / م

بعد فتح مكة ودخول قريش في الإسلام لم يبق على الوثنية في مكة والمناطق القريبة منها سوى قبيلتي هوازن وثقيف اللتين تحالفتا ضد المسلمين. وقد سار الرسول ﷺ على رأس الجيش الذي فتح به مكة باتجاه وادي حنين المؤدي إلى الطائف.

وكانت مفاجأة غير متوقعة للمسلمين أن مقاتلي هوازن وثقيف تمركزوا في شعاب وادي حنين، ثم هجموا فجأة على المسلمين، وأحدثوا ارتباكاً كبيراً في صفوفهم. ولكن المسلمين تمكنوا من استعادة قوتهم وهزموا المشركين، وحاصروا مدينة الطائف، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها وانسحبوا منها وبعد فترة قدم وفد من هوازن وثقيف إلى المدينة المنورة وأعلنوا إسلامهم. وقد وردت في القرآن الكريم في سورة التوبة آيتان تتحدثان عن غزوة حنين «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم».....

د - غزوة تبوك: ٩ / هـ، ٦٣١ / م؛

بعد استقرار الأمور في منطقة الحجاز قاد الرسول جيشاً تعداده حوالي ٣٠ ألف مقاتل لقتال الروم المحتشدين في تبوك. ولكن لم تحصل معركة أو مواجهة مباشرة بين المسلمين والروم؛ لأن هؤلاء انسحبوا من تبوك قبل وصول المسلمين إليها فدخلها الرسول ﷺ وصالح أهلها، ثم عاد إلى المدينة المنورة.

هـ - عام الوفود: ٩ / هـ، ٦٣١ / م؛

بعد غزوة تبوك أخذت القبائل العربية من جميع أنحاء شبه جزيرة العرب تفد إلى المدينة المنورة لكي تعلن إسلامها. وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة، ولذلك أطلق على ذلك العام اسم عام الوفود.

و - خطاب الرسول ﷺ يوم فتح مكة:

وقف الرسول ﷺ بعد أن فتح مكة المكرمة على باب الكعبة ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى

فهو تحت قدميَّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا، فيها الدية مغلظة.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، ثم تلا: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» الحجرات / ٤٩ . يا معشر قريش (أو يا أهل مكة) ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

الباب التاسع

الفصل الحادي عشر

حجة الوداع - ١٠ هـ، ٦٣٢ م

أ. تأدية المسلمين لفريضة الحج:

بعد أن اطمأن رسول الله ﷺ إلى انضمام سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، قرر الذهاب إلى مكة الأداء فريضة الحج وتعليم المسلمين مناسك الحج ودعوتهم للتمسك بدينهم.

اجتمع في مكة أكثر من مئة ألف حاج من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية.

وبعد تأدية المسلمين لفريضة الحج وقف الرسول ﷺ ليلقي خطبته الأخيرة، ويعلن استكمال تعاليم الدين الإسلامي، حيث ورد في سورة المائدة قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (الآية رقم ٣).

كانت هذه أول وآخر حجة للرسول، وقد سميت بحجة الوداع؛ لأن المسلمين شعروا من خلالها وكأن الرسول يودّعهم، ولن يلقاهم مرة ثانية في موسم الحج.

ب. تجهيز جيش أسامة:

كان الرسول ﷺ يشعر بأن الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية ما تزال مهددة بالخطر بسبب وجود الروم في جنوب بلاد الشام، ولذلك أمر بتجهيز جيش لمحاربة الروم بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة. ولكن هذا الجيش لم ينفذ مهمته بسبب وفاة الرسول ﷺ.

ج. وفاة الرسول ١١ / هـ ٦٣٢ / م:

عاد الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بعد حجة الوداع وقد مرض بالحمى، وتوفي بسبب هذا المرض في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ١١ هـ عن عمر يناهز الثالثة والستين عاماً، بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة وحدد لها الطريق المستقيم.

د . مقتطفات من خطبة الرسول في حجة الوداع:

وقف الرسول ﷺ في آخر حجة له خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه، عليها وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيع بن الحارث بن عبد المطلب.

أيها الناس: إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد؛ أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد؛ أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد؛ فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدها كتاب الله ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد؛ أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد؛ قال: فليبلغ الشاهد الغائب).

الباب العاشر

سمات النبي صلى الله عليه وسلم

الباب العاشر

الفصل الأول

السمات الخُلُقِيَّة والنفسِيَّة للنبي ﷺ

لا شك أن الله تعالى عندما خلق الإنسان جعله في أحسن تقويم كراماً منه ومحبة واصطفاءً على سائر المخلوقات وهو في الوقت نفسه قد اختار أنبياءه على أحسن صورة خلقية ونفسية بين البشر، فقد أثنى الله تعالى على أخلاق أنبيائه ورسله، وفضل نبينا محمد على سائر هؤلاء الأنبياء والرسل بدلالة إمامته لهم في بيت المقدس في حديث الإسراء والمعراج، ولو أننا أردنا أن نتوقف عند خلق هذا النبي الكريم محمد ﷺ لاحتجنا إلى بحث مستقل وليس في تاريخ الأنبياء أو العظماء أو المصلحين من عرفت صفاته وأخلاقه بكل دقائقها وتفصيلها على النحو الذي عرفت فيه صفة محمد بن عبد الله - صلوات وسلامه الله عليه - وأخلاقه، وقد حفظت لنا كتب السيرة والحديث وصفاً دقيقاً شاملاً لصفة النبي وهيئة وحرركته وسكونه... إلخ ووصفاً آخر له ولأخلاقه و" هديه " في جميع أبواب التعامل مع الأسرة والمجتمع والعالم وصورت لنا - في صفحات كثيرة - دقائق حياته عليه الصلاة والسلام في كل شيء... ويكفي للدلالة على ما نقوله مراجعة واحد من فهراس كتب السيرة المشهورة، مثل كتاب " زاد المعاد في هدي خير العباد " لابن القيم " الشفا بتعريف قوة المصطفى " للقاضي عياض.

ويعود السبب في ذلك فوق أن النبي مشرع وقدوة ومثل أعلى، إلا أن حياته ﷺ فيها مجال للتفريق بين الحياة الشخصية والحياة الرسمية أو العامة ففي الوقت الذي يقول فولتير: " إن الرجل لا يكون عظيماً في داخل بيته، ولا بطلاً في أسرته يعني بذلك أن عظمة الرجل لا يعترف بها أقرب الناس إليه؛ لأنهم يقفون على دخيلته ومبازله، نجد الرسول الكريم ﷺ لا يصح فيه هذا القول، ونحن نرى دقائق حياته معروفة لدينا دون استثناء ودون تفريق.. ونرى في هذه الدقائق - مع الذين شاهدوها ونظموها - مثلاً نادراً من أمثلة الرقة والإخلاص والعظمة والبطولة. فهل يمكننا القول إذن: إنه كلما اقترنت هاتان صورتان في حياة الإنسان:

صورة حياته الخاصة وصورة حياته العامة كان أقرب إلى الكمال؟ إذا أمكننا ذلك، أدر كنا واحداً من الوجوه الكثيرة التي كان بها رسول الله - وقد اتحدت هاتان الصورتان في شخصه الكريم - المثل الأعلى، والإنسان الكامل.

وإذا كان لابد لنا هنا من "الإشارة" إلى بعض جوانب هذا الكمال وذلك المثل، فإننا نكتفي من ذلك: أن حياة النبي عليه السلام على النحو السابق قد شملت جميع وجوه النشاط الإنساني في كل الحالات، وفي جميع الأشياء فكان رسول الله (نبياً، وقائداً، وحاكماً وزوجاً، وأباً، ومحارباً، وإدارياً، وخطيباً، ومربياً..) كما ضرب لنا المثل في حياته في البيت، وفي السوق، وفي المسجد، وفي السفر وفي الحضر، وبين الأصحاب.. بحيث يمكن لحياته - ﷺ - أن تكون قدوة وأسوة في كل شيء، مصداقاً لقوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وأن رسول الله بلغ في كل حالة من تلك الحالات، وفي كل صورة من هذه الصور غاية ما يصل إليه إنسان فرغ نفسه وحياته لهذه الصورة أو تلك الحالة فكان - ﷺ - مثال الأنبياء، ومثال الأزواج، ومثال الآباء، ومثال المحاربين... إلخ. إن العظماء الذين أصابوا في التاريخ وجهاً من وجوه التفوق والنبوغ، وسادوا بهذا الوجه في أمهم... ربما قامت في سيرتهم من الوجوه الأخرى على أناس عاديين في بعض الأحيان أو أشرار وضيعين في أحيان أخرى، أما محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - فقد كان عظيماً في كل شيء، نبيلاً في كل شيء قائداً ومثلاً أعلى في كل شيء... اذكر ما شئت من "صفات النبيل" واذكر ما شئت من "معالم النشاط الإنساني، ووجوه التعامل مع الكون" ثم انظر في سيرة رسول الله تجده ﷺ عظيم العطاء، وبطل الأبطال.

١- إذا ذكرت "الرحمة والمودة والإنسانية" ذكرت رسول الله وقد قارب الستين يبكي على قبر أمه بكاء من لا ينسى.. وذكرت حنانه على مرضعته وحفاوته بها يتلقاها وقد جاوز الأربعين هاتفاً بها أمي... أمي.

٢- وإذا ذكرت "التواضع والسماحة" ذكرت قوله عليه الصلاة والسلام - وقد قام له بعض الصحابة عندما دخل عليهم مرة - : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً " وقوله: "إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد" وذكرت موقفه يوم

فتح مكة، الذي يعدل - وحده - ألف موقف من مواقف التاريخ، دخل رسول الله مكة بعد كفاح إحدى وعشرين سنة بينه وبين أهلها - لم يتركوا خلالها طريقاً للقضاء عليه وعلى دعوته إلا سلكوه.. فلما دخل مدينتهم فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس، على راحلته حتى كاد يمس قادمته، ثم استغفر لأهلها وأطلق لهم حربتهم بكلمة المشهورة " أقول كما قال أخي يوسف: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وقد جاء في صفته - ﷺ - أنه كان " يجلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويحمل بضاعته من السوق.

٣- أما عفته وأمانته وصدقه فبحسبك منها أنه كان يسمى قبل نبوته (الأمين). وأن أهل مكة - بعد دعوته - كانوا يتركون عنده ودائعهم - وهم خصومه - حتى اضطر علي بن أبي طالب أن يخلفه في مكة يوم الهجرة ليرد الودائع إلى أهلها، وهذا الضر بن الحارث يقول لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلمت ساجر. لا والله ما هو بساجر. وإذا تركت هذه الصفات وانتقلت إلى طرف من معالم النشاط الإنساني.. فإذا ذكرت " الحرب وقيادة الجيوش " برز لك رسول الله قائداً بغير نظير.. وذكرت مع القيادة مشاركة في القتال حديث يعفي بعض القادة العظام أنفسهم من القتال...

٤- وإذا ذكرت مع كل ذلك شجاعة لا تدانيها شجاعة؛ لأنها الشجاعة المثل التي يعتد بها الشجعان، وبحسبك أن يقول علي بن أبي طالب فارس الفرسان: " كنا إذا همي البأس اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو.

٥- وإذا ذكرت " الإدارة وتدبير الشؤون العامة " ذكرت تلك السليقة المطبوعة التي تعرف النظام، وتعرف التبعة، وتعرف الاختصاص بالعمل فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه.. " وقرأت في سيرة الرسول الكريم أنه كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمعي الذي يحتاج إلى تدبير، ورأيت مع ذلك أنه كان يعني بإسناد الأمر إلى المدبر القادر عليه، وأنه كان حريصاً على تقرير التبعات في الشؤون ما كبر منها وما صغر على النهج الذي أوضحه بقوله: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير

الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسؤولة عنه... ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته) وحسبك من إدارته العليا - عليه السلام تديره للشؤون العامة حين تصطدم بالأهواء وتندر بالفتنة والنزاع، كما صنع حين أقام الحجر الأسود في مكانه يوم اختلفت على ذلك القبائل.. وكما صنع حين نزل على دار أبي أيوب يوم الهجرة، وقد ترك الزمام لناقته تبرك حيث طلب لها أن تبرك..

٦- وكان ﷺ موضع الأسوة الحسنة للفقراء والضعفاء والمساكين... أو بتعبير أدق موضوع الأسوة في الجانب الذي تقل فيه حيلة الإنسان، ولا يجد ما يركن إليه أفضل من التأسي والصبر والمصابرة... إن الإنسان بحاجة على الدوام إلى " مثل أعلى " يحتذي به، ولكنه أكثر ما يكون حاجة إلى هذا المثل وهو مهيض الجناح، ضعيف الجانب، ليقوى فيه جانب العزيمة والأمل... وحتى لا يقع فريسة للضعف الذي يتتابه من كل جانب.. إن الحديث عن الآثار النفسية التي يتركها مثل هذا الأمر على نفس الإنسان وعلى نشاطه وسلوكه أهم وأدق من أن يتسع لها وقتنا الآن.

ولكن يمكننا القول على سبيل المثال: لا يقعد باليتيم يتمه، ولا بالفقير فقره.. فإن رسول الله - أشرف مخلوق على الله - ولد يتيماً... ونشأ فقيراً.. وعاش زاهداً.. ومات وليس على وجه الأرض رجل سعى كسعيه، ونجح كنجاحه.. فلم يقعد به اليتيم أو الفقر... أو ما لقيه من الأذى والصدِّ والعدوان.. أن يدعو، وأن يجاهد، وأن يصبر.. وأن يعلم.. وأن يبلغ ذروة الكمال الذي أعطاه الله للإنسان.. حتى وصفه الله تعالى بقوله: (وإنك لعلی خلق عظیم).

٧- إن حياة النبي ﷺ بعد نشأته الأولى التي لم يعرف فيها أباه، وماتت فيها أمه وهو صغير، ثم فقد عمه أبا طالب كافلته.. والتي اضطرت فيها إلى العمل في سن مبكر.. إن حياته ﷺ بعد هذه النشأة القاسية كانت معرضاً لأقصى ما يمكن أن يصاب فيه إنسان.. من الضنك والكفاف.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "توفي رسول الله ولم يشبع يومين متتالين" وتقول: "لم يكن في بيته يوم التحق بالرفيق الأعلى سوى صاع واحد من شعير.. " وتقول أيضاً: "لم يطو

ثوبه ﷺ أبداً " تعني أنه لم يكن له ثوب آخر غير الذي على جسده الطاهر. ولم يكن هذا الكفاف الذي عاش فيه النبي ﷺ؛ لأن ما لا يمكن يأتيه على الدوام.. ولكن لأنه آلى على نفسه أن يعيش هكذا على الدوام.. مثلاً لأصحاب الكفاف إلى يوم الدين، وهو خلق قد أخذ به أهله كذلك - ﷺ - ولنذكر مع عاطفة الأبوة وحبه ﷺ لابنته فاطمة سيدة نساء العالمين أنه امتنع من زيارتها مرة؛ لأنه وجد في يدها سوارين من فضة، حتى أرسلتها إليه فباعهما بدرهمين ونصف وتصدق بها على الفقراء.

٨- وعلى ذكر الأبوة والبنوة... فهذا رسول الله ﷺ يمضي عليه نيف وعشرون سنة لا تلد له في خلاها زوجة من زوجاته.. ويموت في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل، مات القاسم والطاهر طفلين، وماتت زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن....

رسول الله يفجع بأولاده وبناته صغاراً وكباراً وهو صابر محتسب.. أي عزاء للأب المفجوع أكبر من هذا العزاء. وأي أسوة ومثل أعلى وأفضل من هذا المثل.. بل إن هنا في هذا العزاء بقية لتأمل.. فقد ولد لرسول الله بعد نيف وعشرين سنة ولده إبراهيم الذي تحير له رسول الله هذا الاسم على أمل أن يكون له أعقاب كأعقاب جده الأعلى إبراهيم عليه السلام.. فيكون رجاء لا ينتهي بانتهاء الزمان.. ثم مات إبراهيم الطفل وضاع الأمل الكبير ورسول الله في الستين من عمره، فذرف الدمع لفقد ولده.. وقال: (إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع.. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.. وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون..).

أي صورة من صور الصبر والاحتفال أقوى من هذه الصورة؟ وأي مثل أعلى من هذا المثل؟

٩- ثم هذا رسول الله ﷺ في عرضهم في عرضه وفي أحب نسائه إليه.. وتلغظ المدينة بحديث الإفك.. ويقف النبي أمام هذا الحديث المريب، فلا يقبله بغير بينة، ولا يرفضه بغير بينة.. على ما أصابه فيه من ألم ممض وأسى موجه.. ويبقى في معاملته لزوجته على أكرم ما يكون الرجل وأنبل ما يكون الزوج.. حتى ينزل الله تعالى براءة السيدة عائشة من فوق سبع سموات. كل هذا، وأمور أخرى كثيرة تصيب النبي ﷺ في حياته.. فأى أسوة حسنة أعلى من هذه الأسوة في

جانب المحن والآلام التي لا حيلة لإنسان في دفعها أو رفعها.. إن علينا أن نهتدي بهدي رسول الله، وأن نقلده في مجموعة صفاته النفسية وملكاته الأخرى من الشجاعة والكرم والوفاء والتضحية.. ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وفي حدود ما نقدر عليه من هذه الصفات.. ولكن الأسوة الرائعة التي ليس فوقها أسوة: الصبر على احتمال المكارِه والمصائب التي لا حيلة للإنسان فيها... والتي تجمع منها في شخص النبي الكريم ما لو وزَّع على عشرات الأبطال لقعد بهم.. والتي قلما يصيب الإنسان منها أكثر من مكروه أو نازلة كاليتيم والفقر، والأذى، وفقد المعيل، وفقد الولد أو فقد القريب والنصير أو الطعن في العرض... ونحو ذلك من ضروب الآلام.

إذا ذكرنا سيرة رسول الله صلى عليه وسلم في هذا الجانب.. وذكرنا معها أن الضعفاء في الأرض هم الأكثرون.. وأن قيام أمر الأمم بجيوشها ومفكرها وزعمائها منوط بالفقراء والمساكين لا بالأغنياء والمترفين... أدركنا أي مدى نفسي تعطيه سيرة النبي لأمته... وأي سلطان قاهر مذل ترفعه عن أعناقها.. واستطعنا أن نفسر طرفاً من استعصاء هذه الأمة على المحو والزوال. إنها سيرة الرسول والعظيم.. ترتفع أمام أعينهم سامقة حية تعزيهم وتصبرهم.. وتمسح عنهم جراحهم.. وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم..

إن الحديث حول هذه النقطة يطول، وبحسبي هذه الإشارة العابرة.. وبحسبي أيضاً أن أقول على سبيل المثال: كم من طفل رُبي في بلاد العروبة والإسلام لم يكن يحس بما يحس به سائر الأطفال من متعة المأكل والملبس والسكن، لفقر أو يتم.. ولكن الأمل والحسرة لم تتسرب إلى نفسه لتطفئ فيها جذوة الأمل، أو روح الذكاء والعمل؛ لأنه كان يمضي من درس معلمه وقد وعى صورة النبي اليتيم.. وصورة النبي الذي لم يشبع يومين متتاليين... فتتقد في نفسه جذوة الأمل والكفاح وهو يردد في خاطره قول الله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

الباب العاشر

الفصل الثاني

السمات الخلقية - الجسدية للنبي محمد ﷺ

أحصى العلماء شمائل وصفات النبي محمد ﷺ الجسدية إحصاءً دقيقاً متواتراً في النقل، فقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال: سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به فقال:

١- «كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع.

٢- (لا بالطويل ولا بالقصير) وأقصر من المشذب.

٤- عظيم الهامة.

٥- رجل الشعر (ليس بسيط ولا جعد)، إن انفردت عقيقته فرق (انفراق شعر الرأس) وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرة.

٦- أزهر اللون.

٧- واسع الجبين.

٨- أزج الحواجب (الحواجب طويلة وافرة الشعر) من غير قرن (غير متصل شعر الحاجبين) بينها عرق يدره الغضب.

٩- أقنى العينين (السائل الأنف المرتفع وسطه) له نور يعلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشم.

١٠- كث اللحية.

١١- أدعج (شديد سواد الحدقة).

١٢- سهل الخدين.

- ١٣- ضليح الفم (واسع).
- ١٤- أشنب (رونق الأسنان ورقتها) مفلج الأسنان (فرق بين الثنايا).
- ١٥- دقيق المسربة (خيط الشعر بين الصدر والسرة).
- ١٦- كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة.
- ١٧- معتدل الخلق بادناً متماسكاً (ذا لحم من عضل لا من شحم).
- ١٨- سواء البطن والصدر (ليس له بطن مرتفع ضخم).
- ١٩- بعيد ما بين المنكبين (عريض الأكتاف).
- ٢٠- ضخم الكراديس (ضخم رؤوس العظام).
- ٢١- أنور المتجرد، موضوماً بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط.
- ٢٢- عاري الثديين ما سوى ذلك.
- ٢٣- أشعر الذراعين والمنكبين، وأعالي الصدر.
- ٢٤- طويل الزندين.
- ٢٥- رحب الراحة (واسع الراحة).
- ٢٦- شثن الكفين والقدمين (لحميهما).
- ٢٧- سائل الأطراف (طويل الأصابع) سبط العصب.
- ٢٨- خمسان الأخصيين (متجافي أخمص القدم لا تنال الأرض من وسط قدمه).
- ٢٩- مسيح القدمين (أملسهما) ينبو عنهما الماء إذا زال تقلعا.
- ٣٠- يرفع رجله بقوة ويخطو تكفوؤاً.
- ٣١- يميل خطوة إلى سنن المشى وقصده.
- ٣٢- ويمشي هدناً (برفق ووقار) ذريع المشية (إذا مشى كأنها ينحطُّ من صَبَب).
- ٣٣- وإذا التفت التفت جميعاً خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء
جُلُّ نظره الملاحظة يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام.

قلت: صف لي منطقه، قال:

٣٤- «كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة طويل السكوت (كان سكوته على الحلم والحذر والتقدير والتفكير).

٣٥- يفتح الكلام ويختمه بأشداقه (يستعمل جميع فمه للتكلم ولا يقتصر على تحريك الشفتين) ويتكلم بجوامع الكلم فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير (قوله قول فصل يصيب مقطع المعنى ولا حشو في كلامه ولا تقصير).

٣٦- دمثاً ليس بالجافي ولا المهين (سهل الخلق وليس بالغليظ) يعظم النعمة وإن دقت ولا يذم شيئاً لم يكن يذم ذوقاً ولا يمدحه (لا يذم ما يتذوقه من الطعام ولا يمدحه).

٣٧- ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء، حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها.

٣٨- إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهام اليمنى راحته اليسرى

٣٩- إذا غضب أعرض وأشاح.

٤٠- وإذا فرح غض طرفه.

٤١- جل ضحكته التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام.

الباب العاشر

الفصل الثالث

الحديث النبوي الشريف

أ- مصطلح السنة النبوية المطهرة:

يطلق مصطلح الحديث النبوي الشريف، أو السنة النبوية عند المحدثين على كل ما صدر عن النبي عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير، فمن قوله عليه السلام: - عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر - . ومن أفعاله التي نقلت عن السيدة عائشة أنه كان يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله، ومن تقريره عليه السلام عدم إنكاره على خالد بن الوليد عندما أكل الضب أمامه، وقد رفض عليه الصلاة والسلام أكل الضب قائلًا: - إن نفسي تعافه وهو ليس في أرض قومي.

وتعود أهمية الحديث من كونه مفصلاً ومفسراً وموضحاً ومكماً لما جاء في القرآن الكريم، وقد حفظ الكثير من الصحابة أحاديث الرسول وسجل بعضهم الكثير منها في حياته وإن كان قد نبى عليه السلام عن كتابة الحديث حتى لا تختلط بكلام القرآن. ومن كتبوا الحديث في حياته: عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيفة أسماها الصادقة.

ب- مكانة السنة النبوية من التشريع:

تعد السنة النبوية المطهرة المصدر الثاني للتشريع، ولا خلاف بين الفقهاء على أنها حُجَّة في التشريع بجانب القرآن الكريم، لذا فالسنة قد تؤكد ما ورد في القرآن الكريم من أحكام، وقد تفسر نصوصه، أو تفصل ما أجمل من أحكامه، وقد تُنشئ حكماً لحالات لم يرد بشأنها نص في الكتاب، ومع ذلك لا يُلجأ إلى السنة دليلاً للأحكام إلا عند خلو القرآن من نص يفى بالمطلوب، فالسنة هي التي وضحت لنا - نحن المسلمين - أن الصلوات المفروضات خمس في اليوم والليلة، وهي التي بينت لنا عدد ركعاتها وأركانها، وهي التي بينت لنا حقيقة الزكاة، وعلى من تجب وأنصبتها، وكيفية الحج والعمرة، وأن الحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر،

وبينت موافقته، وعدد الطواف. فعلى كل من يدعي أنه متمسك بالقرآن، ويهجر السنة أن يبادر إلى تجديد إيمانه، وبالرجوع إلى الله تعالى قال سبحانه - : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [طه: ٨٢].

فالقرآن الكريم، والسنة المطهرة هما وحي الله إلى رسوله محمد - ﷺ - ، وهما مصدرا التشريع الإسلامي الذي رد الإنسان إلى فطرته، وجعل منه بشراً يعرف طريقه إلى الحياة، مردداً قول الله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ [الأعراف: ٤٣].

قال عز من قائل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء: ٥٩]. وقال سبحانه: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا [الحشر: ٧].

ج- دور السنة النبوية:

ها هو الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله يحدد في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) دور السنة بالنسبة للقرآن الكريم فيقول: "السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

والثاني: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن، وتفسيراً له.

والثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما".

د- مراحل تدوين السنة النبوية المطهرة:

وقد مرّ تدوين الحديث النبوي في ثلاث مراحل:

١ - مرحلة الصحف والأجزاء الصغيرة: وبقيت منتشرة حتى عصر أوائل التابعين.

٢ - مرحلة ضم التسجيلات المتفرقة: وقد استمرت حتى أوائل القرن الثاني الهجري بدعم من الأمويين وبفضل ابن شهاب الزهري.

٣- مرحلة تصنيف الأحاديث في فصول وأبواب: ومن أشهر المصنفات في هذه المرحلة الموطأ لمالك بن أنس، ثم أفردت الأحاديث في مؤلفات خاصة تسمى بالمساند وهي تخلو من فتاوى الصحابة والتابعين كمسند الإمام أحمد بن حنبل، ثم دُونت كتب الصحاح كصحیح مسلم والبخاري وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه.

وقد كان للحديث أثر في اللغة والأدب والثقافة بقضايا لا تتعدى أغراض وموضوعات القرآن وموضوعاته المترکزة حول العقيدة والعبارة والمعاملات وشؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وقد رويت أحاديث كثيرة بمعانيها لا بألفاظها مما جعل الروايات تختلف في الحديث الواحد، بالإضافة إلى ما صنعه الأعاجم من تغيير في هذه الروايات ومن تعديل وإبدال ألفاظ بألفاظ أخرى، مما جعل المفسرين لا يهتمون بها في اللغة والاستدلال بقواعدها وإن كان بعضهم قد أجاز ذلك.

ومن أمثلة الأحاديث التي رويت رواية تواتر بلفظها ومعانيها، قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً الأنصار: أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع، وتكثرّون عند الفزع. وقال عليه الصلاة والسلام: أوصاني ربي بتسع: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمّن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبراً. وقوله: حمي الوطيس. وقد دارت بعض أحاديثه دوران الأمثال كقوله: لا يلسع المؤمن من جحر مرتين. ويعد الرسول عليه الصلاة والسلام من فصحاء العرب وهو القائل: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش. وكان الرسول الكريم يخاطب القبائل العربية بلهجاتها.

هـ- أثر الحديث النبوي الشريف في اللغة والأدب.

إذا كان الحديث النبوي الشريف هو كل ما حُكي عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فإن أهميته تكمن في تفصيل أصول الدين الإسلامي وأحكامه التي وردت في القرآن الكريم: كتفصيل أوقات الصلاة وأنصبة الزكاة، وتبيين أحكام الشريعة والمبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية وتصويرها عملياً. وقد سُمي الحديث حديثاً؛ لأنه نقل من جيل إلى

جيل عبر الرواية والنقل الشفهي. ويُسمى أيضاً السنة، وهي في اللغة: العادة. ويراد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي ﷺ وصحابته.

دُونت بعض أحاديث النبي ﷺ في حياته، ولكنها كانت محدودة جداً لنهي النبي ﷺ أن تصبح كتابة الحديث عامة؛ حتى لا يختلط بالقرآن. ولم يدونه الصحابة رضوان الله عليهم من بعده.

وظل الحديث ينقل بالرواية حتى تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة فأمر بتدوينه. وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث بعده يكثر ويتسع، وللحديث أثر مهم في اللغة والأدب وإن لم يصل إلى أثر القرآن العظيم فيهما؛ لأنه دونه في البلاغة، وإن كان قائله أفصح العرب قاطبة.

ومن آثاره في اللغة والأدب:

- ١- أنه عاون القرآن الكريم في انتشار اللغة العربية وفي حفظها وبقائها.
- ٢- وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُستخدم من قبل، استمد منها المتأدبون في رسائلهم وأشعارهم.
- ٣- وفتح الباب للكتابة التاريخية. فهو السبب في أن المسلمين أشد الأمم عناية بتواريخ رجالهم، وهياً لظهور كتب الطبقات في كل فن.
- ٤- إضافة إلى ما نشأ عنه من علوم الحديث ومشاركته في علوم التفسير والفقهاء، مما بعث على نهضة علمية رائعة.

الباب العاشر

الفصل الرابع

فصاحة النبي ﷺ وبلاغته

قيل: إنه كانت عند النبي ﷺ ملكة من ملكات الخلق والتكوين، ووضع من أوضاع النسب والنشأة، ووجه من وجوه الأداء والتبليغ في رسالة كان معجزتها " بياناً " يتلى، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا. ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه. وفي رواية أخرى عنها أيضاً: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه.

فأنت ترى أن هذا المنطق الذي يمر بالفكر قبل أن ينطق بالفم، وأن العقل فيه من وراء اللسان فهو غالب عليه مصرف له، حتى لا يعثره لبس، ولا يتخونه نقص، وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعدوبة المنطق وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ﷺ.

سمات البلاغة النبوية:

فالبلاغة النبوية لها سمات كثيرة ومتنوعة فقد قال يونس بن حبيب: (ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ).

١- فكلامه ﷺ هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثرت معانيه.

٢- جل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد (وما أنا من المتكلفين)..

٣- وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

٤- لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب.

٥- لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ.

٦- تضمن كلامه ﷺ أكثر من " فن " أو سمة من سمات البلاغة النبوية والكلام النبوي نجد قلة الحروف والكلمات وكثرة المعاني (" جوامع الكلم ").

٧- تنزه هذه البلاغة عن الصنعة والتكليف (مراعاة مقتضى الحال) وهجره للساقط من القول، في قوله " استعمال المبسوط في موضع البسط... إلخ.. " لقد كان رسول الله أفصح العرب وأبلغ من نطق بالضاد.. قال ذلك عن نفسه ولم ينكره عليه أحد.

٨- يخاطب جميع القبائل العربية، كل واحدة بلحنها وعلى مذهبها... وكان في هذا الخطاب أحسنهم بياناً وأقومهم منطقاً ولعل من أوضح الأدلة على هذه المكانة ما أضافه النبي ﷺ إلى ميراث اللغة العربية والبيان العربي من الألفاظ والمعاني والكلمات المفردة التي لم يسبق إليها، أو بحسب تعبير الجاحظ " " مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه فيه عجمي، ولم يدع لأحد، ولا ادعاه أحد " حتى صار مستعملاً ومثلاً سائراً كقوله عليه السلام: " مات حتف أنفه " - وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب (أي بروعتها وبيانها) إلا وسمعتها من رسول الله، وسمعته يقول: " مات حتف أنفه " وما سمعتها من عربي قبله - وكقوله - ﷺ لأبي تميمه الهجيمي: " إياك والمخيلة " قال: يا رسول الله، نحن قوم عرب، فما المخيلة فقال: " سبل الإزار " فذهبت هذه الكلمة دالة على الكبر ونحوه وكقوله: " ياخيل الله اركبي " و" لا تتطح فيها عنزان " و" حمي الوطيس " و" كل الصيد في جوف الفرا " وقوله في يوم بدر: " هذا يوم له ما بعده " .

٩- الموضوعات التي تطل من خلالها هذه البلاغة الرائعة لم تأت في معرض العاطفة أو الخيال.. بل جاءت في معرض الحديث عن الخير والشر، والحلال والحرام... وما يكون من شأن المؤمن أن يقوله أو يفعله على سبيل المثال - الحديث عن " الكاسيات العاريات " وقال

في شأن النساء " رفقا بالقوارير قال: " ومنهن ربيع مربع... والمراد تشبيه المرأة الحسنة المونقة بالربيع المزهر، والروض المنور، وقال لأسامة بن زيد، وقد كساه قبطية فكساها امرأته أخاف أن تصف حجم عظامها وهذه استعارة، والمراد أن القبطية برقتها تلتصق بالجسم، فتبين حجم الثديين والرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء... فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما استتر بها.

وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى وإلى هذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله " إياكم ولبس القباطي، فإنها إلا تشف تصف " وهذا كلام حسن، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال: حجم عظامها، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالأدب، إذ ذكر " أعضاء " المرأة؛ لأنه ينبه إلى صور ذهنية كثيرة، وهي تومئ إلى صور أخرى من ورائها، فتنزه النبي ﷺ عن كل ذلك وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة.. وجاء بكلمة العظام، فالمجاز على ما ترى والحقيقة هي ما علمت وكان للطبيعة أثر في فصاحة النبي عليه السلام في مثل قوله: " إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع، وإذا غاب حاجب الشمس فلا تصلوا حتى تغيب " وقوله - وقد سأله رجل: متى ستصلي العشاء الآخرة قال: " إذا ملاً الليل بطن كل واد " وقوله: " ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل " وقوله: (إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له: أأست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع، قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال).

ومن كلامه ﷺ: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه).

ومن كلامه - ﷺ - حين ذكر الأنصار فقال: (أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع، وتكثر عند الفزع) وقال: (الناس كلهم سواء كأسنان المشط) و(المرء كثير بأخيه) وقال - وذكر الخيل - : (بطونها كنز، وظهورها حرز) وقال عليه الصلاة والسلام: (اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول) وقال: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم،

ويجبر عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم) وقال: (خير المال عين ساهرة، لعين نائمة وهذه استعارة؛ لأن المراد بذلك عين الماء الجارية التي لا ينقطع جريها ليلاً كما لا ينقطع نهراً، فساها ساهرة لهذا المعنى؛ لأنها في ليلها دائبة، وعين صاحبها نائمة، وقال عليه الصلاة والسلام: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)" وقال: (لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً) وقال: (الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة) وقال: (الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة).

ومن حديث عبد الله بن المبارك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: (إذا ساد القبيل فاستقمهم، وكان زعيم القوم أزدلهم، وأكرم الرجل اتقاء شره فليتنظر البلاء) وقال عليه الصلاة والسلام (دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء. والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا. إلا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم؟... أفشوا السلام وصلوا الأرحام) وقال: (إياكم والجلوس على الطرقات فإن أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها: غض البصر وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وقال: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم؛ ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)، وقال ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب).

وقال: (يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت)، وعن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أوصاني ربي بتسع أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب وبالصدق في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً)، وقال عليه السلام: (قيدوا العلم بالكتاب) وقال: (ستحرصون على الإمارة، فنعمت المرضع، وبئست الفاطمة) وقال: (ليس من أخلاق المؤمن

الملق إلا في طلب العلم) وقال ﷺ: (إن الله كره لكم العبث في الصلاة، والرفث في الصيام، والضحك عند القبور).

١٠- (الإبلاغ أو التبليغ): فالكلام النبوي

أ- من جهة: الصناعة اللغوية مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضربه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء المعنى وتأتياً لمسرة في الاستعمال.

ب- ومن جهة الصناعة البيانية حسن المعرض، بيّن الجملة، واضح التفعيل، ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحلية في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، وقد سلمت له ﷺ هذه الجهات الثلاث (اللغة والبيان والحكمة) من نحو قوله: (مات حتف أنفه) وقوله في صفة الحرب يوم حنين: (الآن حمي الوطيس) وقوله في حديث الفتنة: (هدنة على دخن) وقوله: (بعثت في نفس الساعة) وكقوله: (حتى تنفرد سالفتي) وقوله: (رفقاً بالقوارير) وقوله: (اشفعوا تؤجروا) وقوله: (لا توك فيوكى عليك) وقوله: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين...) إلخ.

وكقوله: (ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله وما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مئة شرط، قضاء الله حق، وشرط الله أوثق وإنما الولاء لمن أعتق) أو قوله: (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال). وحين كانت مهمة الإبلاغ في أمر من الأمور أو موضوع من المواضيع لا تتم إلا بالإطالة والإسهاب، فقد كان النبي عليه السلام - يطيل في خطبه وأحاديثه على حد سواء.

روى أبو سعيد الخدري أن النبي خطب بعد العصر فقال: (ألا إن الدنيا خضرة حلوة ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء ألا لا يمنعن رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه) قال أبو سعيد: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف فقال: (إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما

مضى). هذا مع حرص النبي على الإيجاز، وأمره بإطالة الصلاة وقصر الخطبة. وبسبب هذه السمة الرئيسة:

١١- خلو كلام النبي عليه السلام من المجاز المعقد ومن ضروب الإحالة وفنون الصنعة؛ لأن هذه المجازات والفنون المصنوعة لا تلتئم مع رسالة الإبداع لجميع الناس.

١٢- كثرة " الأمثال والاستعارات " في الكلام النبوي، وأي شيء كالمثل يقرب الصور والحقائق لأذهان المدعوين والمكلفين.

١٣- اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، (وأعطيت جوامع الكلم) (كما تكونون يولى عليكم) (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل) ومن بلاغة النبي ﷺ قوله: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الدين النصيحة، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، حبك الشيء يعمي ويصم، حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، المسلمون على شروطهم، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، الصبر عند الصدمة الأولى، السعيد من وعظ، بغيره).

وقد طبعت سمة الإبلاغ البلاغة النبوية بطابع " العصرية " وأخرجته من حدود الزمان؛ لأن رسالة النبي لا تنتهي بانتهاء الزمان، ولأن " الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب كل العصور.

الباب العاشر

الفصل الخامس

النبي محمد ﷺ ليس بشاعر

١- تنزه النبي عن قول الشعر:

تنزه النبي ﷺ عن قول الشعر والاهتمام به، فهو لا ينبغي له، والخبر في ذلك مكشوف متظاهر والروايات صحيحة متواترة، وقد قال الله تعالى: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» فكان عليه الصلاة والسلام لا يهتدي إلى إقامة وزن الشعر إذا هو تمثل بيتاً منه، بل يكسره ويتمثل البيت مكسوراً. مع أن ذلك لا يعرض البتة لأحد من الناس في كل حالاته عربياً كان أو أعجمياً، فقد يتعنع المرء في بيت من الشعر ينسأه أو ينسى الكلمة منه، فلا يقيم وزنه لهذه العلة، ولكنه يمر في أبيات كثيرة مما يحفظه أو مما يحسن قراءته، فما وزن الشعر إلا نسق ألفاظه، فمن أداها على وجهها فقد أقامه على وجهه، ومن قرأ صحيحاً فقد أنشد صحيحاً.

وهذا خلاف المأثور عنه ﷺ، فإنه على كونه أفصح العرب إجماعاً، لم يكن ينشد بيتاً تاماً على وزنه، إنما كان ينشد الصدر أو العجز فحسب، إن ألقى البيت كاملاً لم يصحح وزنه بحال من الأحوال، وأخرجه عن الشعر فلا يلتئم على لسانه.

أنشد مرة صدر البيت المشهور للبيد، (وهو قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، فصححه، ولكنه سكت عن عجزه «وكل نعيم لا محالة زائل».

وأنشد البيت السائر لطرفة على هذه الصورة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود) بالأخبار
وإنما هو: «ويأتيك بالأخبار من لم تزود».
وأنشد بيت العباس بن مرادس فقال:
أتجعل نهبي نهب العبيد
بين (الأقارع) وعيننة...

وعبيد اسم فرس العباس

فقال الناس: بين عيينة والأقرع. فأعادها عليه الصلاة والسلام: «بين الأقرع وعيينة» ولم يستقم له الوزن.

٢- مما ارتجزه ﷺ:

ولم تجر على لسانه ﷺ مما صح وزنه إلا ضربان من الرجز المنهوك (مما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه)، لا يمتنع منها شيء على أحد. والمشطور (جعل البيت ثلاثة أجزاء، فيتحد العروض والضرب) وهما أخف أوزان الرجز- والمشطور أكثر رجز العرب و(الجزء الأخير من الشطر الأول يُسمى عروضاً، ومثله من الشطر الثاني يسمى ضرباً) أما الأول المنهوك كقوله في رواية البراء: إنه رأى النبي ﷺ على بغلة بيضاء يوم أحد ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
والثاني المشطور كقوله في رواية جندب أنه ﷺ دميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

٣- الرجز في أصله ليس بشعر:

وإنما اتفق له ذلك؛ لأن الرجز في أصله ليس بشعر إنما هو وزن وقد اختلف العلماء في ذلك، وآراؤهم في تعليقه مضطربة، فمنهم من يجعل الرجز شعراً، وهو جمهورهم، ومنهم من ينفي أن يكون من الشعر، والصواب أنه ضرب من الوزن، لم يجعل من الشعر إلا أنه كان الأصل في اهتدائهم إليه، ثم أخذ فيه الشعراء بعد ذلك وأجروه مجرى القصيد، فجعلته العادة شعراً، أما هو في أصله وحقيقته فليس من الشعر، وهذا الوزن (الرجز) كأوزان السجع، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب، يتراجزون به في عملهم وفي لعبهم وفي سوقهم، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء، فقد يتسق لهم الرجز الكثير عفواً غير مجهود، حتى إذا صاروا إلى الشعر انقطعوا. وإنما جعل الرجز من الشعر تتابع أبياته، وجمع النفس عليه، واستعماله في المفازات ونحوها، وأنه الأصل في اهتدائهم إلى أوزان الشعر، فأما البيت الواحد من الشعر، فلا يعد قائله شاعراً.

٤- الأوزان فطرية في العرب:

لقد كانت الأوزان فطرية في العرب، فهي في الرجز، وهي في السجع، وهي في الشعر، جميعاً، ولم يعلم أنه ﷺ اتفق له في الرجز أكثر من بيت واحد، أو تمثل منه بأكثر من البيت الواحد كبيت أمية بن أبي الصلت:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألأا
٥- الله تعالى يأبى لنبيه الشعر:

ولذا قال تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)، ثم يأتي بعد ذلك جلة أصحابه وخلفائه، يأخذون فيما أخذ فيه، فيمضون على ما كان من أمرهم في الجاهلية، ويثبتون على أخلاقهم وعلى أصول طباعهم ويستطير ذلك في الناس، وهو أمر متي تهيأ نما فيهم، ومتى نما غلب عليهم، ومتى غلب استبد بهم، ومتى استبد لم تقم معه للإسلام قائمة (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) على أن منع الشعر إنما أخذ به ﷺ منذ نشأته، ولذا قال ﷺ: (لما نشأت بُغِضت إليَّ الأوثان وُبغِض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمني الله منهما، ثم لم أعد).

ولا جرم أن ذلك تأديب من الله أراد به تحويل فطرته ﷺ عن الشعر وقوله، حتى لا تنزع به العادة منزعاً، ولا تذهب في أسبابه مذهباً لقوله عليه والسلام: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

٦- النبي محمد ﷺ يحب الشعر:

على أنه فيما كان وراء عمل الشعر وتعاطيه وإقامة وزنه، يحب هذا الشعر ويستشده، ويثيب عليه، ويمدحه متى كان في حقه ولم يعدل به إلى ضلالة أو معصية، ولولا أن ذلك قد كان منه ﷺ لماتت الرواية بعد الإسلام، ولما وجد في الرواة من يجعل وكده حمل الشعر وروايته وتفسيره واستخراج الشاهد والمثل منه، وكأنه عليه الصلاة والسلام حين سمع الشعر وأثاب عليه ورخص فيه لم يرد إلا هذا المعنى، والشاهد القاطع قوله في أمر الجاهلية: (إن الله قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته) وبمثل هذا القول استأنس العلماء وتجردوا للرواية وتملأوا منها. رحمهم الله وأثابهم بما صنعوا، ولقد كانت السابقة في ذلك لحسان رضي الله عنه، وكان ذا لسان

ما يسره به معقول من معد، وهو الذي قال له النبي ﷺ: (قل وروح القدس معك) فكان إذا أرسل لسانه لم يجدوا دفعاً وإذا مسهم بالضر لم يجد شعراؤهم نفعاً، وإذا وضع منهم لم يستطيعوا لما وضعه رفعاً:

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع، ولا يوهون ما رقعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

٧- النبي محمد ﷺ أنه شاعر:

وقد قيل في تعليل عدم حب النبي لقول الشعر أنه (النبي) أراد أن ينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد، وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون، وإن تهمة الشعر التي ألحقها بعضهم بالقرآن الكريم لم تكن أكثر من تعبير عن العجز والسقوط أمام هذا التحدي السافر بالقرآن.. وإلا فقد أقرأوا - وبخاصة المتقدمين فيهم بالعلم بالشعر ورجزه كالوليد وغيره - بأن القرآن ليس بشعر.. ثم إذا نظرنا إلى الموضوع من الطرف المقابل: ما عسى أن يدل كسر البيت من الشعر، والخروج به إلى ما يشبه جملة مرسله من الكلام... على أن المتمثل به شاعر أو ليس شاعراً؟ إن دلالة هذا الأمر واضحة على أن صاحبه لا يريد أن ينشد الشعر - أي يقرأ قراءة صحيحة - ولا أن يجري وزنه على لسانه فهو يتعد عن لحنه وإيقاعه على النفس.. يخاف منه أن يحرك فيه تلك الفطرة القوية اللاقطة التي تطاوعه إلى الشعر إن شاء ويخشى هو أن يطاوعها إن أجرى على لسانه شعراً ذا إيقاع رتيب موزون، والرسول يومئذ أفصح العرب كما مرَّ بك: لقد قال الله تعالى في شأن هذا الرسول الكريم: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) إن خروج النبي إلى ساحة الشعر خروج إلى مذاهب العرب في الشعر وأغراضهم فيه.. على نحو ما كانت عليه في ذلك الحين (وما ينبغي له)، إن شأنه غير هذا الشأن، وهدفه غير هذا الهدف.. ورسالته التي أعد لها أبعد من حدود الزمان والمكان.. فهو ليس لقبيلة من قبائل العرب.. شاعراً.. ولكنه للإنسانية جمعاء.. رسولاً نبياً.

الباب العاشر

الفصل السادس

نقد النبي ﷺ للشعر

وقف النبي ﷺ من الشعر مواقف شتى حسب هدف الشعر وغايته ونقد النبي للشعر أو حكمه عليه بالحسن والقبح، وحثه عليه أو منعه، ليس في عدم إقامته هو - ﷺ - للشعر دليل على المدح والذم.. منه إنما منع من إقامته لأمر رباني، ولا بد للوقوف على رأي النبي في الشعر من الرجوع إلى أقواله فيه وإلى موقفه من شعراء المسلمين والمشركون:

١- قال النبي ﷺ: "إن من الشعر حكمة".

٢- وقال في رواية أخرى: (إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً وإن من الشعر حكماً، وإن من القول عَيْلاً) والمراد بقوله: إن من الشعر حكمة، إن قاله صادقاً مطابقاً الحق، أو نافعاً يمنع من السفه، كالشعر الذي يرد في الأمثال والمواعظ.

٣- في صحيح الترمذي من حديث جابر بن سمرة قال: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله فلا ينهاتهم وربما يتسم".

٤- وقد رخص النبي صراحة في روايته، فتجرد العلماء والرواة لذلك لحمله وروايته.

يضاف إلى ذلك: أن النبي ﷺ كان يستنشد الشعر ويثيب عليه، ويمدحه متى كان في حدود تلك الحكمة، أو لم يتجاوز به صاحبه إلى معصية أو صلة أو عدوان.

٥- وقد روى عنه في حديث ابن ماجه - قوله أعظم الناس فرية رجل هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها.

٦- إن مقياس نقد الشعر عند النبي - ﷺ - هنا وهناك، هو مقياس " النبوة " التي يتفاضل عندها الكلام بموازين الفضيلة والخير والصدق، ومن هنا جاء التفضيل من قوله: أصدق كلمة قالها لييد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

٧- إن النبي ﷺ كان له شعراء ينافحون عنه، ويدافعون عن الدعوة، ويتصدون لكيد الكائدين والمتفخريين من شعراء المشركين.. وأخبار شعراء النبي الثلاثة المشهورين: عبدالله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، معروفة في كتب الأدب.

٨- وفي كتب الحديث: روى البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت يستشهد أبا هريرة فيقول: يا أبا هريرة نشدتك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يا حسان أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس)؟ قال أبو هريرة: نعم، وروي أيضاً أن النبي ﷺ قال لحسان: (اهجهم - أو قال: هاجهم - وجبريل معك)..

٩- وإذا كان اتخاذ النبي لهؤلاء الشعراء يدل على "الموقف" الحقيقي للنبي من الشعر، وأنه رغب فيه منافحاً عن الدعوة، فإن مما تجدر الإشارة إليه أن مجارة شعرائه - ﷺ - المشركين في المفاخرة والهجاء يجب أن تفهم في ضوء الضرورة وفي حدود المعاملة بالمثل، فإن رسول الله لم يبعث للهجاء ولم يؤمن بالفخر، وقد قال: (إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاضمها بالآباء).

١٠- جاء في الحديث الصحيح من حديث محمد بن سيرين - وغيره - قال: "هجا رهط من المشركين النبي ﷺ وأصحابه فقال المهاجرون: يا رسول الله ألا تأمر علينا فيهجو هؤلاء القوم فقال: إن القوم الذين نعروا بأيديهم أحق أن ينصروا بألستهم، فقالت الأنصار: أرادنا والله فأرسلوا إلى حسان فأقبل فقال يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما أحب أن لي بمقولي ما بين صنعاء وبصرى".

١١- في حديث آخر أخرجه الطبراني عن عمار بن ياسر قال: لما هجانا المشركون قال لنا رسول الله ﷺ: قولوا لهم كما يقولون لكم..

١٢- ولما جاء وفد بني تميم بشاعرهم الأقرع بن حابس وخطيبهم عطار بن حاجب.. ونادوا النبي من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين رماهم النبي بمثل خطيبه ثابت بن قيس بن شماس أو بواحد من شعرائه، يريدون المفاخرة والمشاعرة فيغلبون وينتصرون إنما حالة من حالات الدفاع إن شئت أن تسميها وموقف من مواقف الرد على استطالة كان لا بد لها أن تقمع، وكان لا بد أن يتنزه عنها النبي ﷺ.

١٣- كره النبي ﷺ بالطبع شعر العدوان والعصبية وشعر المجون والفسق: كما كره اشتغال المرء بالشعر حتى يصدده عن واجبه في الدين والأسرة والمجتمع، فقال عليه والصلاة والسلام (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه خير من أن يمتلئ شعراً).

١٤- وقد أورد البخاري الحديث تحت هذا العنوان الدقيق: باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدده عن ذكر الله والعلم والقرآن، وفي هذا القول مجاز؛ لأن المراد به النهي عن أن يكون حفظ الشعر أغلب على قلب الإنسان فيشغله عن حفظ القرآن وعلوم الدين حتى يكون - الشعر - أحضر حواضره، وأكثر خواطره فشبّهه عليه الصلاة والسلام بالإناء الذي يمتلئ بنوع من أنواع المائعات، فلا يكون لغيره فيه مشرب، ولا معه مذهب، ويدخل في ذلك الشعر الذي هُجّي به النبي ﷺ...

هذا الحديث وجملة الموقف السابق للنبي عليه السلام يمثل الشرع العملي لقوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) الآيات الأخيرة ٢٢٥- ٢٢٧ من سورة الشعراء.

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: (في كل واد يهيمون: في كل لغو يخوضون وقال بعض المفسرين: إن المراد بالشعراء هنا شعراء المشركين يتبعهم سفهاء الناس... وأما الشعر الذي لا لغو فيه ولا باطل... والشعر الذي يخرج إلى ساحة الانتصاف والنصرة للحق.. خير وليس به بأس.

أخرج ابن أبي شيبة من طريق مرسله قال: لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وهم يبكون؟ فقالوا: يا رسول الله أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء، فقال: اقرؤوا ما بعدها (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا) أنتم، قال ابن عباس في قوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاؤون) إلى قوله: (ما لا يفعلون): إن الله تعالى نسخ من ذلك واستثنى فقال: (إلا الذين آمنوا إلى آخر السورة).

الباب العاشر

الفصل السابع

التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث النبوي الشريف

١- المراد بالمجاز هنا: ما يشمل المجاز اللغوي والعقلي، والاستعارة والكناية، والاستعارة التمثيلية، وكل ما يخرج من اللفظ أو الجملة عن دلالتها المطابقة الأصلية والمجاز أبلغ من الحقيقة، كما هو مقرر في علوم البلاغة.

٢- والعربية لغة للمجاز فيها نصيب موفور، والرسول الكريم أبلغ من نطق بالضاد وكلامه تنزيل من التنزيل، فلا عجب أن يكون في أحاديثه الكثير من المجازات، المعبرة عن المقصود بأروع صورة.

وحمل الكلام على المجاز في بعض الأحيان يكون متعيناً، وإلا زلت القدم، وسقط المرء في الغلط. وحين قال الرسول ﷺ لنسائه من أمهات المؤمنين: «أسرعن لحوقاً بي أطولكن يداً» حملنه على طول اليد الحقيقي المعهود قالت عائشة: فكن يتناولن - رضي الله عنهن - أيتهن أطول يداً؟! بل في بعض الأحاديث أنهن أخذن (قصة) لقياس أي الأيدي أطول؟! والرسول لم يقصد ذلك، إنما قصد طول اليد في الخير وبذل المعروف. وهذا ما صدقه الواقع، فكانت أول نسائه لحوقاً به هي زينب بنت جحش، كانت امرأة صناعاً، تعمل بيدها وتتصدق.

٣- روى البخاري عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية «فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل» (البقرة: ١٨٧) عمدت إلى عقالين: أحدهما أسود، والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بالذي صنعت قال، فقال: «إن وسادك إذن لعريض! إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل».

٤ - ومثل ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي المعروف: «إن تقرب عبدي إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» فقد شغب المعتزلة على أهل الحديث بروايتهم مثل هذا النص، وعزوههم ذلك إلى الله تبارك وتعالى، وهو يوهم تشبيهه تعالى بخلقه في القرب المادي والمشي والهرولة، وهذا لا يليق بكمال الألوهية. وقد رد على هؤلاء الإمام ابن قتيبة في كتابه: «تأويل مختلف الحديث» بقوله: إن هذا تمثيل وتشبيه وإنما أراد: من أتاني مسرعاً بالطاعة أتيته بالثواب أسرع من إتيانه، فكفى عن ذلك بالمشي والهرولة».

٥ - وفي حديث الشيخين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً! فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير».

٦ - ومثل ذلك حديث أبي هريرة في الصحيحين عن النبي ﷺ، قال: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه، قال الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة! قال: نعم. أما ترضين أن أصل من أوصلك، وأقطع من قطعك؟

قالت: بلى يا رب. قال: فهو لك. قال رسول الله ﷺ: فاقروا إن شئتم (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم...) فهل كلام الرحم — وهي القرابة — هنا على الحقيقة أم على المجاز؟ اختلف الشراح، ولكن القاضي عياضاً حمل الحديث على المجاز، وأنه من باب ضرب المثل ومثله: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً) الآية، وفي آخرها (وتلك الأمثال نضربها للناس) فمقصود هذا الكلام الإخبار بتأكيد أمر صلة الرحم، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره فأدخله في حمايته، وإذا كان كذلك فجاره الله غير مخذول.

٧ - وقد قال رسول الله ﷺ: «من صلي الصبح فهو في ذمة الله، وإن من يطلبه الله بشيء من ذمته يدركه ثم يكبه على وجهه في النار» أخرجه مسلم.

٨ - هذا اللون من التأويل، بحمل الحديث على المجاز، لا يضيق الدين به ذرعاً، على أن يكون مقبولاً غير متكلف ولا متعسف وأن يكون ثمة موجب للتأويل، والخروج من الحقيقة

إلى المجاز، فالتأويل بغير مسوغ مرفوض، والتأويل المتعسف مرفوض، كما أن حمل الكلام على الحقيقة، مع وجود المانع العقلي أو الشرعي أو العملي أو الواقعي — مرفوض أيضاً. وقد يكون رفض اللجوء إلى المجاز هنا باب فتنه للعقلين من الناس، الذين علمهم الإسلام أن لا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

٩- ولنقرأ هذا الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله عليه وسلم: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت، حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح! ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم» وفي حديث أبي سعيد عند الشيخين وغيرهما: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح» ترى ماذا يفهم من هذا الحديث؟ وكيف يذبح الموت؟ أو يموت الموت؟ لقد وقف عنده القاضي أبو بكر بن العربي، وقال: استشكل هذا الحديث، لكونه يخالف صريح العقل. لأن الموت عرض، والعرض لا يتقلب جسماً، فكيف يذبح؟ قال: فأنكرت طائفة صحة الحديث ودفعته. وتأولته طائفة فقالوا: هذا تمثيل، ولا ذبح هناك حقيقة. وقالت طائفة: بل الذبح على حقيقته، والمذبح متولي الموت، على أن الحافظ قال: لا مانع أن ينشئ الله من الأجساد أعضاً يجعلها مادة لها، كما ثبت في صحيح مسلم في حديث «إن البقرة وآل عمران تجيئان كأنهما غمامتان» ونحو ذلك من الأحاديث.

١٠- والمجاز كما يقع في أحاديث الأخبار، يقع في أحاديث الأحكام، فيجب على أهل الفقه التنبيه له، والتنبيه عليه، ومثل هذا اشترطوا في المجتهد أن يكون عالماً بالعربية علماً يمكنه من فهم دلالاتها المختلفة، كما كان يفهمها العربي الخالص في عصر النبوة والصحابة، وإن كان هذا يعرفها بالسليقة وذاك يعرفها بالدراسة، وقد قال الأعرابي:

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

١١- وإغفال التفريق بين المجاز والحقيقة يوقع في كثير من الخطأ، إن إغلاق باب المجاز في فهم الأحاديث، والوقوف عند المعنى الأصلي الحرفي للنص، يصد كثيراً من المثقفين المعاصرين عن فهم السنة، بل عن فهم الإسلام ويعرضهم للارتباب في صحته إذا أخذوا الكلام على

ظاهره في حين يجدون في المجاز ما يشبع نهمهم، ويلائم ثقافتهم، ولا يخرجون به على منطق اللغة، ولا قواعد الدين.

وقد حُكي عن بعض الصالحين أنه تأخر عن إخوانه يوماً، فسألوه عن ذلك فقال: «كنت أمرغ خدي في رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات!»! ولم يفهم إخوانه منه إلا أنه كان في خدمة أمه، مبتغياً بذلك مثوبة الله تعالى وجنته.

١٢- وذكر ابن حزم هنا الحديث الصحيح «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة»، وحديث «بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، ثم قال: «هذان الحديثان ليس على ما يظنه أهل الجهل من أن الروضة مقتطعة من الجنة، وأن هذه الأنهار مهبطة من الجنة. هذا باطل وكذب. ثم ذكر ابن حزم أن معنى كون تلك الروضة من الجنة إنما هو لفضلها، وأن الصلاة فيها تؤدي إلى الجنة. وأن تلك الأنهار لبركتها أضيفت إلى الجنة، كما تقول في اليوم الطيب: هذا من أيام الجنة، وكما في الضأن: «إنها من دواب الجنة» وكما قال عليه السلام: «إن الجنة تحت ظلال السيوف». ومثل ذلك الحديث «الحجر الأسود من الجنة». يقول ابن حزم في هذه الأخبار: وإن تأويل الأحاديث والنصوص عامة - وإخراجها عن ظواهرها، باب خطر، لا ينبغي للعالم المسلم ولوجه إلا لأمر يقتضي ذلك من العقل أو النقل. وكثيراً ما تؤول الأحاديث ذاتية أو آنية أو موضعية، ثم يظهر للباحث عكس ذلك.

الباب العاشر

الفصل الثامن

المثل في الحديث الشريف

أ- ماهية المثل في الحديث الشريف:

عبرَ الحديث النبوي الشريف عن كثير من قضايا الإنسان من خلال وسائل لغوية متعددة من بينها (المثل) وكما أن المثل حمل الكثير من القضايا الحياتية للإنسان من خلال اختزاله لمواقف إنسانية متباينة كذلك عبرَ المثل النبوي عن الكثير من القضايا الإنسانية والمتصفح لأحاديث النبي ﷺ يكتشف أن النبي أوضح الكثير من قضايا عصره والعصور اللاحقة من خلال المثل كقوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وكقوله: (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار...)، يعد التعبير بالمثل من أهم وسائل التعبير وطرقه، ذلك أن العقل البشري يستطيع أن يتعلم الدروس والعبر ويفهم مغازي الحياة من خلال هذه الأمثال، فالأمثال طريقة فذة في خلق يعد واضحاً للتعبير عن معاني وأحاسيس يعيشها الإنسان وينقلها للآخرين حتى يستفيدوا من دروس الحياة، ولقد استخدم القرآن الكريم أسلوب المثل في توصيل معاني الإيمان والكفر والجنة والنار والفوز والخيبة للناس حتى يتحولوا إلى معسكر الإيمان والفوز بالجنة والنجاة من النار والخروج من معسكر الكفر.

والمثل هو نوع من مفردات الإقناع بالحوار الداخلي للعبارة، وكذلك جاء الحديث النبوي الشريف بالإقناع بالمثلية واستخدام الأمثال من أجل توصيل المعاني الإيمانية التي تضمن لهم النجاح والفوز بالدارين، وإنك لو أردت أن تستقصي الأمثال النبوية لعثرت على المئات منها في كتب الصحاح لما في هذه الأمثال من قدرة على التعبير عن قضايا الحياة والكون والإنسان، فقوله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وقوله ﷺ: (مثل الجليس الحسن والجليس السوء

كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحديك أو تبتاع منه ونافخ الكير.....). يدل على قدرة المثل على التعبير عن معنى الوحدة التي تؤدي إلى القوة والمنعة وتظافر جهود أفراد المجتمع الإسلامي الموحد في دفع ضعف هذا المجتمع والذي يمثله المرض، فإذا ما ضعف عضو من الأمة فعلى الأعضاء أن يكونوا السند له حتى يتعافى، وهذا المثل عبّر عن فكرة (الوحدة سبيل القوة والمنعة) وعدم تمكن الأعداء من بعض أجزاء المسلمين كما يتمكن المرض من الجسد، وكذلك مثلية صديقي الحسن والسوء كبائع المسك والحداد ولو نظرت إلى الحديث التالي (الناس إبل مئة لا تجد فيهم راحلة) وحديث (المؤمن كالنخلة....) لوجدت أن الأول قد عبّر عن قضية مهمة من قضايا المجتمع الإسلامي وخاصة تنصل أفراده من تحمل أعباء المسؤولية عن الجماعة الإسلامية التي يشترك أفرادها كل واحد منهم من أجل تكملة رحلة الحياة الإنسانية نحو الآخرة، فإذا ما تنصل كل أفراد المجتمع الإنساني ولم يبق واحد بالمئة ممن يتعاون مع غيره فإن مركبة المسيرة الإسلامية ستتعثّر وتضعف ويتحكم بها أعداؤها.

ب- من أمثال النبي ﷺ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ» [أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد ومالك].

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأُتْرَجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ حَبِيثٌ وَرِيحُهَا مُرٌّ» [البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والدارمي].

عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

ورد في بعض الأحاديث: «أن زوج النبي ﷺ، اشتكت شدة تعبها في أعمال البيت، وطلبت منه خادمة، فقال لها النبي ﷺ: والله لا أؤثرك على فقراء المسلمين».

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ خَضْرَاءٍ لَا يَسْقُطُ وَرْقُهَا وَلَا يَتَحَاتُّ، فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ شَجَرَةٌ كَذَا هِيَ شَجَرَةٌ كَذَا فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ هِيَ النَّخْلَةُ وَأَنَا غُلَامٌ شَابٌّ فَاسْتَحْيَيْتُ فَقَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ.. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ وَزَادَ فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ قُلْتُهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا»: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ خَضْرَاءٍ»..

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا».

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد].

"عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل". عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمِثْلِ خَامَةِ الزَّرْعِ يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا فَإِذَا سَكَتَتْ اعْتَدَلَتْ (يعني نبتة بسيطة، تأتيها الريح فتميل معها، فإذا وقفت الريح اعتدلت) وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكْفَأُ بِالْبَلَاءِ وَمِثْلُ الْكَافِرِ كَمِثْلِ الْأَرْزَةِ صَمَاءٌ مُعْتَدِلَةٌ حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد].

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ (الندير العريان مصطلح عربي يعني أنني صادق فيما أخبركم به) فَالْجَاءَ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْجُوا (أي ساروا ليلاً). فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَجَاؤُوا) وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاَحَهُمْ فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمِثْلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ». [أخرجه البخاري ومسلم وأحمد].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَلِأَوَّلٍ وَمِثْلُ الْمَهْجَرِ كَمِثْلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقْرَةً ثُمَّ كَبْشًا ثُمَّ دَجَاجَةً ثُمَّ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوَّأَ صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ».

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد ومالك].

عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِثْلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَمِثْلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ لَا يَعْدُثُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِلَّا مَا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً».

[رواه البخاري ومسلم وأحمد].

« لا تُصَاحِبِ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا ». [أخرجه الترمذي وأبو داود

وأحمد].

وَعَنِ النَّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَاصِيئِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا». [أخرجه البخاري والترمذي وأحمد].

قال عليه الصلاة والسلام: «بَلِ اتَّخَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجُمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَرَادِنِي غَيْرُ عُبْتَةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ: بَلِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

[أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ تَقَعُ فِي النَّارِ وَقَالَ: كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهَا ابْنَاهُمَا

جَاءَ الدُّنْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسَّكِينِ إِلَّا يَوْمِنِدٍ وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدْيَةَ».

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْبُجُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ».

[الترمذي وأبو داود وأحمد].

الباب العاشر

الفصل التاسع

القصة من الأدب النبوي الشريف

أولاً- القصة من الأدب النبوي الشريف:

مثلما استثمر القرآن الكريم طريق القص في التعبير عن الكثير من القضايا الحياتية ويسرد حياة الأنبياء وغيرهم من الطغاة، كذلك استخدم الحديث النبوي الشريف طريقة القص في التعبير عن كثير من القضايا الإنسانية كقصة أصحاب الغار الثلاثة الذين أغلق باب الغار عليهم فدعا كل واحد بعمله الصالح ففرج الله عنهم، وقصة الأعمى والأقرع والأبرص، وقصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وأكملها على المئة، وكقصة الغلام الذي كان يتردد على الساحر وعلى الراهب، وغير ذلك من القصص.

ولاشك أن القرآن استخدم القصة كأحد الطرق للتعبير عن المعاني الإنسانية الدينية والكونية والشخصية بما في ذلك قصص الأنبياء ومشاركة الملائكة للدفاع عن المسلمين، وكذلك قصص الحيوان والطيور والحشرات (كالبقرة - والنحلة - والهدد - والفيل) حيث قص علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من القصص التي تمثل المعاني الإنسانية التي تقود الإنسان نحو تعديل السلوك الإيماني عند الكثير من الناس بعد أن انحرفت سلوكيات الكثير من الناس عن هذه المعاني الدينية والإنسانية، فقد عبرت قصة (الأعمى والأقرع والأبرص) عن عمق النفس الإنسانية، ومدى تمكن حب المال من هذه النفس بحيث يوجهها نحو معاني مادية حسية تجدف بعكس اتجاه ربح القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية، فقد كانوا مرضى بالعمى والبرص والقرع إضافة إلى كونهم فقراء فبعث الله لهم ملكاً مكنه الله من تبرئتهم من مرضهم وأعطاهم ما تمنوا من المال، فلما جاء هذا الملك إليهم بعد غناهم بهيئة سائل منعه اثنان منهم وأعطاه الثالث.

وهكذا جاءت القصة لتمثل قضية اختبار الله للناس في قضية العطاء من المال، وكون هذا المال مال الله ولتكشف عن شح هذه النفس ولو اغتنت بعد فقر، وكذلك قصة (أصحاب الغار) الذين حبسهم الغار في يوم ماطر وأغلق باب الغار بصخرة لم يستطيعوا أن يخرجوا منه بسببها، فدعا كل واحد بدعوة عسى الله أن يخرجهم من هذا الضيق فكان الأول باراً بوالديه، وكان الثاني قد استأجر أجيراً فثمر له أجره فلما طلبه أعطاه إياه، وكان الثالث قد رفض أن يبتز ابنة عمه ويستغل حاجتها المادية من أجل نزوة عارضة وكان قبل يراودها عن نفسها فتمتنع فلما احتاجت أرخصت عرضها من أجل الحاجة للمال، ولكنه في حالة الضيق لم يستغل حاجتها فأعطاهم النقود ولم يחדش عرضها، وهكذا فتح الغار وزالت الصخرة وهذه القصة تمثل معاني ثلاثة مهمة في استقامة الحياة:

الأول: أهمية بر الوالدين على الأبناء.

الثاني: والحفاظ على أجر العامل وتثميته وتمثل معاني الأمانة دون منه.

الثالث: عدم استغلال حاجة الآخرين وخاصة المرأة وابتزازها ولو رحنا نستعرض القصص النبوي الشريف بأبعاد الروحية والإنسانية والاجتماعية لوجدنا رصيلاً كبيراً من هذه الأنواع التي تمد المتلقي بكثير من القيم الواعدة التي ترتقي بالإنسان نحو الخير ويبعده عن الشر.

ثانياً- مغزى القصة في الحديث:

وللقصة في الحديث النبوي الشريف مغازٍ متعددة على رأسها العظة والعبرة والتزام الطريق المستقيم واعتماد العمل الصالح من أجل الفوز بالجنة والابتعاد عن النار.

ثالثاً- نماذج من قصص النبي محمد ﷺ

١ - قصة رجل من بني إسرائيل استدان ألف دينار:

القصة رواها البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله أنه ذكر " أن رجلاً من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسَلِّفَهُ ألف دينار، فقال: اتني بالشهداء أُشْهِدُهُمْ. فقال: كفى بالله شهيداً. قال: فائتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً. قال:

صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر، ففضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبه يَقدِّمُ عليه للأجل الذي أَجَّله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زَجَّجَ موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تَسَلَّفْتُ فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأني جَهَدْتُ أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له، فلم أَقْدِر، وإني أستودِعُكَها.

فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بهاله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نَشَرَهَا، وجد المال والصحيفة، ثم قَدِمَ الذي كان أسلفه، فأنى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بهالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة. فأنصَرَفَ بألف الدينار راشداً".

هذه قصة رجلين صالحين من بني إسرائيل، كانا يسكنان بلداً واحداً على ساحل البحر، فأراد أحدهما أن يسافر للتجارة، واحتاج إلى مبلغ من المال، فسأل الآخر أن يقرضه ألف دينار، على أن يسدها له في موعد محدد، فطلب منه الرجل إحضار شهود على هذا الدَّين، فقال له: كفى بالله شهيداً، فرضي بشهادة الله، ثم طلب منه إحضار كفيل يضمن له ماله في حال عجزه عن السداد، فقال له: كفى بالله كفيلاً، فرضي بكفالة الله؛ مما يدل على إيمان صاحب الدين، وثقته بالله عز وجل.

ثم سافر المدين لحاجته، ولما اقترب موعد السداد، أراد أن يرجع إلى بلده، ليقضي الدين في الموعد المحدد، ولكنه لم يجد سفينة تحمله إلى بلده، فتذكر وعده الذي وعده، وشهادة الله وكفالاته لهذا الدين، ففكر في طريقة يوصل بها المال في مواعده، فما كان منه إلا أن أخذ خشبة ثم حفرها، وحشا فيها ألف الدينار، وأرفق معها رسالة يبيِّن فيها ما حصل له، ثم سوَّى موضع الحفرة، وأحكم إغلاقها، ورمى بها في عرض البحر، وهو واثق بالله، متوكل عليه، مطمئن أنه استودعها من لا تضيع عنده الودائع، ثم انصرف يبحث عن سفينة يرجع بها إلى بلده.

وأما صاحب الدين، فقد خرج إلى شاطئ البحر في الموعد المحدد، ينتظر سفينة يقدم فيها الرجل أو رسول عنه يوصل إليه ماله، فلم يجد أحداً، ووجد خشبة قذفت بها الأمواج إلى الشاطئ، فأخذها لينتفع بها أهله في الحطب، ولما قطعها بالمنشار وجد المال الذي أرسله المدين له والرسالة المرفقة، ولما تيسرت للمدين العودة إلى بلده، جاء بسرعة إلى صاحب الدين، ومعه ألف دينار أخرى؛ خوفاً من أن تكون الألف الأولى لم تصل إليه، فبدأ يبيِّن عذره وأسباب تأخره عن الموعد، فأخبره الدائن بأن الله - عز وجل - الذي جعله الرجل شاهداً هو كفيhle، قد أدّى عنه دينه في مواعده المحدد.

إن هذه القصة تدل على عظيم لطف الله وحفظه، وكفايته لعبده إذا توكل عليه وفوض الأمر إليه، وآثر التوكل على الله في قضاء الحاجات. فالذي يجب على الإنسان أن يحسن الظن بربه على الدوام، وفي جميع الأحوال، والله عز وجل عند ظن العبد به؛ فإن ظن به الخير كان الله له بكل خير أسرع، وإن ظن به غير ذلك فقد ظن بربه ظن السوء.

٢- عن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله قال:

"كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرّاً بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها، فقتلها ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بُنيّ، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمري كما أرى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ.

وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس الملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني. فقال: إني لا

أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى، دعوتُ الله فشفاك. فأمن بالله تعالى، فشفاه الله تعالى. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذِّبه حتى دلَّ على الغلام.

فقال له الملك: أي بُنيّ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى. فأخذه فلم يزل يعذِّبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مَفْرِقِ رأسه فشقه حتى وقع شَقَّاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا.

وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل بأصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه. فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا.

وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام. ثم رماه، فوقع السهم في صُدْغِه، فوضع يده في صدغه، فهات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرُك قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فحُذَّت وأُضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه. ففعلوا، حتى جاءت امرأة و معها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماء، اصبري فإنك على الحق". رواه الإمام مسلم.

فهذا الحديث وإن كان يحمل في جوانبه رقائق وزهداً، فإنه يحمل في ثناياه معاني عظيمة، وفوائد جليلة وأفكار بناءة، وهذا ليس بعيداً عن الحديث النبوي الجليل، فقد أوتي جوامع الكلم، وكان الفقهاء يستنبطون من الحديث الواحد فوائد فقهية وتربوية جمّة:

بطل هذه القصة المثيرة هو غلام، وهذا يجعلنا، بل يثير انتباهنا كي نهتم بالأطفال أبلغ اهتمام.

٢- قول الراهب: "أي بُنَيّ، أنت اليوم أفضل مني". وهذا اعتراف من الأستاذ بأن تلميذه أصبح أفضل منه.

٣- صدق الالتجاء إلى الله تعالى وطريقة الدعاء والثقة بالإجابة، وذلك عندما قال: "اللهم اكفنيهم بما شئت".

٤- الإصرار على نشر الدعوة، وهذا يؤخذ من هذا المشهد الذي تكرر مرتين في الحديث "وجاء يمشي للملك". فليأذا بعدما نجا في المرة الأولى وفي المرة الثانية لم يهرب، بل عاد إلى الملك الظالم؟

٥- تبني عامّة الناس المبدأ الصحيح، حيث طلب هذا الغلام من الملك أن يجمع له الناس على صعيد واحد.

٦- تحديد مفهوم النصر، حيث قام هذا الغلام - الذي هو أفضل بكثير من رجال في هذه الأمة - بتوضيح مفهوم النصر.

وليس مفهوم النصر أن ينتصر الغلام، إنما المفهوم الحقيقي للنصر هو انتصار المبدأ السليم والفكر الصحيح.

٧- الثبات على مبدأ الحق الذي سطع، وذلك من خلال الفقرة التي مثلت صورة الأم مع طفلها وقول الطفل: "يا أماء اصبري، فإنك على الحق".

الباب العاشر

الفصل العاشر

دراسة أدبية لحديث نبوي شريف

جاء في الصحيحين عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - :
«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ؛ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

إذا وقفنا أمام قضية التمثيل في الحديث الشريف، نتلمس مواطن الجمال في الصورة الرائعة، وجدنا أنها ترسم لمجتمع الإيمان صورة حية بديعة وأخاذة، تُشدُّ أبصارنا وتوقظ ضمائرنا، يبدو فيها هذا المجتمع، وقد تألفت عناصره، وامتزجت جماعته في أنحاء المعمورة لتشكّل جسداً واحداً، تسري فيه الروح، وتنبض في قلبه كل معاني الحب والعطف والرحمة، وتنطوي في نفسه كل المشاعر النبيلة، فهو عند السراء يفرح ويترنم، وعند الضراء يتأوه ويتألم.

إنه لجسد تتجاذب عواطفه ومشاعره، حتى إذا سمعت أذنه ما تطرب له من حلال، بعثت به - حباً وكرامة - إلى سائر أنحاء الجسد، فانبسخت أسارير وجهه، وبدا البشر على محياه، وأرسلت العين دمعة الفرحه على وجنته، حتى يتملك السرور كل ذرة في هذا الجسد فيهتز طرباً، ويتشي سروراً. أما إذا سمعت الأذن نبأ كارثة حلت ببعض المسلمين، أو أبصرت العين منظر فاجعة نزلت بالمستضعفين، فإن الخيال يسرع إلى رسم هذه اللوحة القائمة الحزينة فتتمثلها النفس ولا تفارقها، فتدفق أمواج الألم والحزن في النفس.

ثم إنه لما كان تمثيل المؤمنين بالجسد يمثل أروع تصوير، وأصدق تمثيل، فإنه يقودنا إلى أن نبحث عن خصائص هذا الجسد ومقوماته حتى إذا علمنا أنه ليس جسداً حاملاً ولا بالياً؛ لأنه يحس ويتألم، أدركنا أن للحديث إحياءات تدفعنا إلى أن نمثل إيمان الأمة بالروح في هذا الجسد، ونمثل معاني أخوتها النابعة من توادها وتراحمها وتعاطفها بنبضات القلب في هذا الجسد، كما

نمثل قيادتها الحكيمة الرشيدة التي تقودها إلى كل خير، وتبعدها عن كل شر، بالعقل في هذا الجسد الذي ينظم شؤونه، ويسعى في مصالحه.

وعليه فإن الجسد حين تفارقه روحه يتحول إلى جثة هامدة، وتتوقف دقات قلبه تبعاً لذلك، وتفارقه الحياة.

وهذه حال الأمة المؤمنة إذا ضعف إيمانها أو غاب، فإن معاني أُخْوَتِهَا تتأثر بما يحدث لإيمانها، فتقوى بقوته، وتضعف بضعفه، وتموت لفقده، وإذا اعتلت فيها معاني أُخْوَتِهَا، أو غربت دلّ ذلك على نقص إيمانها أو غيابها، فحيثما وجد الإيمان كانت الأخوة، كما قال سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}. قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا»، وقال عليه الصلاة والسلام: «الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر». وقال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له». وقال ابن القيم رحمه الله: (وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلا تبعاه من المواساة بحسب اتباعهم له).

فهذا الترابط بين الإيمان والأخوة في مجتمع الإيمان الذي جعل منها قرينين لا يفترقان، هو مثل الترابط الذي وضعنا صورته بين الروح ونبضات القلب في جسد الإنسان سواء بسواء. ومن هنا كانت براعة التصوير في تمثيل المؤمنين بالجسد، في روحه، ونبضات قلبه، وعقله. فصلى الله وسلم على هذا الرسول العظيم، الذي أوتي جوامع الكلم، فكان بيانه أنصع بيان، وتمثيله أروع تصوير وأصدق. فحيث تعتبر الخلية أساساً في تركيب الجسد، يعتبر المؤمن أساساً في بناء مجتمع الإيمان.

وهذا مثل المؤمن إذ تتكون شخصيته من التآلف البديع، والانسجام العجيب بين روحه ونفسه وعقله وعواطفه، بما يتناسب وفطرته السليمة التي فطره الحكيم الخبير عليها، بحيث لا يطغى جانب على جانب، حتى يكون عنصراً صالحاً للحياة الكريمة في مجتمعه.

الباب العاشر

الفصل الحادي عشر

تفسير النبي - محمد - للقرآن الكريم

هل فسّر الرسول ﷺ آيات القرآن الكريم؟ وهل كان يفسر القرآن بأقواله وأعماله وتصرفاته، حتى صار القرآن خلقاً له لا ينفك عنه بحال؟. فأيات الأحكام فسرها - ﷺ - لصحابته ولأمته بما ثبت عنه من أقوال وأفعال وتقريرات في بيانها. وآيات العقائد - ويدخل فيها الأمور الغيبية والمتشابهة من القرآن - بيّنها لأمته وفسرها من خلال بيانه - ﷺ - للموقف الصحيح الذي يجب عليهم أن يقفوه تجاهها من الإيثار على ظاهرها، وعدم الخوض في تفصيلات لم يكفلوا بها، وأن يكون موقفهم موقف الراسخين في العلم الذين وصف الله حالهم بقوله عنهم: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (آل عمران: ٧). وآيات الوعد والوعيد كان تفسير النبي - ﷺ - وصحابته الكرام لها بتأثرهم بها خوفاً ورهبة عند الوعيد، ورجاءً ورغبة عند الوعد مع العمل الذي يؤدي إلى الحذر من الوقوع في أسباب الوعيد، والسعي فيما يوصل إلى الاتصاف بصفات أهل الوعد والتصديق.

وأما آيات القصص، فتفسيرهم لها حصل بتصديقهم بما جاء فيها، واتعاضهم بما فيها من عبر وعظات. وآيات الترغيب والترهيب فسروها بأن بادروا وسارعوا إلى فعل كل ما رغب الله فيه، وفروا من كل ما جاء فيه أدنى ترهيب، واجتنبوا الوقوع فيه وفي الأسباب الموصلة إليه. وبذلك جمعوا بين العلم والعمل، فكانوا بحق كما وصفهم وأخبر عنهم أبو عبد الرحمن السلمي بقوله: (حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي ﷺ - أنهم كانوا يقرئون من رسول الله - ﷺ - عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل).

وبهذه النظرة المتكاملة إلى واقع النبي ﷺ وصحابته، وبهذا الشمول في معنى التفسير نستطيع أن نقرر باطمئنان، ودون ارتياب أن رسول الله - ﷺ - وصحابته الكرام فسروا

القرآن الكريم كاملاً. وهذا ما يوافق الأدلة التي تدل على أن النبي ﷺ قد بين للناس ما نزل إليهم مثل قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل: ٤٤). وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تدل على ذلك. فما كان غير واضح من الآيات ويحتاج إلى بيان بيّنه - ﷺ - لأتمته بأقواله وأفعاله، وما كان من المتشابه بين لأتمته الموقف الصحيح منه، وما كان غير ذلك فتفسيره - ﷺ - له يُعرف من خلال معرفة سيرته العملية التي هي عبارة عن تفسير عملي للقرآن الكريم. وقل مثل هذا في الصحابة - رضي الله عنهم - أيضاً.

وهذه المواقف تبين بوضوح مدى تأثير القرآن الكريم في ذلك الجيل، ومدى اهتمامهم بالعمل بما فيه، وتطبيق أوامره، واجتناب نواهيه. ويتبين من خلال تأملها وأخذ العبر والعظات منها الفرق بين تلقي ذلك الجيل لآيات القرآن الكريم وتلقي غيرهم لها، حيث كانوا يهتمون بالتطبيق والعمل أكثر من اهتمامهم بالأقوال التي لا فائدة منها، ويتبين أيضاً أنهم كانوا يتركون الخوض في تفصيلات لا حاجة إليها ولا صلة لها بالواقع العملي الذي كانوا يهتمون به.

نماذج من تفسير النبي ﷺ:

جاء في صحيح البخاري:

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

كَالْفَرَاشِ الْمُبْثُوثِ كَعَوَّاءِ الْجُرَادِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَذَلِكَ النَّاسُ يَجُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ كَالْعِهْنِ كَالْوَانِ الْعِهْنِ وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ كَالصُّوفِ.

الشرح: قوله: (سورة القارعة) كذا لغير أبي ذر، واكتفى بذكرها مع التي قبلها. قوله:

(كالفراش المبعوث كعواء الجراد يركب بعضه بعضاً. كذلك الناس يجول بعضهم في بعض) هو كلام الفراء، قال في قوله كالفراش: يريد كعواء الجراد... إلخ. وقال أبو عبيدة: الفرش طير لا ذباب ولا بعوض، والمبعوث المتفرق، وحمل الفرش على حقيقته أولى، والعرب تشبه بالفرش كثيراً كقول جرير:

إن الفرزدق ما علمت و قومه مثل الفرش غشين نار المصطفى

وصفهم بالحرص والتهافت: وفي تشبيه الناس يوم البعث بالفراش مناسبات كثيرة بليغة، كالطيش والانتشار والكثرة والضعف والذلة والمجيء بغير رجوع والقصد إلى الداعي والإسراع وركوب بعضهم بعضاً والتطير إلى النار.

قوله: (كالهين كألوان الهين) سقط هذا لأبي ذر، وهو قول الفراء قال: كالهين؛ لأن ألوانها مختلفة كالهين وهو الصوف.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة قال: كالهين كالصوف.

قوله: (وقرأ عبد الله: كالصوف) سقط هذا لأبي ذر. وهو بقية كلام الفراء، قال: في قراءة عبدالله - يعني ابن مسعود - "كالصوف المنفوش".

سُورَةُ الْهَآكِمِ

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّكَاتُرُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

الشرح: قوله: (سورة الهاكم. بسم الله الرحمن الرحيم) كذا لأبي ذر، ويقال لها سورة التكاثر. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن أبي هلال قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها المقبرة. قوله: (وقال ابن عباس: التكاثر من الأموال والأولاد) وصله ابن المنذر من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس.

(تنبيه): لم يذكر في هذه السورة حديثاً مرفوعاً، وسيأتي في الرقاق من حديث أبي بن كعب ما يدخل فيها.

سُورَةُ وَالْعَصْرِ

وَقَالَ يَحْيَى: الْعَصْرُ الدَّهْرُ أَقْسَمَ بِهِ

الشرح: قوله: (سورة والعصر) العصر اليوم والليلة، قال الشاعر:

ولن يلبث العصران يوماً وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما
قال عبد الرزاق عن معمر قال الحسن: العصر العشي. وقال قتادة: ساعة من ساعات النهار.

قوله: (وقال يحيى العصر الدهر أقسم به) سقط يحيى لأبي ذر، وهو يحيى بن زياد الفراء، فهذا كلامه في "معاني القرآن".

قوله: (وقال مجاهد: خسر ضلال. ثم استثنى فقال: إلا من آمن) ثبت هذا هنا للنسفي وحده، ولم أره في شيء من التفاسير المسندة إلا هكذا عن مجاهد: إن الإنسان لفي خسر، قال: إلا من آمن.

(تنبيه): لم أر في تفسير هذه السورة حديثاً مرفوعاً صحيحاً، لكن ذكر بعض المفسرين فيها حديث ابن عمر "من فاتته صلاة العصر" وقد تقدم في صفة الصلاة مشروحاً.

سُورَةٌ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ
الْحُطْمَةِ اسْمُ النَّارِ مِثْلُ سَقَرٍ وَلِظَى

الشرح: قوله: (سورة ويلى لكل همزة - بسم الله الرحمن الرحيم) كذا لأبي ذر، ويقال لها أيضاً سورة الهمزة، والمراد الكثير الهمز، وكذا اللمز. وأخرج سعيد بن منصور من حديث ابن عباس أنه سُئل عن الهمزة قال: المشاء بالنميمة، المفرق بين الإخوان. قوله: (الخطمة اسم النار، مثل سقر ولظى) هو قول الفراء، قال في قوله: (لينبذن) أي الرجل وماله، (في الخطمة) اسم من أسماء النار، كقوله: جهنم وسقر ولظى.

وقال أبو عبيدة: يقال للرجل الأكل حطمة، أي الكثير الحطم.

❖❖ سُوْرَةُ أَلَمْ تَرَ

أَلَمْ تَرَ: أَلَمْ تَعْلَمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَبَابِيلٌ مُّتَّبِعَةٌ مُّجْتَمِعَةٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "سَنَكٌ وَكُلٌّ". يعني حجراً وطنياً بالفارسية.

الشرح:

قوله: (سورة ألم تر) كذا لهم، ويقال لها أيضاً سورة الفيل.

قوله: (ألم تر ألم تعلم) كذا لغير أبي ذر.

وللمستملي ألم تر.

قال مجاهد: ألم تر ألم تعلم، والصواب الأول فإنه ليس من تفسير مجاهد.

وقال الفراء: ألم تخبر عن الحبشة والفيل، وإنما قال ذلك؛ لأنه ﷺ يدرك قصة أصحاب الفيل؛ لأنه ولد في تلك السنة.

قوله: (أبائيل: متتابعة مجتمعة) وصله الفريابي عن مجاهد في قوله أبائيل قال: شتى متتابعة. وقال الفراء: لا واحد لها.

وقيل: واحدها أبالة بالتخفيف، وقيل بالتشديد، وقيل: أبول كعجول وعجاجيل. قوله: (وقال ابن عباس: من سجيل هي سنك وكل) وصله الطبري من طريق السدي عن عكرمة عن ابن عباس قال: سنك وكل، طين وحجارة.

وقد تقدم في تفسير سورة هود، ووصله ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم عن عكرمة، وروى الطبري من طريق عبد الرحمن بن سابط قال: هي بالأعجمية سنك وكل.

ومن طريق حصين عن عكرمة قال: كانت ترميهم بحجارة معها نار، قال: فإذا أصابت أحدهم خرج به الجدري، وكان أول يوم رُئي فيه الجدري.

الباب الحادي عشر

الخطابة في عصر صدر الإسلام

مقدمة

حول الفنون الأدبية النثرية

استخدم الأدباء في كل عصر وعهد مجموعة من هذه الفنون كما قلنا تتناسب مع معطيات العصر؛ واستخدم الأدباء العرب في عصر صدر الإسلام بعد نزول القرآن الكريم، وبعد ما سمعناه من الحديث النبوي الشريف فنوناً جديدة بالإضافة إلى الفنون القديمة فاستخدموا (المفاخرات الشعرية بمفهومها الإسلامي - المناظرات - الأمثال - الحكم - القصص - الحكايات - الوصايا - المواعظ التقوية - الرسائل - الوصف - الروايات - الأدعية - المحاورات - الأحاديث الشعبية - الخطابة - الرجز - الشعر) بالإضافة إلى الفنون الأدبية التي عبّر القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف عن غاياته من خلالها (القصة - الرواية - المثل - الدعاء - الرسالة - الوصف).

ومن أهم هذه الفنون الأدبية الخطابة التي نهضت في عصر صدر الإسلام لدواع دينية أو اجتماعية وسياسية، ولكون الإسلام قد أوجب خطبة الجمعة وسنّ خطب الأعياد والخسوف والكسوف فقد تطور هذا الفن وانتشر انتشاراً عظيماً، وحفلت به النوادي وحفلت فيها المجالس والقصور وأماكن القضاء، إذ كان الخلفاء والقادة يعتمدون عليها اعتماداً كبيراً في إيصال ما يريدون إيصاله، وزاد من أهمية الخطابة انتشار الأحزاب السياسية والفرق والثورات التي تحاول إثبات أحقية الخلافة لفئة دون فئة، ومن هنا فقد تفرعت الخطابة إلى أنواع وأشكال.

الباب الحادي عشر

الفصل الأول

أنواع الخطابة في هذا العصر

ازدهرت الخطابة بشكل عام والخطابة الدينية بشكل خاص في عصر صدر الإسلام. وترعرعت هذه الخطابة بسبب انتشار الوفود التي تأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مهتنة أو معزية أو لحاجة من الحاجات، وقد استقبل الرسول عليه السلام الوفود التي قدمت معلنة إسلامها وسمي بعام الوفود.

- أنواع الخطابة الدينية الإسلامية:

- ١- خطب الجمعة
- ٢- خطب الحج
- ٣- خطب العيد
- ٤- خطب الاستسقاء
- ٥- خطب الخسوف والكسوف
- ٦- خطب المحافل والوفود
- ٧- خطب الزواج
- ٨- خطب النصح
- ٩- النصح والإرشاد

أ- خطبة الجمعة

أولاً: حكم خطبة الجمعة: اتفق الفقهاء على أن الخطبة شرط في الجمعة لا تصح بدونها لقوله تعالى: (فاسعوا إلى ذكر الله) والذكر هو الخطبة، ولأن النبي ﷺ لم يصل الجمعة دون الخطبة وهي خطبتان قبل الصلاة اتفاقاً، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة (أن رسول الله ﷺ كان

يُخَطِّبُ قَائِماً، ثُمَّ يَجْلِسُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُخَطِّبُ قَائِماً) وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخَطِّبُ خُطْبَتَيْنِ كَانَ يَجْلِسُ إِذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ حَتَّى يَفْرُغَ أَذَانَ الْمُؤَذِّنِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُخَطِّبُ، ثُمَّ يَجْلِسُ فَلَا يَتَكَلَّمُ وَيَقُومُ فَيُخَطِّبُ) وَجَاءَ فِي كِتَابِ شُعْبِ الْإِيمَانِ أَنَّ خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ خُطْبَتَانِ يَفْصَلُ بَيْنَهُمَا بِقَعْدَةٍ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخَطِّبُ خُطْبَتَيْنِ يَقْعُدُ بَيْنَهُمَا، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فَرَضَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَلَكِنْ الظُّرُوفُ الْقَاهِرَةُ الَّتِي كَانَتْ تَحِيطُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ تَمَكِّنْهُ مِنَ الْقِيَامِ بِتِلْكَ الْفَرِيضَةِ الْعَظِيمَةِ إِلَى أَنْ أَمَّتْهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ بِالْهِجْرَةِ الْمُبَارَكَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ، وَلَمَّا بَلَغَ قَبَاءَ أَقَامَ فِيهَا فِي بَنِي عَوْفٍ أَيَّامَ الْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ، ثُمَّ تَابَعَ سِيرَهُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَنِي سَالِمٍ أَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فَصَلَّاهَا فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِي فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ صَلَّاهَا بِالْمَدِينَةِ، وَمَنْ ثُمَّ سُمِّيَ الْمَسْجِدَ بِمَسْجِدِ الْجُمُعَةِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَسْجِدِ قَبَاءَ.

ثَانِيًا: شُرُوطُ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ:

- ١- أَنْ تَكُونَ خُطْبَتَيْنِ.
- ٢- أَنْ تَقَعَ وَقْتُ الظُّهْرِ.
- ٣- أَنْ تَتَقَدَّمَ عَلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ.
- ٤- أَنْ تَكُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَأَجَازِ الْأَحْنَافِ الْخُطْبَةَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهَذَا أَقْرَبُ لِلْوَاقِعِ حَالِيًا فَغَالِبُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْعَرَبِيَّةَ فَيَفُوتُهُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِمَا تَتَضَمَّنُ مِنْ عِلْمٍ وَتَوْجِيهِ.
- ٥- الْمَوَالَاةُ بَيْنَ أَرْكَانِ الْخُطْبَةِ.
- ٦- الْمَوَالَاةُ بَيْنَ الْخُطْبَتَيْنِ.
- ٧- الْمَوَالَاةُ بَيْنَ الْخُطْبَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالصَّلَاةِ.
- ٨- الْقِيَامُ عِنْدَ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَ الْخُطِيبُ قَادِرًا عَلَى الْقِيَامِ.
- ٩- أَنْ يَكُونَ الْخُطِيبُ سَاتِرًا لِلْعَوْرَةِ.
- ١٠- أَنْ يَكُونَ الْخُطِيبُ طَاهِرًا مِنَ الْحَدِيثَيْنِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ.

١١- أن يجلس بين الخطبتين ويسن بقدر سورة الإخلاص.

١٢- أن يحضره أربعون ممن تنعقد بهم الجمعة كما في المذهب الشافعي وعند غيره يختلف العدد.

ثالثاً . أركان خطبة الجمعة الخطبة:

للجمعة خمسة أركان هي:

١- حمد الله تعالى بأي صيغة من صيغ الحمد مع الشهادتين.

٢- الصلاة على النبي ﷺ بأي صيغة من صيغ الصلاة.

٣- الوصية بالتقوى بأي صيغة كانت، وهذه الأركان الثلاثة واجبة في الخطبتين.

٤- قراءة آية مفهومة في إحدى الخطبتين وفي الأولى أولى.

٥- الدعاء للمؤمنين والمؤمنات في الخطبة الثانية.

رابعاً - سنن خطبة الجمعة:

- لخطبة الجمعة سنن نذكر أبرزها:

١- أن تكون بلغة مفهومة واضحة.

٢- كونها على منبر أو موضع عال؛ لأن الرسول ﷺ اتخذ منبراً.

٣- أن يسلم الخطيب على المسلمين إذا دخل المسجد وعندما يصعد المنبر ويلتفت إلى

المصلين بوجهه.

٤- أن يستقبل الخطيب الناس بوجهه وأن يضع يمينه على حرف المنبر.

٥- ترتيب أركان الخطبة.

٦- ويسن تقصير الخطبة تقصيراً معتدلاً حتى لا يملها الناس، لقول جابر بن سمرة رضي

الله عنه أن النبي ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هي كلمات يسيرات وكون الثانية أقصر

من الأولى وروى مسلم عن عمار مرفوعاً: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة فقهه

فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة والمئنة: العلامة والمظنة.

٧- أن يخاطب الناس على قدر عقولهم فلا يحدثهم بما لا يفهمون.

خامساً . آداب خطبة الجمعة:

لخطبة الجمعة آداب منها:

- ١ - يستحب للخطيب أن ينظف جسمه وثيابه ويلبس البياض ويتطيب، لقوله ﷺ: أحسن ما زرتم الله عز وجل به في قبوركم ومساجدكم البياض. رواه ابن ماجه.
- ٢ - يندب للخطيب أن يتأخر إلى وقت الخطبة.
- ٣ - ألا يقعد إلا بعد أن يصلي تحية المسجد.

كيفية خطبة الجمعة:

يبدأ خطيب الجمعة خطبته بالحمد لله ولها صيغ عديدة منها (إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له).

ثم يتبعها بالصلاة على النبي ﷺ مسبقة بالشهادتين (وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين).

ثم يوصي المصلين بتقوى الله سبحانه، ويكون ذلك إما بقراءة آية فيها وصية بالتقوى نحو قوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) النساء. أو (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) آل عمران. أو (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) الأحزاب. وإما بكلام غير القرآن الكريم، نحو قوله (أوصيكم ونفسي المخطئة بتقوى الله وأحثكم على طاعته) ثم يشرع الخطيب في الدخول بالموضوع الذي يريد أن يتحدث به في خطبته وحبذا أن يبدأ دخوله في موضوعه بقراءة الآية أو الآيات التي تدور في فلكها، ثم يدخل في تفاصيل الموضوع مراعيّاً تناسق هيكله وتتابع مراحل بصورة مضبوطة وشكل متوازن، فيبدأ بالمقدمة التي يستهل بها الدخول في موضوعه، ثم يتناول موضوع خطبته مقسماً إياه إلى فقرات مرتبة ترتيباً مناسباً، ثم ينهي خطبته الأولى بخاتمة يجتم بها موضوعه. وبهذا يكون قد حقق بناء موضوع خطبته بكامل مراحل.

وقبل أن يجلس بين الخطبتين يأمر الناس بالاستغفار ولذلك صيغ منها (أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجميع المسلمين فيا فوز المستغفرين استغفروا الله). ثم يجلس بين الخطبتين جلسة قصيرة بمقدار ما يقرأ سورة الإخلاص، ثم يقوم إلى الخطبة الثانية ويبدوها بالحمد لله كما بدأ الخطبة الأولى، ثم الشهادتين، ثم الصلاة على رسول الله ﷺ، ثم الوصية بالتقوى كما هو الشأن في الخطبة الأولى وبعضهم يميز بين الخطبة الأولى والخطبة الثانية بصيغة الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ والأمر بالتقوى مثال ذلك أن يقول في بدأ الخطبة الثانية:

(الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر أشكره تعالى وهو الذي وعد المزيد لمن شكر عباد الله اتقوا الله فيما أمر وانتهوا عما نهى عنه وزجر وأخرجوا حب الدنيا من قلوبكم فإنه إذا استولى أسر وحافظوا على الطاعات وحضور الجماعات، واعلموا أن الله أمركم بأمر عظيم بدأ به نفسه وثنى بملائكته قدسه فقال تعالى ولم يزل قائلاً حكيماً تشرiffاً لقد ر نبيه ﷺ وتعظيماً وإرشاداً لنا وتعليماً: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) اللهم صلّ على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين) ولا يشترط على الخطيب أن يلتزم في خطبته مثل هذه الصيغة، بل له أن يأتي بأية صيغة شاء على أن تتوفر فيها الأركان الثلاثة، ثم للخطيب بعد ذلك أن يتم ما تبقى من موضوعه في الخطبة الثانية إذا لم يكن قد أتمه في الخطبة الأولى.

أو يذكر الناس ويعظهم بما يؤكد مضمون موضوع خطبته الأولى بحيث يكون ملخصاً بليغاً له في أذهانهم بعد أدائهم الجمعة وذهابهم إلى مقاصدهم، ولقد استحسن أهل العلم أن يقرأ الخطيب قبل نزوله من فوق المنبر قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون).

سادساً . هدي الرسول ﷺ في خطب الجمعة:

جاء في زاد المعاد الجزء الأول (كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ).

رواه مسلم في لفظ كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة يحمد الله ويشني عليه بما هو أهله، ثم يقول: (من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وخير الحديث كتاب الله). وفي لفظ للنسائي (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار وكان يقول في خطبته بعد التحميد والثناء والتشهد أما بعد وكان يقصر الخطبة ويطول الصلاة ويكثر الذكر ويقصد الكلمات الجوامع، وكان يقول: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه) وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه وأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي كما أمر الداخل وهو يخاطب أن يصلي ركعتين ونهى المتخطي رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس.

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض أو السؤال لأحدٍ من أصحابه فيجيبه، ثم يعود إلى خطبته فيتمها وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة، ثم يعود فيتمها كما نزل للحسن والحسين فأخذهما، ثم رقى المنبر فأتى خطبته، وكان يدعو الرجل في خطبته تعال اجلس يا فلان صل يا فلان وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها، وكان يشير بإصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه، وكان يستسقي بهم إذا قحط المطر في خطبته، وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده من غير رجل يصيح بين يديه، فإذا دخل المسجد سلم عليهم فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ولم يدع مستقبل القبلة، ثم يجلس ويأخذ بلال في الأذان فإذا فرغ منه قام النبي ﷺ فخاطب من غير فصل بين الأذان والخطبة لا بإيراد خبر ولا غيره، ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره.

وإنما كان يعتمد على قوس وعصا قبل أن يتخذ المنبر، وكان في الحرب يعتمد على قوس، وفي الجمعة يعتمد على عصا ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف وكان منبره ثلاث درجات وكان قبل اتخاذه يخاطب إلى جذع يستند إليه، فلما تحول إلى منبر حنّ الجذع حينئذ سمعه أهل المسجد فنزل إليه ﷺ وضمه قال أنس: حنّ لما فقد ما كان يسمع من الوحي وفقدته التصاق النبي ﷺ، ولا يوضع المنبر وسط المسجد وإنما وضع في جانبه الغربي قريباً من الحائط وكان بينه وبين الحائط قدر ممر الشاة، وكان إذا جلس عليه النبي ﷺ في غير

الجمعة أو خطب قائماً في الجمعة استدار أصحابه إليه بوجوههم وكان وجهه قبلهم في وقت الخطبة وكان يقوم فيخطب ثم يجلس جلسة خفيفة، ثم يقوم فيخطب الثانية فإذا فرغ منها أخذ بلال في الإقامة.

وكان يأمر الناس بالدنو منه ويأمرهم بالإنصات ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه أنصت فقد لغا ويقول: من لغا لا جمعة له وكان يقول: (من تكلم والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً والذي يقول له أنصت ليست له جمعة) رواه الإمام أحمد رحمه الله وقال أبي بن كعب: قرأ رسول الله يوم الجمعة - تبارك - وهو قائم فذكرنا بأيام الله وأبو الدرداء أو أبو ذر يغمزني فقال: متى أنزلت هذه السورة فإني لم أسمعها إلى الآن، فأشار إليه أن اسكت فلما انصرفوا قال: سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرني فقال: إنه ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وأخبره بالذي قال له أبي فقال رسول الله: صدق أبي ذكره ابن ماجه وسعيد بن منصور، وأصله في مسند الإمام أحمد.

وقال ﷺ: (يحضر الجمعة ثلاثة نفر رجل حضرها يلغو وهو حظه منها ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله عز وجل إن شاء الله أعطاه وإن شاء منعه ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخطَّ رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى يوم الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، وذلك أن الله عز وجل يقول: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) الأنعام - ذكره أحمد وأبو داود، وكان إذا فرغ بلال من الأذان أخذ النبي ﷺ في الخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة ولم يكن الأذان إلا واحداً.

- القيام والجلوس في الخطبة:

جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري:

باب الخطبة قائماً: حدثنا عبد الله بن عمر القواريري قال حدثنا خالد بن الحارث قال حدثنا عبيد الله بن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ يخطب قائماً ثم يجلس ثم يقوم كما تفعلون الآن). قال ابن المنذر: الذي عليه جل أهل العلم من علماء الأمصار ذلك، ونقل غيره عن أبي حنيفة أن القيام في الخطبة سنة وليس بواجب، وعن مالك رواية أنه واجب فإن تركه أساء وصحت خطبته وعند الباقيين أن القيام في الخطبة يشترط للقيام كالصلاة.

سابعاً - هيئات الخطبتين وآدابها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً ثم يجلس كما تفعلون اليوم) رواه الجماعة وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال (كان النبي ﷺ يخطب قائماً ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائماً، فمن قال إنه يخطب جالساً فقد كذب فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة) رواه أحمد ومسلم [المئنة: العلامة والمطنة].

وعن عبد الله بن أوفى رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يطيل الصلاة ويقصر الخطبة) رواه النسائي.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ (أنه كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هي كلمات يسيرات) رواه أبو داود.

وعنه رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: (صبحكم ومساكم) رواه مسلم وابن ماجه.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاهراً يديه قط يدعو على منبره ولا غيره ما كان يدعو إلا أن يضع يده حذو منكبه ويشير بأصبعه إشارة) رواه أحمد وأبو داود وقال فيه: (لكن رأيته يقول هكذا وأشار بالسبابة وعقد الوسطى بالإبهام).

ثامناً - الأذان حين جلوس الخطيب على المنبر:

جاء في الجزء الرابع من تفسير ابن كثير: (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله حيث قال: حدثنا آدم هو ابن أبي إياس حدثنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن السائب بن يزيد

قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا إبراهيم حدثنا محمد بن راشد المكحول عن مكحول (النداء كان في يوم الجمعة من مؤذن واحد حين يخرج الإمام، ثم تقام الصلاة وذلك النداء الذي يحرم عنده الشراء والبيع إذا نودي به فأمر عثمان رضي الله عنه أن ينادي قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس).

تاسعاً - ذكر الخطبتين قبل الصلاة:

جاء في صحيح مسلم بشرح النووي الجزء السادس تحت عنوان ذكر الخطبتين قبل الصلاة والجلسة بينهما: حدثنا عبید الله بن عمر القواريري وأبو كامل الحجري جميعاً عن خالد قال أبو كامل حدثنا الحارث حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر قال: (كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً، ثم يجلس، ثم يقوم قال كما تفعلون اليوم) وحدثنا يحيى بن يحيى وحسن بن الربيع وأبو بكر بن أبي شيبة قال يحيى: أخبرنا وقال الآخرون: حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن جابر بن سمرة قال (كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس) وحدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو خيثمة عن سماك قال: أنبأني جابر بن سمرة (أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائماً فمن نبأك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب، فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة).

عاشراً - صلاة ركعتين خفيفتين والإمام يخطب:

من السنة إذا دخل رجل المسجد والإمام يخطب الناس يوم الجمعة أن يصلي ركعتين قبل أن يجلس فقد جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري الجزء الثالث حدثنا أبو النعمان قال: حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: (جاء رجل والنبي ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة فقال: (أصليت يا فلان) قال: لا، قال: قم فاركع وجاء في رواية مسلم أن الرجل هو سليك الغطفاني فقد جاء يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فقعد سليك قبل أن يصلي فقال له: (أصليت ركعتين) فقال: لا فقال: قم فاركعها. وبه يقول

الشافعي وأحمد وإسحاق. وقال بعضهم: إذا دخل والإمام يخطب فإنه يجلس ولا يصلي وهو قول سفيان وأهل الكوفة، كما جاء في سنن الترمذي ودليلهم الحديث الصحيح (إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت).

وقالوا: إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الواجب ممنوعاً ساعة خطبة الإمام وبه تلغى الجمعة فلأن تكون النافلة ممنوعة بالأولى، وقالوا أيضاً: إن المأمور بالركعتين في أثناء الصلاة فقير يحتاج إلى صدقة فأمره النبي بالقيام والصلاة ليروه فيصدقوا عليه، روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح والنسائي واللفظ له عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب بهيئة بذة فقال له رسول الله ﷺ: أصليت؟ قال: لا قال: صل ركعتين وحث الناس على الصدقة فألقوه ثياباً فأعطاه منها ثوبين... الحديث، وأنت أيها المسلم بأبيها عملت فقد هديت إن شاء الله تعالى.

حادي عشر - سنن الخطبة:

١ - يسن للخطيب أن يلقي السلام على من بجوار المنبر قبل أن يصعد عليه إذا كان قد خرج عليهم من حجرته أو كان قادماً من خارج المسجد، أما إذا كان جالساً بينهم فلا يسن له إلقاء السلام عليهم.

٢ - ويسن للخطيب أن يسلم على الناس بعد صعود المنبر ويلتفت إليهم بوجهه، فقد كان النبي ﷺ يفعلُه فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ إذا دنا من منبره يوم الجمعة سلّم على من عنده من الجلوس فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه، ثم سلم قبل أن يجلس).

٣ - ويسن أن تكون الخطبة على مكان مرتفع حتى يراه الناس، وقد كان للنبي ﷺ منبر ثلاث درجات كما هو معلوم.

٤ - ويسن للخطيب أن يرفع صوته لإسراع الحاضرين وإظهار الشهامة وتفخيم أمر الخطبة والإتيان فيها بجزيل الكلام مع مراعاة مقتضى حال الحاضرين وما يحتاجون إليه من المواعظ والإرشادات، روى مسلم عن جابر بن عبد الله (كان النبي ﷺ إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول صباحكم ومساكم أي كأنه ينذر الناس

باقتراب العدو منهم فهو قد يصل إليهم في الصباح أو في المساء، وهذا إذا اقتضى الأمر ذلك، وكان المقام مقام تخويف وإنذار وتذكير بأحوال الموت وأمور الآخرة وليس في جميع الأحوال إذ لكل حال مقال.

٥- ويسن تقصير الخطبة تقصيراً معتدلاً حتى لا يملها الناس لقول جابر بن سمرة رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هي كلمات يسيرات).

ثاني عشر- ومما يتبع سنن الخطبة:

- ١- الطهارة وستر العورة سنة عند الجمهور وهي شرط عند الشافعية.
- ٢- استقبال القوم بوجهه دون التفات يميناً أو شمالاً سنة بالاتفاق، كما روى ابن ماجه عن عدي بن ثابت عن أبيه عن جده قال: كان النبي ﷺ إذا قام على المنبر استقبله الناس بوجوههم.
- ٣- الجلوس على المنبر قبل الشروع في الخطبة عملاً بالسنة لحديث ابن عمر السابق عند أبي داود وهو متفق عليه.
- ٤- أن يؤذن مؤذن واحد لا جماعة بين يدي الخطيب إذا جلس على المنبر، وهذا متفق عليه روى البخاري عن السائب بن يزيد أنه قال: النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ولم يكن للنبي مؤذن غير واحد.

ثالث عشر- مكروهات الخطبة:

مكروهات الخطبة عند الحنفية والمالكية:

- ١- هي ترك سنة من السنن المتقدمة ومن أهمها: تطويل الخطبة وترك الطهارة فكلاهما مكروه. وليس ترك السنن المتقدمة عند الشافعية والحنابلة مكروهاً على إطلاقه، بل منه ما هو مكروه ومنه ما هو خلاف الأولى.
- ٢- من المكروه في الخطبة عند الشافعية أن يؤذن جماعة بين يدي الخطيب، وهو مكروه عند الحنابلة ويكرهه دق المنبر ويكره الاحتباء للحاضرين في الخطبة لما صحح من النهي عنه في

حديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه عن سهل بن معاذ: (أن النبي ﷺ نهى عن الحبوقة يوم الجمعة والإمام يخطب، ولأنه يجلب النوم ومخل بأداب الجلوس في المجالس فما بالك بمجلس يوم الجمعة ومن خلاف الأولى عند الشافعية أن يغمض السامع والإمام عينيه لغير حاجة حال الخطبة ومن نعس انتقل من مكانه إن لم يتخطأ أحداً في انتقاله لحديث الترمذي وصححه وأبي داود (إذا نعس أحدكم في مجلسه فليتحول إلى غيره).

٣- ومن المكروه عند الحنابلة استدبار الخطيب القوم حال الخطبة وأجاز الحنابلة الاحتباء مع ستر العورة؛ لأنه فعله جماعة من الصحابة وضعفوا حديث النهي عنه كما أجازوا القرفصاء ويكرهه عند الحنابلة والشافعية التشبيك في المساجد ومن حين يخرج المصلي من بيته قاصداً المسجد لخبر أبي سعيد أنه ﷺ قال: (إذا كان أحدكم في المسجد فلا يشبكن فإن التشبيك من الشيطان وإن أحدكم لا يزال في صلاة ما كان في المسجد حتى يخرج منه) رواه مسلم عن أبي هريرة قال بعض العلماء: إذا كان ينتظر الصلاة جمعاً بين الأخبار فإنه ورد أنه (لما انفتل ﷺ من الصلاة التي سلم قبل إتمامها شبك بين أصابعه).

وأما كراهة التشبيك أثناء الذهاب للمسجد فلحديث كعب بن عجرة أن النبي ﷺ قال: (إذا توضأ أحدكم فأحسن وضوءه، ثم خرج عامداً إلى المسجد فلا يشبك بين أصابعه فإنه في صلاة).

- ويكره العبث حال الخطبة لقول النبي ﷺ: (من مس الحصى فقد لغا) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وهو حسن وصححه الترمذي.

- ويكره الشرب ما لم يشتد عطشه ويكره التخطي للسؤال.

رابع عشر- أهمية خطبة الجمعة ومكانتها:

قال أحد المفكرين الإسلاميين: إن صلاة الجمعة والحج دعامتان قويتان من دعامات الإسلام إذا زالتا أُنذر بالخطر إن هذه الكلمة لا تتعارض مع قوله تعالى: (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) [الحجر] فنحن نؤمن إيماناً كبيراً بأن الله سبحانه تكفل بحفظ هذا الدين الحنيف ولكنه أناط هذا الحفظ بأسباب وعوامل منها:

استقرار صلاة الجمعة وفريضة الحج وبقاؤهما حتى ترفع الكعبة فخطبة الجمعة ذات أهمية كبيرة وأثر بالغ في نشر الإسلام وترسيخ مبادئه السمحة في نفوس المسلمين الذين يجتمعون إليها في كل أسبوع، فتكون بهم مظهراً رائعاً من مظاهر قوة الإسلام ورسوخ كلمته في الحياة كما هو الأمر في فريضة الحج ففريضة الجمعة تحشد المسلمين في بيوت الله على صعيد مصر أو القرية أو الحي، وفريضة الحج تحشد المسلمين على صعيد العالم الإسلامي حيث يأتون من شتى بقاع الأرض فيجتمعون في وقت واحد بمكان واحد على عبادة يؤدونها على نسق واحد فتتجلى بذلك ضخامة الإسلام بأتمته وقوته في أتباعه.

ويمكننا إدراك أهمية فريضة الجمعة وأثرها البالغ في حياة المسلمين من خلال ظاهرة تعبر عن واقعهم في هذا العصر وهي أننا نجد عدداً كبيراً من المسلمين كباراً وصغاراً قد يتهاونون في الصلوات الخمس اليومية ويقصرون في أدائها ولكنهم إذا جاء يوم الجمعة تركوا أعمالهم ومشاغل دنياهم وانطلقوا مغتسلين متطيبين متزينين إلى المساجد التي تمتلئ بهم حيث يجلسون في رحابها يستمعون إلى خطبة الجمعة، ثم يؤدون صلاتها ليرجعوا بعد ذلك إلى بيوتهم منسرحي الصدور وقد اغتبطوا بأنوار ما استمعوا إليه من الذكر والمواعظ النافعة، وفي ذلك دليل واضح على القوة العجيبة التي أودعها الله في فريضة الجمعة وعلى التأثير البليغ في خطبتها.

ب- خطبة العيد:

أولاً - حكم خطبة العيد:

تسن عند الجمهور وتندب عند المالكية خطبتان للعيد كخطبتي الجمعة في الأركان والشروط والسنن والمكروهات بعد صلاة العيد خلافاً للجمعة فهي قبل الصلاة بالإجماع يذكر الإمام في خطبة عيد الفطر بأحكام زكاة الفطر لقوله ﷺ: (أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم) وفي عيد الأضحى بأحكام الأضحية وتكبيرات التشريق ووقوف الناس بعرفة وغيرها تشبهاً بالحجاج وما يحتاجون إليه في يومهم ويحسن تعليمهم ذلك في خطبة الجمعة السابقة على العيد، وإذا صعد على المنبر لا يجلس عند الحنفية ويجلس عند الحنابلة والمالكية والشافعية ليستريح ودليل سنية الخطبة التأسي بالنبي ﷺ ويخلفائه الراشدين فلا يجب حضورها ولا استماعها لما روى عطاء عن عبد الله بن السائب قال: (شهدت مع النبي ﷺ العيد فلما انقضت الصلاة قال: (إنا نخطب فمن أحب أن

يجلس للخطبة فليجلس ومن أحب أن يذهب فليذهب) ولو ترك الخطبة جازت صلاة العيد لكنه خالف السنة وكونها بعد الصلاة اتباعاً للسنة أيضاً فإن ابن عمر قال: (أن النبي وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يصلون العيدين قبل الخطبة) متفق عليه.

فلو خطب الإمام قبل الصلاة صح عند الحنفية وأساء لترك السنة؛ لأن التأخير سنة ويبدأ الخطيب بالتكبير كما يكبر في أثنائها من غير تحديد عند المالكية، وقيل عندهم سبعاً في أولها وعند الجمهور يكبر في الخطبة الأولى تسع تكبيرات متوالية وفي الثانية يكبر بسبع تكبيرات متوالية أيضاً، كما روى سعيد بن منصور عن عبيد الله بن عتبة قال: كان يكبر الإمام يوم العيد قبل أن يخطب تسع تكبيرات وفي الثانية سبع تكبيرات، ويستحب عند الحنفية أيضاً أن يكبر الإمام قبل نزوله من المنبر أربع عشرة، مرة ويندب للإمام بعد فراغه من الخطبة أن يعيدها لمن فاته سماعها ولو شاء اتباع للسنة. رواه الشيخان.

ثانياً . وتختلف خطبة العيد عن خطبة الجمعة في أمور:

- ١- أن خطبة الجمعة تكون قبل الصلاة وخطبة العيد بعد الصلاة فإذا قدمها لم تصح عند غير الحنفية ويندب إعادتها بعد الصلاة.
- ٢- أن خطبتي الجمعة تبدأ بحمد الله وهو شرط أو ركن عند الشافعية والحنابلة سنة عند الحنفية مندوب عند المالكية أما خطبتا العيد فيسن افتتاحهما بالتكبير.
- ٣- أن الخطيب عند الحنفية خلافاً للجمهور لا يجلس إذا صعد المنبر ويجلس في خطبة الجمعة، ومنها أن الخطيب عند المالكية إذا أحدث في أثناء خطبة العيد يستمر ولا يستخلف بخلاف خطبة الجمعة فإنه إن أحدث فيها يستخلف.
- ٤- أن خطبة العيد عند الشافعية لا يشترط فيها شروط خطبة الجمعة من قيام وطهارة وستر العورة وجلوس بين الخطبتين وإنما يسن ذلك فقط.

ثالثاً . موعظة رسول الله ﷺ للنساء في عيد الفطر:

روى الإمام البخاري بسنده عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة، ثم خطب فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال

وبلال باسط ثوبه يُلقِي فيه النساء الصدقة قلت لعطاء: زكاة يوم الفطر؟ قال: لا ولكن صدقة يتصدقن حينئذ تُلقِي فتحَهَا ويلقَيْن، قلت: أترى حقاً على الإمام ذلك يأتيهن ويذكرهن؟ قال: إنه لحق عليهم وما لهم لا يفعلونه؟

رابعاً . أهمية خطبة العيد :

لا تقلّ خطبة العيد في أهميتها عن سواها من الخطب الدينية فهي ميدان رحب لتذكير الناس بكثير من القضايا التي ينبغي عليهم ألا يغفلوا عنها ولتنبيههم إلى أمور لها مسٌ مباشر بواقعهم في مناسبات أعيادهم، فخطبة العيد ذات دور فعال في إيقاظ الناس إلى حقائق دينهم وآداب شريعتهم وتوجيههم إلى المعاني الإنسانية العالية والأخلاق الفاضلة والاستقامة على منهج طاعة الله وحسن عبادته وينبغي لخطيب العيد أن يتناول في المواضيع التي تتعلق بواقع المسلمين في أعيادهم، فيتحدث عن صلة الأرحام وزيارة الأقرباء وإعانة الفقراء والعطف على الأيتام والأرامل والإحسان إلى الجيران وتفقد أحوال الأصحاب والإخوان في الله، ويبين فضل ذلك وما يناله القائم بهذه الأعمال الخيرية الصالحة ابتغاء وجه الله من الأجر العظيم عند المالك الديان الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة.

كما ينبغي على الخطيب في العيد أن ينبه إلى المنكرات والمعاصي التي أصبحت تجتاح أعياد المسلمين في هذه الأيام وتكتسح بيوتهم بشكل سافر في أيام الأعياد حيث تشرب الخمر وتشيع الفاحشة ويعكف الناس على المغنيات والمعارف حضوراً في مجالسها أو مشاهدة لبرامجها، ويحذرهم من الاختلاط وينذرهم خطره على المجتمع كله، ويحذرهم من الانحراف الخلقي الذي يسقط فيه أبناؤهم وتغرق في لجة فتياتهم وخاصة في الأعياد والتي أصبحت مآثم قائم تذيب فيها الفضائل وتراق فيها دماء الشرف والعفاف، ومطلوب من الخطيب أن يحض المستمعين على أن يجعلوا أعيادهم كما أمر الله تعالى، مواسم للعبادة والطاعة ومناسبات لزيادة التواصل الاجتماعي وتمتين العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم.

ولا بأس بالخطيب في أن يربط بين رمضان وعيد الفطر ويذكر الناس بفضل يوم العيد الذي هو يوم الجائزة كما يربط ما بين عيد الأضحى والحج والأضحية، وحبذا أن يذكر قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما بنى البيت ورحلته بهاجر زوجة أم إسماعيل وماء زمزم وأن

يذكر عزم إبراهيم عليه السلام على أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام تنفيذاً لأمر الله تعالى وليحرص على أن يجعل هذا الحادث مدرسة تنطلق منها أروع المبادئ وأعظم المواعظ وأجل الدروس التي يحتاجها المسلمون في حياتهم، وألا يكتفي بعرض القصص، بل يهتم بالعبر والعظات المستقاة منها.

ج . خطبة الاستسقاء:

أولاً . حكمها:

جاء في كتاب الفقه الإسلامي وأدلته، وفي فتح القدير ١/ ٤٣٩ وما بعدها، واللباب ١/ ١٢٢ وما بعدها: قال أبو حنيفة: لا خطبة للاستسقاء؛ لأنها تبع للجماعة ولا جماعة لها عنده وإنما دعاء واستغفار يستقبل فيها الإمام القبلة قال ابن عباس حينما سُئِلَ عن صلاة الاستسقاء: خرج رسول الله ﷺ متواضعاً متبذلاً متخشعاً متضرعاً فصلى ركعتين كما يصلي في العيد ولم يخطب خطبتكم هذه.

وقال الصحابان: يصلي الإمام بالناس ركعتين فيها بالقراءة، ثم يخطب ويستقبل القبلة بالدعاء ويخطب خطبتين بينهما جلسة كالعيد عند محمد وخطبة واحدة عند أبي يوسف، ويكون معظم الخطبة الاستغفار وقال الجمهور: يخطب الإمام للاستسقاء بعد الصلاة على الصحيح خطبتين كصلاة العيد عند المالكية كما صنع في العيدين وخطبة واحدة عند الحنابلة؛ لأنه لم ينقل أنه خطب بأكثر منها، ودليلهم على طلب الخطبة وكونها بعد الصلاة حديث أبي هريرة خرج نبي الله ﷺ يوماً يستسقي فصلى ركعتين بلا أذان ولا إقامة، ثم خطبنا ودعا الله عز وجل وحول وجهه نحو القبلة رافعاً يديه، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن، كما جاء في نيل الأوطار. وتجوز عند الشافعية الخطبة قبل الصلاة لحديث عبد الله بن زيد رأيت النبي ﷺ يوم خرج يستسقي فحول إلى الناس ظهره واستقبل القبلة يدعو، ثم حول رداءه، ثم صلى ركعتين جهر فيها بالقراءة، كما جاء في نيل الأوطار.

وتختلف عن خطبة العيد في رأي المالكية والشافعية في أن الإمام يستغفر الله تعالى بدل التكبير فيقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ويكثر فيها الاستغفار؛ لأنه سبب لنزول الغيث.

ولا حدَّ للاستغفار عند المالكية في أول الخطبة الأولى والثانية ويستغفر الخطيب في الخطبة الأولى عند الشافعية تسعاً وفي الثانية سبعمائة، ويستحب أن يكثر من الاستغفار لقوله تعالى: (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً) [نوح].

ويفتح عند الحنابلة الخطبة بالتكبير تسعاً نسقاً كخطبة العيد، ويكثر فيها عندهم الصلاة على النبي ﷺ؛ لأنها معونة على الإجابة قال عمر: الدعاء موقوف بين السماء والأرض ولا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك رواه الترمذي، ويقرأ كثيراً (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً) وسائر الآيات التي فيها الأمر به فإن الله تعالى وعدهم بإرسال الغيث إذا استغفروه.

ثانياً - أركان خطبة الاستسقاء وشروطها:

أركانها هي أركان خطبة الجمعة نفسها وشروطها هي شروط خطبة العيد بالإضافة إلى أن يرفع الخطيب صوته حتى يسمع الناس في ذلك الموقف.

د - خطبة الكسوف:

أولاً - حكمها:

السنة أن يخطب لها بعد الصلاة لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ فرغ من صلاته فقام فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: (الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فصلوا وتصدقوا) هذا الحديث الذي روته السيدة عائشة أخرجه مالك والبخاري ومسلم والنسائي وأبو داود والدارمي واتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على استحباب خطبتين بعد صلاة الكسوف وهما سنة ليستا شرطاً لصحة الصلاة.

وصفتها كخطبتي الجمعة في الأركان والشروط وغيرها سواء صلاها جماعة في مصر أو قرية أو صلاها المسافرون في الصحراء وأهل البادية، ولا يخطب من صلاها منفرداً ويحثهم في هذه الخطبة على التوبة من المعاصي وعلى فعل الخير والصدقة والعताقة ويحذرهم الغفلة والاعتزاز ويأمرهم بإكثار الدعاء والاستغفار والذكر، ففي الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ قال ذلك في خطبته.

قال الشافعي في الأم: ويجلس قبل الخطبة الأولى كما في الجمعة هذا نصه واستجاب خطبتين بعد صلاة الكسوف، قال به جمهور السلف ونقله ابن المنذر عن الجمهور، وقال مالك وأبو حنيفة وأبو يوسف وأحمد في رواية لا تشرع لها الخطبة، دليلنا الأحاديث الصحيحة، وهذا حجة لمن قال خلاف الجمهور.

ثانياً - ذكر الله تعالى والدعاء حال الكسوف: اتفق الفقهاء على أنه يستحب ذكر الله تعالى والدعاء والاستغفار والصدقة والتقرب إلى الله تعالى بما استطاع من القرب لقوله ﷺ: (فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وتصدقوا وصلوا) وفي لفظ (إذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره) متفق عليه.

ولأنه تخويف من الله تعالى فينبغي أن يبادر إلى طاعة الله تعالى ليكشفه عن عباده والدعاء يكون بعد الصلاة يدعو الإمام جالساً مستقبل القبلة إن شاء أو قائماً مستقبل الناس.

ثالثاً- أركان خطبة الكسوف: هي أركان خطبة الجمعة نفسها وشروطها تتفق مع شروط خطبة العيد وأن يرفع الخطيب صوته لسمع الناس في مثل هذا الموقف.
سنن خطبة الكسوف: هي سنن خطبة العيد نفسها ويضاف إلى ذلك:

١- الاستغفار بدل التكبير كما هو الشأن في خطبة الاستسقاء؛ لأن واقع الحال يتطلب التوبة والاستغفار.

٢- أن يحض الخطيب الناس على التوبة وفعل الخيرات ويحثهم على الصدقة.

٣- الإكثار من الدعاء والاستغفار.

رابعاً - كيفية خطبة الكسوف: لا تختلف خطبة الكسوف من حيث أدائها عن خطبة الجمعة والعيد اللهم إلا بفاتحة الخطبتين حيث يفتح الخطيب الخطبة الأولى بالاستغفار تسعاً والثانية بالاستغفار سبعمائة كما هو الشأن في خطبة الاستسقاء، ثم يشرع بأركان الخطبة المعهودة في خطبة الجمعة ويحرص خطيب الكسوف على أن يحض الناس على التوبة ويذكرهم بالآخرة ويحذرهم من المعاصي والمحرمات ويكثر في الخطبة من الدعاء والاستغفار، ويبين لهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله سبحانه فإذا حدث فيها كسوف أو خسوف فعليهم أن

يزدادوا إقبالاً على ربهم وأن يكثروا من الاستغفار والتوبة في هذا المقام الذي يذكرهم بأهوال يوم القيامة، ثم ينهي خطبته كما يفعل في خطبة الجمعة.

خامساً- استخلاص العبر والعظات في خطبة الكسوف:

وينبغي على الخطيب أن يستغل هذه المناسبة الحادثة فيذكر الناس ويعظهم ويحذرهم من مغبة الغفلة عن الله سبحانه ويحضهم على أن يرجعوا إلى ربهم وأن ينظفوا قلوبهم من حب الدنيا وشهواتها ويطهروا نفوسهم من التعلق بفتنتها والخضوع لمغرياتها ويذكرهم باليوم الموعود الذي يضرب فيه نظام الكون ويختل فيه توازنه وتتبدل معالمه فكأن الأرض غير الأرض والسماء غير السماء فإذا بالشمس تكور والنجوم تنكدر والقمر ينخسف ويصبح الناس يتخبطون كالسكارى ويضربون وهم حيارى، ويقرأ عليهم الآيات التي تتحدث عن الساعة وأهوالها نحو قوله سبحانه: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) [الحج] وقوله سبحانه في وصف بعض مظاهر أهوال القيامة: (إذا الشمس كورت- وإذا النجوم انكدرت) [التكوير]

وقوله: (إذا برق البصر - وخسف القمر - وجمع الشمس والقمر - يقول الإنسان يومئذ أين المفر) [القيامة]

ويعمد الخطيب إلى الإكثار من الدعاء والاستغفار في خطبته، ويدعو الناس إلى مشاركته في ذلك وينبغي لنا أخيراً أن نعلم أن خطبة الكسوف لا تسقط سنتها وإن انكشفت الشمس أو تجل القمر قبل الشروع فيها.

سادساً- أهمية الخطبة فيها:

إن لخطبة الكسوف أهمية لا تقل في وزنها عن أهمية الخطب الدينية الأخرى؛ لأن فيها رصيداً كبيراً من التذكر والتذكير والتوجيه المناسب لحادث الكسوف حيث يتناول الخطيب فيها موضوع الحديث عن الساعة وأهوالها مما يؤدي إلى إيقاظ القلوب الغافلة والنفوس السادرة وبعث معاني الخوف والخشية من الله سبحانه وتعالى وتنبه الناس إلى ذلك الموقف العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

هـ - خطب الحج:

أولاً - حكمها:

يستحب في الحج أربع خطب كما قال النووي في المجموع وهي: يوم السابع من ذي الحجة بمكة ويوم عرفة بمسجد إبراهيم ويوم النحر بمنى ويوم النفر بمنى أيضاً وبه قال داود، وقال مالك وأبو حنيفة خطب الحج ثلاث يوم السابع والتاسع ويوم النفر الثاني قالوا: ولا خطبة في يوم النحر وقال أحمد: ليس في السابع خطبة وقال زفر: خطب الحج ثلاث يوم الثامن ويوم عرفة ويوم النحر، ولقد ذكرنا دليلنا في خطبة السابع ويوم عرفة وأما خطبته يوم النحر ففيها أحاديث صحيحة منها حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ بينا هو يخطب يوم النحر فقام إليه رجل فقال: ما كنت أحسب يا رسول الله أن كذا وكذا قبل كذا وكذا، ثم جاء آخر فقال: يا رسول الله كنت أحسب أن كذا قبل كذا وكذا لهؤلاء الثلاث قال: (افعل ولا حرج) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما يعني بالثلاث الرمي يوم النحر والحلق ونحر الهدى وعن أبي بكره قال: (خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: أي يوم هذا؟ وذكر الحديث في خطبته ﷺ يوم النحر بمنى وبيانه تحريم الدماء والأعراض والأموال، رواه البخاري ومسلم. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: (يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام قال: فأى بلد هذه؟) قالوا: بلد حرام قال: (فأى شهر هذا؟) قالوا: شهر حرام قال: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا) فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: (اللهم قد بلغت) رواه البخاري.

وقال النووي في المجموع: مذهبنا أن خطبة عرفات يخطب الخطبة الأولى قبل الأذان، ثم يشرع الإمام في الخطبة الثانية مع شروع المؤذن في الأذان كما سبق، وقال أبو حنيفة: يؤذن قبل الخطبة كما في الجمعة، واحتج أصحابنا بحديث جابر أن النبي ﷺ خطب يوم عرفة وقال: (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم) إلى آخر خطبته قال: ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف).

قال النووي في المجموع: (ويخطب الإمام اليوم السابع من ذي الحجة بعد الظهر بمكة ويأمر الناس بالغدو من الغد إلى منى وهي إحدى الخطب الأربع المسنونة في الحج، والدليل

عليه ما روى ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان قبل التروية بيوم خطب الناس وأخبرهم بمناسكهم. أخرجه البيهقي من حديث ابن عمر.

قال الإمام النووي في المجموع: وأما خطبة اليوم الثاني من أيام التشريق ففيها حديث عبد الله بن أبي نجيح عن أبيه عن رجلين من بني بكر قالوا: رأينا رسول الله ﷺ يخطب أيام التشريق ونحن عند راحلته وهي خطبة رسول الله ﷺ التي خطب بمنى. رواه أبو داود بإسناد صحيح وعن سراء بنت نبهان الصحابية رضي الله عنها قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الروس فقال: أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (أليس أوسط أيام التشريق) رواه أبو داود بإسناد حسن.

و. خطبة النكاح:

لم يرد في السنة الشريفة شيء عن خطبة النكاح بمفهوم الخطبة المعروفة كما في الجمعة والعيدين أو الاستسقاء أو الكسوف أو الخسوف أو خطب الحج حيث تتوفر أركان الخطبة الشرعية، والوارد في هذا الخصوص لا يتعدى طلب نكاح من ولي امرأة من الراغب في الزواج أو وكيله ورد الولي بالإيجاب أو الاعتذار، وقد جاء في كتاب نيل الأوطار للشوكاني ما اعتبره خطبة للنكاح عن ابن مسعود قال: علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة، وذكر تشهد الصلاة قال: والتشهد في الحاجة: إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: ويقرأ ثلاث آيات ففسرها سفيان الثوري (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) (واتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) رواه الترمذي وصححه أخرجه أيضاً أبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي.

وقد استدل بحديث ابن مسعود هذا على مشروعية الخطبة عند عقد النكاح وعند كل حاجة، قال الترمذي في سننه: وقد قال أهل العلم إن النكاح جائز بغير خطبة ويدل على الندب والجواز حديث إسماعيل بن إبراهيم وهذا نصه: عن إسماعيل بن إبراهيم عن رجل من بني سليم قال: خطبت إلى النبي ﷺ أمامة بنت عبد المطلب فأنكحني من غير أن يتشهد. رواه أبو داود.

ومما يجدر ذكره خطبة أبي طالب عند زواج رسول الله ﷺ من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومع أنها قبل بعثة رسول الله ﷺ لكنها تتصل بشخصيته الكريمة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي زواج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها أرسلت خديجة بنت خويلد إلى أمين قريش ومأمونها محمد بن عبد الله ﷺ وسلامه تحطبه وتقول له: إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، فرجع محمد بالقول إلى عمه أبي طالب فرضيه له وأقره عليه لما استقر لخديجة من نبيل الخلق وسناء الحياء وأقبل القوم من بني هاشم وفيهم كريم فتياهم ونجيب عشيرتهم محمد بن عبد الله فنزلوا من بني عمهم أكرم منزل وأسناء، وهناك تداول الخطابة أبو طالب بن عبد المطلب سيد قريش وورقة بن نوفل ابن عم خديجة - بتفويض من عمها عمرو بن أسد.

فقال أبو طالب في خطبته:

(الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمه وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل من قريش شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً إلا رجع به وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، وهو والله بعد له نبأ عظيم وخطر جليل وقد رغبت إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشاً).

ثم خطب ورقة بن نوفل بتفويض عمرو بن أسد عم خديجة فقال:

(الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على من عدت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم فاشهدوا عليّ معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله).

الباب الحادي عشر

الفصل الثاني

خطب الرسول ﷺ

١ - الخطبة الأولى لرسول الله ﷺ: وهي خطبته القصيرة التي ألقاها على ملاء من أهل مكة حين جهر بالدعوة بعد أن نزل قول الله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) عن ابن العباس رضي الله عنه لما نزلت (وأندرعشيرتك الأقرين) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا فاجتمعوا إليه فقال: (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سطح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ قالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) قال أبو لهب: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت (وأندرعشيرتك الأقرين) قام رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: (وأندرعشيرتك الأقرين) قال: يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترؤا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً).

تحليل النص

أولاً: استخدم الرسول ﷺ عبارة مألوفة عندهم توحى بإنذار خطير: (واصباحاه) ليودع في مسامع قومه أهمية ما يليقيه عليهم من قول يتضمن دعوتهم إلى الإيمان بالهدي الرباني الذي أوحاه الله إليه، ولما كان ﷺ يتوقع تكذيبهم ذكرهم بما أجمعوا عليه من الإقرار والشهادة بصدقه وأمانته ﷺ حتى كانوا ينادونه بالصادق الأمين، وقال لهم: لو أخبرتكم بغارة عدو عليكم جاءكم بخيله أتصدقوني فقالوا له: ما عهدناك إلا صادقاً وعندما استنطقهم بهذه

الشهادة التي لا يجوز لهم نقضها أخبرهم بأنه نذير لهم من ربه وأنه يحمل لهم رسالة الله وحذرهم من جحودها؛ لأن العذاب الشديد سينزل بهم جزاء وفاقاً.

ثانياً؛ ولما كان أجراً الناس على الرجال أهله صرخ عمه الشقي أبو هب في وجهه قائلاً: (تباً لك) أي هلاكاً لك لهذا الأمر جمعنا، وبذلك يكون أبو هب أول رافض لدعوة الله التي بلغها له أقرب الناس إليه وهو ابن أخيه الصادق الأمين، ولكن سرعان ما جاء الرد الرباني على أبي هب وزوجته لعدائهما لله ورسوله فكان قرآناً يتلى على مدار الزمان ليكون عبرة للمعتبرين ما دامت الأيام والليالي (تبت يدا أبي هب وتب).

ثالثاً؛ وفي نداء رسول الله ﷺ لأهله: عمم فيه وخصص أقرب الناس إليه وأراد أن يقرر حقيقة مهمة من حقائق رسالته وهي أن النجاة عند الله لا يحظى بها إلا من كان من أهل الإيمان والتقوى.

وأن مكانته عند الله كرسول لا تسمح له أن يشفع لأحد ولو كان من أقرب الناس إليه إن لم يكن من الذين آمنوا بالله ورسوله فبوسعهم أن يعطي أهله ما سألوه من أمور الدنيا التي يملكها وأما النجاة عند الله فهذا أمر لا يملكه وهو بأيديهم وعليهم أن يتحملوا هذه المسؤولية ولا فلاح لهم في الدنيا والآخرة إلا باعتنافهم دين الإسلام واتباع الله ورسوله ﷺ.

٢- خطب النبي ﷺ يوم فتح مكة:

خطب النبي ﷺ حين فتح مكة عدة خطب وردت بمرويات صحيحة:

أ- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال: (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاضمها بأبائها، فالناس رجلان رجل بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هيّن على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من التراب قال الله: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير).

ثم قال لهم النبي ﷺ: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم قالوا خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ب - وخطب ﷺ من الغد من يوم الفتح فقال:

(إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجراً فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له إن أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن له فيه ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب).

ج - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب يوم الفتح بمكة فكبّر ثلاثاً، ثم قال: (لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تُذكر وتُدعى من دم أو مال تحت قدمي إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت، ثم قال: ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مئة من الإبل منها أربعون في بطنها أولادها).

٣ . خطبة حجة الوداع:

ألقى رسول الله ﷺ في يوم عرفة خطبة جامعة في جموع المسلمين الذين احتشدوا حوله في الموقف هذا نصها (أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا وأن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن عمي ربيعة بن الحارث وربي الجاهلية موضوعة وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحللوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان واتقوا الله في النساء فإنكم إنما أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله إن لكم عليهن حقاً ولهم عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن

فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله وسنة رسوله.

(يا أيها الناس اسمعوا وأطيعوا وإن أُمر عليكم عبد حبشي مجدّع ما أقام فيكم كتاب الله تعالى اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد (ثلاث مرات).

تحليل الخطبتين:

حوت كلُّ من خطب الفتح وخطبة حجة الوداع جملة من الأفكار، ومن ذلك:

أولاً: المساواة الإنسانية: حيث يتفاضل الناس بالتقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وإلغاء المقاييس الجاهلية في التفاخر في الأنساب والأحساب.

ثانياً: إصدار العفو العام عن مجرمي الأوس؛ الذين حاربوا الله ورسوله أكثر من عشرين عاماً وبذلك فتح القلوب مع فتح مكة.

ثالثاً: إعلان التأكيد على حرمة مكة المكرمة؛ فلا يسفك فيها دم ولا يقطع فيها شجر ولا ينفر فيها صيد فهي أمان لكل الخلائق فيها وأحلّت لرسول الله ﷺ ساعة من النهار وعادت حرمتها إلى سابق عهدها، وهذا بيان للناس على مدار الزمان.

رابعاً: إلغاء المآثر الجاهلية السلبية:

خامساً: تحديد دية قتل الخطأ وشبه العمد والقصاص: في قتل العمد أو العفو أو الدية.

سادساً: إعلان حرمة الدماء بوجه عام:

سابعاً: أوصى رسول الله ﷺ خيراً بالنساء: وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائن للمرأة في الجاهلية وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنها أحكام الشريعة الإسلامية.

ثامناً: أعلن رسول الله ﷺ أن حلَّ جميع المشكلات التي تعترض حياتهم لا تكون إلا من مصدرين: كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ والاعتصام بهما ضمان من كل شقاء وضلال، وهذا على مر الدهور وإن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون آخر وأنها الهادي للمسلمين في أي تطور حضاري يطرأ في المستقبل إلى يوم القيامة.

تاسعاً: أوضح ﷺ في هذه الخطبة ما ينبغي أن تكون عليه علاقة الحاكم أو الخليفة أو الرئيس مع الرعية: أو الشعب إنها علاقة السمع والطاعة من الشعب للحاكم مهما كان من نسبه وشأنه ومظهره ما دام يحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإذا حاد عنها فلا سمع ولا طاعة فولاء الشعب للحاكم وأتباعه لا يكون إلا من خلال سيره على نهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولو كان الحاكم عبداً حبشياً مجدعاً ولا امتياز للحاكم على شعبه والحاكم في حقيقة أمره أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى فلا حصانة في الإسلام لأحد ولا امتيازات لطبقة على أخرى في شؤون الحكم والقانون والقضاء.

عاشراً: أعلن رسول الله ﷺ في ختام خطبة لحجة الوداع أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغها من عنقه: فهي هو الإسلام قد انتشر وها هي ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت ويريد ﷺ أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يسألون: فأعقب توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم قائلاً: إنكم ستسألون عني فما أنتم قائلون وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ: نشهد أنك قد بلغت الأمانة وأديت الرسالة ونصحت الأمة فجزاك الله عنا خير الجزاء.

الباب الحادي عشر

الفصل الثالث

خصائص الخطابة في صدر الإسلام

تطورت الخطابة تطوراً واسعاً إذ اتخذت أداةً للدعوة إلى الدين الجديد، وقد كان عليه السلام زان المنابر وهزّ بالبلاغة أوتار القلوب وترجع أسباب نهضة الخطابة في هذا العصر إلى أنها أكثر مرونة من الشعر في تحمل المعاني، وليس من السهل أن نودع الشعر حججاً وبراهين ومناقشات؛ لأنه مقيد بالأوزان والقوافي ولأن الإسلام شجع الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كان للخطابة دور في تحميس الجنود في معارك الفتوح. وقد تعددت أغراض الخطابة فمن دينية إلى سياسية إلى خطب معارك ووفود.

وعلى الرغم من أن لكل خطيب طابعاً شخصياً يبدو في أفكاره وأسلوبه وأن لكل نوع من أنواع الخطابة التي عرفناها مزايا خاصة ينفرد بها على الرغم من ذلك كله نستطيع أن نلمح خصائص مشتركة للخطابة في العصر الإسلامي نوجزها فيما يلي:

١ - أصبح لها أصول ثابتة من ابتداء بحمد الله وتمجيده وتوشيح بالآيات أو اقتباس من القرآن الكريم.

٢ - استعمال الألفاظ الإسلامية الجديدة ومحاكاة الأسلوب القرآني والاعتماد على الأفكار الدينية الجديدة.

٣ - التنسيق والترابط والانسجام بين فقرات الخطبة فقد غدت أكثر الخطب في هذا العصر وحدة فنية متناسقة أقسامها واضحة تبتدىء بمقدمة، ثم تنتقل إلى الغرض فالخاتمة.

٤ - ويغلب على الخطابة الإيجاز والرشاقة.

٥ - الاعتماد على الأسلوب العاطفي حيث تكثر فيها الجمل الإنشائية المختلفة.

٦ - الإيجاء والصور المثيرة للخيال.

٧- تكاد تخلو من السجع الذي عوض عنه بقصر الجملة وكثرة التوازن والتقابل.

اعتمد الخطباء في خطبهم على:

- ١ - استخدام النزعة الدينية.
- ٢ - الاتكاء على معاني القرآن والأحاديث النبوية.
- ٣ - توظيف العاطفة الدينية والحزبية.
- ٤ - الإكثار من أساليب التهديد والتوبيخ والوعيد والإنذار.
- ٥ - اتخاذ الحجة والجدل وسيلة لإقناع الخصم.
- ٦ - الاعتماد على الألفاظ المنغمة والتراكيب الموسقة السجع.
- ٧ - الإيجاز والإجمال في توصيل الغرض من الخطبة.

الباب الثاني عشر

الرسائل

الباب الثاني عشر

الفصل الأول

انتشار الكتابة في عصر صدر الإسلام

/ ١٣ق.هـ / من البعثة النبوية

وحتى موت الرسول ﷺ / ١١هـ /

انتشار الكتابة

١- الخط والكتابة من البعثة النبوية الى الهجرة:

ظلت أحوال الخط العربي تجري على ما كانت عليه في الجاهلية المتأخرة، وكان انتشار الكتابة بين العرب ضيقاً محدوداً لا يعدو مجموعات قليلة من الأفراد المنتشرين هنا وهناك في جزيرة العرب من غير أن يكون لمعرفة الكتابة محرك مركزي واحد يحثهم على النشاط المنظم الهادف لخدمة غرض موحد، بل كانت دوافعهم إلى تعلم الخط والكتابة دوافع فردية محضة ربما تتعلق بمصالح اقتصادية كالتجارة، أو دينية كقراءة بعض كتب الأديان السماوية أو الأرضية المعروفة آنذاك.

ومن المعروف عندنا أن الإمام بالخط عند الجاهليين على درجات إذ كان منهم من يقرأ ويكتب، ومنهم من يقرأ ولا يكتب، ومنهم من لا يقيم في القراءة والكتابة سوى بضع كلمات أو بضعة حروف، ومنهم من لا يقيم في القراءة وحدها إلا مثل ذلك، وهكذا لم يكونوا على درجة واحدة في الإمام بالخط أو المعرفة بالقراءة، والقاعدة العامة تقول: إن كل كاتب يكون بطبيعة الحال قارئاً ولا يكون كل قارئ كاتباً.

ولم يستطع الإسلام قبل الهجرة أن يكون صاحب المبادرة في تنظيم المعرفة بالخط والكتابة؛ لأن نظام التعليم جزء من الإدارة الشاملة المنظمة للمجتمع ولم يكن الإسلام مسيطراً على ذلك المجتمع فظلت حال الجاهليين تنطبق أيضاً على المسلمين بلا فارق كبير ونوجه الأضواء هنا إلى منبع النشاط الجديد في المجتمع لما سيكون له من أثر عميق بعد الهجرة في الرأي العام،

وفي توجيه المجتمع العربي بإدارته إدارة مركزية قوية وفق معايير وأسس ترجع إلى مصدر واحد، ونعني بهذا المنع الدعوة الإسلامية في مكة ولاسيما فيما يتعلق بالخط والكتابة في هذه المدينة منذ البعثة النبوية للهجرة.

يروى البلاذري (أن الإسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب ولم يكن حظ المرأة أقل من حظ الرجل في معرفة الخط والكتابة في تلك الفترة) إذ وردت عند البلاذري أيضاً إشارة إلى أن الشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة في الجاهلية، على أننا نستطيع الحكم على هذا الإحصاء بأنه غير دقيق وأنه يقبل الجدل إذ لم يحدد البلاذري فترته بوضوح وإن كان الظاهر المفهوم منها أول ظهور الإسلام، وهذا يتيح لنا أن نضيف إلى هذه القائمة في تلك الفترة بالذات عدداً آخر من الأسماء قد أغفل كحظلة بن أبي سفيان الذي بعث إلى أبيه وهو في تجارة باليمن رسالة.

ونستنبط من إحصاء البلاذري أيضاً أن هؤلاء الكاتبين كانوا ينتمون إلى الطبقة المنتعمة الثرية ذات السيادة والرأي والقيادة في قريش وهم من أصحاب التجارة الذين يجوبون الآفاق في رحلتي الشتاء والصيف، وهذا الإحصاء لم يحصر أبناء هذه الطبقة حصراً كاملاً مما أبقى فيه ثغراً يمكن ترميمها وسدها بعدد آخر ربما كان مماثلاً؛ ثم إن هذا الإحصاء شمل أبناء قريش أو من دخل في حلفهم من الأفراد، ولم يذكر العارفون الكتاب من غير قريش من عبيدها أو من سائر العرب أو من الجماعات الأعجمية التي كانت تعمل في مكة بالتجارة والصناعة، وهؤلاء يحتاجون إلى الكتابة بخط أهل مكة ولغتهم؛ فإذا أضفنا هذه الأسماء المغفلة من هذه الجماعات فإن عدد العارفين بالكتابة في مكة عند ظهور الإسلام سوف يرتفع إلا قرابة خمسين رجلاً وامرأة.

ويمكننا أن نتصور كيف يتزايد مثل هذا العدد باطراد منذ تلك الفترة إلى يوم الهجرة النبوية أي خلال ما يقارب ثلاثة عشر عاماً إذ كان المرء يعلم أخاه أو صاحبه أو بعض أبنائه وهذه سنة طبيعية في الناس حتى يستفيدوا من الكتابة والقراءة في حياتهم العملية، وهذا كفيل بمضاعفة العدد المذكور آنفاً ضعفين أو ثلاثة أضعاف، وهذا بدوره يفسر لنا انتقال معرفة الكتابة إلى عدد من فقراء قريش الذين لم يجدوا بعد وقعة بدر ما يفدون به أنفسهم من الأسر

إلا أن يلبوا طلب النبي (ﷺ) إليهم أن يقدوا أنفسهم بتعليم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة، وذلك من السنة الثانية من الهجرة، ومن أبرز المدونات التي ظهرت في مكة آنذاك (صحيفة قريش) التي كتبوها في مقاطعة بني هاشم والمطلب وحصارهم في الشعب، وكان ذلك في السنة السادسة من البعثة و(الصحيفة) التي دُوِّنت فيها سورة طه أو بعضها وكانت سبب إسلام عمر بن الخطاب و(مجلة لقمان) التي عرضها سويد بن الصامت على النبي (ﷺ) حين دعاه إلى الإسلام، وكانت وسائل الكتابة وأدواتها وموادها لا تختلف في شيء آنذاك عن وسائل الجاهليين وأدواتهم وموادهم فيها، ونحن نرجح أن تكون المدونات الثلاث المذكورة آنفاً مكتوبة على الرق الذي كان متوفراً بكثرة عند العرب في تلك الفترة بحكم البيئة.

٢- أثر الإسلام في ازدهار الكتابة:

كانت الكلمات الأولى التي تنزل بها الوحي على النبي (ﷺ) في مطلع بعثته هي: القراءة والتعليم والقلم وذلك في قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) وكان من المسلم به حقيقة أن الدعوة الجديدة كانت دعوة علم وعقل بقدر ما كانت دعوة مثل عليا وقيم إنسانية خالدة وأخلاق نبيلة وإيمان طيب سمح، وهذه جميعاً هي ركائز الحضارة القويمة التي لا غنى عنها لنقل البشرية من الظلمات إلى النور، وبها يكتمل الإكرام الذي خص الله تعالى به الإنسان إذ جعله في الأرض خليفة وإذ خلقه خلقاً جميلاً فريداً كما قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ولا يتم هذا الخلق الحسن وهو مجرد صورة وشكل إلا بجوهر أو مضمون متمم هو العلم تعليماً وتعليماً وقيم الحق والخير والعدل ليكون الإنسان جديراً فعلاً بخلافة الله تعالى على أرضه كما شاء، وهذا هو المفهوم الحضاري الحقيقي للإسلام والسبيل للوصول إليه إنما يكون بالقراءة والتعليم والقلم.

نعم لقد جاء الإسلام والكتابة والخط عند العرب مازال ضيقاً ومحدوداً، ودوافع تعلمه (الخط والكتابة) فردية تتعلق بمصالح دينية واقتصادية وقد حل الإسلام في الجزيرة العربية والعرب منهم من يعرف الكتابة على نطاق ضيق، ومنهم من لا يعرف الكتابة سوى سبعة

عشر رجلاً منهم (عمر بن الخطاب - علي بن أبي طالب - عثمان بن عفان - أبو عبيدة بن الجراح - طلحة بن عبيد الله - يزيد بن أبي سفيان - أبو حذيفة عتبة بن ربيعة - حاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو والعامري - أبو سفيان بن حرب بن أمية - عبد الأسد المخزومي - أبان بن سعيد بن العاص بن أمية - خالد بن سعيد - أخوه عبد الله بن سعيد بن أبي سرح العامري - حويطب بن عبد العزى العامري - معاوية بن أبي سفيان - جهيم بن الصلت بن محزومة بن عبد المطلب بن مناف والعلاء الحضرمي من حلفاء قريش) ومن النساء (الشفاء بنت عبد الله العدوية) من رهط عمر بن الخطاب وكانت كاتبة في الجاهلية، ويضاف لذلك (حنظلة بن أبي سفيان) ويصل عدد من يعرف الكتابة (خمسين رجلاً وامرأة).

وقد ظهر في مكة المكرمة من المدونات (صحيفة قريش) التي كتبوا فيها مقاطعة بني هاشم والمطلب وحصارهم في الشعب عام / ٦ ق. ب / قبل البعثة وصحيفة خباب بن الأرت التي دُوِّنت فيها سورة (طه) وهي سبب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه و(مجلة لقمان) التي عرضها سويد بن الصامت على النبي ﷺ.

وأسهم نزول القرآن الكريم في تعلم القراءة والكتابة «اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم *» وتظهر مكانة القلم الرفيعة في الإسلام بقوله تعالى: «ن. والقلم وما يسطرون» وفي قوله: «الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان *» و«وقل رب زدني علماً» و«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وقد حرص النبي ﷺ على تحفيظ المسلمين الأوائل ما نزل من الوحي ودَوَّنوه، وأكد النبي ﷺ في أحاديثه على العلم وطلب تقييد العلم بالكتابة «قيدوا العلم بالكتاب» «العلم صيد والكتابة قيد» كما وأمر الصحابة بتعلم اللغات الأخرى، حيث طلب من زيد بن حارثة تعلم (العبرية - السريانية) وقد كان هناك دواع كثيرة لازدهار الكتابة والتدوين في المجتمع المسلم الجديد:

أ- حفظ مصادر التشريع.

ب- تنظيم الدولة وإدارة المجتمع.

ت- حفظ الحقوق.

- ث- التعليم وحفظ المعارف.
- ج- اتساع رقعة الدولة وتحقيق التواصل.
- ح- كثرة الأحداث والفتن.
- وقد كان من مظاهر ازدهار الكتابة وانتشارها:
- أ- تعليم القراءة والكتابة.
- ب- تدوين ألواح وجمع القرآن الكريم.
- ج- كتابة الحديث النبوي الشريف.
- د- كتابة المواثيق (الحقوق والمعاملات).
- هـ- وجود بعض المدونات المختلفة.
- و- كثرة أدوات الكتابة وانتشارها.

وقد كان للنبي ﷺ كتاب متقنون للكتابة مخلصون للرسالة ومقربون من النبي، وكان عددهم يزيد عن نيف وثلاثين كاتباً منهم الخلفاء الأربعة وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وهو ألزمهم الكتابة وروي أن سجلات الرسول ﷺ لأهل نجران وغيرهم بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكان أبي بن كعب من كتاب الوحي في المدينة وصفه رسول الله ﷺ «أقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب».

الباب الثاني عشر

الفصل الثاني

كُتَاب النَبِيِّ ﷺ

اهتم النبي ﷺ بالقراءة والكتابة لما لهما من أهمية في نشر الدعوة خاصة بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وقد اتخذ النبي ﷺ من صحابته عدداً من الكُتَّاب البارعين للكتابة والخط فقد ورد عند القلقشندي في صبح الأعشى (قد رأيت في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي ﷺ نيف وثلاثون كاتباً) وقد عثر حسين نصار حديثاً على قريب من خمسة وأربعين كاتباً ومن أبرز كُتَّابه ﷺ (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ومعاوية بن أبي سفيان وحظلة بن الربيع التميمي وخالد بن سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير وعبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة وابن أبي فاطمة والعباس بن عبد المطلب والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة الطابخي والعلاء بن الحضرمي وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن أبي وعمر بن العاص وخالد بن الوليد) وكان هؤلاء الكتاب يكتبون كتابات متنوعة فمنهم من يكتب القرآن: عثمان - علي - أبي بن كعب - وزيد بن ثابت - عبد الله بن أبي سرح - معاوية - حظلة بن الربيع التميمي .

١ - الرسائل: زيد بن الحارثة - علي بن أبي طالب .

٢ - العهود: علي بن أبي طالب .

٣ - حوائج النبي ﷺ: خالد بن سعيد بن العاص .

٤ - ما يقع بين الناس: المغيرة بن شعبة .

٥ - ما يكتب بين القوم في المعاملات: عبد الله بن الأرقم - العلاء بن عقبة .

٦ - مغانم النبي ﷺ: ابن أبي فاطمة .

٧ - أخبار المشركين في مكة المكرمة: العباس بن عبد المطلب .

٨- أموال الصدقات: الزبير بن العوام- وابن الصلت.

٩- كُتّاب غير متخصصين بالكتابة: شرحبيل بن حسنة - وخالد بن سعيد بن العاص -

العلاء بن الحضرمي - عبدالله بن رواحة - محمد بن مسلمة - عبدالله بن أبي - عمرو بن العاص - خالد بن الوليد.

١٠- من لقب بالكاتب تمييزاً له عن سائر كُتّاب النبي ﷺ (حنظلة بن الربيع).

الباب الثاني عشر

الفصل الثالث

كتابة الرسائل في عصر صدر الإسلام

ازدهرت كتابة الرسائل وتطورت في عصر صدر الإسلام منذ استقطاب الرسول ﷺ مجموعة طيبة من الصحابة حوله ممن يتقنون الكتابة، مما يدل على أن النشر بنوعيه الترسيبي والأدبي قد تطور في هذه الفترة وخاصة (الرسائل) و(الخطابة) وكتب التاريخ القديمة مملوءة بالرسائل ذات الأهداف المختلفة والأنواع المتعددة، ويبدو أن هذه الرسائل في هذه الفترة كانت ذات موضوعات متعددة أبرزها:

١- موضوعات الدعوة إلى الإسلام وهي المهمة الأولى للنبي ﷺ وذلك لتبليغ الدعوة في دائرة أهله وعشيرته ومحيطه العربي والمحيط الإنساني، وقد تحقق له ذلك من خلال الرسائل الشفوية - ملاقاته الناس أفراداً وقبائل والرسائل المدونة (كتب ورسائل) ومن هنا كانت كتب النبي ﷺ تتناول:

أ- عرض الدعوة.

ب- الترغيب في قبول الدعوة.

ج- الترهيب من رفض الدعوة.

٢- موضوعات إجابة الدعوة وذلك من خلال:

أ- الرد باللين أو القبول كما فعل المقوقس والنجاشي وهرقل.

ب- الاستفسار عن الإسلام كما فعل أكثم بن صيفي.

ج- الإخبار بإسلام الناس ككتاب علي بإسلام أهل اليمن في يوم واحد.

د- طلب المعلمين والمتفقيين حتى يلموا بالدين وشرائعه.

هـ- التعاليم والفرائض والحدود لمن يطلب من النبي ﷺ معرفة حدود الدين.

- و- التوصية بالمسلمين قبل الهجرة في حالة ضعف المسلمين ككتاب النبي للنجاشي.
- ٣- موضوعات رفض الدعوة: الذي يتراوح بين التملّص المهذب بالرد واللين وبين الشدة والعنف (تمزيق الرسالة).
- ومن موضوعات الرسائل في حال رفض الدعوة:
- أ- تأليف القلوب.
- ب - تجسس الأخبار.
- ج- طلب المدد.
- د- الإغراء بالنبي ﷺ وتخذيل المسلمين عنه.
- هـ- التهديد والوعيد.
- و- الأمر بتنفيذ العهود أو إبطالها.
- ز- تعاليم عن أهل الذمة.

الباب الثاني عشر

الفصل الرابع

الرسائل وسيلة للدعوة

بعد أن أدت الغزوات والسرايا دورها في إظهار قوة المسلمين، والقضاء على صنديد الكفر، ومنذ أن عقد الرسول - ﷺ - صلح الحديبية مع قريش، وما تلا ذلك من إخضاع اليهود، فإن الرسول - ﷺ - لم يدخر جهداً لنشر الإسلام، وقد عبر - ﷺ - عن ذلك بإرساله لعدد من الرسائل إلى ملوك وأمراء العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام، فجاءت هذه الكتب وسيلة دعوية مهمة، لإعلام الناس وإبلاغهم بدعوة الإسلام، وقد كان بعضهم يجهلها مثل كسرى، وبعضهم ينتظرها مثل قيصر.

انطلقت مواكب رسل رسول الله - ﷺ - تحمل بشارات وأنوار الهداية، من خلال رسائل وخطابات مخطومة بختمه - ﷺ -، وكانت تلك الرسائل تحمل حرص النبي - ﷺ - على إسلام هؤلاء الملوك، وإبلاغ دعوته إليهم.

عن أنس - رضي الله عنه -: (أن رسول الله - ﷺ - كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي - وهو غير الذي صلى عليه - وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل) (صحيح مسلم).

توجّه سفراء الرسول - ﷺ - بالرسائل إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى هرقل عظيم الروم، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، وغيرهم من ملوك وأمراء.

وكان اختيار النبي - ﷺ - لسفرائه قائماً على مواصفات رباهم عليها، فكانوا يتحلون بالعلم والفصاحة، والصبر والشجاعة، والحكمة وحسن التصرف، وحسن المظهر. فاختار النبي - ﷺ - دحية الكلبي، وأرسله إلى هرقل عظيم الروم. يقول ابن حجر في الإصابة عن دحية: "كان يُضرب به المثل في حسن الصورة". وكان دحية - مع حسن مظهره - فارساً

ماهرأً، وعلماً بالروم..، وأرسل النبي - ﷺ - عبد الله بن حذافة إلى كسرى عظيم الفرس، وكان له دراية بهم ولغتهم، وكان ابن حذافة مضرب الأمثال في الشجاعة ورباطة الجأش.

وأرسل - ﷺ - إلى المقوقس ملك مصر حاطب بن أبي بلتعة، وقد قال فيه ابن حجر في الإصابة: "كان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية"، وكان له علم بالنصرانية، ومقدرة على المحاوره.

الباب الثاني عشر

الفصل الخامس

نماذج من رسائل النبي ﷺ

١ - رسالة النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما: (أن النبي - ﷺ - كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه دحية الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فإذا فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت عليك إثم الأريسيين، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران ٦٤) (البخاري).

وقد تسلّم هرقل رسالة النبي - ﷺ - ودقق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل، حين سأله عن أحوال النبي - ﷺ - وقال هرقل بعد ذلك لأبي سفيان: (.. إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) (البخاري). ومعنى تجشمت: تكلفت الوصول إليه، وارتكبت المشقة في ذلك. وفي رواية مسلم: "لأحببت لقاءه".

٢ - رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة:

كتاب النبي - ﷺ - إلى النجاشي ملك الحبشة

ذكر الواقدي أن رسول الله - ﷺ - كتب إلى النجاشي كتاباً، وأرسله مع عمرو بن أمية الضمري، فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم، وروح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى).

٣- رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس ملك مصر:

كتاب النبي - ﷺ - إلى المقوقس ملك مصر

ذكر الواقدي أن النبي - ﷺ - كتب إلى المقوقس، مع حاطب بن أبي بلتعة: (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: ٦٤)).

٤ - رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس

كتاب النبي - ﷺ - إلى كسرى ملك فارس

وقد أرسله النبي - ﷺ - مع عبد الله بن حذافة - رضي الله عنه - كما ذكر الواقدي، وكان فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس).

قال الطبري في تاريخه: "وقد اختلف تلقي الملوك لهذه الرسائل، فأما هرقل والنجاشي والمقوقس، فتأدبوا وتلطفوا في جوابهم، وأكرم النجاشي والمقوقس رسل رسول الله ﷺ، وأرسل المقوقس هدايا إلى رسول الله ﷺ.

وأما كسرى لما قرئ عليه الكتاب مزّقه، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: (أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه).

قال ابن المسيب: فدعا عليهم رسول الله ﷺ (أن يمزقوا كل ممزق) (البخاري).

وقد وقع ما دعا به رسول الله ﷺ، فقد استولى على عرش كسرى ابنه قباذ الملقب بشيرويه، وقُتل كسرى ذليلاً مهاناً، وتمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعيش شيرويه إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك، وهكذا تحقق دعاء النبي ﷺ -

ومن خلال هذه الرسائل أظهر الرسول ﷺ دراية وحكمة في سياسته الخارجية، وأصبحت مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر ﷺ قوة وشجاعة فائقتين، فلو كان غير رسول الله ﷺ لخشي عاقبة ذلك الأمر، لاسيما وأن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى دول كبيرة وملوك أقوياء، كهرقل وكسرى والمقوقس، ولكن حرص الرسول ﷺ وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله سبحانه وتعالى له، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه.

وأظهرت كذلك هذه الرسائل حكمة النبي ﷺ في الدعوة، ونستطيع أن نرى ذلك من خلال الرجوع إلى ما تضمنته هذه الرسائل حيث كان هرقل والمقوقس ممن يدينان بالنصرانية المحرّفة التي تغلو في المسيح - عيسى عليه السلام - وترفعه إلى درجة الألوهية، ومن ثم أكد النبي ﷺ على عبودية الناس عموماً، والرسل خصوصاً لله رب العالمين، فذكر في رسالته إليهما قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: ٦٤).

وفي جانب الفرس كان كسرى وقومه ممن يعبدون الشمس والنار، فحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تصحيح هذا المفهوم من خلال إيراده لحقيقة التوحيد في ثنايا رسالته.

ومن حكمة النبي ﷺ في هذه الرسائل:

١ - أخذه بوسائل عصره المتاحه للدعوة، فقد اتخذ خاتماً كتب عليه محمد رسول الله،

تختم به الرسائل، وقبل ﷺ الهدايا من الملوك، وتعامل بأعرافهم - ما لم تكن إثماً أو حراماً.

٢ - اعتماده لغة المجاملة في مخاطبة الملوك والأمراء، وقد ظهر ذلك في رسالته إلى

هرقل عظيم الروم، وبمثلها خاطب كسرى وسائر الملوك.

٣ - لم تحمل رسائله ﷺ تهديداً، بل تضمنت في ثناياها طمأننتهم على ملكهم، إن

أسلموا أو هادنوا، ففي رسالته إلى المنذر بن الحارث صاحب دمشق جاء فيها كما قال

الواقدي: (سلام على من اتبع الهدى وآمن به، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له،

يبقى ملكك). وفي رسالته إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين، قال له: (أسلم تسلم، وأجعل

لك ما تحت يديك)، وفي رسالته إلى جيفر وأخيه ملك عمان: (فإنكما إن أقررتما بالإسلام

وليتكما). فأمن بعض الملوك فأنقذ نفسه وقومه من ظلمات الكفر، وكان من هؤلاء المنذر بن

ساوى ملك البحرين، وجيفر وعبد ابنا الجُندى صاحباً عمان، وبقي البعض يتخبط في ظلمات

الكفر، طمعاً في جاهٍ زائل، أو خوفاً من حاشيته وقومه.

٤ - في هذه الرسائل نقل النبي ﷺ دعوته إلى ملوك الأرض، وعرفهم بالدين

الجديد الذي يكفل لأتباعه سعادة الدارين، وفي ذلك دلالة على عالمية الإسلام، تلك العالمية

التي أكد عليها القرآن في قول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧).

٥- رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء تعتبر نقطة تحول في سياسة دولة

الإسلام، فعظم شأنها، وأصبحت لها مكانة بين الدول.

الباب الثاني عشر

الفصل السادس

الخصائص الفنية للترسل في عصر صدر الإسلام

اتخذت الرسالة في عهد صدر الإسلام خصائص مميزة تميزها عن الرسالة الجاهلية بسبب ظروف الدين الجديد، وجاءت ضمن منهج من أبرز سماتها:

أ- في المضمون

أ- البسملة.

ب- العنوان (من فلان إلى فلان).

ج- السلام والتحية.

د- التحميد لله تعالى.

هـ- التخلص وفصل الخطاب وهي قولهم (أما بعد).

و- المضمون: وهو غرض الكاتب من الرسالة.

ز- الختام: بعبارة تؤذن في نهاية الرسالة مثل (والسلام عليكم ورحمة الله).

ح- التذييل بتاريخ الرسالة واسم كاتبها.

ب- وفي الأسلوب

تميزت رسائل عصر صدر الإسلام من حيث الجوانب البلاغية بـ:

١- الاعتدال في استخدام الفنون البديعية كالطباق والمقابلة والاستعارة والكناية والتشبيه

والتمثيل وصحة التقسيم والاستدارة والمساواة والترادف والتكرار والسجع والموازنة

والازدواج والجناس.

- ٢- وتميزت من حيث الأسس النائية للأسلوب بالإيجاز والوضوح والقرب والتعبير الطبيعي والفصاحة والتناسك وقوة التأليف وضعف التصوير.
- ٣- وتميزت من حيث البناء الموضوعي للرسالة باقتصارها على موضوع واحد لا تتعداه إن كانت قصيرة أو على عدة مواضيع إن كانت طويلة.
- ٤- وبقيت الرسالة تشبه الخطبة من حيث الأسلوب ومن حيث الموضوعات، وكذلك تميزت الرسائل من حيث المعاني أنها مستمدة من مصدرين اثنين.
- ١- مصدر خارجي يستمده الكاتب من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر والحكم والأمثال وأجزاء من الرسائل الأخرى.
- ٢- ومصدر داخلي ذاتي يعتمد على القدرة الشخصية للكاتب على ابتداع المعاني وابتكارها.

الباب الثالث عشر

الموعظة التقوية

في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف

في عصر صدر الإسلام

أ- مقدمة:

الموعظة من وعظ يعظ فهو واعظ، وتعني: النصح والتذكير بالعواقب، وهو تذكير للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب. وقد وردت كلمة موعظة في القرآن الكريم في موارد متعددة، منها على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ أي وحدّهم وخوفهم. وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي ينهاكم ويحذركم. كما في وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وهو زجر مقترن بالتخويف. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ...﴾. وفي قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. أي يذكركم عليكم تتذكرون.

ب- أهمية الموعظة:

وتأتي أهمية الموعظة من كون الإنسان بطبعه اجتماعياً يتفاعل مع محيطه، ويمكن أن يتأثر به سلباً أو إيجاباً، والموعظة الحسنة تشكّل عاملاً خارجياً يساعد الإنسان على تحطّي فتن الدنيا وزخارفها وشبهاتها، وتتأكد ضرورتها عند غفلة الإنسان وخمود أو خمول الواعظ الداخلي فيه، حيث يصبح لها الدور الأساسي في النجاة من النار، وهذا ما يعترف به المجرمون في الآخرة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ كما نقل القرآن الكريم عن لسانهم.

ج- تأكيد القرآن الكريم على الموعظة:

وقد أكد القرآن الكريم على أسلوب الموعظة فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. ونحن نمارسها كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى وهي نافعة ومفيدة، إذ تفتح أبواب هداية المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

د- تأثير الموعظة:

إن الموعظة تؤثر في الناس جميعاً بشكل عام، أثرها في المؤمن بشكل خاص؛ لأنه يستحضر الالتزام الشرعي في أموره، وقد تغيب عنه بعض التفاصيل، أو يدفعه بالاتجاه الخاطئ، فيكون

دورها دور المنبه للضمير المذكر بالمسؤولية الشرعية والرقابة الإلهية. ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فرب موعظة ردت عن عمل ظالم وفساد لسبب أو لآخر وأنقذت جيلاً أو أبطلت بدعة، ورب موعظة تركت أثراً بسيطاً يتراكم مع غيرها من المواعظ والأساليب الأخرى لتؤثر أثرها وتحدث التغيير المنشود، وإن لم تفعل ذلك كله فهي على الأقل تلقي على الآخرين وتبرئ ذمة.

هـ- ارتقاء الموعظة في عصر صدر الإسلام:

وقد ارتقت الموعظة التقوية الدرجات العلى في عصر صدر الإسلام وتبوأت منزلة مرموقة بسبب كون الإسلام دين موعظة، ولأن القرآن الكريم قد جاء ليؤكد على قضيتين مهمتين: الأولى: تتمثل بضرورة الاعتراف بوجود إله واحد في هذا الكون، ونبذ ما عداه من الآلهة سواء كانت آلهة (صنمية) من الحجارة أو آلهة (طبيعية) من مكونات الكون (شمس قمر - كواكب).

والثانية: تسوية السلوك الإنساني تجاه الآخر وتعريف الإنسان بضرورة العمل الصالح والسلوك الحسن وكلاهما لا يأتي إلا بالموعظة التقوية الداعية إلى طاعة الله وامتنال أوامره والانتهاز عن نواهيهِ وعبادته حق العبادة واتقاء ناره والإقبال على جنته من خلال عبادات ومعاملات حسنة، ومن هنا فقد جاء القرآن الكريم من أول حرف إلى آخر حرف فيه سلسلة من المواعظ الرشيدة، والقارئ لهذا القرآن الكريم يخلص إلى نتيجة واحدة هي (التقوى) والتقوى موعظة حتى ولو جاءت على شكل وصايا أو بصيغة الطلب.

و- طرق أداء الموعظة في القرآن الكريم:

استخدم القرآن الكريم في أداء الموعظة في القرآن الكريم الطرق التالية:

١- الطريقة المباشرة في الوعظ كقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين).

٢- أو الوعظ بطريقة الوصية كما فعل لقمان مع ابنه (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) لقمان / ١٣ / .

٣- أو الوعظ بالتذكير بآلاء الله في الطبيعة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لأولي الأبصار....).

ز- الموعظة في الحديث الشريف:

وكذلك جاءت السنة النبوية المطهرة نهراً سلسيلاً من المواعظ يروي غليل صحابة رسول الله ﷺ والأمثلة كثيرة في ذلك، وما قاله ﷺ: «إن أقربكم مني مجالساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً».

ح- صور الموعظة في الحديث الشريف:

وقد اتخذت الموعظة التقوية في عهد صدر الإسلام صوراً متعددة وسبلاً مختلفة كلها يصب في طمأنينة استسلام العبد لربه والانقياد له وطاعته واجتناب محرماته.

ط- خطاب الموعظة التقوية:

والموعظة التقوية في صدر الإسلام جاءت تخاطب العقل والوجدان، فلم تهمل شيئاً من الجوانب الإنسانية على حساب جوانب أخرى. ولكل من العقل والوجدان أساليب تناسبه وتنفذ إليه.

١- فالدليل والبرهان والمقارنة أساليب تخاطب العقل بقصد تأهيله إلى إدراك المعارف الموصلة إلى الله، فيقول الله سبحانه وتعالى في خطاب للعقل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

٢- التأمل والنظر وإثارة الشعور أساليب لمخاطبة الوجدان لكي تسمو الروح وتكتسب القدرة على التذوق الرفيع الذي يوصلها إلى حب الله. يقول الله سبحانه وتعالى في خطاب الوجدان: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٣- والله تبارك وتعالى أنزل القرآن على قلب النبي محمد ﷺ ووصفه بصفات كثيرة تربو على الأربعين، ومن هذه الأوصاف وصفه بأنه (موعظة)، وقريب من هذا المعنى وصفه بأنه (ذكرى)، وهذا أمرٌ يلمسه كلُّ من قرأ القرآن، ويعظم وقع هذه المواعظ على النفس حينما تُقرأ بقلب حاضر، وسمع متصل بقلب شاهد: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالوعظ والموعظة جاءت في القرآن وصفاً للقرآن الكريم كما جاءت من مهمات النبوة ونُفِرَ من المؤمنين. بل قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾: إن الموعظة الحسنة هي مواعظ القرآن، وكذا قيل في تفسير قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: عن مواعظ القرآن. وما القصص القرآني النوراني، أو النبوي المبارك؛ إلا وسيلة من وسائل التربية لكل الأمة، ليس المقصود منها سرد القصص وتدوين التاريخ بقدر ما تكون "العبرة" والاتعاظ هي الخطوة الأولى التي يجب أن تكون في وجدان المتلقي، حتى تكون نافعة له، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

ي- أركان الموعظة المؤثرة:

هناك شروط عديدة تسهم في تأثير الموعظة في في الآخرين هي:

١- تخيُّر الوقت المناسب والجو النفسي المهيأ للسمع.

٢- اللين في الخطاب والشفقة في النصح: فقد كان الرسول ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

٣- الحديث المتناسب ومراعاة أحوال المخاطبين: لأن الله عزَّ وجلَّ خلق الناس لهم طبائع متعددة، وعقول متفاوتة، ومشارب متنوعة و﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مِثْلَ بَعْضِهِمْ﴾.

٤- التآلف مع الناس: فيفعل كما فعل رسولنا ﷺ، يتألفهم مرة بالهدية، ومرة بالزيارة، فإن رسول الله ﷺ دعا الناس وآلفهم وأعطاهم وأهدى لهم، بل كان يعطي الواحد منهم مئة ناقة، وكان يأخذ الثياب الجديدة، وكان يعانق الإنسان ويجلسه مكانه، فهذا من التآلف.

٥- حسن المظهر: لأن سوء المظهر في الصورة واللباس ينقّر الناس، والناس يحبون الجمال والنظافة بصورة فطرية. ولهذا كان رسول الله ﷺ يولي اهتماماً كبيراً بنظافة الملابس والجسم والأسنان حتى أن الناس كانوا يتحدثون عن عطره الفواح.

ولقد قال يوماً لأصحابه: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، فقال رجل: يا رسول الله، إني رجل أولعت بالجمال في كل شيء، حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل. فهل هذا من الكبر؟ فقال ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس". واعلم أن للمواعظ أهلها ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فقد وصف الله تعالى قلوب أهل الإيمان عند سماع الوعد والوعيد، بالركة وجلودهم بأنها تقشعر خوفاً من الوعيد، ثم تلين وترجو عند الوعد.

ويزداد خوف المؤمن القارئ للقرآن الكريم حينما يقرأ الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. وقد تقف بعض العوائق لتمنع الإنسان من التفاعل مع الموعدة، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ٢٧، بل إن أكثر الناس مبتلون بمثل هذه العوائق، و"ما أكثر العبر وأقل الاعتبار" بالغفلة، وكحب الدنيا، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

ك- مقاصد الموعدة وحكمها:

الموعدة باب من أبواب الدعوة إلى الله، وأسلوب من أساليب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ويحسن هنا إيراد مقاصد الموعدة وحكمها:

١ - إقامة حجة الله على خلقه: كما قال تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: آية ١٦٥].

٢ - الإعذار إلى الله - والخروج من عهدة التكليف: قال الله تعالى في صالحه القوم الذين اعتدى بعضهم في السبت: {قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ} [الأعراف: آية ١٦٤]. وقال عز وجل: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ} [الذاريات: آية ٥٤].

٣ - رجاء النفع للمأمور: كما قال تعالى: {مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: آية ١٦٤]. وقال عز وجل: {وَذَكَرْنَا لِلذَّكَرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: آية ٥٥].

٤ - رجاء ثواب الله عز وجل: إذ الدعوة باب عظيم من أبواب البر.

٥ - الخوف من عقاب الله تبارك وتعالى: إذ إن ترك الدعوة مؤذن بالعقوبة.

الباب الرابع عشر الأدعية النبوية

أ- تعريف الدعاء:

الدعاء:

خطاب يتوجه به المرء إلى خالقه في خلوة خاصة بينه وبين الله تعالى أو في اجتماع ديني عام لغرض من الأغراض (صلاة الجمعة - العيدين - الاستسقاء - الخسوف - الكسوف) ويتم هذا الدعاء بصوت خافت يتبع بكلمة (آمين) عند الجماعة.

ب- أوقات الدعاء:

يكثر الدعاء في أوقات حلول البلاء ووقوع الكوارث حيث يضرع الناس لله تعالى سائليه كشف البلاء ويفتح بنداؤه الله تعالى (اللهم - يا رب - ربنا - رب) بعد أن يشني الداعي على الله تعالى بما هو أهله ويصلي على رسوله عليه الصلاة والسلام، وتكون هذه الأدعية من خلال قوالب فنية رفيعة.

ج- مميزات الدعاء:

يتميز الدعاء بـ:

- ١- الإيجاز والاختزال.
- ٢- ذكر العبارات المأثورة عن النبي في الدعاء.
- ٣- ذكر الآيات الواردة في الذكر الحكيم.
- ٤- تضمين الدعاء بطلب الداعي من رزق أو صحة أو علم أو مكانة أو رفع مكروه.

هـ- آداب الدعاء:

وللدعاء آداب خاصة به منها:

- ١- التذلل لله تعالى.
- ٢- إظهار الضعف والمسكنة وقد حض الله تعالى الناس على دعائه: قال تعالى في سورة (البقرة ١٨٦) (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان)، وقال تعالى في سورة (المؤمن ٦٠): (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)، وقال تعالى في سورة (الزمر ٤٩)

(فإذا مس الإنسان ضرر دعانا)، وقال تعالى في سورة (لقمان ٣٢): (وإذا غشيهم موج كاظلم
دعوا الله مخلصين له الدين).

و- من أمثلة الدعاء النبوي:

دعاء الأنبياء

أ- دعاء سيدنا آدم عليه السلام:

١- «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

٢- اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم

ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي.

٣- اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم ما يصيبني إلا ما كتبه

عليّ والرضا بما قسمته لي يا ذا الجلال والإكرام.

ب- دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام:

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً

لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ».

«رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ

وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ».

«رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا

رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ج- دعاء موسى عليه السلام:

«رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي».

«رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي».

«رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ».

د- دعاء سيدنا زكريا عليه السلام:

«رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ».

«رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

ه- دعاء سيدنا سليمان عليه السلام:

«رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

و- دعاء سيدنا نوح عليه السلام:

«رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا

تَبَارًا».

ز- دعاء سيدنا يونس عليه السلام:

«لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

ح- دعاء سيدنا أيوب:

«إِنِّي مَسْنِيَّ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ط- دعاء الرسول محمد ﷺ في الطائف:

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

الباب الخامس عشر

وصايا النبي صلى الله عليه وسلم

ترك لنا النبي ﷺ مجموعة كبيرة من الوصايا في الجوانب الأخروية، والجوانب الدنيوية (اجتماعياً وإنسانياً وفكرياً وأسرياً...) والمتصفح لهذه الوصايا تغنيه في مسيرة حياته وترشده إلى طريق الخير.

من وصايا الرسول ﷺ

قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} (٣ و٤) سورة النجم.

(١) الوصية الأولى: أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

الشرح: نعم أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله كي تعلم أن القوة منه لا منك وعندما تجد أي قوة فيك «قل: إنها هبة الله وإن شاء سلبها» ولا تكن كمثل ما قال قارون قال: «إنما أوتيتها على علم عندي» فقال الله له: احفظها بعلمك فحسب به و بداره الأرض، إذن الحق سبحانه هو تعالى يريد منا أن نكون ذاكرين دائماً لقوة الله تعالى.

(٢) الوصية الثانية: اتق المحارم تكن اتقى الناس.

الشرح: نعم كل شيء حرمه الله ابتعد عنه لتسلب عن نفسك المعاصي أولاً، ثم افعل إيجاب في الطاعة، واسلب المعصية أولاً؛ لأن الطاعة ثوابها سيكون لك أما المعصية فمن الممكن أن تكون بضرر لغيرك فكف عنها أولاً، ثم افعل الطاعة ثانياً، وبذلك تكن اتقى الناس.

(٣) الوصية الثالثة: رُفعت الأقاليم وجفت الصحف.

الشرح: نعم لأن كل شيء تم ترتيبه من الله تعالى، فإذا قضى الله تعالى أمراً فلا ينقض أمر الله تعالى أحد، فقد تم ترتيب كل شيء بأمر من الله.

(٤) الوصية الرابعة: من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً.

الشرح: نعم لأنه كلما ارتقت الدنيا زادت الشهوات، فمنذ زمن كنا نركب الخيل للمواصلات، أما الآن فوجدت سيارات وطائرات للسفر، فكلما زاد التطور في الدنيا زادت الشهوات، فإن لم يستطع الإنسان أن يتمسك بدينه فسيميل إلى شهوات نفسه، فيجب علينا أن نتقي الله ونفعل ما يريد الله ونبتعد عما نهى الله عنه.

(٥) الوصية الخامسة: صلّ الصلاة لوقتها.

الشرح: الحق سبحانه وتعالى يريد أن يديم صلة الإنسان به، فالذي خلقك يستدعيك إلى لقائه ليخفف عنك ما ألم بك من متاعب و يعطيك طاقة من الإيمان، واعلم أن لك رباً يدعوك ليحتفي بك، فإن طلبك للقائه فلا تؤجل لقائه؛ لأنه سيمدك بطاقة إيمانية كبيرة.

(٦) الوصية السادسة: أفشوا السلام بينكم.

الشرح: نعم لأن الإنسان إذا كان جالساً وطراً عليه طارئ فإن نفسه تحدثه: هل جاء بشرٌّ أم جاء بخير؟! فإن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإن هذا دليل أنه قدم بخير وليس بشرٌّ فتوجد طمأنينة بين الطرفين.

(٧) الوصية السابعة: أحدث لكل ذنب توبة.

الشرح: نعم، أي لا تغفل، فإن فعلت ذنباً يجب أن تلحقه بندم وتوبة ولكن لا تدم على هذا الذنب؛ لأن الراجع عن توبته كالمستهزئ بربه، فيجب عليك أن تتوب سريعاً وتندم على فعل هذا الذنب.

(٨) الوصية الثامنة: إذا استعنت فاستعن بالله.

الشرح: نعم لأن قول الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (٥) سورة الفاتحة، أي حبيني في عبادتك وامنحني إشراقها حتى أتشجع وتقوى عبادتي، والاستعانة بالله في كل شيء.

(٩) الوصية التاسعة: أحسن لجارك.

الشرح: نعم لأن أول ما تقول عند الفزع: يا فلان «تنادي جارك» ولا تنادي أحداً آخر، فجارك هو المطلع على عوراتك، وهو المواجه لك في جميع أحوالك سواء المسببة أو السارة، فيجب عليك أن تحسن جواره؛ لأنك إذا أحسنت جواره فقد وجب عليه أن يحسن هو الآخر، وبذلك تكون قد أخذت إحساناً من الناحيتين.

(١٠) الوصية العاشرة: احفظ الله يحفظك.

الشرح: أي لا تعتدي على محارمه؛ لأنك إذا أمرت أمراً أو نهيت نهياً فخالفته فيه فكأنك لم تحفظ عهده معك.

الباب السادس عشر

المنطق النبوي

الباب السادس عشر

الفصل الأول

خصائص المنطق النبوي

روى أبو موسى الأشعري "رضي الله عنه" أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت فواتح الكلم وخواتمه» (صححه الألباني).

خصائص المنطق النبوي:

١- إيثار الوضوح والبيان، وهو الأمر الذي تجده ظاهراً مستعلنأ في حديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم، أو كسر دكم، ولكنه يتكلم بكلام بين».

٢- الكلام عند الحاجة، ومما ورد في وصف منطقته ﷺ ما رواه هند بن أبي هالة أنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يتكلم في غير حاجة، أي من غير ضرورة دينية أو دنيوية، وهو أمر مفهوم في إطار قضية التحرز والتوخي من الكلام بلا فائدة حسية أو معنوية، والمفهوم هو التطبيق العملي لقول الله تعالى: {والذين هم عن اللغو معرضون}.

٣- إحاطة الكلام افتتاحاً واختتاماً بذكر الله تعالى، وقد نص العلماء في معرض بيان خصائصه ﷺ في الكلام أنه كان يفتح الكلام ويختمه أو يختمه بذكر الله تعالى، والمعنى أن كلامه ﷺ كان محفوظاً بذكر الله، ومستعاناً بالله، ويستفاد من هذه السمة تعليم الأمة استيعاب الزمان بذكر الوقتين ابتداءً وانتهاءً لتحقيق البركة حالاً وقالاً.

٤- التكلم بجوامع الكلم، وهذه سمة من متواتر ما استقر عند أهل العلم وصفاً لمنطقته ﷺ، وهي تعني انطلاقه فيه واحتكامه إلى القرآن في كلامه، وهو من هذه الناحية أعلى نموذج ذاب القرآن الكريم في جنانه وتجلي على لسانه. ولأمر ما قالوا قديماً: المرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلم ظهر، وفي هذا السياق يمكن أن يقف المرء طويلاً أمام النصوص العوالي التالية:

«المحتكر ملعون» (المستدرك للحاكم).

«الندم توبة» (مسند أحمد).

«الصوم جنة» (سنن النسائي).

«المستشار مؤتمن» (صحيح مسلم).

«الصبر رضا» (تاريخ ابن عساكر).

ففي هذه النصوص دليل واضح على هذه السمة، ودليل واضح على ما يندرج تحتها من علم وافر، لا فضول فيه ولا تقصير، بحيث لا يمكن استشعار نقصان أو زيادة فيه. وجوامع الكلم الموصوف بها حديثه ﷺ نصوص مكتنزة بالحكمة، ترمي نحو الفصل بين الحق والباطل، ومن ثم كان كلامه ﷺ فصلاً، متناسقاً.

٥- استئثار اللسان وغير اللسان في منطقته ﷺ، ومما اتسم به حديثه ﷺ أنه كان حريصاً على استئثار اللغة، أي الألفاظ بجوار أعضاء جسمه الشريف في عملية التواصل مع الآخرين، في بر بالغ ظاهر من وصفه بأنه لم يكن جافياً ولا غليظاً قولاً وفعلاً، وفي هذا السياق يرصد شراح المرويات حول صفة كلامه ما يلي:

أ- أنه إذا أشار إلى أحد أشار إليه بيده، أو بكفه كلها، فراراً من احتمال مَظِنَّة التكبر والتجبر.

ب - وأنه إذا تعجب قلب كفه من الهيئة التي كانت عليها حال التعجب.

ج - وأنه يصل إشارته بكلامه في المسألة التي يستعمل الإشارة فيها.

د- وأنه إذا غضب أعرض وأشاح إما عدولاً عما يقتضيه الغضب، أو أظهره التماساً لفهم الآخرين.

هـ- وأنه إذا فرح غض طرفه، تواضعاً، وظهرت الوضاعة على وجهه.

الباب السادس عشر

الفصل الثاني

القسم النبوي الشريف

القسم أسلوب يأتي به لتوكيد المعنى وإثباته وإقرار جديته.. استعمله الكثير من العرب قبل نزول القرآن الكريم، ثم استعمله القرآن الكريم، وكذلك استعمله النبي ﷺ في أحاديثه لتعظيم اسم الله تعالى؛ لأنه قسم باسمه أو صفة من صفاته، والقسم أصلاً هو القطع والقول الفصل وهو اليمين، وفي الحديث (يمينك على ما يصدقك به صاحبك) وبذلك يكون القسم ربطاً للنفس بالامتناع عن الشيء أو الإقدام عليه، وقد استخدمه النبي ﷺ للتأكيد والإقناع وإقامة الحجة والدليل على المقسم عليه في كل زمان ومكان، من هنا قال ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه باب كراهة الحلف بالآباء - ٣٢٤٨-: «لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله وأنتم صادقون» وكذلك نهى عن الحلف بالأمانة في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه كتاب الإمام باب كراهية الحلف بالأمانة رقم - ٣٢٥٣-: «من حلف بالأمانة فليس منا» وكذلك قوله ﷺ عندما سمع عمر بن الخطاب يحلف بأبيه في الحديث الذي رواه البخاري في كتاب الأيمان والندور وباب لا تحلفوا بأبائكم رقم - ٦٢٧٠ - ٦٢٧١- : «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو يصمت، وكذلك من أقسم بالللات والعزة ناه عن ذلك ودعاه إلى ترك هذا القسم والتوبة عنه بقوله (لا اله إلا الله). كفارة لقسمه وكان ﷺ قدوة في قسمه، كان لا يقسم إلا بالله تعالى أو صفة من صفاته وإن نقل عنه أنه أقسم مرة قائلاً لأعرابي: «أفلح وأبيه إن صدق» أو «دخل الجنة وأبيه إن صدق» وقد تعددت صيغ القسم عنده صلى الله عليه وسلم، واختلفت صفات الله تعالى التي أقسم بها، ولم يصرح النبي ﷺ بفعل القسم إلا في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة رقم - ٢٥٨٨- «ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة وما ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً ولا فتح عبد باب مسألة

إلا فتح الله عليه باب فقر» فذكر ﷺ فعل القسم وحذف المقسم به «الله تعالى» مع أن صيغة القسم الأصلية «أقسم أو أحلف» متعدياً بالباء إلى المقسم به، ثم يأتي المقسم عليه وهو ما نسميه جواب القسم. قال تعالى في سورة النحل «٣٨» «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت» ثم صار يحذف فعل القسم ويكتفي بالباء أو الواو أو التاء. واستعمل ﷺ في أقسامه صيغاً متعددة:

١- (والذي نفس محمد بيده) وفيها إقراره بالربوبية لله تعالى وأن الأنفس بيده وهو خالقها وهو الذي يحييها ويميتها وهذا التأكيد تطهير لأنفس السامعين من الشرك.

٢- (والذي نفسي بيده) وفي هذه الصيغة إشارة إلى أن النبي وإن كان يتيماً فإنه لا يملك من أمره شيئاً حتى نفسه وفي ذلك تسليم مطلق لإرادة الله تعالى واعتراف بعبوديته وبشريعته.

٣- (والله) وقد أقسم بها ﷺ في مواقع عدة لبيان ضلالة الدنيا وسعة الآخرة وعلى حقوق الجار وعظم شهادة الزور «والله لا يؤمن كررها ثلاثاً قلنا: من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه» رواه أبو داود في سننه كتاب الفتن والترمذي في سننه كتاب الفتن رقم /٢٢٠٥/.

٤- (لا ومقلب القلوب) على تقدير لا أفعل كذا وحتى (مقلب القلوب): استعملها النبي ﷺ لما كان يراه من إسلام من كان يكنُّ العداوة للمسلمين فتتحول قلوبهم بين ليلة وضحاها إلى دعاة ومجاهدين.

٥- (ورب الكعبة) تعظيماً لمكانة هذا البيت في نفوس العرب (مؤمنين ومشركين).

٦- (وايم الله) حين سمع ﷺ من يطعن بإمارة أسامة بن زيد حب رسول الله.

٧- (والذي لا إله غيره) وذلك لنفي الشرك.

٨- (والله الذي لا إله الا هو) وذلك لإعلان وحدانية الله تعالى الذي لا يقسم إلا به.

٩- (والذي نفس أبي القاسم بيده).

والقسم في حديثه ﷺ نوعان قسم ظاهر وهو قسم ذكر به المقسم به، وقسم مضمّر وهو كل قسم لم يصرح بالمقسم فيه، بل جاء محذوفاً «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم حرمة

يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.....» وتقدير الكلام (والله إن دماءكم.....) وما أقسم عليه النبي ﷺ يمكن أن يصنف إلى:

- ما يتعلق بأمر الاعتقاد.
- ما يتعلق بأمر العبادة.
- القسم على ما سيحدث من فتن وملاحم في المستقبل.
- القسم على أحوال يوم القيامة.

معاني القسم في حديث المصطفى ﷺ

من المعاني التي أعطاها القسم غير التوكيد في أحاديثه ﷺ التحذير والترهيب (و ايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) صحيح البخاري الحدود باب إقامة الحدود.

التحريم والإباحة كما فعل ﷺ حين حرم الذهب على الرجال فرمى بخاتمه ورمى الناس بخواتيمهم بعد أن قال: (والله لا ألبسه أبداً) رواه مسلم في صحيحه رقم / ٢٠١٩ .

الحض والترغيب (والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل) رواه مسلم في صحيحه / ١٩٤ .

التوسع والإباحة (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم) رواه مسلم رقم / ٢٧٥٠ .

الإشارة على فضل المخاطبة (والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك) والمخاطب عمر بن الخطاب البخاري رقم / ٣١٢٥ .

وللقسم في حديث الرسول ﷺ بلاغ يتمثل في:

١- توكيد الأمر وإثباته.

٢- الدلالة على جدية القول.

٣- الإيجاز.

- ٤- التنبيه ولفت النظر .
- ٥- تنويع أساليب الخطاب .
- ٦- تقديم الدليل على ذكر الدعوة .
- ٧- إثارة الشك في الفكرة المخالفة .
- ٧- إضعاف الفكرة المخالفة .
- ٨- بيان أهمية المقسم عليه .
- ٩- بيان مكانة المقسم به .

الباب السابع عشر الشعر في صدر الإسلام

الباب السابع عشر

الفصل الأول

الإسلام والشعر والعصبية القبلية

قوضت الرسالة الإسلامية التي جاء بها نبينا محمد ﷺ صرح الديانة الوثنية، ونقلت العرب من طور نظام القبلية إلى نظام الدولة، ووجهت همها إلى محاربة النزعات العصبية والروح القبلية وما تحمله من أحقاد وضغائن ونزعات جاهلية على رأسها حمية الجاهلية وإبطال دماء الجاهلية القائم على مبدأ التكايل بالدم الذي يقر التفاوت في تقدير ديوات القتلى تبعاً لمنزلة المقتول حيث جعل الإسلام الدية واحدة لا فرق بين شريف ووضيع.

كما أن النبي ﷺ قد وقف من سادة القبائل وأشرفها موقف الاصطناع والتألف على الرغم من كونهم قد وجدوا أن هذه العقيدة الإسلامية الجديدة خطر عليهم حيث كان يؤثرهم بالعتاء والهبات ويقسم لهم نصيباً من الغنائم والفيء، فقد جاء في صحيح البخاري أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية فقسمها بين أربعة من أشرف القبائل (الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الخير الطائي وعلقمة بن علاثة العامري). فلما أنكر الأنصار وقريش صنيعه كان جوابه إنه إنما يتألفهم.

وقد عدل الإسلام ميزان التفاضل القبلي بين الناس فجعله يقوم على التقوى لا على الحسب والنسب ومدار التفاضل بين القبائل على الأسس الإسلامية لا على المفاخر القبلية وجعل مراتب الشرف القبلية محوطة بحسن الإيمان وقوة العقيدة فخير العرب في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وهكذا فإن الدين والعروبة التي قويت بقوة الدين لم تلغها العصبية القبلية وإنما أضعفت شوكتها، ولم تنس القبائل العربية في ظل الإسلام أحقاد الجاهلية، وقد كان مجيء الرسول ﷺ إيذاناً بتوحيد المهاجرين والأنصار وإخاد جذور الأحقاد الجاهلية بينهم على الرغم من تحريض ابن سلول قومه على المهاجرين ولم يكد الرسول

يلقى وجهه حتى برزت العصبية من مكنها وسفرت عن وجهها فقد وقع النزاع بين المهاجرين والأنصار في أمر الخلافة في السقيفة سقيفة بني ساعدة.

كما أن الإسلام أدرك خطر الشعراء الذين كانوا يستوحون شعرهم من أغراض وفنون النزعة القبلية على الدولة الناشئة فوقف من الشعر القبلي المثير للضغائن والعصبيات موقف المناهضة.

وكان الرسول ﷺ قد لقي من هجر المشركين عننا شديدا فذم الشعراء غير المدافعين عن العقيدة فقال (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً) مستوحياً ذلك من قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون ٥٠٥٠) وقد استعان الرسول ﷺ بحسان بن ثابت للرد على هجاء المشركين كما أن شعراء الأنصار كانوا يفاخرون شعراء قريش بنصرة الدين الجديد.

وهكذا تضاءل شأن الشعر القبلي المتصل بالعصبيات وقل النظم في الأغراض المستوحاة من العدوات القبلية كالهجاء والفخر القبليين وبقيت النزعة القبلية مبثوثة في شعر بعض الشعراء كحسان بن ثابت والعباس بن مرداس، وبقي فن النقائض الذي شهد العصر الجاهلي مولده قائماً في العصر الإسلامي على الرغم من خضوعه لمؤثرات الدين الجديد والأفكار السياسية.

الباب السابع عشر

الفصل الثاني

حالة الشعري في هذا العصر

الشعري واكب الدعوة الإسلامية

حركة الشعري في عهد النبوة

أ- كثرة دواعي الشعري في عصر الرسول ﷺ:

لما أخرجت قريش رسول الله ﷺ واضطر إلى الهجرة من مكة إلى المدينة نشبت بين البلدين حرب حامية الوطيس اشتبكت فيها السيوف والألسنة. ولم تكن مكة تعرف في الجاهلية بالشعر إلا بعض مقطوعات لشعراء مغمورين. فلما نشبت الحرب لمعت أسماء شعراء كثيرين: كأبي عزة الجمحي، وأبي سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب. وأخذ شعراء قريش يسددون سهام شعرهم للرسول ﷺ بهجائه والصد عن سبيل الله، فعز ذلك عليه وطلب من أنصاره الرد عليهم، فانبرى لهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، واحتدم الهجاء بين الفريقين. ويشارك شعراء قريش شعراء اليهود، وعلى رأسهم كعب بن الأشرف، وقد بلغ به السوء أنه كان يشيب بنساء الرسول ﷺ ونساء المسلمين، فقتله الأنصار.

وكان شعراء العرب من القبائل التي لم تسلم بعد يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرضين لها على مقاومة الرسول ﷺ. وبفتح مكة ودخولها في الإسلام أدجت الجزيرة كلها فيه، وقدمت الوفود معلنة إسلامها، وهرع الشعراء للاعتذار إلى الرسول ﷺ ومحاولة التكفير عما اقترفوه في جاهليتهم. ومن ذلك قول عبد الله بن الزبعرى:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بورٌ
إذ أجاري الشيطانَ في سنن الغيِّ ————— سيِّ ومن مالٍ مِلكُهُ مثبورٌ

يشهدُ السَّمْعُ والفؤادُ بما قُلِّدَ — تَ ونفسي الشَّهيدُ وهي الخبيرُ
إِنَّ ما جئتنا بهِ حقُّ صدقٍ — ساطِعٌ ونورُهُ مضيءٌ منيرُ
وكان كثير من الشعراء يمتدحون رسول الله ﷺ، وينظمون المراثي في قتل المسلمين. ولما
انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ورثوه وتفجعوا عليه، ومن ذلك
قول أبي سفيان أيضاً:

لقد عَظُمَت مصيبتنا وجَلَّتْ — عشيّة قِيلَ قد قُبِضَ الرسولُ
نبيٌّ كانَ يجلو الشكَّ — عنا بما يوحى إليه وما يقولُ
وكل هذا يوضح أن الشعر في تلك الفترة كان يجري على كل لسان وهكذا نشط الشعر
إبان الدعوة الإسلامية كما كان هو عليه في عصر ما قبل الإسلام إلا أنه في هذه الفترة سلك
سبيل الخير والمحبة والدعوة إلى الجهاد عند الكثير من الشعراء، وإن كان القرآن الكريم
والحديث النبوي الشريف قد صرف عيون وآذان الكثير من الناس عن سماع الشعر.

وقد شجع النبي ﷺ الشعر الخيّر وشد على عضد الشعراء وأخذ بأيديهم وصحبهم في
أشعارهم جلاً وترحالاً ونال الشعراء من النبي ﷺ كل تقدير واحترام ورعاية إذا هو ما ذب
عن حياض الإسلام والمسلمين.

وكذلك رافق الشعر المعارك الكبرى الفكرية والدينية والسياسية سواء ما قاله الشعراء
المدافعون عن حياض الدين أو الشعراء المناقضون لهم، بيد أن الشعر الذي قاله شعراء
الإسلام عقيدةً وخلقاً وقيماً كان يتخذ من الطهر والفضيلة ومثل الخير شعاره.

وللشعر دوره الكبير في حياة النبي ﷺ فقد اتخذ أحد الأسلحة الفعالة في الدفاع عن الدين
الجديد. وقد امتدح النبي صلى الله عليه وآله وأشار إلى تأثيره في الناس من خلال دعوته
للخير «إن من الشعر لحكمة» إذا كان قولاً صادقاً مطابقاً للحق نافعاً يمنع من السفه «فاليان
من الله تعالى والعبي من الشيطان وليس البيان في كثرة الكلام ولكن البيان الفصل في الحق،
وليس العبي قلة الكلام ولكن من سفه الحق»، وكذلك امتدح النبي ﷺ الشعراء بأسمائهم لما
عهد عنهم من الحكمة والحث على الفضيلة والخير والترهيب من الرذيلة والفساد ونصرة الحق

وطهارة اللسان فقد قال ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

وقال ﷺ «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» وقال عن عبدالله بن رواحه: «إن أخاً لكم لا يقول الرفث يعني عبدالله بن رواحة».

قال عبدالله بن رواحة:

أتانا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقَّ معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الحق بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قاله واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وقد كان الرسول ﷺ يستمع إلى الشعراء ينشدون الشعر في حضرته الشريفة وبين يديه كاستماعه لأنجشة الأسور وقوله له: (ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير) يعني النساء، وقد ذكر جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه قال: «جالست النبي ﷺ أكثر من مئة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذكرون أيام الجاهلية وهو ساكت قريباً تبسم معهم» وكذلك عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يقدم عليكم غداً قوم أرقّ قلوباً للإسلام منكم» فقدم الأشعريون فلما دنوا جعلوا يرتجزون:

غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه

وما كان أكثر ما يستمع الشعر في المسجد ويضع لسان منبراً في المسجد فيقوم حسان عليه يهجو من قال في رسول الله وكان يقول لحسان: «إن روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله ﷺ» وكذلك استحسن رسول الله ﷺ قصيدة أنشدها إياه الشاعر خفاف بن نضلة الثقفي في المسجد بعد ما صرفه من الأباطيل مطلعها:

كم تحملتِ القلائص في الدجى في مهمه قفرٍ من الفلوات
فهو ﷺ يحب سماع الشعر الجيد ويطلب ممن يقوله أو يحفظه أن ينشده له، وروى عمرو بن الشريع أن أباه قال: «استنشدني الرسول ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت فقال: «لقد كاد أن يسلم في شعره».

كما أنه كان يستمع إلى الشعر مغنيًا في يوم بُعث حين دخل عليه أبو بكر في منزل عائشة وجاريتان من جواري الأنصار تغنيان ما تقاولت به الأنصار في هذا اليوم والنبى يسمع وأبو بكر ينكر، فقال النبي: «إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» وقد طلب ﷺ من عائشة بعد أن زفت امرأة إلى رجل من الأنصار أن تبعث معها جارية تضرب بالدف وتغني:

أتينـــــــــــــــــاكم أتينـــــــــــــــــاكم
 فحيانــــــــــــــــا وحيــــــــــــــــا كــــــــــــــــم
 ولــــــــــــــــولا الــــــــــــــــذهب الأح
 مــــــــــــــــر ما حــــــــــــــــلت بــــــــــــــــواديكم
 ولــــــــــــــــولا الحنــــــــــــــــطة الســــــــــــــــمرا
 ء ما ســــــــــــــــمنت عــــــــــــــــذاركم
 وكذلك عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ مرَّ ببعض أزقة المدينة فإذا هو بجوارٍ يضرب
 بدهن ويتغني ويقلن:

نحن جوارٍ من بني الأنصار يا حنــــــــــــــــذا محمد من جار
 فقال النبي ﷺ: «الله يعلم إني لأحبكن» وقد كان النبي ﷺ يتمثل بالشعر في مناسبات
 مختلفة كشعر بن أبي رواحة وبيت طرفة بن العبد: «ويأتيك بالأخبار من لم تزود» وبأبيات
 عامر بن الأكوع يوم الأحزاب حين كان ينقل التراب

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
 فأنزلن سكينتنا علينا إن الألى قد بغوا علينا
 إذا أرادوا فتنةً أبينا

وكذلك كان ينشد الشعر وهو ينقل اللبن في بنيان المسجد النبوي في المدينة:

هــــــــــــــــذا الحــــــــــــــــمال لا حــــــــــــــــمال خيــــــــــــــــبر
 هــــــــــــــــذا أبــــــــــــــــرّ - ربنا - وأطهــــــــــــــــر

الباب السابع عشر

الفصل الثالث

الشعر الإسلامي يرافق الأحداث

جهد الرسول ﷺ أن يجعل الشعر رفيقاً ملازماً لحركة الدعوة يرصد حوادثها العظيمة فيوم دخل النبي ﷺ مكة المكرمة في عمرة القضاء كان ابن رواحة الشاعر يتقدم صفوف المسلمين وبين يدي الرسول منشداً ما ينذر الكفار ويتوعدهم والنبي مثلوج الصدر:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقليله ويذهل الخليل عن خليله
وقد لامه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له رسول الله: (خلّ عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل).

٢- ويوم فتح النبي مكة دخلها النبي ﷺ من كداء فتصدت نساء المشركين لخيول المسلمين تلطمها بخمرهن لتردها فكان مما أعجب النبي من هذا المشهد موافقته لما كان قد تنبأ به حسان بن ثابت في شعره حين هجا أبا سفيان بن الحارث:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصعدات يلطمهنّ بالخمر النساء
فقال رسول الله ﷺ: (ادخلوها من حيث قال حسان) فدخل حسان من كداء.

٣- كذلك فإن بيتين لكعب بن مالك كانا السبب في إسلام دوس:

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوف
تخبرها ولو نطقنا لقاتل قواطعهن دوساً أو ثقيفاً

وقد أسلمت (دوس) بيتي كعب وكان رسول الله ﷺ قد قال عن بيتيه: «والذي نفس محمد بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل».

وقد رصد الشعر مبارزة (مرحب اليهودي ملك اليهود مع سلمة بن الأكوع وعلي بن أبي طالب في موقعة خيبر التي فتحت على يد علي رضي الله تعالى عنه قال مرحب عندما برز له ابن الأكوع:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلّهـب
وقال عامر بن الأكوع:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر
ثم استشهد عامر فبرز علي لمرحب وكان قد رمدت عينونه فأعاد مرحب قوله السابق فقال له علي:

أنا الذي سممتني أمي حيدر كليث غابات كريبه المنظرة
أوفيهـم بالصاع كيل السنـدرة
فضرب علي رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

٥- ورصد الصحابي الجليل خبيب صلبه واستشهاده الرجيع حين جمع المشركون نساءهم وأطفالهم وقتلوه فقال قبل قتله بعد أن صلى ركعتين:

فلسـت أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان بالله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع
٦- ورصد حسان بن ثابت بشعره قطع النبي لنخل بني النضير وتحريقه له:

وهان على سراة بني لؤي حريقق بالبويرة مستطير
٧- ورصد جعفر بن أبي طالب حادثة استشهاده في مؤتة حين قال:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وبارداً شراها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدها أنسابها

عليّ إن لاقيتها ضرابها

٨- وكذلك رصد عبد الله بن رواحة معركة مؤتة حيث نزل بعد استشهاد (زيد وجعفر)

وقاتل حتى قتل:

أقسمت يا نفس لتنزلتْه لتنزلنّ أو لتكرهتْه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة

٩- ورصد عمير بن الحُمام أول شهداء بدر في هذه المعركة حيث رمى ما بيده من ثمرات

وهو ينشد:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ

غير التقى والبر والرشاد

الباب السابع عشر

الفصل الرابع

حركة الشعر إبان عهد النبوة

لا شك أن نزول القرآن الكريم أحدث نشاطاً فكرياً وأدبياً منذ الإرهاصات الأولى لهذه الدعوة مع العلم أن الشعر العربي قد كان نشطاً عند الجاهلين، وجاء القرآن الكريم ليفتح عيون العرب على رؤية جديدة للحياة تربط الدنيا بالآخرة.

والمتتبع لحركة الشعر يجد أن مولد الرسول ﷺ عام الفيل كان إيذاناً بذلك، فقد قام عبد المطلب جد الرسول ﷺ وأخذ بحلقة باب الكعبة المشرفة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنفرونه على أبرهة وجنده عندما قدم هذا اللعين لهدم الكعبة.

وقد قال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهمم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صلبهم ومحالمهم غدواً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك
كذلك لما جاءت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل تخبره ما وقع مع النبي وميسرة في رحلتهم إلى بصرى وما كان يرى (أن ملكين يظلانه حيث تنبأ ببعثة النبي محمد) وقد قال في ذلك ورقة:

لججت وكننت في الذكري لجوجا لهم طالمابعث النشييجا
ووصف من خديجة بعد ووصف فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قسي من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمداً سيعود فينا
فياليتي إذا ما كان ذاكم
ويخصم من يكون له حجيجا
شهدت فكنت أولهم ولوجا
وفي مهاجرة المسلمين للحبشة قال جعفر بن أبي طالب:

يا راكباً بلغن عني مغلغلة
كل امرئٍ من عباد الله مضطهدٍ
من كان يرجو بلاغ الله والدين
ببطن مكة مقهور ومفتون
قولا تبغنا رسول الله واطرحوا
أما أبو طالب فقد قال يخاطب النجاشي:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر
تعلم بأن الله زادك بسطة
وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وأسباب خير كلها بك لازب
وفي حصار الشعب شعب أبي طالب وما لاقاه المسلمون من العنت قال أبو طالب:

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً
وأن عليه في العباد محبة
وأن الذي ألصقتم من كتابكم
أفيقوا أفيقوا قبل أن يخفر الثرى
وفي هجرة النبي ﷺ سمع الناس صوتاً من أعلى مكة وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه
همانزلاً بالبر ثم تروحا
ليهن بني كعب مكان فتاتهم
ولما اعتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبعض الصحابة في المدينة قال أبو بكر:

كل امرئ مصبّح في أهله
وفي خبر قتلى غزوة بدر وسامع الأسود بن المطلب امرأة تبكي بعيراً ضاع لها وتذكر إصابة
ثلاثة من ولدها (زمعة - وعقيل - والحارث بن زمعة) قال:

أتبكي أن يضل لها بعير
فلا تبكي على بكر ولكن
على بدر سراة بني هصيص
وبكّي إن بكيت على عقيل
وبكّيهم ولا تسمي جميعاً

وقد قال أبو عزة عمرو بن جمح مخاطباً الرسول ﷺ في قلة ماله وكثرة عياله:

من بلغ عني النبي محمداً
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة
فإنك من حاربتَه لمحارب
بأنك حقٌّ والمليك حميد
عليك من الله العظيم شهود
لهادرجات سهلة وصعود
شقي ومن سالمته لسعيد
وفي غزوة أحد قامت هند بنت عتبة حين التقى الناس وضربت النساء بالدفوف خلف
الرجال:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

إن تقبلوا نعانق ونفرش النارق

أو تدبروا نفاقق فراق غير وامق

وفي غزوة حمراء الأسد التقى أبو سفيان مع معبد بن أبي معبد مخوفاً معبد أبا سفيان من جمع

رسول الله ﷺ، وقال في ذلك معبد أبياتاً أسمعها أبا سفيان:

كادت تهد من الأصوات راحلتي
تردى بأسد كرام لا تنابله
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
إذ سالت الأرض بالجرذ الأبايل
عند اللقاء ولا ميل معازيل
لما سموا برئيس غير مخذول
إذا تغمطت البطحاء بالخييل

إني نذير لأهل السيل ضاحية لكل ذي إربة منهم ومعقول
 من جيش أحمد لا وحشٍ قنابله وليس يوصف ما أنذرت بالقييل
 وفي يوم الرجيع حين غدر أهل عُضل والقارة عن بعثهم رسول الله ﷺ ليعلموهم الدين
 فقتلوا بعضهم فقال عاصم بن ثابت:

ما علتني وأنا جلد نابل والقوس فيها وترٌ عُنابل
 تزل عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل
 وكل ما حَمَّ الإله نازل بالمرء والمرء إليه آتل
 إن لم أقاتلكم فأمي هابل

وقال خبيب بن عدي حين عرف أن القوم اجتمعوا لصلبه:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا الحل مجمع
 وكلهم مبدي العداوة جاهد عليّ لأنني في وثاق بمضجع
 وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنع
 إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
 وقد خيروني بالكفر والموت دونه وقد هملت عيناى من غير مجزع
 فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
 فلست بمبدي للعدو تحشعاً ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي
 وقد قال حسان بن ثابت يبكي خبيياً:

مابال عينيك لا ترقى مدامعها سماً على الصدر مثل اللؤلؤ القلق
 على خبيب فتى الفتيان قد عملوا لافشل حين تلقاه ولا نزق
 فاذهب خبيب جزاك الله طيبة وجنة الخلد عند الحور في الرفق
 وقال معد ابن أبي معد الخزاعي حين مرّ برسول الله ﷺ وناقته تهوي حين كان ينتظر أبا
 سفيان لقتال المشركين في غزوة بدر الآخرة:

قد نفرت من رفقتي محمد وعجوة من يثرب كالعنجد
تهوي على دين أبيها الأتلد قد جعلت ماء قديد موعدي
وقال عبد الله بن رواحة في ذلك:

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد لميعاده صدقاً ومن كان وافيًا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا لأبت ذمياً وافتقدت المواليا
عصيتم رسول الله أف لدينكم وأمركم السوء الذي كان غاويًا
وفي معركة الخندق رصد حسان بن ثابت هرب عكرمة بن أبي جهل وإلقاءه رمحه:

فرراً وألقى رمحه لعلك عكـرم لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظليم ما إن تجور من المعدل
ولم تلو وظهرك مستأنساً كأن قفاك قفا فرعل
وفي حادثة الإفك واتهام السيدة عائشة رضي الله عنها وتبرئة الله تعالى لها قال قائل من
المسلمين في ضرب حسان بن ثابت وأصحابه في فريتهم على السيدة عائشة:

لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحننة إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطوا بجرم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذي العرش الكريم فأتروا
وفي معركة فتح خيبر خرج مرحب اليهودي من حصنه قد جمع سلاحه يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرسب
إن حمي للحمي لا يقرب

وقد أجابه كعب بن مالك:

قد علمت خيبر أني كعب مفرج الغم جريء صلب
إذ شبت الحرب تلتها الحرب معي حسام كالعقيق عضب

تطؤكم حتى يذل الصعب نعطي الجزاء أو يفىء النهبُ
بكف ماض ليس فيه عتب

وفي وداع الجيش الذاهب إلى مؤتة يقف عبدالله بن رواحة ويقول بعد أن حضر الرسول
ﷺ وداعهم:

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشيع وخليل
وحمل الراية في مؤتة زيد بن حارثة ثم أخذها جعفر وقتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتراها طيبةً وبارداً شراها
والروم روم قد دنا عذابها كإفراة بعيده أنسابها

عليّ إن لاقيتها ضراها

ثم حمل الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه
وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقيتي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت
وممن بكى شهداء مؤتة حسان بن ثابت حين قال:
تأوبني ليل بيثرب أعسر وهم إذا ما نوم الناس مسهر
رأيت خيار المسلمين تواردوا شعوباً وخلفاً بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا جميعاً وأسباب المنية تحظر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وفي ذلك قال كعب بن مالك:

صبروا بمؤتة للإله نفوسهم حذر الردى وخافة أن ينكلوا
 إذ يهتدون بجعفر ولوائه قدام أولهم فننعم الأول
 قوم بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل
 ومما حاج فتح مكة المكرمة تظاهر بني بكر وقريش على خزاعة، وقد وقف عمرو بن سالم
 الخزاعي على رسول الله ﷺ فقال:

يا رب إني ناشد محمدا حلف أييه وأبيننا الأنكدا
 فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربدا
 أما أبو سفيان أكبر أعداء الإسلام فقد وفد على النبي ﷺ وأعلن إسلامه وقال:

لعمرك إني حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
 لكالمديح الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
 أصد وأنأي جاهداً عن محمد وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
 وفي فتح مكة قال حسان قصيدته الهمزية:
 عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء
 عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
 تظلل جياننا متمطراتٍ يلطمهن بالخمر النساء
 وفي غزوة حنين تجمع الناس وساروا إلى الرسول ﷺ مع نسائهم وأبنائهم وأموالهم ونزلوا
 (أوطاس) وكان فيهم دريد بن الصمة، فقال: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني ثم أنشد:

يا ليتني فيها جذع يا ليتني فيها وأضع
 أقوور وطناء الزممع كأنها شاة صدع
 ومن الشعراء الذين ذكروا حنين عباس بن مرداس:

يا خاتم الأنبياء إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا

إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ومحمداً سماً
 وحين أجمع رسول الله ﷺ السير إلى الطائف قال كعب بن مالك:
 قضينا من تهامة كل ريب وخير ثم أجمعنا السيوف
 تخبرها ولو نطقنا لقاتلنا قواطعهن دوساً أو ثقيفاً
 فلما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف بعد القتال والحصار قال بجير بن زهير بن أبي
 سلمى يذكر حُنيئاً والطائف:

كانت علالة يوم بطن حنين وغداة أوطاس ويوم الأبرق
 جمعت بإغواء هوازن جمعها فتبددوا كالطائر المتمزق
 لم يمنعوا منّا مقاماً واحداً إلا جدارهم وبطن الخندق
 وكذلك أدرك مالك بن عوف رسول الله ﷺ بالجعرانة فأسلم بعد أن ردّ عليه أهله وماله
 وأعطاه مئة من الإبل ثم أنشد:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
 أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يخبرك عما في غد
 فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه؛ وقصة كعب بن زهير وإسلامه في مسجد
 الرسول ﷺ بعد توبته المشهورة بعد أن دعاه أخوه بجير للإسلام ومما قاله في رسول الله ﷺ:

أنبئت أن رسول الله أوعدي والعهد عند رسول الله مأمول
 إن النبي لنور يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول
 في عصابة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
 زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
 ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه
 وفود العرب من كل وجه فقدم (عطار بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي في أشرف
 تميم منهم الأقرع بن حابس التميمي والزبرقان بن بدر التميمي أحد بني سعد وعمرو بن

الأهثم والحبحاب بن زيد وفي وفد تميم نعيم بن يزيد وقيس بن الحارث وقيس بن عاصم أخو
بني سعد وعبيد بن حصن الفزاري الذي شهد مع الأقرع فتح (مكة المكرمة وحنين
والطائف) مع الرسول فقام الزبرقان وأنشد:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملووك وفينا تنصب البيع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع
إننا أئينا ولا يأبى لنا أحد إننا كذلك عند الفخر نرتفع
فرد عليه حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حلّ بين بيوتنا بأسيا فنا من كل باغ وظالم
ثم طلب الرسول من حسان أن يجيب الزبرقان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للدين تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير تصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
وكذلك مدح كعب بن مالك الأنصار فقال:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنّب من صالي الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر وعن الخيار هم بنو الأخيار
قوم إذا حزت النجوم فإيهم للطارقين النازلين مقاري
ولما قدم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم أنشد:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نسائها
قربت راحلتي أوم محمداً أرجو فواضلها وحسن ثرائها
ولما توفي رسول الله ﷺ ولحق بربه بكاه الناس جميعاً، ومن بكاه من الشعراء حسان بن
ثابت وفي ذلك يقول:

منير وقد تغفو الرسوم وتهمدُ
عشية عدوه الثرى لا يوسد
رزية يوم مات فيه محمدُ
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
وإن يحسنوا فالله بالخير أجودُ
ولا مثله حتى القيامة يُفقدُ
وفي نيل ذاك اليوم أسمى وأجهدُ

بطيبة رسم للرسول ومعهد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة
وهل عدلت يوماً رزية هالك
إمام لهم يهديهم الحق جاهداً
عَفُوا عن الزلات يقبل عذرهم
وما فقد الماضون مثل محمد
مع المصطفى أرجو بدار جواره

الباب السابع عشر

الفصل الخامس

تأثر الشعراء المخضرمين بالإسلام

سمي شعراء هذا العصر بالمخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط؛ لأنهم خالطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً. وشعراء البادية الذين ظلوا ينظمون شعرهم على الطريقة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام يعدون من المخضرمين. أما الذين ماتوا قبل دخولهم في الإسلام فليسوا مخضرمين، بل جاهليين: كذريد بن الصّمة والأعشى وأمية بن أبي الصلت وغيرهم.

وقد عبر شعر المخضرمين عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها، ولشعراء المدينة الحظ الأكبر في هذا الميدان؛ فهم الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ في دعوته منذ أن هاجر إليهم، يتقدمهم حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وكان إلى جانبهم شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة الشعرية سواء في المدينة أو في مكة. فهذا أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري يعبر عن إيمانه العميق بالله وبكتابه:

ونعلمُ أن الله لا شيءَ غيرهُ وأنَّ كتابَ الله أصبَحَ هادياً

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادي نجد كثيراً منهم يقتبسون من نهج الإسلام في شعرهم. من هؤلاء النمر بن تولب الذي نجد في شعره آثاراً من تلاوة القرآن الكريم:

أعدني ربِّ من حصِّرٍ وعيِّ ومن نفسٍ أعالجها علاجاً

ومن حاجاتِ نفسي فاعصمني فإنَّ لمضمَّراتِ النفسِ حاجاً

وأنتَ وليها فبرئتُ منها إليك وما قضيتَ فلا خلاجاً

ومنهم أبو ذؤيب الهذلي، وهو أحد شعراء هذيل البارعين، كان مسلماً على عهد رسول الله ﷺ ولم يره، قدم المدينة يوم قبض رسول الله، ووجده ميتاً ولم يُغسَل، وشهد الخطبة في سقيفة بني ساعدة والصلاة على الرسول ﷺ ودفنه، ثم أنشد يبيكه:

كُسِفَتْ لمصرعه النجومُ وبدُرُها وتزعزعت أطامُ بطنِ الأبطحِ
وتزعزعتُ أجبالُ يثربَ كُلِّها ونخيلُها لخلولِ خطبِ مفتحِ
إلى جانب هؤلاء نجد شعراء عرفوا برقة دينهم، ومع ذلك نجد في شعرهم آثاراً للإسلام.
منهم سُحيم عبد بني الحسحاس الذي كان يتغزل غزلاً فاحشاً جعل قومه يقتلونه على عهد
عثمان رضي الله عنه، نراه يقول:

عُميرةٌ ودع إن تجهزتَ غازياً كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهياً
حتى أن عمر بن الخطاب قال له: (لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه)، وعلى شاكلته
ابن مقبل الذي كان جافياً في الدين، وكان يبكي في الإسلام أهل الجاهلية، ومع ذلك أثرت
عنه أبيات إسلامية منها:

الناسُ همهمُ الحياةُ ولا أرى طولَ الحياةِ يزيدُ غيرَ خبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجد ذخراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ
وهذا يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين من أن الإسلام لم يترك أثراً في نفوس
المخضرمين. فقد أثر فيهم، ولم يقف أثره عند شعراء المدن، بل تعداه إلى شعراء البادية كذلك.

الباب السابع عشر

الفصل السادس

قضايا الشعر في عصر صدر الإسلام

من القضايا المهمة التي عايشها الشعر في عصر صدر الإسلام الضعف والركود، ويذكر بعض دارسي الأدب أن الشعر في هذا العصر قد أصيب بالضعف وتعرض لفترة من الركود، وفي هذا الكلام كثير من الخطأ وبعض الصواب.

أما أنه أصيب بالضعف فكلام غير صحيح؛ لأنه مبني على الخلط بين الضعف من جهة، وبين اللين والسهولة من جهة أخرى. وذلك لأن الإسلام صادف في العرب قلوباً وطباعاً قاسية فألأنها ورققتها، ومن ثم أصبح الشعراء يختارون من الكلمات أليتها، ومن الأساليب أسهلها، وابتعدوا عن الألفاظ الجافة الغليظة، والتراكيب الوعرة. وأورد أصحاب هذا الزعم قول الأصمعي - إن صحت الرواية عنه - : " الشعر نكِدُ يَقَوِي في الشر وَيَسْهُل، فإذا دخل في الخير ضَعْفَ ولانَ. هذا حسان فحل من فحول الشعراء في الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره". ويرد على ذلك: أن الأصمعي ذاته عدَّ حسان من فحول الشعراء. وأن أكثر شعر حسان المروي عنه بعد الإسلام منحول، فصار هذا الضعف منسوباً إلى ما نُحل عليه من شعر، وليس إلى ما قاله هو.

وأما أنه تعرض لفترة من الركود فهذا ظن أشاعه ابن خلدون وتبعه بعض المؤرخين المعاصرين، إذ يقول في مقدمته: "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً". وعليه فقد حاول المؤرخون عزو ركود الشعر في هذا العصر إلى الأسباب التالية:

أ - انبهر العرب ببلاغة القرآن، وفي أثناء ذلك شغلوا بالفتوحات، فصر فهم كل ذلك عن قول الشعر إلقاءً.

ب- سقوط منزلة الشعر مقابل علو شأن الخطابة، وخصوصاً بعد أن صارت الخطابة هي الوسيلة الطيبة المرنة لنشر الإسلام.

ج- أن شعراء المشركين أمثال: عبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وأبي عزة الجمحي، وأبي سفيان بن الحارث - هجوا رسول الله ﷺ فأمر بترك رواية شعرهم، فتنوسيت وضاعت.

خ- أن الإسلام حارب العصبيات، وحرم الخمر، وقاوم الهجاء القبلي المقذع، والغزل الفاحش، وكل هذه الأمور كانت وقوداً جزلاً لشعلة الشعر الجاهلي، فاقترنت أغراض شعر المخضرمين على مناقضة شعراء المشركين ومدح الرسول وأصحابه. وعند النظر في ظروف هذه الفترة نرى أن السبب الأقرب للصحة لركود الشعر عائد إلى إحساس الشعراء بعبء التعبير عن معاني وأفكار الدين الجديد الذي غير نظام حياتهم، وقد نبّه ابن خلدون في مقدمته إلى أن المعاني والأفكار الذهنية مثل الإلهيات والنبوات لا يتمكن من تحويلها إلى الوجدان والإيحاء بها إلا الشاعر الفحل. وهذا الركود كان مرحلة انتقالية بالغة القصر، حيث بدأ الشعراء يتأثرون وتأثراً واضحاً بأسلوب القرآن والتكيف معه.

الباب السابع عشر

الفصل السابع

أسلوب الشعر في صدر الإسلام

يعد الشعر في هذا العصر امتداداً لسابقه في العصر الجاهلي؛ فشعراؤه هم أنفسهم شعراء العصر الجاهلي، ولهذا فقد كانوا يسمون بالمخضرمين، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون قد حدث تغيير في أسلوب الشعر ومعانيه.

أ- من جهة الأسلوب العام: اختلف بشكل يسير عن أسلوب الشعر الجاهلي، وذلك من خلال تأثره بأسلوب القرآن وأسلوب الحديث أولاً.

وتأثره بعاطفة المسلم الرقيقة ثانياً. فالورع والتقوى ومخافة الله أوجدت أسلوباً يبتعد عن الجفاء والغلظة والخشونة التي هي أبرز سمات الشعر الجاهلي. ومن هنا فقد أصبح الشاعر الإسلامي يختار الألفاظ اللينة، والتراكيب السهلة الواضحة التي تؤدي المعنى بشكل دقيق.

ب- من جهة المعاني: اختلفت بشكل كبير عن معاني الشعر الجاهلي، حيث أصبح الشاعر يختار من المعاني ما يخدم الإسلام ويدعو إليه، مستقياً معظم هذه المعاني من القرآن والحديث. ومن غير المقبول أن يقال: إن معاني الشعر الإسلامي قد انفصلت انفصلاً تاماً عن معاني الشعر الجاهلي؛ لأن الأدب الجاهلي هو المصدر الثالث من المصادر التي يستقي منها الأدب الإسلامي أفكاره وأساليبه بعد القرآن والسنة. والمعاني التي أهملها الشعر هي المعاني التي نفاها الإسلام فلم تعد صالحة للبقاء، كالشعر الذي يدعو للعصبية وكالغزل الفاحش والهجاء المقذع والمدح الكاذب ووصف الخمر. أما المعاني التي أبقاها الإسلام فقد بقيت متداولة لدى الشعراء مع تغير القيم التي يعتمدون عليها في تلك المعاني:

١- فإذا كانت قيم المدح في الجاهلية هي الشجاعة والكرم والجود، فإنها في الإسلام تعني التمسك بالدين والتحلي بحسن الخلق والورع والزهد.

٢- وإذا كانت قيم الفخر في الجاهلية هي الأحساب والقبيلة، فإنها في الإسلام تعني الانتساب للإسلام واتباع الرسول. وهكذا في بقية الأغراض.

وأما أوزان الشعر وأخيلته ونظام القصيدة فقد بقيت على ما كانت عليه في العصر الجاهلي؛ لأن مثل هذا التغيير يتطلب وقتاً ليس بالقصير. وقد اختار الشعر في هذا العصر المعاني التي تخدم الأغراض الدعوة الإسلامية:

ورد عن أبي الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني) قوله: "إن حسناً وكعباً كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرونهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرونهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة فقد كان حسان وكعب حين غلبت على هجائهم الطريقة القديمة يرميان إلى أذية المشركين القرشيين، ولو رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم إذ كانت تلك عقيدتهم التي يعتزون بها. ومن الطبيعي أن لا نجد في شعرهما ذاك تأثراً واضحاً بالقرآن الكريم. أما هجاء ابن رواحة فقد أثر في نفوسهم بعد إسلامهم؛ لأنه يذكرهم بما كانوا عليه من غيٍّ وضلال. ومن ذلك قوله رضي الله عنه:

شهدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ وأنَّ النارَ مثوى الكافرينا
وبالتالي لا يمنع أن يجمع الشاعر بين القيم القديمة والقيم الجديدة التي جاء بها الإسلام. والمجتمع الإسلامي يغفر للشعراء ما يقولونه حتى في الخمر وغيرها من الموضوعات كالغزل: أولاً: لأن الشعر في صدر الإسلام كان خليطاً بين القديم والجديد وامتداداً للشعر الجاهلي. ثانياً: لأنهم وجدوا فيه نموذجاً للنضج في الشكل واللغة والإيقاع ودقة الإحساس، يمكن أن يستمدوا مواهبهم منه.

وبناء على التغيير الحضاري الكبير في حياة المسلمين سرعان ما تخلَّى الشاعر عن تقاليده الفنية التي مارسها الشعراء الجاهليون. وبدأ يبتكر لنفسه أسلوباً جديداً بعيداً عن المزج بين القديم والحديث واستجدت في هذا العصر موضوعات: كشعر الدعوة ونشر عقائد الإسلام، ووصف الفتوحات الإسلامية وأماكن الجهاد. كما وجدت في هذا العصر البذرة الأولى للشعر السياسي الذي برز فيما بعد في عصر بني أمية بسبب تعدد الأحزاب السياسية.

الباب السابع عشر

الفصل الثامن

موقف الإسلام من الشعر والشعراء

كانت مواقف الدين الإسلامي من الشعر عامة ومن الشعر الإسلامي خاصة تتفق مع طبيعة الدعوة الإسلامية ومرآحله المختلفة المتعددة الجوانب.

أ- موقف القرآن الكريم من الشعر: وقف القرآن من الشعر والشعراء موقفين متميزين رئيسيين:

أحدهما: في بداية الدعوة الإسلامية عندما هاجم الشعراء الذين وقفوا حجر عثرة في سبيل نشر الدين الإسلامي.

الثاني: في فترة الغزوات واتساع رقعة الدولة الإسلامية عندما شجع الشعراء المسلمين في سبيل نصرة الدين ضد الكفر والشرك.

ووضَّح القرآن موقفه من الشعر والشعراء في موضع واحد فقط في سورة الشعراء. قال تعالى: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَئِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، فاللوم والتهجين في الآية موجَّه لشعراء المشركين الذين سخروا من الرسول ﷺ وأسأوا إليه فقط. قال ابن رشيقي في كتابه العمدة: "فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: والشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) فهو غلط وسوء تأوّل. لأنّ المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله بالهجاء ومسه بالأذى.

فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك. إلا الذين آمنوا: استثناء، والمقصود بهم الشعراء: المؤمنون، الصالحون، الذين يكثر ذكر الله وتلاوة آياته، وكان ذلك

أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد، ومدح الرسول ﷺ.

والقرآن يعارض شعر الجاهلية الذي يتضمن الفحش، شرب الخمر، الكراهية القبليّة، عزّة السلف، الانتقام والنزاعات. باختصار الشعر الذي لا يتمشى مع روح الإسلام. ويجارب منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها في الشعر. فالقضية قضية معان وأغراض وليست قضية الشعر بذاته؛ فهو سلاح ذو حدين.

ب- موقف السنة المطهرة من الشعر: السنة تتخذ مواقف مؤيدة لموقف القرآن الكريم من الشعر وهي على النحو التالي:

أولاً- ذم الشعر: فقد ذم النبي ﷺ موضوعات خاصة من الشعر:

١- كهجائه الذي يعني هجاء الدعوة.

٢- وشعر العصبيات والمنافرات.

٣- والهجاء الشخصي الذي يبعث الضغائن في نفوس المسلمين.

٤- والشعر الماجن الذي يخالف مبادئ الإسلام.

ذلك لما رواه أبو هريرة رضي الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً حتى يرئيه خير من أن يمتلى شعراً". والمقصود شعر الهجاء الشخصي خاصة، بدليل أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: لم يحفظ أبو هريرة الحديث، إنما قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً ودماً خيراً له من أن يمتلى شعراً هُجيت به". وهذا هو الشاهد الوحيد من الأحاديث الصحيحة الذي يوضح ذمه ﷺ للشعر، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة خبراً عن كراهية الرسول ﷺ شعر امرئ القيس، لفظه: "امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار" لكنه لا يستند إلى أصل صحيح. والحديث الأول وحده كاف لتوضيح موقف الذم.

ثانياً- الثناء على الشعر: فقد أثنى الرسول ﷺ على: الشعر الحسن الذي يهذب النفس ويدعو للفضائل، ويدعم الإسلام ويرد على أعداء الله والدين. واستحث أنصاره للرد على

المشركين بسلاح الشعر قائلاً: " ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألستهم؟ " فاستجاب له شعراء الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وقال: "اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل". وكان يشجع الشعراء ويشد على أيديهم، ولحسان بن ثابت النصيب الأكبر من هذا التشجيع؛ فوضع له منبراً يقوم عليه ليفاخر وينافح عن المسلمين، وسمح له أن ينشد في المسجد، وكان يقول له: "اهجهم - أو قال هاجهم - وجبريل معك"، ويدعو له بقوله: "اللهم أيده بروح القدس"، وقضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة بسبب شعره؛ حينما رد على أبي سفيان بن الحارث هجاءه للرسول ﷺ بقوله:

هـجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجـزاء
فقال له الرسول ﷺ: "جزاؤك عند الله الجنة يا حسان"، فلما بلغ قوله:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً
قال له: "وقاك الله حر النار".

وكان يثني على الشعراء، ومنهم ليبيد بن ربيعة العامري، فقد روى أبو هريرة رضي الله أن الرسول ﷺ قال: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة ليبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل"، يقصد قوله:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالةً زائلٌ
وكان يقف من الشعراء موقف الموجه إذا لاحظ عليهم شيئاً من الخروج عن السنن الإسلامي، من ذلك موقفه من النابغة الجعدي حين قال:

بلغنا السماءَ مجدنا وسناءنا وإننا لنبغي فوق ذلك مظهرا
فقال - لأنه لاحظ شيئاً من تقليد الجاهليين في فخرهم - : "إلى أين يا أبا ليلى؟" فقال:
إلى الجنة بك يا رسول الله. فقال له: "نعم إن شاء الله". وكان يستمع لشكوى كثير من الشعراء ويتأثر بها إذا نجح الشاعر في التعبير عن حاجاته بالحسن. من ذلك أنه لما اعتدت

قريش وبنو بكر على خزاعة ونقضوا عهد رسول الله ﷺ معهم، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ في المدينة وهو جالس بين الناس فقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْلُدَا
قَدْ كُنْتُمْ وَلِدًا وَكُنَّا وَالِدَا ثُمَّتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِي فَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا إِنَّ قَرِيشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا
هَمَّ بَيْتُونَا بِالْوَيْتِ هُجَّجِدَا وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّجِدَا
فَقَالَ ﷺ: "نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ". وَخَرَجَ بِمَنْ مَعَهُ لِنَصْرَتِهِمْ فَكَانَ فَتْحَ مَكَّةَ.

الباب السابع عشر

الفصل التاسع

الرسول ﷺ والشعر

قرر القرآن الكريم حقيقة ثابتة، هي أن النبي ﷺ لم يكن شاعراً البتة. قال تعالى: في سورة يس: {وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين}. وكان من ألوان الأذى الذي لحقه ﷺ اتهام المشركين له بالشاعرية، مع علمهم أنه ليس بشاعر، وإنما قالوا ذلك تعنتاً منهم. فحين هجا عمرو بن العاص النبي ﷺ قبل دخول الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام: "اللهم إن عمرو بن العاص قد هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر...".

ونفى صفة الشعر عن القرآن والنبي ﷺ ليس قدحاً بالشعر؛ وإنما هو من باب دفع الشبهة عن الدين والرد على الكافرين، وإلا - لو كان الأمر قدحاً بالشعر - لكانت أمية النبي ﷺ قدحاً بالكتابة، لكن الأمية أيضاً كانت لحكمة بيّنها تعالى بقوله: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} سورة العنكبوت.

ونفى الله تعالى عن نبيه ﷺ العلم بالشعر وأصنافه وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله، فلم يقل شعراً ولا رواه قط، وقد كانت الحكمة من ذلك رد الحرب النفسية والإعلامية التي ابتدأها المشركون عليهم. ولئلا يختلط كلام الله عز وجل بالشعر، وكان النبي ﷺ أحياناً يرتجز بأبيات من الشعر مراعيّاً قول الله تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}، فكان يقول البيت من الشعر وقد أنقصه حرفاً أو كلمة أو قلب شطريه والأمثلة كثيرة:

١- فلما قدم كعب بن زهير إلى المسجد وأعلن إسلامه قال له ﷺ: "من أنت؟" قال: كعب بن زهير. فقال: "الذي يقول ما يقول" ثم أقبل على أبي بكر يستنشه الشعر، فأنشد أبو بكر:

سقاك بها المأمور كأساً روية

فقصد بالمأمور الكاهن الذي تأمره الجن فيتكلم بلسانها. فقال كعب: لم أقل هكذا، إنما قلت:

شربت مع المأمون كأساً رويةً فأنكلك المأمون منها وعلكاً
والرسول ﷺ لم يشد شعر كعب وإنما أشار إلى أبي بكر رضي الله عنه ليفعل ذلك.

٢- وقد سُئلت السيدة عائشة هل كان رسول الله يقول الشعر؟ فقالت: كان يرتجز بيت
أخي بني قيس طرفة بن العبد فيجعل آخره أوله وأوله آخره فيقول: "ويأتيك من لم يزودك
بالأخبار". فهو لم يقم الوزن في الإنشاد، وحقيقة البيت:

سُتُدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
٣- وكان إذا رغب في سماع بيت من الشعر من قائله سأله: أنت القائل وبلفظ كلمة من
مطلع البيت. فقد قال لكعب بن مالك: "أنت الذي تقول" همت "قال: نعم يا رسول الله
أنا الذي أقول:

هَمَّتْ سُخَيْنَةٌ أَنْ تَغَالِبَ رَبَّهَا وَلِيُغْلِبَنَّ مِغَالِبَ الْغُلَابِ
فقال ﷺ: "إن الله لم ينس ذلك لك"

- تنبيه: كان ﷺ أحياناً يقول كلاماً مثل الشعر إلا أنه ليس بشعر. كقوله مخاطباً إصبغه
عندما أصيبت قدمه: "هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت؟"

- تعليل ذلك: ما قاله الجاحظ في البيان والتبيين: "اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس
وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل: مستفعلن مستفعلن، ومستفعلن فاعلن، وليس أحد
على الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً ولو أن رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذجان؟ لقد
كان تكلم فيه وزن مستفعلن مفعولات، فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد الشعر".
ويضيف: ومثل هذا كثير، فقول النبي ﷺ لإصبغه لم يرد منه شعراً ولا قوله يوم حنين: "أنا
النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب".

- والدليل الأقوى على أن مثل هذه الأقوال من كلام النبي ﷺ لم تكن شعراً وجوده كثيراً
في القرآن الكريم مثل: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
مُحِبُّونَ}، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.

الباب السابع عشر

الفصل العاشر

الأغراض الشعرية في عصر صدر الإسلام

نظراً لتغير القيم الاجتماعية والإنسانية التي جاء بها القرآن الكريم في عصر صدر الإسلام عمّا كانت عليه في العصر الجاهلي، ونظراً لاستمرار قسم من هذه القيم فقد استمر الشعراء في الحديث عن أغراض متنوعة: منها ما هو تقليدي، ومنها ما هو مستحدث تبعاً لمدى التأثير الذي طرأ على شخصية الشاعر، وقد سمع النبي ﷺ وصحابته الكرام من الشعراء ما قيل في جميع الأغراض، ومما لا يتنافى مع الأدب والذوق الرفيع بعيداً عن الكذب والتهتك والتجني والرذيلة وإثارة النزوات والإحن والضغائن والأحقاد. سواء أكانت الأغراض الشعرية فخراً أو مدحاً أو غزلاً أو هجاءً أو رثاءً.

١- الفخر: استمع النبي ﷺ إلى الشعراء من الصحابة يفخرون بما يقولون حقاً، كما حدث مع أبي دجانة عندما أخذ السيف من رسول الله يوم أحد وأخذ يتبختر مرتجلاً:

إني امرؤ عاهدني خليلي إذ نحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقيم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وكما حدث مع سعد بن أبي وقاص حين أرسله رسول الله ﷺ إلى (رابغ) مع سرية من الجيش وحمل سعد المسلمين من المشركين قائلاً:

ألا هل أنبيء رسول الله أني حميت صحابتي بصدور نبلي

وما يعتد رام في عدو بسهم يا رسول الله قبلي

وفي قصة السرية التي بعثها النبي إلى بني تميم بقيادة عيينة الفزاري وما حدث بعدها من تفاخر بين شاب طلب منه الأقرع أن يذكر فضائل قومه يقال إنه الزبرقان وبين حسان بن ثابت رضي الله عنه.

قال الزبرقان:

نحن الكرام فلا حَيٌّ يعادلنا
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا
فمن يفاخرنا في ذلك نعرفه
فأجابه حسان:

إن الذوائب من مُهر وإخوتهم
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
قد بينوا سنة للناس تتبَعُ
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إذا تفاوتت الأهواء والشيع

٢- المدح: جاء الإسلام لينفي وليبعد صفة التكبسب عن الشعراء من خلال قول الرسول عليه السلام: (احتوا في وجوه المادحين التراب). ولكن المدح توجه بفضل القيم الجديدة باتجاه الطريق الأسلم فكان مدحاً دون تكسب ولا يعدو صفات الممدوح، وأثنى الشعراء على النبي محمد ﷺ واستمع الرسول لهم في مسجده دون رياء أو تملق لتحصيل مال أو جاه ملتزمين وجه الصدق قولاً وعاطفةً، وقصة كعب وبجير حين عاتب بجير كعباً على إسلامه معروفه.

فقد دخل بجير على الرسول وعرض عليه الإسلام فأسلم فبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغنا عني بجيراً رسالة
سقاك أبو بكر بكأس روية
فأهدر رسول الله دمه فجاء إلى المسجد النبوي وأعلن أمام الرسول ﷺ إسلامه، وأنشده قصيدته البردة:

إن الرسول لنور يستضاء به
في عصابة من قریش قال قائلهم
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
مهند من سيوف الله مسلول
ببطن مكة لما أسلموا زولوا
عند اللقاء ولا ميل معازيل

و كذلك ما صنعه الأعشى الذي اتجه إلى المدينة ليمدح الرسول فاعترضته قريش وأغرته بمئة ناقة، والذي عكف راجعاً دون أن يعلن إسلامه فروي عنه في مدح الرسول:

أجدك لم تسمع وصاة محمدٍ نبِيّ الإله حين أوصى وأشهدا
نبِيّ يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا

٣- الرثاء: وهو فن استمر فيه شعراء صدر الإسلام على ما كان معروفاً عند الجاهليين، فندبوا وأبنوا وعزّوا أحياءهم وإن تغيرت مناقب التائبين وتبدلت شمائلها فأصبح المرثي يتصف بالتقوى والإيمان والخير والبر والرحمة والهداية والطهر، ومن ذلك تأيين حسان بن ثابت للرسول عليه الصلاة والسلام السلام:

بالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل النبي رسول الرحمة الهادي
ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد أوفى بذمة جاد أو بميعاد
من الذي كان نوراً يستضاء به مبارك الأمر ذا حزم وإرشاد

وشارك الكثير من الصحابة في رثاء النبي ﷺ كأبي بكر الصديق وحسان بن ثابت وعبدالله بن أنيس وكعب بن مالك وأروى وعاتكة وصفية بنات عبد المطلب وهند بنت الحارث بن عبد المطلب وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وأم أيمن وهند بنت أثانة، ومما قاله أبو بكر رضي الله تعالى عنه:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحق البكاء على السيد
فكيف الحياة لفقْد الحبيب وزين المعاشر في المشهد
فليت الممات لنا كلنا وكننا جميعاً مع المهتدي

وكذلك رثى حسان بن ثابت النبي محمد ﷺ:

٤- الهجاء: نظراً لاشتداد المعركة بين طرفي الإيمان من جهة " الرسول ومن معه من المؤمنين والأتباع". والكفر من جهة أخرى " أبو سفيان وأتباعه وعبد الله بن أبيّ وحزب المنافقين". فقد شجع الرسول عليه السلام الهجاء وبرز من الشعراء المنافحين عن

الدعوة الإسلامية حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وبرز من الشعراء المدافعين عن حزبي الكفر والنفاق أبو سفيان وعبد الله بن الزبير.

فازدهر الهجاء الفردي والهجاء الجماعي وانتهج طريقاً مغايراً في معانيه عن الهجاء الجاهلي فكفّ عن أعراض الناس وعن شتمهم وقذفهم وتوجه إلى هجاء الذين ضلوا عن طريق الحق، وإن كان بعض الشعراء الذين توجهوا إلى المشركين لم يترسموا خطاه بشكل دقيق وبقي ما وصل إلينا من هجاء هذا العصر استمراراً لأسلوب الجاهليين في التعبير بالإلقاء والتعبير بالأخلاق الشخصية، ولذلك فقد أجاب حسان من قال له: كيف تهجو قريشاً رسول الله منهم؟ فقال: أسله كما تسلّ الشعرة من العجين، وهذا ما دفع الرسول عليه السلام إلى أن يطلب منه أن يذهب إلى أبي بكر ليعلم منه أنساب قريش لذلك نجده، يقول:

لنا في كلّ يوم من معدّ سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تحتلط الدماء
وقد مزج حسّان بين الهجاء الفردي والجماعي، وجمع بين منهجي الجاهلية والإسلام، فكان يعيّر المشركين بفرارهم من أمام المسلمين:

تظللّ جياننا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء
ويقول حسان أيضاً مستلهماً روح الإسلام وأسلوب القرآن مخاطباً أبا سفيان:
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشر كما لخير كما الفداء
وقد نهى الإسلام عن الهجاء المقذع فقال الرسول: "من قال في الإسلام شعراً مقذعاً فلسانه هدر". وكذلك ندب الرسول ﷺ شعراء المسلمين إلى مهاجمة المشركين «اهجّ المشركين فإن جبريل معك» وقال لكعب بن مالك: «اهجوا بالشعر إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله والذي نفس محمد بيده كأنها تنضحونهم بالنبل».

٥- الغزل: إذا كان الشاعر الجاهلي يعيش متمثلاً الفروسية والمرأة فإن الشاعر في صدر الإسلام قد عايش مبدأً جديداً رفع شأن المرأة وبوّأها مكانة مرموقة من خلال النصوص القرآنية: "وعاشرهن بالمعروف".

"وهو الذي خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة".
وأُشيد الشعراء بين يدي النبي ﷺ القصائد، وفي مقدمتها المطالع الغزلية وهو يستمع إليها
دون أن ينكرها، ومن ذلك قصيدة كعب بن زهير:

بانـت سعاد فقلبي اليوم متبول ميـتم إثرها لم يفد مكبول
٦- الفخر والحماسة: نقصد بالحماسة التعبير عن عمق الشجاعة والجرأة لدى الشاعر
ونقصد بالفخر ذكر الصفات التي يتمايز بها الناس ضمن أعراف معينة، وقد اتجه الفخر
عند شعراء عصر الإسلام اتجاهين، اتجاه تشرب بروح الإسلام وترك وراءه الولاء القبلي
ولم يعد يفخر بالعصبية القبلية، بل ركز على معان جديدة للفخر تتمثل في:

أ- الحرص على نيل الشهادة.

ب - الفخر بانتصار المؤمنين.

ج - الافتخار بتأييد الملائكة.

بالإضافة إلى القيم التي أبقى عليها الإسلام والتي جاء الرسول عليه الصلاة والسلام متمماً
لها:

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). مثل إكرام الضيف والعفة والشجاعة... وغيرها،
يقول كعب بن مالك مفتخراً بيوم بدر:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع النصر ميكال وجبريل

إن تقتلوننا فدين الله فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل

ويقول حسان بن ثابت مفتخراً بجند الأنصار:

وقال الله قد يسَّرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء لنا

في كل يوم من معدّ سباب أو قتال أو هجاء

ويقول بهس بن صهيب مفتخراً باستقبال الضيوف:

ما ينبح الكلب ضيفي قد أسبّ إذا ولا أقول لأهلي أطفئوا النارا

من خشية أن يراها جائع صرد إني أخاف عقاب الله والنارا
ويقول أبو الأسود الدؤلي مترفعاً عن الجهل:

إني لثيني عن الجهل والخبنا وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وبقيا وأنني كريم ومثلي قد يضرّ وينفع
٧- قصائد الانتصارات؛ نظراً لكثرة الغزوات والحروب الداخلية والخارجية التي
خاضها العرب بعد الإسلام، فقد كتب الشعراء الذين خاضوا تلك المعارك قصائد تمثل
الانتصارات.

من ذلك قول كعب بن مالك بعد أن فتح الرسول خيبر:

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أحجمنا السيوفنا
نخبرها ولو نطقت لقاتلنا قواطعهنّ دوساً أو ثقيفا
فلسنا لحاصنٍ إن لم تروها بساحة داركم منا ألوفنا
فنتزع العروش ببطن وجّ ونترك داركم منا خلوفنا
ونردي اللات والعزى وودا ونسلبها القلائد والشنوفنا
ومن ذلك ما قاله حسان في فتح مكة:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
يبارين الأسنة مصعدات على أكتافها الأسل الظماء
تظللّ جياننا متمطّرات تلطمهنّ بالخمر النساء
ومن ذلك قول عبد الله بن رواحة مصوراً شوقه للاستشهاد مخاطباً ناقته:

إذا أتيتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذمّ ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مشهور الثواء

الباب السابع عشر

الفصل الحادي عشر

قصيدة المدح الإسلامية الجديدة

لاشك أن قصيدة المدح في العصر الجاهلي قد أخذت شوطاً كبيراً في ماراتون الشعر العربي وإن انتهت في النهاية إلى التكبسب والتصنع لمعاني المديح إلا أنها بقيت المثل المحتذى عند الشعراء حتى بعد مجيء الإسلام وبرز معاني جديدة وأفكار جديدة زاحمت القيم الجاهلية التي بقيت راسخة في نفوس العرب، وإذا كان النهج الجاهلي هو السائد في أساليب الشعراء في المديح والهجاء والفخر والرثاء، إلا أن سمات جديدة قد دخلت في عمق التجربة الشعرية في قصيدة المدح الجاهلية.

وإذا كنا لا ننكر مدح كعب بن زهير في بردته للرسول ﷺ، ومدح كعب بن مالك وحسان بن ثابت في معظمه يرجح القيم الجاهلية الإيجابية إلا أن ارتباط الشعر الإسلامي بالدين قاد قصيدة المدح الإسلامية إلى الحياة السياسية وطبعها بطابع سياسي بارز خاصة وأن المسلمين وبفعل تأثير الدين الجديد انصرفوا عن المدح الكاذب والغلو في الإطراء؛ لأنه ينافي مبادئ الدين إضافة إلى أن أرزاق الشعراء فرضت من بيت مال المسلمين مما جعل الشعراء المتكسبين بالشعر يقلّون، ولا يمكننا أن نغفل أيضاً تغير صورة الحياة في العصر الإسلامي وأنماط العلاقات الإنسانية وتأكيد الإسلام على ضرورة تغير مفهوم وظيفة الشعر من الدفاع عن القبيلة ومدح زعمائها إلى الدفاع عن الدين الجديد ونشر الدعوة ومدح كل من يسهم في الجهاد وتحقيق معطيات الخير والعدل والمحبة، فبين الخطيئة وكعب بن مالك تغير مفهوم الشعر إذ إن الأول كان غاية مدحه الكسب بينما كانت غاية الثاني تحقيق صورة الدين الجديد حتى إنك لتجد أن ديوان الشعر الإسلامي كان جل احتفائه إنما بتمجيد الدين وشهادته وانتصاراته وفتوحاته.

وهكذا فإن قصيدة المدح الإسلامية تجاهلت المقدمات الظللية وخفت منها وأعرض عن الرحلة الجاهلية حيث أخذ الشاعر الإسلامي يشرع في قصيدة المدح بالمدح مباشرة، وهكذا

غابت عن هذه القصيدة الموضوعات البدوية التي كانت تقليداً أساسياً، واكتسبت هذه القصيدة طابع العفوية والبساطة كما في قول حسان:

والله ربي لا نفـارق ماجـداً عن الخليفة سيد الأجداد
متكرماً يدعو إلى رب العـلا بذل النصيحة رافع الأعـماد
مثل الهلال مباركاً ذارحمة سمح الخليفة طيب الأعـواد
إن تتركـوه فإن ربي قـادر أمس يعود بفضله العـواد
والله ربي لا نفـارق أمـره ما دام عيش يرتجى لمعاد

وقد أصبح قسم عظيم من الشعر يدافع بشكل ملتزم عن الإسلام ويحيا بقيمه، وهو بذلك يوجز في التعبير عن هذه القيم وقد بقي الفخر يتغلغل في ثنايا المدح في هذا العصر، وإن كان قانون المدح في هذا العصر يتمحور حول (العقيدة الدينية) وقد عبر عن ذلك كعب بن مالك قائلاً:

عصيتم رسول أف الله لدينكم وأمركم السيئ الذي كان غاويـا
كما وأن المدح في هذا العصر لم يتجه إلى الأقوياء والزعماء وذوي النفوذ والملوك وسادة القبائل، بل إلى الرسول ﷺ الذي أصبح الشخصية المحورية في هذا المدح إضافة إلى شخصيات مؤمنة ومسلمة، وهكذا إن جيل حسان والحطيئة وكعب بن مالك لم يتجه إلى شعر التأمل الديني، بل بني على تمجيد الدين وإحسان الاختيار للإسلام ونبد الكفر.

يقول حسان في يوم بدر:

فينا الرسول شهاب ثم يتبعه نور مضيء له فضل على الشهب
أما العباس بن مرداس فيمزج في مدحه بين الروح الإسلامية والروح القبلية. وإذا كانت قصيدة المدح الإسلامية قد استلهمت الروح الإسلامية وتلمذت على يد الروح العربية في الجاهلية، فقد عبرت عن ذوق فني جديد وفهم جديد لوظيفة الشعر وتصور مختلف للعالم وإن بقيت أقل فنيته من سابقتها الجاهلية.

الباب السابع عشر

الفصل الثاني عشر

سمات الشعر في عصر صدر الإسلام

تتمثل سمات الشعر في هذا العصر على الأحكام العامة المختصة بالشعر في شكله وأهدافه وأساليبه وأغراضه، وقد اتسم هذا الشعر بالسمات الآتية:

١- الذاتية: ونعني بهذه السمة الأهواء والآراء الخاصة والمشاعر الذاتية التي تترجم الأفراح والأتراح وقد بدا الشعر في هذا العصر معبراً عن ذات الفرد بسبب سقوط النظام القبلي، ولم يخرج معظم الشعراء عن هذه الذاتية التي عبروا عنها بألفاظ جزلة أحياناً وغريبة أحياناً أخرى، وفخمة من جهة ثالثة.

٢- التعبير الجمالي: إذ بقي الشعر مهتماً بالتعبير البليغة ومعتمداً على قوة الشاعرية ومرسماً بطريقة القدماء في تحكيك الشعر وتنقيحه والاعتناء به لفظاً ومعنى على الطريقة الأوسية. كما عند كعب بن زهير.

٣- القوة والاتساع المكاني: وقد حافظ شعراء الإسلام على قوة النص الأدبي على الرغم من اتساع الرفعة المكانية له بحيث امتدت خارج الجزيرة العربية إلى الشام ومصر وخوزستان ولم يضعف الشعر كما يزعم المستشرقون والباحثون، بل رقّ وما في شعر حسان من ضعف إنما بسبب الوضع الذي ألصق به حيث قيلت أبيات وهنة على لسان غيره ونسبت له. ومن ذلك ما قاله حسان يوم الفتح الأكبر:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تشير النقع موعدها كداء
وكما في قول كعب بن زهير:

إن الرسول لضوء يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وما ذم القرآن الكريم من الشعراء إلا الذين خرجوا عن المنهج الإسلامي، ومعروف كم كان يقول الرسول لحسان: (اهجهم حسان وروح القدس معك).

٤- الثنائية: التي تمثلت في شعر المدن والبادية، وثنائية معارك شعراء المسلمين كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وشعراء المشركين كعبد الله بن الزبير، وثنائية السهولة والغرابة وثنائية استخدام القصيد من جهة والرجز من جهة.

يقول عبد الله بن الزبير متحدثاً عن انتصارات المشركين يوم أحد بعد أن قتل المسلمون من زعمائهم في بدر ما قتلوا:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
فقبلنا النصف من ساداتهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل
ويقول حسان راداً عليه:

ذهبت بابن الزبير وقعة كان منّا الفصل فيها لوعدل
ولقد نلتم ولننا منكم وكذلك الحرب أحياناً دول

الباب السابع عشر

الفصل الثالث عشر

التحويلات التي طرأت على الشعر

في عصر صدر الإسلام

إذا كانت الحياة الجاهلية التي عاشها العرب في صحراء الجزيرة العربية وأطراف الشام والعراق حياة بسيطة غير معقدة، قد نتج عنها أدب بسيط لا يحمل من الفكر إلا النزر اليسير ولا تبطن الفلسفة ولا العقائد الدينية باستثناء ما جاء على لسان الشعراء المتألمين كأمية بن أبي الصلت الذين ذكروا في شعرهم قضية التوحيد الإلهي بمفهومه البسيط، فإن الحياة في العصر الإسلامي قد حملت معها رؤى جديدة وأشكالاً مختلفة للقضايا السياسية والاجتماعية والفكرية، ومن هنا بدأ التحول يأخذ مجراه في الأدب وخاصة في الشعر، وقد أسهم في إبراز هذه التحويلات سببان رئيسيان:

١- التجربة الذاتية: التي تعطي للعالم الداخلي عند الإنسان الأولوية من حيث بث ونشر المشاعر.... وحمل لنا شعرهم رغبات وانفعالات تعبر عن موقف يعتمد على الكره والحب لمختلف هذه القضايا.

٢- التجربة الفكرية: القائمة على التوحيد في الفكر على اعتبار أن الشعر هو أحد وسائل الفكر، ومن هنا فإن تحولاً جديداً قد طرأ على مضمون الشعر تمثل في إحداث أغراض جديدة كالشعر الديني الذي يتحدث عن عقائد الدين والمثل العليا التي ينطلق منها وكشعر الوعظ الذي يدعو إلى التقوى وينهى النفس عن الهوى، بالإضافة إلى شعر الفتوحات الذي يتحدث عن انتصارات العرب المسلمين على الأقباط الأخرى كفارس وبيزنطة.

أما من حيث الشكل فقد بدأ الشعراء الإسلاميون يتحررون من المقدمة الطللية ومن الابتداء القائم على مخاطبة شخصين: (قفا نبك - خليلي) وبدأ هؤلاء الشعراء بكتابة مقدمات دينية كما في شعر عبد الله بن الأحرر الأسدي:

صحوت وودعت الصبا والقوافيا وقلت لأصحابي أجيوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى وقبل الدعاء: لبيك لبيك داعيا
وقد تأثر شعراء صدر الإسلام بأسلوب الجدل الذي كان قائماً على الإقناع وأكثر الشعراء
في هذا العصر من استخدام تراكيب: (يا راكبا إما عرضت فبلغن - أبلغ).

كقول حسان بن ثابت:

يا راكباً إما عرضت فبلغن على الناس في عبد شمس وهاشما
وقول حسان:

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء
وقد ساهم أسلوب القرآن في تصاعد الاعتماد على أسلوب المناقشات والإقناع الفكري،
وأسلوب الحوار القصصي يضاف إلى ذلك استخدام صيغ وعبارات جديدة مستوحاة من
المعاني الإسلامية مثل: (الإيمان، الكفر، الزكاة، الصلاة، الوحي، القيامة، التقوى، الجهاد،
الشهداء، الحرام، الحلال...).

يقول عمرو بن قريظ العامري:

ثقلت صلاة المسلمين عليكم بني عامر والحق جدّ ثقيل
وأتبعتموها بالزكاة وقلتم ألا لا تقروا منها بفتيل
وقول حسان:

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد
وأخذت ألفاظ جديدة تكتسي معاني جديدة لم تكن تحملها سابقاً، كالحزم الذي أصبح
بمعنى التقى: كقول مروة بن نوفل:

ولقد علمت وخير العلم أنفعه أن السعيد الذي ينجو من النار
وهكذا فقد تغيرت نظرة الشعر في هذا العصر للحياة.

الباب السابع عشر

الفصل الرابع عشر

الخصائص الفنية للشعر في عصر صدر الإسلام

يرى بعض الباحثين أن الإسلام لم يشجع الشعر لأسباب عديدة منها:

أ- انبهار العرب ببلاغة القرآن وانصرافهم عن الشعر.

ب- انشغالهم بالفتوحات.

ج- وسقوط منزلة الشعراء لتكسيبهم بالشعر.

د- محاربة الإسلام للعصبيات والهجاء المقذع والغزل الفاحش.

وكل هذه الأمور كانت وقوداً جزلاً لشعلة الشعر إلا أننا لو عدنا إلى حقيقة الموضوع وحاولنا الوقوف على ما بين أيدينا من نصوص إسلامية تحدثت عن الشعر العربي وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث الشريف لرأينا أن الشعر قد كان له دور رئيس في الأحداث السياسية والحربية مما دفع الرسول الكريم ﷺ إلى الثناء على شعرائه والدعوة لهم..

أما الآية الكريمة في سورة الشعراء: (والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) فواضح أن القرآن الكريم قد ميز فيها بين نوعين من الشعراء الشاعر غير الملتزم بأقواله والشاعر الصالح الذي يجعل شعره مادة مفيدة لنشر الدين والدعوة، وبذلك يستطيع أن يكون شاعراً إنسانياً معبراً عن آلام بيئته.. وقد قال النبي ﷺ: (إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً) وفي هذا القول دلالة واضحة على موقف النبي ﷺ الصريح من الشعر الذي يرى فيه مظهراً من مظاهر الحكمة والتعقل وهو مظهر مستمد من القرآن الكريم..

و يبدو أن أغراض الشعر في العصر الذي سبق الإسلام بقيت سائدة في القصيدة العربية من أمثال المدح والهجاء والفخر والثناء إلا أن معاني الأغراض بدأت تتغير فبعد أن كان المدح

أو الهجاء تكسباً أصبح في الإسلام ضرورة تقتضيها الحاجة والمناسبة وأصبح أقرب إلى الشعر الاجتماعي والسياسي، وبدأت الألفاظ القرآنية أو الإسلامية تغذي هذه الأغراض إذ إن الشعراء كانوا قد تأثروا بأسلوب القرآن الكريم تأثراً بعيد المدى فقلَّ الإفحاش في ذلك الهجاء ومثل ذلك جرى في الغزل والمديح وكثر في الشعر الإسلامي الأول رثاء الشهداء والتمدح بالإسلام وشاع فيه ضرب الأمثال وإيراد الحكم والقصد إلى المواعظ مما يحث على مكارم الأخلاق والتمسك بالآداب التي كانت مثلاً علياً حتى في أيام العصر الذي سبق الإسلام، وقد تطور الهجاء القبلي من هجاء يوري الأحقاد ويثير النفوس إلى نقاشٍ سياسي بين الشعراء المؤيدين للإسلام والمعارضين له من المشركين..

أما الفن الشعري الجديد الذي وجد في عصر صدر الإسلام نتيجة لظهور الدعوة الإسلامية وظهور شخصية النبي ﷺ فهو مدح للرسول والدفاع عنه وعن الدعوة.

وظهر شعر الفتوح الإسلامية الذي خلد المعارك الكثيرة التي خاضها العرب سواء بين الإسلام وخصومه في معاركهم الداخلية، أم بين العرب وأعدائهم الخارجيين من مثل معركة بدر مع الخنصوم والقادسية مع الإمبراطورية الساسانية شرقاً واليرموك مع البيزنطيين شمالاً.. وقد اشتمل هذا الشعر على موضوعات شتى اختلفت باختلاف الشعراء والمناسبات فمن فخر بالبطولات الفردية إلى فخر بالقبائل وبلاتها الحسن إلى ازدهاء العرب والمسلمين عامتهم إلى تصوير دقيق للمعارك والمبارزات إلى رثاء للشهداء الذين فقدوهم في القتال إلى حنين لاجع إلى الأهل والوطن البعيد..

وكان أثر القرآن والبيئة الجديدة في معاني الشعر ضئيلاً، وذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية واعتمادهم على معاني الجاهليين في كثير من الأغراض ففي المديح ظلت الصفتان الأساسيتان للمدح هما الجود والشجاعة، ولم يكن الممدوح يوصف بالتقى والورع والعفة إلا إذا كان واحداً من الصحابة، أما الهجاء فقد بقي هجاءً بالبخل والجبن ولعل الغزل هو الغرض الوحيد الذي تأثرت أفكاره تأثراً كبيراً بالبيئة الجديدة وازدادت المعاني عمقاً كما ازدادت فيها الحكم والأمثال بفضل القرآن الكريم إلا أنها بقيت ضعيفة التسلسل المنطقي تجري مجرى الجاهلية في تركيب القصيدة..

كما ازدادت الأخيلة اتساعاً بفضل المدنيات التي احتك بها العرب والبيئة الدينية الجديدة، ولكن تلك الأخيلة بقيت وثيقة الصلة بالأخيلة الجاهلية قريبة من الواقع الحسي والبيئة الصحراوية..

وكان للفتوحات الإسلامية الأثر في نفخ روح العزة والسيادة في نفوس العرب.. وإذا انتقلنا إلى بناء القصيدة في هذا العصر وجدناها تجري على سنن الجاهليين في بنائها وترتيب موضوعاتها إذ تبدأ بالوقوف على الأطلال والبكاء على الديار، ثم تنتقل إلى وصف الرواحل ووحوش الفلاة، ثم تدخل في المديح لتنتهي بالحكمة غير أن بعض الشعراء خرجوا على هذا التقليد أو عدلوا فيه بعض التعديل فتصرفوا بالمقدمة بما يناسب أغراضهم.. وقد حافظت الأساليب التعبيرية على قوتها ومثانتها إلا أن القرآن الكريم والمدنية الجديدة قد جعلتا تلك الأساليب أسهل وألين وأعذب..

وهكذا نرى أن الشعر العربي في هذا العصر لم يرتق إلى مستوى الانقلاب السياسي الاجتماعي الذي حققه الإسلام، بل ظل مترسماً خطأ الشعر الجاهلي ينظر إليه على أنه المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى..

الباب السابع عشر

الفصل الخامس عشر

الصعلكة الشعرية في هذا العصر

١ - الصعاليك في عصر صدر الإسلام

لا شك أن الصعلكة كحركة اجتماعية ظهرت في الجاهلية بسبب اختلال ميزان الحياة الاقتصادية بين الناس كرد فعل على حيازة الأغنياء للمال على حساب لقمة الفقراء، ولأن المجتمع الجاهلي لم يستطع أن يُؤطَّرَ علاقته ضمن قوانين تحمي أفرادَه من الظلم جعل الصعاليك يثورون على مجتمعاتهم ويتمردون على قوانينها الظالمة، ولكن الإسلام جاء ليبيني مجتمعاً جديداً ينبذ التفاخر القبلي والتعصب العشائري وينشر ثقافة الأمة الواحدة وليحل الرابطة الدينية محلها وينشر العدل والمساواة بين أفرادها لا فرق بين غنيهم وفقيرهم إلا بميزات التقوى وتعاليم الإسلام الداعية إلى التوحيد والعدل والمساواة التي لم تغفل أن تضمن للفرد حياة كريمة تضبط الأمن وتمنع الفوضى وتحارب الفساد وتنظم الميراث وتفرض الزكاة وترغب في الإحسان والبذل والإنفاق، ثم إنها أقامت الحدود فاختفت حياة الصعلكة وانتهى نظام الخلعاء وسوت بين أبناء العبيد وغيرهم من أبناء الحرائر وعمل العرب المسلمون في نشر الدعوة وفتح البلدان مما أتاح لمحبي الجهاد والمعارك والخطر ليثبتوا وجودهم شجاعة وبطولة فيفوزوا بالغنائم والأجر من الله، وقد ندرت أخبار الصعاليك في عصر صدر الإسلام قياساً بالصعاليك الجاهليين مع أن الإسلام أدرك من صعاليك الجاهلية (أبو خراش الهذلي) و(خريبة بن الأشيم) و(فرعان بن الأعراف) و(قضالة بن شريك) و(أبو الطمحان القيني) وقد توقف معظم الصعاليك عن قطع الطرق وشن الغارات والثورة والتمرد ومثل الصعاليك أبو خراش الهذلي، فقد كان يأبى حياة الذل والظلم والمهانة قائلاً:

مخافة أن أحيأ برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم

فحياته وشعره انعكاس لصعلكته في الجاهلية من حيث الغارات، وأما (جريبة بن الأشيم) فقد أعلن أنه استبدل صعلكته بقيم جديدة وقد أعلن (يزيد بن الصقيل العقيلي) توبته بعد أن سار مع جيش الغزو واستشهد:

ألا قل لأرباب المخائض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وقد بقي بعض الصعاليك على سيرته الجاهلية يعيش للنشر والهجاء وقطع الطرق وسرقة الإبل والإغارة على القوافل.

ولم تقتصر تعاليم الإسلام على الدعوة إلى التوحيد بالله، والتسوية بين الناس، فقد أرسى مجموعة من القواعد الاجتماعية التي تضمن للفرد الحياة الفاضلة، وبيّن الحدود التي تضبط الأمن، وتمنع الفوضى، وتقضي على الفساد والانحراف، ونظم الميراث والمعاملات أدق تنظيم. يقول تبارك وتعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) وجعل لهم أيضاً حقاً معلوماً في الغنائم، وفي الفبيء، والجزية، والخراج. ورغب سبحانه وتعالى الأغنياء في الإحسان والبذل وإنفاق الأموال في وجوه الخير، ووعدهم بأحسن الجزاء وأعظم الثواب:

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)؛ وأصبح الحاكم وأولو الأمر مسؤولين عن تأديب المنحرفين والفاستدين وإنزال العقاب بهم، جزاء وفاقاً: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)، (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى).

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم) و(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا وهم في الآخرة عذاب عظيم). و(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين).

وسن القوانين الاجتماعية التي تيسر للفقراء الحياة الكريمة، إذ جعل الزكاة حقاً واجباً على الأغنياء فإذا الأغنياء والفقراء متراحون متعاطفون كأنهم نفس واحدة وأقام الحدود على المذنبين والأتمين ورد عقابهم للدولة. وبذلك قضى الإسلام على العوامل التي كانت تنشئ الصعاليك.

٢. تأثير الصعاليك المخضرمين بالإسلام

لم تصل إلينا أخبار وأشعار إسلامية كثيرة للصعاليك المخضرمين، وإنما نقلت إلينا أخبار وأشعار وفيرة للصعاليك الجاهليين. وهي ظاهرة ترجع إلى سببين أساسيين:

الأول: أن الصعاليك المخضرمين قلة قليلة بالقياس إلى الصعاليك الجاهليين، فإن خمسة منهم هم الذين امتد بهم العمر، حتى أدركوا الإسلام وهم: (أبو خراش الهذلي، وجريبة بن الأشيم، وفرعان بن الأعرف، وفضالة بن شريك، وأبو الطمحان القيني). وأخبار هؤلاء الصعاليك المخضرمين وأشعارهم الجاهلية والإسلامية غير متعادلة، فبعضهم نظف له بأخبار نستطيع معها أن نتبين حياته في كلتا الفترتين، مثل أبي خراش الهذلي، وبعضهم تغطي أخباره وأشعاره الجاهلية طغياناً شديداً، بحيث لا يمكن أن نعرف حياته في الإسلام مثل أبي الطمحان القيني، أما سائرهم فيكاد يكون كل ما نقل إلينا من أخبارهم وأشعارهم متصلاً بحياتهم بعد إسلامهم.

والسبب الثاني: أن حركة الصعلكة ضعفت في صدر الإسلام، لتلاشي العوامل التي كانت تساعد على نشأتهم وكثرتهم، ولفقدان الدوافع التي كانت تؤلف بين عصاباتهم، وتوجههم نحو الغزو والإغارة، لتوفير أسباب الحياة لأنفسهم في مجتمع نبذهم وتنكر لهم. وتأثر بعضهم بالإسلام واستجابوا لتعاليمه، بحيث توقفوا عن قطع الطرق وشن الغارات، وكفوا عن التمرد والثورة، إيماناً منهم بأن مجتمع الغزو والنهب قد انتهى، وأن عهد الظلم والفضي قد أديل منه حياة قوامها العدل والإنصاف، والاعتصام بالقانون والخضوع للسلطان. وخير من يمثل هذا الجانب عندهم أبو خراش الهذلي، فقد كان في الشطر الأول من حياته بالجاهلية صعلاً كاشياً نشيطاً عاملاً، معدوداً من فرسان العرب وفتاكهم، لصلابة نفسه، وقوة قلبه، وسرعة عدوه، وكثرة غزواته، وتعدد جنائياته وتراثته، وكان الدافع الأول لتصعلكه

استشعاره لما كان يعيش فيه من فقر وشقاء وخصاصة وعناء، كما كان شعره سجلاً دقيقاً
لحياته سواء من حيث تصويره لنفسيته واستعلائها على الحرمان والهوان، وصبرها على المسغبة
مع العزة وإبء الضيم، ونفورها من الغنى مع الذل والظلم، ومن ذلك قوله:

وإني لأثوي الجوع حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القراح فأكتفي إذا الزاد أمسى للمزجج ذا طعم
مخافة أن أحيأ برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم
أو من حيث تصويره لغارات وما كان يأخذ نفسه به في أثناء تنفيذه لها من استعداد وعدو
وحذر وترقب وانتظار وكر وفر، وكان معدماً مظلوماً متصعلكاً سلسلة من الغارات
والغزوات لفرض ذاته وتحصيل قوته، وكانت موضوعات شعره متصلة بها أوثق الاتصال،
ومثلة لها أدق تمثيل أما في الشطر الثاني من حياته في الإسلام، فدخل في دين الله، وآمن وحسن
إسلامه، وانقاد لتعاليم الدعوة الجديدة انقياداً ظهرت آثاره على سلوكه، فإذا هو لا يغزو ولا
يغير، ولا يثور للأخذ بالثأر، كما ظهرت آثاره أيضاً على موضوعات شعره فإذا هو يعزف عن
أحاديث الفقر والتصعلك ورفاق الماضي، وحزن حزناً شديداً على ساقه التي نهشتها حية آخر
عمره في قصة مشهورة، والتي طالما أسعفته في الخلاص من أعدائه المتربصين به على طول
الجزيرة العربية للأخذ بترائهم منه:

لقد أهلكت حية بطن أنف على الأصحاب ساقاً ذات فضل
فما تركت عدواً بين بصرى إلى صنعاء يطلبه بذحل
وكانما قد صفى الإسلام نفسه وهذبها، وأحلاها من كل داخلها من بطش وسطوة وفتك
وتصعلك، وأشاع فيها الهدوء والصبر والتمسك بالحق العدل، والامتناع عن التعدي والحمق
والجهل، وآية ذلك أن جميل بن معمر قتل أخاه أو ابن عمه زهير بن العجوة يوم حنين، فلم
يفعل شيئاً سوى رثائه له وتفجعه عليه، وتنويهه بشئله من الكرم الفياض والشجاعة النادرة:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهمل ليس بقاتل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

ويردد أيضاً في مقطوعة ثانية رثى بها زهير بن العجوة أنه لم يكن ليخاف قريشاً في الجاهلية، ولم يكن ليتخاذل عن أخذ ثأره منها إذا اعتدى أبناؤها بشيء من ذلك، مع إحساسه بالغيظ والحقد على جميل بن معمر؛ لأنه قتل قريبه ظلماً وعدواناً، إذ كان بين الأسرى يوم حنين، فضرب عنقه لإحنة كانت بينهما في الجاهلية. ويبدو أن هذا هو السبب الحقيقي لسخطه لا كفره بقريش وتنكره الدين الجديد.

يقول في ذلك:

فما كنت أخشى أن تنال دماءنا قريش ولما يقتلوا بقتيل
وأبرح ما أمرتهم وملكتهم يد الدهر ما لم تقتلوا بغليل
ومثله جريبة بن الأشيم، إذ كان في الجاهلية أحد شياطين بني أسد وفتاكهم. وكان يغير على القوافل. فلما أسلم حسنت سيرته واستقام وعدل عن الإغارة والنهب. ومضى يعلن أنه آمن وابتعد عن كل شر يقول في ذلك:

بدلت دنيا بعد دين قدم كنت من الدين كأي حلم
يا قيم الدين أقمنا نستقم فإن أصادف مائناً فلم ألم
ونظيرهما يزيد بن الصقيل، فإنه كان لصاً مشهوراً ببادية الحجاز، يسرق الشاة والبعير، ولم يزل على هذه الحال يتلصص وينهب، ويطلب فيهرب، حتى مرَّ به جيش وجَّه عثمان بن عفان إلى الشام فلما أبصر الجيش متوجهاً للغزو أخلص التوبة، وسار معهم، واستشهد في سبيل الله. ومن شعره قبل وفاته قوله الذي يعلن فيه أنه تاب، والذي يستغفر فيه أيضاً لنفسه:

ألا قل لأرباب المخائض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وإن امرأً ينجو من النار بعدما تزودَ من أعمالها لسعيد
إذا ما المنيا أخطأتك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود

وأما أبو خراش الهذلي فقد تحول في الإسلام عن الصعلكة، وآمن بالدين، واستضاء بتعاليمه، واقتصر في شعره على رثاء أقاربه أو رفاقه رثاء عدد فيه خصالهم وألم لفقدهم، في ذلك، شأن غيره من الشعراء الجاهلين ممن رثوا أقاربهم. ولكنه يختلف عنهم في أنه لم يغضب

لهم غصبة جاهلية يحرض معها على الأخذ بثأرهم، وإنما تجمل بالصبر، وأثر الحق، أما جريفة بن الأشيم فراح يجهر بأنه أسلم وجانب الإثم. وأما يزيد بن الصقيل العقيلي فأناج وكفر عن ذنوبه بالجهد.

٣ - رواسب الصعلكة عند بعض المخضرمين

بقي بعض الصعاليك المخضرمين أقرب إلى حياتهم في الجاهلية، يعيشون للهجاء والشر، ولقطع الطرق وسرقة الإبل والإغارة على القوافل، وإن تأثروا بالإسلام وأعرضوا عن الغزو والنهب مثل أبي خراش وجريفة بن الصقيل. وبعد ذلك فتحن نظفر ببعض الصعاليك المخضرمين أو الصعاليك الذين عاشوا في صدر الإسلام ولم يتعمق الإسلام نفوسهم، ولا تغلغل في قلوبهم، ولا استقام معه سلوكهم، وهم فريقان:

أ- فريق جنح عن النهب والإغارة، ولكن ظل فيه شر كثير، وخير من يمثلهم أبو الطمحن القيني وفضالة بن شريك. أما أبو الطمحن فمن المعروف أنه كان في الجاهلية صعلوكاً يسرق الإبل، فقد كف عن الإغارة بعد إسلامه، كان خبيث الدين في الجاهلية والإسلام، وأما خبثه في الجاهلية فاحترافه للسرقة، وأما خبثه في الإسلام فيتصل بضعف عقيدته وفساده، فقد أنشد له القدماء بيتين قالهما بآخر من عمره يتفجع فيهما على شبابه، دون أن يؤمل الخير وحسن العاقبة في الآخرة، فكأنهم رأوا في ذلك مظهراً من مظاهر ضعف عقيدته، يقول:

حتنتني حانيات الدهر حتى كأي خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رأيي ولست مقيداً أي بقيد
كذلك رووا بيتين آخرين يبدو أنه هتف بهما في آخر أيامه معلناً فيها حرصه على التهالك على الملاهي قبل أن يقضي نحبه، يقول:

ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبل نشور النفس بين الجوائح
وقيل غد يا لهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح
ورووا له أيضاً بيتين آخرين يجتر فيها ذكرياته الماضية، وكيف كان يحترس من المعاطب، حتى إذا أمن خطرهما انقضّ على ما يريد انقضاضاً، يقول:

يارب مظلمة لطيت لها تمضي إذا ما كان غاب نصاري
حتى إذا ما انجلت عني غايتها وثبت فيها وثوب المخدر الضاري
فكان تلك الأشعار القليلة هي التي تدل على مظاهر خبثه بعد إسلامه، وهو خبث يتضح
في عدم تأثره بالإسلام وتعاليمه، وأما أخبار أبي الطمحان القيني وأشعاره الإسلامية نادرة
بالقياس إلى أخباره وأشعاره الجاهلية، والقدماء يصفونه بأنه (كان شاعراً فاتكاً صعلوكاً
مخضراً أدرك الجاهلية والإسلام). وهي ظاهرة غريبة، ترجع إلى المركز الاجتماعي لابنه فاتك،
فقد كان سيداً جواداً ممدحاً كما حظي بمركز ممتاز عند بني أمية؛ لأنه ظاهرهم على مصعب بن
الزبير بالعراق، مما جعل الرواة يحجمون عن تناقل أخبار تصعلكه في الجاهلية. لقد استفرغ
شعره في (الهجاء المقذع) لأبناء الخلفاء والأمراء، فقد مر بعاصم بن الخطاب، وهو مقيم
بإحدى بوادي المدينة فنزل به هو وأصحاب له، وعرفوه مكانهم، فلم يقرهم شيئاً، ولا بعث
إليه ولا إلى أصحابه بشيء من الهبات. فارتحل عنه مغيضاً محققاً، والتفت إلى مولى لعاصم، فقال
له: قل له: (أما والله لأطوقنك طوقاً لا يبلى)، وأخذ يهجو هجاء فاحشاً منه قوله:

ألا أيها الباغي القرى لست واجدا قراك إذا ما بت في دار عاصم
إذا جئته تبغي القرى بات نائما بطيناً وأمسى ضيفه غير نائم
فتى من قریش لا يجود بنائل ويحسب أن البخل ضربة لازم
وهو هجاء ينبىء بما استقر في نفسه الشريرة من تهور واستهتار، وما ظل يؤمن به من القيم
والعادات الجاهلية فهو يتعرض للناس تعرضاً ويتدخل في أمورهم تدخلاً، مبتغياً أن يسيرهم
كما يحب، وأن يخضعهم لما يؤمن به من المثل التي يخضع نفسه لها وفقاً لمذهب الصعلكة، فهو
يريدهم أن يختاروا لابنهم رجلاً تتمثل به صفات الصعلوك من الكرم والبطولة والفتك
والابتعاد عن سؤال الناس، وكسب الرزق بالقوة. وهجا مرة رجلاً من سليم أودع عنده ناقة،
وخرج في سفر، فلما عاد طلبها منه فذكر له أنها سرقت، فقال يهجو ويهجو قبيلته مبيناً كيف
أنه أخطأ حين أودعها عنده، وهو يعلم أن قبيلته مشهورة بالخيانة حتى لقد سرقت إبل النبي:
ولو أنني يوم بطن العقيق ذكرت وذو اللب ينسى كثيراً

مصائب سليم لقاح النبي لم أودع الدهر فيهم بعيرا
وواضح أن أبا الطمحن القيني وفضالة بن شريك يمثلان الصعاليك الذين أقصروا بعد
إسلامهم عن التصعلك القائم على الإغارة، ولكنها لم يستقيا كل الاستقامة، فقد ظل أبو
الطمحن رقيق الدين، جازعاً من الموت، عاكفاً على المذات، مردد الذكريات الشباب، يوم
أن كان طمحن صعلوكاً عاملاً فتياً يتربص ويغزو ويسلب. أما فضالة بن شريك فظل في
نفسه شر كثير، وظلت آثار الصعلكة مسيطرة عليه موجهة له، وظل متقلباً يهجو ويمدح وإن
كان الهجاء قد غلب عليه، وهو هجاء أفحش فيه، وصبه على من أساء أو أحسن إليه.

ب- أما الفريق الثاني من الصعاليك المخضرمين الذين لم يتأثروا بالإسلام أي تأثر
فلم يعزفوا عن اصطناع الغزو والإغارة، بل ظلوا يزاولون نشاطهم وأعمالهم للسلب والنهب.
ومن الطريف أن بعضهم يصرح بأن الفقر والحاجة والعجز عن إعالة الأبناء هي التي دفعته
إلى احتراف اللصوصية. وعلى رأسهم فرعان بن الأعراف التميمي، الذي كان شاعراً لصاً
يغير على إبل الناس في صدر حياته بالجاهلية، وفي خاتمتها بعد أن أسلم وكبر، يقول:

يقول رجال إن فرعان فاجر والله أعطاني بنبي وماليا
فأربعة مثل الصقور وأربعا مراضيع قد وفين شعثا ثمانيا
إذا اصطنعوا لا يخبئون لغائب طعاماً ولا يرعون من كان نائيا

ومن هؤلاء الصعاليك الذين كانوا يترصدون للناس ليتقضوا عليهم ويسلبوا أموالهم
شبيب بن كريب الطائي، ولكن أخبار هذا الفريق من الصعاليك قليلة، ويلاحظ أيضاً أن
جماعة من الصعاليك لهذه الفترة أخذوا يشاركون في السياسة وينحازون إلى فريق دون فريق،
كما أخذوا يسلبون بعض المدن التي ثار أهلها وامتنعوا على السلطان.

الباب السابع عشر

الفصل السادس عشر

رموز الشعر في عصر صدر الإسلام

١- علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

أ- حياة علي رضي الله تعالى عنه:

٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م

أ- نشأته وصفاته: ولد علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ قبل البعثة النبوية بعشر سنين، ولذا فهو أصغر من الرسول بثلاثين سنة. أقام في بيت النبوة، ونشأ في كنف الرسول على الصفات الكريمة والأخلاق الفاضلة كالشجاعة والإقدام، وإلى جانب ذلك عرف بفصاحته وعمله وفقهه، كما أنه لم يسجد لصنم قط.

هو أول من أسلم من الفتيان، وكان أقرب الناس إلى قلب الرسول وزوج ابنته فاطمة الزهراء التي ولدت له الحسن والحسين. وما يؤكد رجاحة عقله وسداد رأيه، وكان أحد المرشحين الستة لمنصب الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، أصبحت الدولة الإسلامية دون خليفة يسير أمورها ويدير شؤونها. كان أبرز المرشحين للخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث بادر معظم الموجودين في المدينة المنورة إلى مبايعته، وبذلك أصبح علي رضي الله عنه الخليفة الراشدي الرابع سنة ٣٥ هـ. عاش علي رضي الله عنه حياة خشونة على الرغم من كثرة الأموال التي كانت تجبى إليه من أطراف الدولة الإسلامية.

بعد مبايعة المسلمين لعلي بن أبي طالب بالخلافة صعد المنبر ليعلم الأساليب التي سوف يتبعها في سياسته القادمة، فأشار في حكمة وبلاغة إلى النهج الذي يستقبل به عهد خلافته، مؤكداً على حرمة المسلم وعدم إهدار كرامته، والدعوة للأخذ بالخير وترك الشر.

بويع علي بالخلافة في فترة تاريخية معقدة وحرجة وكان عليه:

- أن يكبح جماح الاضطرابات الداخلية التي تعترض طريق خلافته.

- أن يزيل العقبات والحواجز التي تهدد الأمة العربية الإسلامية.

وإلى جانب ما تميز به الخليفة علي بن أبي طالب من شجاعة وإقدام، وتفقه في الدين، وصدق وثبات في العقيدة، تميز بجليل الأعمال، فحافظ على مبدأ الشورى في الإسلام يدل على ذلك عندما سأله بعض المسلمين وهو على فراش الموت أن يعهد لابنه الحسن بالخلافة فقال: «لا آمركم ولا أنهاركم، أنتم أبصر». وعمل الخليفة علي بن أبي طالب وفق الطريقة التي سادت زمن الرسول الكريم (ﷺ) والخليفين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما باختيار الولاة الذين عرفوا بالكفاءة والنزاهة. وقاوم الفساد فعزل الولاة الذين لم تثبت كفاءتهم. وحرص على حقوق المسلمين فطبّق العدالة على الجميع. فكان أول من جلس للمظالم حيث خصص لها يوماً من كل أسبوع ليستمع إلى المظلومين لإنصافهم، وأسهم في وضع أسس علم النحو للغتنا العربية وله الفضل في تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف والأحرف المشبهة بالفعل والأسماء الظاهرة والمضمرة. وصنفت أقواله المأثورة في كتاب (نهج البلاغة).

ب- شعره:

أولاً- أغراض الشعر عند علي رضي الله عنه

- موضوعات شعر علي رضي الله تعالى عنه في عصر صدر الإسلام:

أبدع علي بن أبي طالب في العلوم والآداب والحكمة التي عايشها عصره وكتب في أغراض الشعر معظمها في عصر الإسلام:

١- الشعر الحماسي: وهو الغرض الذي بقي مشتعلًا في وجدان علي وحرص على بثه في أشعاره حيث أصحابه الذين ما زالوا يعيشون عقيدة واحدة تعتمد على الولاء للقرآن الكريم وسنة المصطفى (ﷺ) والذي قاله في مناقضاته مع شعراء المشركين في معارك المسلمين في موقعة بدر واحد والخذق وتبوك وخيبر، وقد ضرب علي في ذلك المثل الأعلى في القتال والشجاعة والتصدي لأبطال المشركين وسادتهم وقادتهم العسكريين، ومن ذلك ما عبّر عن شجاعته في هجرته إلى المدينة المنورة أو في قتله لعمر وبن عبد ود العامري أو عند قتل الوليد بن عتبة أو في مبارزته لطلحة بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار أو أثناء بروزه لمرحب اليهودي يوم

خير أو قتله لحبي بن أخطب، وقد كان علي رضي الله عنه قد اشترك مع الرسول عليه الصلاة والسلام في معظم معاركه ضد المشركين فكان القدوة في التصدي للعدو غير هيب ولا خائف، بل إنه كان المثل المميز في كل صراعاته مع المشركين.

ولما هاجر علي رضي الله عنه من مكة إلى المدينة المنورة وأدركه الطلب وهم ثمانية فوارس شد عليهم بسيفه وقال:

خلوا سبيل المؤمن المجاهد آليت لا أعبد غير الواحد
وهذا يدل على مدى تغلغل عقيدة التوحيد في أعماق هذا الصحابي الجليل الذي يستمد
طاقته في تحدي الأعداء والمشركين من مشكاة القرآن الكريم ومصباح النبوة ومنبته الهاشمي
الجليل فهو يصف نفسه بالمؤمن المجاهد ضد محاربي دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام،
وحق له هذا الوصف ويقسم على قضية التوحيد وكأنه يستمد هذا الإيمان بوحدانية الله من
قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللع أو أهلك دونه). ومن هنا كان قتله لعمرو بن
عبد ود العامري مفخرة عظيمة في ثلاث قصائد صور فيها رضي الله عنه مواجته لعمرو ومن
معه من الأعداء في الأولى، ودعوته من خلال قتل هذا الكافر إلى نصرته دين الله تعالى في الثانية،
وطريقة قتله بالسيف بعد أن بكت هذا السيف جسمه إلى عظامه في الثالثة وقال في قتله عمرو
بن عبد ود:

وكانوا على الإسلام ألباً ثلاثة فقد خر من تلك الثلاثة واحد
وفر أبو عمرو هبيرة لم يعد لنا وأخو الحرب المجرب عائد
نهتهم سيوف العهد أن يقفوا لنا غداة التقينا والرماح المصائد
وهو حين يخاطب عمرو بن عبد ود يبين له نسبه ودفاعه عن الدين الجديد يفتخر بشجاعته
وسيفه ذي الفقار ويبيّن ما يدعو إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام:

يا عمرو قد لاقيت فارس همة عند اللقاء معاود الأقدام
من آل هاشم من سناء باهر ومهذبين متوجين كرام

يدعو إلى دين الإله ونصرة
 بمهند غضب رقيق حده
 ومحمد فينا كأن جبينه
 والله ناصر دينه ونبيه
 شهدت قريش والبراهم كلها
 أما عندما سمع بموت عمرو بعد أن ضربه بسيفه فقد افتخر بأنه صاحب الصمصامة وأنه
 أخو رسول الله عليه الصلاة والسلام:

ضربته بالسيف فوق الهامه
 بضربة صارمة هدامه
 فبكتت من جسمه عظامه
 وبيئت من أنفه إرغامه
 وروي أنه لما هاجر رضي الله عنه إلى المدينة هاجر جهاراً فقال له العباس: إن محمداً ما
 خرج إلا خفية، فأجابه علي:

إن ابن أمنة النبي محمداً
 رجل صدوق قال عن جبريل
 إني بري واثق وبأحمد
 وسبيله متلاحق بسبيل
 وهذا يدل على ما لهذا الصحابي الجليل من شجاعة متميزة لا لأن النبي هاجر سراً وهو
 هاجر جهراً فهجرة النبي عليه الصلاة والسلام سراً ذات مغزى كبير؛ لأن فيها درساً من
 دروس النبوة لكل المسلمين عندما يتعرضون للاضطهاد في مكان من الأمكنة على وجه
 الأرض، إذ من حقهم أن يخططوا بشكل عقلاي آخذين بأسباب النجاة إذا كان العدو مخيفاً،
 وهي في الوقت نفسه لتشجيع من لديه القدرة على مواجهة العدو في العلن كما صنع سيدنا علي
 رضي الله عنه، وكذلك ما صنعه رضي الله عنه في بروزه لطلحة العبدري يوم أحد مفتخراً
 بجديده عبد المطلب وهاشم.

ومن قصائده يوم أحد حين خرج طلحة العبدري صاحب لواء قريش المسمى (كباش
 الكتبية) ونادى: تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل
 منكم من يبارزني فخرج إليه علي رضي الله عنه وهو يقول:

أنا ابن ذي الحوضين عبد المطلب وهاشم المطعم في العام السغب
أوفي بميعادي وأحمي عن حسب

ومما يلفت النظر في حماسة هذا الصحابي أنها لم تكن إلا لنصرة الدين لا لنصرة العشيرة
وإنها نبعت من قلب مخلص أراد لرؤية التوحيد أن تنتصر فيه، فالله تعالى ناصر دينه وحاش أن
يخذل من يدافع عنه أليست دعوة الله تعالى تبدأ من نبذ عبادة الأصنام، وتنتهي إلى تقديم
الإحسان، وكان علي يؤكد منذ البداية للناس أنه ما قتل عمرو بن عبد ود إلا لأنه عبد
الحجارة بسبب سفاهة رأيه وأنه أي علي رضي الله عنه عبد رب محمد ﷺ ولأنه الحق والصراف
المستقيم.

قال علي رضي الله عنه بعد أن قتل عمرو بن عبد ود العامري:

عبد الحجارة من سفاهة رأيه وعبدت رب محمد بصواب
فصدت حين تركته متجنّدا كالجذع بين دكاكك وروابي
لا تحسبن الله خاذل دينه ونييه يا معشر الأحزاب
أعلي تقتمح الفوارس هكذا عني وعنهم خيرة الأصحاب
فاليوم تمنعني الفرار حفيظتي ومصمم في الرأس ليس بنابي
أدى عمير حين أخلص صقله صافي الحديد يستفيض ثوابي
وغدوت التمس القراع وصارم غضب كلوف الملح في أقراب
عرف ابن عبد حين أبصر صارما يهتز أن الأمر غير لعاب
إذن أليس هذا القتال وتلك الدماء والتهاب المعارك في بدر وأحد والخندق وخير غايته
نصرة الرسول محمد ﷺ في دعوته للتوحيد ومحاربة المشركين؟ أليس هذا الصراع منشؤه
محاربة الغواية ونصرة الهدى والنور وأن المسلمين الذين نصرنا رسول الله هم أصحاب الحجا
الصادقة؟:

نصرنا رسول الله لما تدابروا وثاب إليه المسلمون ذوو الحجى

ضربنا غواة الناس عنه تكرماً ولما يروا قصد السبيل ولا الهدى
ومن هنا كان دأب المسلمين نصره دين الحق ومقاتلة المشركين حينما يأبى هؤلاء المشركون
أن يقارعوا أهل الدعوة بالحجة والبرهان فقد أذن الله تعالى لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا
أعداء الله، وهذا ما عبر عنه علي رضي الله تعالى عنه عند قتل الوليد بن عتبة يوم موقعة بدر وما
أكثر ما اعتاده الإمام من ضرب أعناق عتاة المشركين دون مبالاة. قال علي رضي الله عنه عند
قتل الوليد بن عتبة يوم بدر:

تَباً وتَعَسَّأْلك يَا ابن عتْبة أسقيك من كأس المنايا شربة
ولا أبالي بعد ذلك رغبة

وهذا ما حصل لما برز طلحة بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار يوم أحد ونادى: يا
محمد تزعمون أنكم تجهزوننا بأسيا فكم إلى النار ونجهزكم بأسيا فإنا إلى الجنة، فمن شاء أن
يلحق بجنته فليبرز إليّ فبرز إليه علي رضي الله عنه وهو يقول:

يا طلحة إن كنت كما تقول لكم خيول ولنا نصول
فأثبت لتنظر أيننا المقتول وأيننا أولى بما تقول
فقد أتاك الآن الصوؤل بصارم ليس له فلول
فينصره القاهر والرسول

نعم لقد كان علي السيف القاطع المدافع عن الإسلام والمسلمين لقد قتل المسلمون سراً
المشركين أبا جهل وعتبة والوليد وشيبة وما بالوا بذلك.

٢- الفخر الإسلامي عند علي رضي الله عنه: تنوعت القضايا التي افتخر بها
الشعراء قبل عصر صدر الإسلام وتعددت فكان منها الفخر الذاتي والقبلي، ولكن الإسلام
عندما ملأ قلوب العرب والمسلمين تحول الفخر من ذاتي وقبلي إلى فخر بتحقيق دعوة الإسلام
ونشر مبادئه وإن بقي بعض الشعراء مستمرين في الافتخار بالشجاعة والقوة واقتحام مخاطر
الموت، وقد افتخر علي رضي الله عنه بكونه عاش معظم حياته دفاعاً عن الدعوة الإسلامية؛ إذ
إنه منذ كان صبياً كان منخرطاً في قتال المشركين ومقارعهم في حروب كثيرة.

أنا الصقر الذي حدثت عنه عتاق الطير تنجدل انجدالا
 فلم تدع السيوف لنا عدوا ولم يدع السخاء لديّ مالا
 أو لم يكن علي هو من خاطر بنفسه حين بات في فراش الرسول ﷺ حين هاجر من مكة
 المكرمة إلى المدينة المنورة، وهي مهمة استشهادية لا يقدر عليها معظم الناس، ولو أن المشركين
 نظروا تحت أقدامهم لرأوا الرسول ﷺ وصاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وفي ذلك
 يقول علي:

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
 محمداً لما خاف أن يمكروا به فوقاه ربي ذو الجلال من المكر
 وبات رسول الله في الغار آمنا هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
 أردت به نصر الإله بتلا وأضمرته حتى أوّسّد في قبري
 وكذلك فقد افتخر علي بكونه أخا الرسول ﷺ في النسب وأن جدّهما واحد وقد تزوج
 ابنته فاطمة وأنه أول من صدقه في دعوته من الصبيان.

قال علي رضي الله عنه أمام الرسول ﷺ.

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي معه ربيت وسبطاه هما ولدي
 جدي وجد رسول الله متحد وفاطم زوجتي لا قول ذي فند
 صدقته وجميع الناس في ظلم من الضلالة والإشراك والكنند
 فالحمد لله فرداً لا شريك له البر بالعبد والباقي بلا أحد
 ولما آخى رسول الله بين الصحابة المهاجرين والأنصار ترك علياً فقال له في ذلك، فقال
 النبي ﷺ: إنها أخرجت لنفسي أنت أخي وأنا أخوك في الدنيا والآخرة. فبكى علي وقال:

أقيك بنفسي أيها المصطفى الذي هدانا به الرحمن من غمة الجهل
 وأفديك حوبائي وما قدر مهجتي لمن أنتمي فيه إلى الفرع والأصل
 ومن جدّه جدي ومن عمه أبي ومن نجله نجلي ومن بنته أهلي

لك الفضل إني ما حييت لشاكر لإتمام ما أوليت يا خاتم الرسل
وهذا يدل على حرص علي على أخوته للرسول ﷺ وما حصل منه عندما أراد الرسول
السير إلى تبوك فقد روي أن رسول الله ﷺ لما سار إلى غزوة تبوك واستعمل علياً على المدينة
تبعه علي وقال رسول الله ﷺ: زعمت قريش أنك إنما خلفتني استقبالاً لي فقال له ﷺ: طالما
أذت الأمم أنبياءها يا علي أما ترضى بأنك وزيري، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه
لا نبي بعدي فقال علي رضي الله عنه.

ألا باعد الله أهل النفاق وأهل الأراجيف والباطل
يقولون لي قد تلاك الرسو ل فحلاك في الحالف الخاذل
ومما ذاك إلا لأن النبي جفاك وما كان بالفاعل
فسرت وسيفي عليع اتقي إلى الراحم الحاكم الفاضل
فلما رأني هفا قلبه وقال مقال الأخ السائل
أخي أنت من دونهم كهارون موسى ولم يأتل
ولم يكن فخر علي مقتصراً على ذلك، بل تجاوز إلى الفخر بعمران الحياة الدينية والاجتماعية
وخاصة بناء المساجد التي تحمل دورين متوازنين هما دور العبادة ودور العلم. وقال علي رضي
الله عنه حينما كان النبي ﷺ يعمل مع أصحابه في بناء مسجد في المدينة:

لا يستوي من يعمر المساجداً ومن يبني راعماً وساجداً
يبدأ فيها قائماً وقاعداً ومن يكره كذا معانداً
ومن يرى من الغبار حائداً

ومع ذلك فقد بقي علي يفتخر بشجاعته وقوته التي سخرها في نشر الدعوة والدفاع عن
الإسلام والمسلمين والجهاد في سبيل الله، قال يخاطب الوليد بن المغيرة مفتخراً بشجاعته
وشعره:

يهددني بالعظيم الوليد فقلت أنا ابن أبي طالب

أنا ابن المجل بالأطوحى وبالبيت من سلفي غالب
 فلا تحسبني أخاف الوليد ولا أنسي منه بالهائب
 فيا ابن المغيرة إني امرؤ سموح الأنامل بالقاضب
 طويل اللسان على الشائين قصير اللسان على الصاحب
 فسرتم بتكذيكم للرسول تعيينون ما ليس بالهائب
 وكذبتموه بوحى السماء ألا لعنة الله للكاذب

٢- شعر الثبات على العقيدة: لا يحتاج الصحابة الكرام بشكل عام والخلفاء الأربعة بشكل خاص إلى شهادة تبرز انتماءهم العقدي لمنهج الإسلام الحنيف فقد ضحوا بأرواحهم وأموالهم في سبيل ذلك، وتعرض ثلاثة منهم للقتل، والعقيدة عند علي رضي الله عنه كانت في الصميم من روحه وعقله وقلبه ووجدانه فقد رسخ الإيمان في قلبه مذ كان صبياً ودافع عنه وهو شاب يافع حتى آخر لحظة في حياته، ولو أنه كان يريد الدنيا لأعد لها عدتها ولكنه أراد أن يكون إيمانه خالصاً لله تعالى وحده على منهاج أحمد ﷺ:

يا شاهد الله عليّ فاشهد إني على دين النبي أحمد
 من شك في الدين فإني مهتد يارب فاجعل في الجنان مورد

٣- شعر المناقضات لديه: استمرت المناقضات الجاهلية في عصر صدر الإسلام على ما كانت عليه مع اختلاف في معانيها التي تحولت إلى معاني إسلامية.

٤- الرثاء: يعد الرثاء من الأغراض الشعرية التي لم ينقطع الحديث عنها على مر العصور وهو الغرض الذي ما قال أحد شعراً إلا وللرثاء فيه نصيب، ذلك أن حياة الإنسان ما تفتأ تتحدث عن الموت والمصائب التي تحمل بهذا الإنسان لفقدان ولد أو والد أو زوجة أو زعيم أو أخ...

ولا شك أن أعظم المصائب على مر العصور كانت فقدان النبي محمد عليه الصلاة والسلام، التي كان وقعها على النفوس المؤمنة أشد من ضرب السيوف الصليبية في الرقاب المشروعة، وقد تخللت مسيرة حياة علي مصائب شتى منها موت الرسول عليه الصلاة والسلام وموت السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي، ومنها فقد الزهراء فاطمة رضي الله عنها،

وكذلك موت والده أبي طالب على أن موت الرسول محمد عليه الصلاة والسلام كان أكثرها تفعجاً، فقد كان لهذا الحدث تأثيراً كبيراً في نفس علي، إذ بقي يذكر هذه الحادثة طيلة حياته، خاصة والنبى قد عاش في بيت أبي طالب عمه فترة كفالة عمه له كما وأن علياً رضي الله عنه قد عاش في بيت النبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب، ومن ثم تزوج علي ریحانة النبي وأحب الناس إليه فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وهذا كله جعل علياً كلما يغدو ويروح إلى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بعد وفاته يبكي تفعجاً ويقول: يا رسول الله ما أحسن الصبر إلا عنك وأقبح البكاء إلا عليك ثم ينشد قائلاً:

ما غاض دمعي عند نازلة إلا جعلتك للبكا سبباً
 وإذا ذكرتك ميتاً سفحت عني الدموع ففاض وانسكبا
 وقال أيضاً رضي الله عنه في رثاء النبي عليه الصلاة والسلام:

أمن بعد تكفين النبي ودفنه نعيش بآلاء ونجنح للسلوى
 رزئنا رسول الله حقاً فلن نرى بذاك عديلاً ما حيننا من الروى
 وكنت لنا كالحصن من دون أهله له معقل حرز حريز من العدى
 وكنا بمرآكم نرى النور والهدى صباح مساء راح فينا أو اغتدى
 لقد غشيتنا ظلمة بعد فقدكم نهاراً وقد زادت على ظلمة الدجى
 فيا خير من ضم الجوانح والحشا ويا خير ميت ضمه الترب والثرى
 كأن أمور الناس بعدك ضمنت سفينة موج حين في البحر قد سما
 وضاق فضاء الأرض عنا برحبه لفقد رسول الله إذ قال قد مضى
 فقد نزلت بالمسلمين مصيبة كصدع الصفا لا شعب للصدع في الصفا
 فلن يستقبل الناس ما حل فيهم ولن يجبر العظم الذي منهم وهى
 وفي كل وقت للصلاة يهيجها بلال ويدعو للصلاة كما دعا
 ويطلب أقوام مواريث هالك وفينا مواريث النبوة والهدى

وقال أيضاً في رثائه ﷺ:

نفسى على زفرتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنما

وقال في رثاء النبي ﷺ:

ألا طرق الناعي بليل فراعني وأرقني لما استهل مناديا
فقلت له لما رأيت الذي أتى أغير رسولش الله أصبحت ناعيا
فوالله ما أنساك أحمد ما مشت بي العيس في أرض وجاوزت واديا
وقال في رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام:

كنت السواد لناظري فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

أما زوجته فاطمة وابنة عمه وريحانة رسول الله ﷺ فقد كانت الحبيب الثاني الذي افتقده بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنها من وجهة نظر علي حبيب ليس بعده حبيب، وإن فقدان هذا الحبيب هو من غصص الدنيا مع اعتقاد علي أن كل اجتماع بين خليلين بعده فراق. وأنه لا دوام للمخاللة.

قال في رثاء الزهراء:

أرى علل الدنيا علي كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الممات قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحد دليل على أن لا يدوم خليل
وقال عند قبر فاطمة الزهراء رضي الله عنها:

حبيب ليس يعدله حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن عيني وجسمي وعن قلبي حبيبي لا يغيب

ولا يمكن أن نغفل ما لموت السيدة خديجة بنت خويلد من أثر عميق في نفس علي ونفس الرسول عليه الصلاة والسلام، والمسلمين إذ سُمِّي العام الذي توفيت فيه السيدة خديجة وأبو طالب والد علي وعم الرسول ﷺ بـ (بعام الحزن) خاصة بعد أن كثر أعداء الرسول وقل مناصروه.

قال علي في رثاء خديجة أم المؤمنين وأبي طالب:

أعيني جوداً بارك الله فيكما وسيدة النسوان أول من صلّى
مهذبة قد طيّب الله خيمها مباركة والله ساق لها الفضلا
وقال يرثي أباه أبا طالب:

أرقت لنوحٍ آخر الليل غرداً لشيخٍ والرئيس المسعدا
أبا طالب مأوى الصعاليك ذا الندى وذا الحلم لا خلقاً ولم يك قعددا

ولم يترك علي مصيبة أصابت المسلمين وأثرت فيهم إلا عاشها معهم وسجلها في خطبه أو أقواله أو أشعاره وخاصة موقعة أحد، ثاني مواقع المسلمين مع المشركين والتي كاد المسلمين يخسرونها بسبب عدم إطاعة الرماة لوصية الرسول بالثبات على الجبل وعدم النزول ولو رأوا المسلمين منتصرين، مما سبب في كثرة الشهداء من المسلمين في هذه الموقعة.

٥- الهجاء الإسلامي عند علي رضي الله عنه.

يعد الهجاء من الأغراض الشعرية التي كان يوليها العرب اهتماماً كبيراً في الجاهلية، لما له من أثر كبير في النقائص الجاهلية، ولأن شاعره مهاب الجانب؛ لأنه يستطيع أن يهزأ حتى بأكبر زعماء القبائل وتلك خصيصة ممقوتة عند العرب ولكنه في عصر صدر الإسلام لم يفقد مكانته بين أغراض الشعر ولم يعد مرغوباً فيه بصفاته الجاهلية فقد تحول الولاء للدين الجديد بدل القبيلة، كما أن الإسلام حارب الهجاء المقذع وحاسب الرسول ﷺ وصحابته قائله كما وأن الإسلام جاء داعياً للمساواة بين الناس ومن هنا فقد كان هجاء علي رضي الله تعالى عنه بعيداً عن الهجاء الجاهلي؛ إذ إنه لم يتعرض لهجاء أحد من الناس سوى من كان يحارب الإسلام

والمسلمين وينال من الدين الجديد أو من يؤذي رسول الله ﷺ وأهله وصحابه وأكثر ما انصبَّ هجاء علي على أبي لهب وزوجته بنت عتبة لما كان يصنعانه من أذى للرسول ﷺ.

قال علي رضي الله عنه في أبي لهب وزوجته:

أبألهب تبت يداك أبألهب وتبت يداها تلك حمالة الحطب
خذلت نبياً خير من وطئ الحصى فكنت كمن باع السلامة بالوصب
لحقت أبأجهل فأصبحت تابعا له وكذلك الرأس يتبعه الذنب
فأصبح ذاك الأمر عاراً يهبله عليك حجيج البيت في موسم العرب

٦- الأدب الاجتماعي في شعر علي رضي الله عنه:

يعد علي رضي الله عنه رائد الأدب الاجتماعي في عصره، فقد كتب في معظم القضايا الاجتماعية التي عاشها والتي ما زال أدبنا يتحدث عنها وعلى رأس هذه القضايا هي قضية المساواة بين الناس وترك التفاخر بالنسب مع أنه رضي الله عنه كان من نسيب شريف فجدّه عبد المطلب، وهو ما هو في نسبه في قريش مما يدل على أنه لم يتحدث بهذه القضية؛ لأنه كان يعاني من صنعة النسب أو نقص في المنزلة، بل لأن فطرته كانت توحيدية سليمة من النزاع التافهة فالناس عنده من معدن واحد هو الطين والماء وهو صنعة إلهية لا قيمة لها إلا بتكريم الله بقوله لها: (كن) فكانت إنساناً مكرماً دون النظر إلى لونه أو حسبه أو شكله ومن هنا فقد قرع علي رضي الله عنه كل جاهل يفخر بنسبه قائلاً:

أيها الفاجر جهلاً بالنسب إنما الناس لأم ولأب
هل تراهم خلقوا من فضة أم حديد أم نحاس أم ذهب
بل تراهم خلقوا من طينة هل سوى لحم وعظم وعصب
إنما الفخر لعقل ثابت وحياء وعفاف وأدب

ولذلك فقد ركز علي رضي الله عنه على المساواة الإنسانية بين الناس جميعاً بكافة أعراقهم ولا فخر لأحد على أحد إلا بالتقوى والعلم والعقل. وكتب في المساواة الإنسانية بين الناس فهم من جهة التماثل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء.

الناس من جهة التمثيل أكفء أبوهم آدم والأُم حواء
فإن يكن لهم من أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء
وعلى الرغم من أن علياً قد غالب كل صعوبات الحياة وغلبها إلا أن عدوه اللدود (الفقر)
لم يستطع أن يغلبه، واعترف أن الفقر غلبه؛ لأنه إن أظهره غلبه وإن أخفاه غلبه وفي ذلك
يقول:

غالبت كل شديدة فغلبتها والفقير غالبني فأصبح غالبني
إن أبده يصفح وإن لا أبده يقتل فقبح وجهه من صاحب
وكثيراً ما كنا نرى شكوى علي رضي الله عنه من غدر الزمان وخيانة الأصدقاء وغدرهم
وتخليهم عنه رغم وفائه لهم، ثم عرج على كونهم أصدقاء حين تتخلى عنهم وأعداء حين تقع
المصيبة وأكد على أن المودة لا تصفو إلا إذا كانت خالصة لله تعالى.
قال رضي الله عنه في الأصدقاء والزمن:

تغيرت المودة والإخاء وقل الصدق وانقطع الرجاء
وأسلمني الزمان إلى صديق كثير الغدر ليس له رعاء
ورب أخٍ وفيئْتُ له بحقِّ ولكن لا يدوم له وفاء
أخلاءٌ إذا استغنيت عنهم وأعداء إذا نزل البلاء
وإذا ما رحنا إلى موقفه من المرأة نجده يؤكد على كون طبيعة المرأة أقرب إلى عدم الوفاء
ومخالفة العهود وكسر قلوب الرجال دون جبرها، وكأنه فهم معنى كثرة دخول النساء النار
لأنهن يكفرن العشير كما أشار إلى ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام قال في النساء:

دع ذكرهن فما لهن وفاء ریح الصبا وعهودهن سواء
يكسرن قلبك ثم لا يجبرنه وقلوبهن من الوفاء خلاء

٧- أدب التربية والقيادة في شعر علي رضي الله؛ وهو نوع من النصائح التي كان
يُزجها علي رضي الله عنه لأبنائه كي يكونوا شامة في أوجه الناس وقادة صالحين ودعاة
بارعين يقومون بتوجيه الناس نحو الخير والحق والعدل.

ومن ذلك ما نصح به ابنه الحسين رضي الله عنهما حين قال:

إذا كنتَ في بلـدة غريباً فباشِر بآدابها
ولا تفخرن بـينهن بالنهي فكلّ قبيـلٍ بألبابها
وقال في أهمية العقل:

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

٨- الشعر الداعي للعلم والأدب عند علي رضي الله عنه: عرف عن علي رضي الله عنه

أنه من الدعاة للعلم والأدب، كيف لا؟ وهو من أبلغ البلغاء وأكبر العلماء وأخطب الخطباء وأشعر الشعراء فالعلم لديه ذو مكانة عالية وكان علمه واسعاً وفهمه قائماً يسلك سبله تظله الملائكة كما المؤمنون بأجنحتهم؛ لأنه يدرك أن الفضل كله لأهل العلم؛ لأنه سبيل الهدى وأهله وأن قيم الإنسان بقدر ما يملكه من علم وأن أعداء أهل العلم الجهلاء وأن أهل العلم هم الأحياء وغيرهم الأموات.

وقد قال رضي الله عنه في العلم:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلا فالناس موتى وأهل العلم أحياء
وأكد علي أنه لا زينة سوى زينة العلم فجمال المرء ليست هي الثياب وإنما هي ثياب العلم والأدب فإذا افتقد الإنسان العلم فقد أصبح يتيماً ولو لم يفقد والده.

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذي قدمات والده إن اليتيم يتيم العلم والأدب
وهكذا بلغ به الأمر أن يرى أن العلم أفضل من الحسب على الرغم من تعلق العرب بأنسابهم أكثر من تعلقهم بالعلم. وكان مفضلاً الأدب على الحسب:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
فليس يغني الحسيب نسبه بلا لسان له ولا أدب
إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

٩- الشعر الإلهي:

بعد الغرض الديني من أهم الأغراض الشعرية التي كتب فيه علي معظم ما اختلج به نفسه فقد عاش رضي الله عنه منذ صباه القضية الدينية التي حملتها دعوة الرسول محمد ﷺ والتي حملتها الرسالة الإسلامية إلى الإنس والجن وهي قضية التوحيد، وهي أهم ما قدمته الرسالة الإسلامية لهذا العالم؛ فقد بقي العالم يعيش حالة تعدد الآلهة حتى أعلن رسول الله ﷺ أن قوام دعوته (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وبذلك فقد حفل شعر علي رضي الله عنه بهذا الغرض من رأسه حتى أخص قدميه، حيث لا تجد مقطوعة أو قصيدة أو أبيات متفرقة إلا والتوحيد الجزء الأكبر منه وقصيدته التي مطلعها:

لك الحمد والجود والمجد والعلا تباركت تعطي من تشاء وتمنع
إلهي وخلقي وحرزي وموئلي إليك لدى الإعسار واليسر أفرع
إلهي لئن جلت وجمت خطيئتي فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع
فقد ذكر فيها كلمة إلهي اثنتين وعشرين مرة مما يدل على أن قضية التوحيد هي الشغل الشاغل لبال علي رضي الله عنه كما وأنه كتب في الصبر والقدر والرضا وتقديم الأعمال الصالحة وعدم الاغترار بالدنيا والركون إليها ووجوب العمل بطاعة الله تعالى وضرورة تقواه والإعداد للقائه. والقصيدة الزينية عامرة بهذه القيم الخيرة:

فعليك بتقوى الله فالزمها تفز إن التقى هو البهي الأهيـبُ
واعمل بطاعته تنل منه الرضا إن المطيع لربه لمقربُ
واقنع ففي بعض القناعة راحة والياس مافات فهو المطلب
ولم يغفل علي عن قضية القدر التي تعد عمدة الإيمان الراسخ وفي ذلك يقول:

إذا عقد القضاء عليك أمرا فليس يحلّه إلا القضاء
فما لك قد أقمت بدار ذل وأرض الله واسعة فضاء
تبلىغ باليسير فكل شيء من الدنيا يكون له انتهاء
ذلك أن القضاء هو محور حياة الإنسان الذي يعد ظلاً زائلاً أو ضيفاً بات ليلة، ثم ارتحل
وفي ذلك يقول:

إنما الدنيا كظل زائل أو كضيف بات ليلاً فارتحل
ولذلك يلوم علي كل من يشتغل بهذه الدنيا وغره الأمل؛ لأن الموت يأتي فجأة:

يا من بدنياه اشتغل وغره طوول الأمل
الموت يأتي فجأة والقبر صندوق العمل
أما التفاضل بين الناس بالتقوى فقد كان أساس عقيدته الصحيحة:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا ترك التقوى اتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب
أرأيت كم كان علي متقدماً على عصرنا في الدعوة إلى المساواة بين الناس دون النظر إلى
أعراقهم وألوانهم وأقوامهم. لقد كان مؤمناً بأن القادر على تفريج كل كرب أو ضيق هو الله
وحده الذي يضع الإنسان في دائرة الامتحان، ومن ذلك قوله في الفرج بعد الضيق:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لمابه الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واستقرت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ يمنّ به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصولٌ بها فرج قريب
لقد كان علي يؤمن بأن الرزق لا يأتي بالتمني، ومن هنا حث على العمل وطلب الرزق:

وما طلب الرزق بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء

تجئك بملئها يوماً ويوماً تجئك بحمأة وقليل ماء
لأن الكثير من الناس يتوهم أن الرزق يأتي بالتواكل والخمول وإن كان البعض يرى أن
أهل الفطنة والعقل غالبهم من الفقراء وأن أكثر الأغنياء من الأغبياء وأنه لا حيلة مع الرزق،
فإنه يرزق من يشاء وكيف يشاء. فالأرزاق حظ وقسمة لا عقل وفطنة:

فلو كانت الدنيا تنال بفطنة وفضل وعقل نلت أعلى المراتب
ولكننا الأرزاق حظ وقسمة بفضل مليك لا بحيلة طالب

نماذج من شعر علي بن أبي طالب في عصر صدر الإسلام:

١ - فزادهم ذو العرش خبلاً على خبل:

ألم تر أن الله أبلى رسوله
بما أنزل الكفار دار مذلة
وأسمى رسول الله قد عز نصره
فجاء بفرقان من الله منزل
فأمن أقوامٌ بذلك وأيقنوا
وأنكر أقوامٌ فزاغت قلوبهم
وأمكن منهم يوم بدر رسوله
بأيديهم بيض خفاف قواطع
فكم تركوا من ناشئ ذي حمية
تبيت عيون النائحات عليهم
نوائح تنعى عتبة الغي وابنه
وذا الدحل تنعى وابن جدعان منهم
ثوى منهم في بئر بدر عصاة

بلاء عزيز ذي اقتدارٍ وذي فضل
فذاقوا هواناً من إسارٍ ومن قتل
وكان رسول الله أزيل بالعدل
مبيناً آياته لذوي العقول
وأنسوا بحمد الله مجتمعي الشمل
فزادهم ذو العرش خبلاً على خبل
وقوماً غصاباً فعلهم أحسن الفعل
وقد حادثوها بالجلاء وبالصقل
صريعاً ومن ذي نجدة منهم كهل
تحود بأسباب الرشاش وبالويل
وشيبة تنعاه وتنعي أبا جهل
مسلبة حرى مبينة الثكل
ذوو نجداتٍ في الحرؤب وفي المحل

دعا الغيِّ منهم من دعا فأجابه
فأضحوا لدى دار الجحيم بمنزلٍ
٢- غَادَرْتُ كَبَشَهُمْ:

رَأَيْتَ الْمُشْرِكِينَ بَغَاؤًا عَلَيْنَا
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ إِذْ نَفَرْنَا
فَإِنْ يَبْغُوا وَيَفْتَحِرُوا عَلَيْنَا
فَقَدْ أُوْدِي بَعْتَبَةَ يَوْمَ بَدْرٍ
وَقَدْ فَلَلْتَ خَيْلَهُمْ بِيَدْرِ
وَقَدْ غَادَرْتُ كَبَشَهُمْ جِهَارًا
٣- الله قد نصر رسوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَمِيلِ الْمَفْضِلِ
شُكْرًا عَلَى تَمَكِينِهِ لِرَسُولِهِ
كَمْ نِعْمَةٌ لَا أَسْتَطِيعُ بَلُوغَهَا
لِلَّهِ أَصْبَحَ فَضْلُهُ مُتَّظَاهِرًا
قَدْ عَايَنَ الْأَحْزَابَ مِنْ تَأْيِيدِهِ
مَا فِيهِ مَوْعِظَةٌ لِكُلِّ مُفَكِّرٍ
٤- يحاسبها ملك قادر:

إِذَا قَرَبْتَ سَاعَةَ يَأْهَاهَا
تَسِيرُ الْجِبَالُ عَلَى سُرْعَةٍ
وَتَنْفَطِرُ الْأَرْضُ مِنْ نَفْحَةٍ
وَلَا بُدَّ مِنْ سَائِلٍ قَائِلٍ

وَاللَّغْيِ أَسْبَابٌ مُقَطَّعَةٌ الْوَصْلِ
مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ فِي أَشْغَلِ الشُّغْلِ

وَلَجَّوْا فِي الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ
عَدَاةَ الرَّوْعِ بِالْأَسْلِ الطَّوَالِ
بِحَمْزَةٍ وَهِيَ فِي الْغُرْفِ الْعَوَالِي
وَقَدْ أَبْلَى وَجَاهَهُ غَيْرَ آلِ
وَاتَّبَعْتَ الْهَزِيمَةَ بِالرِّجَالِ
بِحَمْدِ اللَّهِ طَلْحَةَ فِي الضَّلَالِ

المسبغ المولي العطاء المجزل
بالتنصير منه على البغاة الجهل
جهداً ولو أعملت طاقة مقول
منه علي سألته أم لم أسأل
جند النبي بذي البيان المرسل
إن كان ذا عقل وإن لم يعقل

وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
كَمَرَّ السَّحَابِ تَرَى حَالَهَا
هِنَالِكَ تَخْرُجُ أَثْقَالُهَا
مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مَا هَا

تحدث أخبارها ربه
ويصُدُّرُ كُلُّ إِلَى مَوْقِفٍ
تري النفس ما عملت محضرا
يحاسبها ملك قادر
تري الناس سكرى بلا خمرة
٥- أعيني جودا:

وَرَبُّكَ لَا شَكَّ أَوْحَى لَهَا
يُقِيمُ الكُهُولَ وَأَطْفَالَهَا
ولو ذرَّةً كان مثقالها
فإما عليها وإما لها
ولكن تری العين ما هالها

أعيني جودا بارك الله فيكما
على سيّد البطحاء وابن رئيسها
مهذبةً قد طيب الله خيمها
لقد نصرنا في الله دين محمد
٦- يقولون لي قد قلاك الرسول:

عَلَى هَالِكَيْنِ لَا يُرَى لهُمَا مِثْلًا
وسيدة النسوان أول من صلّى
مباركةً والله ساق لها الفضلا
على من بغى في الدين قد رعيأ ألا

أَلَا بَاعَدَ اللهُ أَهْلَ النَّفَاقِ
يقولون لي قد قلاك الرسول
وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ النَّبِيَّ
فسرت وسيفي على عاتقي
فلما رأني هففا قلبه
أمن أبني فأنبأته
فقال أخي أنت من دونهم
٧- شفاعة:

وَأَهْلَ الْأَرَاغِيْفِ وَالْبَاطِلِ
فخلاك في الحالف الخاذل
جفاك وما كان بالفاعل
إلى الراحم الحاكم الفاصل
وقال مقال الأخ السائل
بإزجاف ذي الحسد الداغل
كهارون موسى ولم يأنل

أبا طالب عصمة المستجير
لقد هدّد فعدك أهل الحفاظ

وغيث المحول ونور الظلم
فصلى عليك ولي النعم

ولقياك ربُّك رضوانه
٨- كَأَنَّ جَبِينَهُ شَمْسٌ:

يا عمرو وقد لاقيت فارس همة
من آل هاشم من سناء باهر
يدعو إلى دين الإله ونصره
بمهندٍ عضب رقيق حده
ومحمد فينا كأن جبينه
والله ناصر دينه ونبيه
شهدت قریش والبراهم كلها
٩- نحن الخيار من البرية كلها:

الله أكرمنا بنصر نبيه
وبنا أعز نبيه وكتابه
ويزورنا جبريل في آياتنا
فنكون أول مستحل حله
نحن الخيار من البرية كلها
الخائضون غمار كل كريهة
والمرؤمون قوى الأمور بعزة
في كل معترك تطير سيوفنا
إننا لنمنع من أردنا منعه
وترد عادية الخميس سيوفنا
١٠- فوالله لا أنساك أحمد:

فقد كنت للمصطفى خير عم

عند اللقاء معاود الإقدام
ومهدذيين متوجين كرام
وإلى الهدى وشرائع الإسلام
ذي رونق يفري الفقار حسام
شمس مجلت من خلال غمام
ومعين كل موحدٍ مقدم
أن ليس فيها من يقوم مقامي

وبنا أقام دعائم الإسلام
وأعزنا بالنصر والإقدام
بفرائض الإسلام والأحكام
ومحرمٍ لله كل حرام
ونظامها ونظام كل زمام
والضامنون حوادث الأيام
والناقصون مرائر الإبرام
فيه الجماجم عن فراخ الهام
ونجود بالمعروف للمعتام
ونقيم رأس الأصيد القمقام

أَلَا طَرِقَ النَّاعِي بَلِيلٌ فِرَاعِنِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ الَّذِي أَتَى
فَوَاللَّهِ لَا أُنْسَاكَ أَحْمَدُ مَا مَشَتْ
وَكُنْتُ مَتَى أَهْبَطَ مِنَ الْأَرْضِ تَلْعَةً
جَوَادٍ تَشْطَى الْخَيْلَ عَنْهُ كَأَنَّمَا
مِنَ الْأَسَدِ قَدْ أَحْمَى الْعَرِينَ مَهَابَةً
شَدِيدٌ جَرِيءٌ النَّفْسِ مَهْدٌ مُصَدَّرٌ
أَتَتْكَ رَسُولَ اللَّهِ خَيْلٌ مُغِيرَةٌ
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ صَفٌ مَقْدَمٌ

وَأَرْقَنِي لَمَّا اسْتَهَلَّ مُنَادِيَا
أَغْيِرَ رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحْتَ نَاعِيَا
بِ الْعَيْسُ فِي أَرْضٍ وَجَاوَزْتُ وَادِيَا
أَجْدُ أَثْرًا مِنْهُ جَدِيدًا وَعَافِيَا
يَرِينُ بِهِ لَيْثًا عَلَيْهِنَّ ضَارِيَا
تَفَادَى سَبَاعُ الْأَرْضِ مِنْهُ تَفَادِيَا
هُوَ الْمَوْتُ مَعْدُوٌّ عَلَيْهِ وَعَادِيَا
تُثِيرُ غُبَارًا كَالضَّبَابَةِ كَابِيَا
إِذَا كَانَ ضَرْبُ الْهَامِ نَفْقًا تَفَانِيَا

٢- حسان بن ثابت الإسلامي رضي الله تعالى عنه

أولاً- حالة الشعر في مكة المكرمة والمدينة المنورة أيام حسان

بينما كان حسان قد قضى ردها قد يساوي نصف عمره في حياة الجاهلية في المدينة المنورة كانت قريش تحكم سيطرتها على مكة المكرمة وتبرز بين القبائل كقبيلة مميزة بفضل رسائل الشرف التي كانت تتولاها (السقاية- الرفادة- سدانة البيت) وبفضل ما كانت تحتكره من التجارة والإقراض بالربا، ولذلك عندما نزل القحط بالعرب كان سادة قريش أقدر العرب على مواجهته والاتصال بغيرهم فاتصل هاشم بالغساسنة واتصل نوفل بالفرس واتصل عبد شمس بالنجاشي فاتسعت تجارتها في الصيف شمالاً وجنوباً في الشتاء ونعموا بخير كثير قال تعالى: (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وتنازع أبناء قريش وسائل الشرف فكانت سقاية الحاج لبني هاشم وراية الحرب لبني أمية والرفادة لبني نوفل.

ثم كان عام الفيل (٥٧٠م) عندما غزا الأحباش اليمن دفاعاً عن نصارى نجران فغزوا الكعبة المشرفة بجيش من الرجال والفيلة. لم يستطع أهل مكة مواجهته فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، وكانت مدن مكة المكرمة

والمدينة المنورة والطائف حكومات مستقلة في الحكم وكانت الأوس والخزرج أبرز القبائل في المدينة المنورة ويهاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ويشرق نور الهداية الربانية على بطاحتها وتحدث المعركة بين الإسلام والوثنية بعد أن استشاطت قريش غيظاً وبعد أن ناصبت الرسول العدا، حيث هب شعراء مكة ينالون من الرسول ﷺ وصحابته وانبرى شعراء المدينة المنورة لمناقضتهم وكانوا من الخزرج، بينما التزم الحياد الشعراء غير المنتمين لأحد القبيلتين على الرغم من أن أمية بن أبي الصلت وكعب بن الأشرف انحازا لقريش ورثيا قتلى المشركين لبدر وحرصاً على الأخذ بالثأر ورحل كعب بن الأشرف إلى مكة المكرمة لتحريض قريش على المسلمين، ثم عاد يهجو المسلمين في المدينة ويشبب بنسائهم وأمهات المؤمنين مما أدى إلى قتله في ديار قومه.

ودخلت القبائل الإسلام وانحاز شعراؤهم إلى شعراء الرسول ﷺ يمدحونه ويناضلون خصومه كعباس بن مرداس وبجير بن زهير؛ وأسلم في العام نفسه ضرار بن الخطاب وأبلى أبو سفيان بلاءً حسناً في الدفاع عن الرسول في حنين ووقف ضرار مواقف صادقة في جهاده مع خالد بن الوليد في فتح العراق وقتل الرسول لابن صباة وابن خطل الذي كانت تغنيه جاريته بهجاء الرسول ومبالغتهم بإيذاء المسلمين وفر ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب إلى نجران وسمع ابن الزبعرى قول حسان:

لا تعد من رجل أحلك بغضه نجران في عيش أخذئيم
 فعاد إلى مكة المكرمة وأسلم واعتذر للرسول ومدحه ومات ابن هبيرة مشركاً في نجران
 وضاع أغلب شعر المشركين واليهود وأهمل أكثر مؤرخي الأدب ذكرهم وسكنت ريح الشعر
 بعد فتح مكة المكرمة وانصرف بعض الشعراء لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية ونشر دين
 الله والاندماج في الوعي الإسلامي ووقف نمو الشعر والاتجاه إليه، ولم ينشد إلا للفصاحة
 وتأريخ الأحداث وذكر الفتوح وراث الخلفاء وفتنة عثمان، وقل مديح التكسب لآزدراء
 المجتمع له واعطني بحماية الأعراض.

في كل هذه المعارك اللسانية كان حسان بن ثابت من المدافعين عن الدين الجديد وعن الرسول ﷺ وكان من السابقين لذلك، فإذا أرسل لسانه لم يجدوا دعفاً:

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما دفعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع
وتحدث أهل الإفك والكذب في شأن السيدة عائشة وخاض الخائضون واتهمت سيدة
الشرف التي لم تكن لتقدم على أفعال دون ذلك وهي زوجة رسول الله وابنة الصديق رضي الله
عنه، فقد اشترك زعيم المنافقين في تصعيد حملة كذب في حقها مع مصطح بن أثانة وحمنة بنت
جحش وخاض في حديث الإفك معهم حسان بن ثابت والذي تولى كبره عبدالله بن أبي ابن
سلول وقد حدّ حسان بن ثابت بالجلد مع أولئك الخائضين وقد تحدث عن ذلك كعب بن
مالك وقال ابن رواحة:

لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
وابن سلول ذاق في الحد خزبة كما خاض في إفك من القول يفصح
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذي العرش الكريم فأبرحوا
وقد اعتذر حسان للسيدة عائشة بأبيات منها:

فإن كنت قد قلت الذي زعمتم فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
وقد أنكر بعض الناس خوض حسان في حديث الإفك وجلده فيه وروي عن السيدة
عائشة أنها برّأته من ذلك في طوافها حول البيت الحرام حين سبته أم حكيم بنت خالد وأم
حكيم بنت عبدالله فقالت السيدة عائشة: أبنّ الفريعة تسبّان؟ إني لأرجو أن يدخله الله الجنة
فقد دافع عن النبي ﷺ بلسانه أليس هو القائل:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعن الله في ذاك الجـزاء
وقيل: قالت لها: أليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ فقالت: لم يقل شيئاً
ولكنه الذي يقول:

حصان رزان ماتزن لريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

والظاهر أنه لم يتكلم بالإفك ولكنه نقل هذا الحديث عن ابن أبي سلول وقصة الإفك تهذيب للمجتمع وتأديب للنفوس وقد أنزل الله تعالى تبرة للسيدة عائشة (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) وكان حسان قد أكثر على صفوان بن المعطل في شأن السيدة عائشة وكان يعرض به فضر به صفوان بالسيف على رأسه وقال:

تلق ذباب السيف عني فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر
ولما علم رسول الله بذلك قال: يا حسان أتشوفت على قومي أن هداهم الله للإسلام؟ يا حسان! أحسن فيما أصابك قال حسان: هي لك يا رسول الله فأعطاه الرسول ﷺ: (سيرين القبطية) وأعطاه أرضاً كانت لأبي طلحة وآلت إلى رسول الله وقد حزن لوفاة رسول الله فما فتى يبكيه وأقلقته الفتنة التي حلّت بابن عفان رضي الله عنه، وقد كان هجا النجاشي وقومه فأفزعهم فأقبلوا إليه بشاعرهم موثقاً واعتذر بنو المدان منه فأطلقه النجاشي وأعطاه حسان بقية جائزة كانت له من معاوية، وكان بفراسته قد أخبر بوقعة صفين وقال بعدما كف بصره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلب ذكي وعقل غير ذي رذل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

واختلف في وفاته بين (٦٧٤ م) بعد أن عمّر مئة وعشرين عاماً، وكان أبوه وجده وأبو جده قد عاش مئة وعشرين عاماً مثله.

ثانياً- حياته وشخصيته ومذهب شعره وأغراضه الشعرية:

أ - نشأته وحياته: ولد حسان بن ثابت بن المنذر بن حزام النجاري، الخزرجي في المدينة المنورة عام (٧٠ ق - هـ)، وتوفي في زمن معاوية عام (٥٤ هـ - ٦٧٤ م) وقد عاش مئة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام، وهو شاعر مخضرم وفد على الغساسنة في الشام، ووفد على المناذرة في الحيرة، ثم وقف شعره بعد قدوم الرسول إلى المدينة على المنافحة عن الدين الإسلامي الجديد.

ب - شخصيته: كان حسان بن ثابت فارساً لا يشق له غبار على الرغم من الدعايات التي أحاطت به من أنه لم يكن شجاعاً، بنى شخصيته الشعرية من القيم السامية التي استقاها أيام

جاهليته، وبعد إسلامه، ولكنه بقي متميزاً بسرعة الانفعال والاعتزاز الشديد بنفسه والمبالغة في التعصب لقومه، اتهمه بعض النقاد بالجبين لعدم مشاركته مع الرسول في غزواته مع أنه كان مصاباً بعلّة إضافة إلى كبر سنّه منعه من ذلك، وقد وصفه الرسول عليه السلام بالأسد قائلاً: (قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضاري بذنبه). داعياً حسان لقتال المشركين.

ج - مذهبه الشعري: أما مذهبه الشعري فلم يختلف كثيراً في العهد الإسلامي عنه في العهد الجاهلي سوى أن أساليبه في الإسلام قد سلمت من الحوشية وخالطها لين الحضارة، ولم تخل في بعض الأغراض من جزالة الألفاظ وفخامة المعنى وضخامة العبارة كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي ﷺ ورسالة الإسلام ومعارضة المشركين وهجوهم، وقد غلبت عليها الصيغة الإسلامية كتوليد المعاني الدينية والاستعانة بالقرآن وتشبيهاته وكنائياته اللطيفة وأمثاله البارعة واقتباس عباراته من السنة النبوية، وغلب على ألفاظه وأساليبه ومعانيه سهولة المأخذ وواقعية الصورة وقرب الخيال والرقّة واللين والدمائة واللفظ ويكثر ذلك في شعر توحيد الله وتنزيهه ونبذ عبادة الأوثان، وقد لان ورق في وصف تأثره الإسلام وبيان ثواب المسلمين وعقاب المشركين، وفي مدح الرسول ﷺ.

وقد نسب بعض النقاد صفة السهولة وغلبة اللين على إسلامياته إلى شيخوخته في المعاني الجديدة ومخالطة ألفاظ الإسلام وهي صفة مذمومة عند الشعراء، فحسان تحول لديه الشعر من هدف فني للقدرة على الصياغة والتفرد بها إلى وسيلة عملية للدفاع عن الإسلام ونشر دعوته والمنافحة عن الرسول بالإضافة إلى أن الإسلام دعا إلى تحطيم عوامل الشر كالتشبيب بالنساء وشرب الخمر والعصبية الجاهلية والهجاء الفاحش وحب الانتقام والثأر وهي بواعث تهيج الشاعر وتلهب مشاعره وتجعل نفسه تبحر بالشعر.

والشعر نكد كما يقول الأصمعي يقوى في الشر ويضعف في الكذب وسئل حسان عن لين شعره في الإسلام فقال: إن الإسلام يحجز الكذب والشعر يزينه الكذب جاء منحولاً مدسوساً عليه لغرض ديني أو فكاھي، وادّعى ابن خلدون أن شعر الإسلاميين أعلى طبقة من الجاهليين لمعاصرتهم القرآن والحديث الشريف، وأما لين شعره فهو من باب السهولة والعدوبة.

د- أغراض شعر حسان الإسلامية:

وقف حسان بن ثابت رضي الله عنه بجانب الرسول محمد ﷺ منافحاً عن الرسول وداعياً للرسالة الإسلامية الجديدة حيث فتح باب المناقضات الشعرية لمن بعده من الشعراء، وقد قال في الفترة الإسلامية من حياته في جميع أغراض الشعر باستثناء الأغراض الشعرية المتعارضة مع تعاليم الدين الجديد كشعر الخمرة والغزل المتهتك والهجاء الفاحش إلا ما أوجبه شفاعته الأعداء وبشاعتهم، ومن أهم الأغراض الإسلامية في شعره:

١- شعر الأحداث: لم يتح لشاعر من الشعراء مثلما أتيح لحسان من حوادث متعاقبة مهمة أرخ فيها شعره فقد خف المسلمون من الأوسيين والخزرجيين لمكة المكرمة لتثبيت ولائهم للرسول ﷺ ومبايعتهم له وترافقهم روح حسان لا جسمه إذ أنه جاوز الستين، وحين يعود من أسلموا من أهل المدينة من مكة المكرمة يسمع أهل مكة هاتفاً يهتف:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاق الخلائف
فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيباً إلى داعي المهدي وتمنيا على الله في الفردوس منية عارف
وبعد بيعة العقبة الثانية أخذت قريش تبحث عن المبايعين للرسول العائدين للمدينة فلم يجدوا إلا (سعد بن عباد و المنذر بن عمرو) وقد أعجزهم المنذر ولكنهم آذوا سعداً ولم يخلصه منهم إلا من كان يجيره في مكة وفي ذلك قال ضرار:

تداركت سعداً عنوة فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذرا
فرد عليه حسان:

لست إلى سعد ولا المرء منذر إذا ما مطايا القوم أصبحن خمرا
ويهاجر الرسول ﷺ بعد حصار قريش له ويؤاخي بين الأوس والخزرج ويسميهم الأنصار ويؤسس دولة الإسلام ويقوم بتنظيم الدعوة والجهاد وفي ذلك يقول حسان:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا
فلما أتانا واطمأنت به النوى فأصبح مسروراً بطيبة راضيا

ويؤكد على جهاد الأنصار والمهاجرين وتأييد الله تعالى لهم:

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم وأنصاره حقاً وأيادي الملائكة
وتمتعص قريش لنجاح الهجرة فيهجون الرسول ويدفعهم حسان بشعره فيختاره الرسول
شاعراً له يرثي الشهداء ويشيد بالأجداد ويتهج ابن الزبعرى بهزيمة المسلمين في (أحد) بعد
انتصارهم قائلاً:

أبلغنا حسان عني آية فقريض الشعر يشفي ذا الغلل
كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل
فيرد عليه حسان:

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان منها الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ولننا منكم وكذاك الحرب أحياناً دول
وتدبر هند مؤامرة اغتيال حمزة بعد أن قتل أباه وتفرح، فيرد حسان فرحها حزناً قائلاً:

لا تفرحي يا هند واستجلبي دمعاً وأذري عبرة الثاكل
وابكي على عتبة إذ قطه بالسيف تحت الرهج الجائل
فترجز هند قائلة:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان من عتبة لي من صبر ولا أخبي وعمه وبكر
ويطلب عمر بن الخطاب من حسان أن يسكتها فيقول حسان:

أشرت لكعاع وكان عاداتها لؤم إذا أشرت مع الكفر
لعن الإله وزوجها معها هند الهنود طويلة البظر
ويهجو حسان تحمیل قريش لواءهم في (أحد) لأمة (عمرة بنت علقمة) بعد سقوطه تسع
مرات فيقول:

فخرتم باللواء وشر فخر لواء حين رد إلى صواب

جعلتم فخركم فيه بعبد والأُم ما يطا عفر التراب
وعندما ذكر بعض الناس أبا بكر بسوء يدعو حسان للدفاع عنه بعد أن يعنفهم:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
ولما امتن الله تعالى على المسلمين بصلح الحديبية وفتحت مكة المكرمة ينشد حسان شعره
ويردده الفاتحون، ولكنه يعاتب الرسول على تقديم بني سليم على قومه، ويعتب الرسول على
ذلك ويرضي الأنصار بعد بكاء عميق ويزهو حسان بقومه الذين أقاموا عمود الدين قائلاً:

أروني سعوداً كالسعود التي سمت بمكة من أولاد عمرو بن عامر
أقاموا عمود الدين حتى تمكنت قوائمه بالمرهفات البواقر

٢- رثاء حسان الإسلامي؛ عاش حسان مع المسلمين بروحه وعاطفته وسجل بالشعر
أحداثهم وبكى موتاهم وشهداءهم فرثى شهداء مؤتة أصحاب الرسول ﷺ (عبد الله بن
رواحة - زيد بن حارثة - جعفر بن أبي طالب) ورثى حمزة بن عبد المطلب بأكثر من مرثية
ورثى حبيب بن عدي وأصحابه حين غدرت بهم هذيل ويستعصي عليه الشعر عند موت
النبي ويفحمه المصاب، ثم بعد فترة يخاطب الرسول باكياً:

كنت السواد لناظري فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
وقد طبعت الدعوة الإسلامية رثاء حسان بطوابع المعاني الإسلامية ومفرداتها، وعندما
يجاور الرسول ﷺ ربه يرثيه حسان ويكيه قائلاً:

كان الضياء وكان النور تتبعه بعد الإله وكان السمع والبصرا
وكذلك يقول في رثائه:

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة عشية عدوه الثرى لا يوسد
وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيه محمداً

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفوا عن الزلات يقبل عذرهم وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفتقد
مع المصطفى أرجو بدار جواره وفي نيل ذلك اليوم أسمى وأجهد

٣- هجاء حسان الإسلامي: هجا حسان المشركين واليهود في ظل الإسلام ورماهم بالفرار والجبن واللؤم والجهل والعقوق والسفاهة وأنهم عبيد وأدعياء ولصقَاء وأبناء إماء وغير ذلك من المعاييب التي أوجعتهم، وقد كان رسول الله ﷺ يقول له: (شن الغارة على بني عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غلس الظلام) وقد كان حسان يهجو الشعراء المشركين من قريش كعبد الله بن الزبير وأبي سفيان وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب، وقد طالب الناس علي بن أبي طالب هجاء شعراء المشركين فقال: إن أذن لي النبي، فقالوا: يا رسول الله ائذن له فقال له: (إن علياً ليس عنده ما يراد في ذلك منه)، فقال حسان: أنا لها والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين فأرشدته أبو بكر إلى أنساب الرسول حتى لا يمسه. وقد هجا حسان هند بنت عتبة وكعب بن الأشرف ويهود قريظة وقد قال فيهم:

هم أتوا الكتاب فضيعوه فهم عمي من التوراة بور
وقال يهجو أبا جهل:

سماه معشره أبا حكم والله سماه أبا جهل
فما يجيء الدهر معتمرا إلا ومرجل جهله يغلي
ورمى حسان قوماً بالجبن فقال:

زبانية حول أياتهم وخور لدى الحرب في المعمعة
وقد هجا مجلساً لمزينة طاف بهم وهو أعمى فضحك به بعضهم، فقال حسان:

أبوك أبوك وأنت ابنه فبئس النبي وبئس الأب

وأملك سوداء معتممة كأن أناملها الحنظب
وقد استعاذ الحارث بن عوف بالرسول من هجاء حسان؛ لأنه على حد قوله لو مزج شعره
بالبحر مزجه.

ومن شعره في الهجاء قوله في هجاء ابن الأسلت أحد سادة الأوس:

ألا أبلغ أبا قيس رسولاً إذا ألقى لها سمعاً تبين
نسيت الجسر يوم أبي عقيل وعندك من وقائعنا يقين
تشيب الناهد العذراء فيها ويسقط من مخافتها الجنين
قتلتم واحداً منّا بألف هلا الله ذا الظفر المبين

ومن هجائه لأبي سفيان حين تعرض للرسول عليه السلام، يقول:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفاء فشركما خيـركما الفداء
يغلب على أسلوب حسان الرقة وسلاسة التعبير فهو حضري شعره مشوب بالعاطفة
والانفعال الظاهر جعله ابن سلام أشعر الشعراء الإسلاميين.

٤- مديح حسان الإسلامي: مدح حسان بن ثابت الرسول ﷺ، وخلفاءه وصحابته
وحواريه وفرسان المسلمين وشجعانهم والسيدة عائشة، وقد جاء مدحه للرسول ﷺ متصلاً
بغيره من أغراض الشعر وتغلب عليه الصنعة الدينية في مدحه للرسول والقوة الروحية
مستلهماً الساء وما جاء به الرسول من الآيات البيّنات وما تحلّى به الرسول من شريف
الصفات وهو مدح صادق مخلص.

٥- فخر حسان الإسلامي: يعد الفخر عند حسان من أهم أغراض الشعر لديه فقد كان
حسان من أعظم الشعراء فخراً في الجاهلية لاشتعال فخره على صفات الفخر عند العرب
(الشجاعة الكرم الأصل النسب) ولكن فخره في الإسلام جاء مناسباً لمعاني الفخر الإسلامية
كالفخر بالدين الجديد والاعتزاز به والفخر بنصرة الملائكة للمؤمنين.

٦- غزل حسان ونسيبه الإسلامي؛ لم يتغير شعر حسان في الغزل والنسب عما كان عليه في الجاهلية واكتفى منه بالغزل العفيف ونبد الغزل الفاحش وإن كان غزله يفتقر لصديق العاطفة؛ لأنه لم يصدر عن حب صادق أو تجربة حقيقية أو لأنه تقليد لعادة النسيب عند الشعراء.

٧- حكم حسان وأمثاله في الإسلام؛ زاد الإسلام شعر حسان حكمة وأمثالاً لما لتعاليم القرآن الكريم من أثر في ذلك مما جعل حكمة تزداد قوة وإحكاماً ومن روائع حكمه:

رب حلم أضاعه عدم الماء ل وجهل غطى عليه النعيم
٨- الدفاع عن العقيدة؛ كرس حسان شعره فزمن الرسول ﷺ للدفاع عن العقيدة الإسلامية، وجاء معظم شعره منافحة عن الدين الجديد وعن أتباعه، والمتصفح لديوانه يجد الكثير من شعره معبراً عن هذه القضايا.

هـ- نماذج من شعر حسان:

١- قال حسان يتهدد المشركين قبيل الفتح ويهجو أبا سفيان بن الحارث ويمدح الرسول عليه السلام:

عفت ذات الأصابع فالجواء	إلى عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر	تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس	خلال مروجها نعم وشاء
فدع هذا ولكن من لطيف	يؤرقني إذا ذهب وشاء
لشعثاء التي قد تيمته	فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس	يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض	من التفاح هصره اجتناء
نوليها الملامة إن ألمنا	إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشرها فتر كنا ملوكا	وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

تثير النقع موعدها كداء
على أكتافها الأسل الظماء
تلطمهن بالخمر النساء
وكان الفتوح وانكشف الغطاء
يعزز الله فيه من يشاء
وروح القدس ليس له كفاء
يقول الحق إن نفع البلاء
فقلتم: لا نقوم ولا نشاء
هم الأنصار عرضتها اللقاء
سباب أو قتال أو هجاء
ونضرب حين تختلط الدماء
مغلغلة فقد برح الخفاء
وعبد الدار سادتها الإمام
وعند الله في ذاك الجزاء
فشر كما خير كما الفداء
أمين الله شيمته الوفاء
ويمدحه وينصره سواء
لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
ففي أظفارنا منهم دماء
وحلف قريظة منا براء
وبحري لا تكدره الدلاء

عدمنا خيلنا إن لم تروها
ينازعن الأعنة مصعدات
تظل جيا دنا متمطرات
فإما تعرضوا عنا اعتمنا
وإلا فاصبروا لجلاد يوم
وجبريل رسول الله فينا
وقال الله قد أرسلت عبدا
شهدت به فقوموا صدقوه
وقال الله: قد يسرت جندا
لنا في كل يوم من معد
فنحكم بالقوافي من هجانا
ألا أبلغ أبا سفيان عني
بأن سيوفنا تركتك عبدا
هجوت محمداً فأجبت عنه
أتهجوه ولست له بكفاء
هجوت مباركاً برراً حنيفاً
فمن يهجو رسول الله منكم
فإن أبي ووالده وعرضي
أولئك معشر نصروا علينا
وحلف الحارث بن أبي ضرار
لساني صارم لا عيب فيه

٢- قال يفتخر ويهجو ابن الزبعرى وقريش ويذكر مقتل أصحاب اللواء يوم أحد:

منع النوم بالعشاء الهموم
من حبيب أصاب قلبك منه
يا لقومي هل يقتل المرء مثلي
همها العطر والفراش ويعلوها
لو يدب الحولي من ولد الذر
لم تفه شمس النهار بشيء
إن خالي خطيب جابية الجو
وأبي في سميحة القائل الفا
وأنا الصقر عند باب ابن سل
وأبي ووافد أطلق خالي ث
وسطت نسبتي الذوائب منهم
رب حلم أضاعه عدم الما
لا تسبني فلسنت بسبي إ
تلك أفعالنا وفعل الزبعرى
ولِي البأس منكم إذ حضرتم
تسعة تحمل اللواء وطارت
بدم عانك وكان حفاظا
وأقاموا حتى أزيروا شعوبا
وقريش تلوذ منا لواذا
لم تطق حملة العواتق منهم

وخيال إذا تغورت النجوم
سقم فهو داخل مكتوم
واهن البطش والعظام سؤوم
لجبن ولؤلؤ منظوم
عليها لأندبتها الكلام
غير أن الشباب ليس يدوم
لأن عند النعمان حين يقوم
صل يوم التقت عليه الخصوم
مى يوم نعمان في الكبول مقيم
م رحنا وقفههم محطوم
كل دار فيها أب لي عظيم
ل وجهل غطى عليه النعيم
ن سبي من الرجال الكريم
خامل في صديقه مذموم
أسرة من بني قصي صميم
في رعا من القنا مخزوم
أن يقيموا إن الكريم كريم
والقنا في صدورهم محطوم
لم يقيموا وخف منها الحلم
إنما تحمل اللواء النجوم

٣- قال يهجو بني الحماص، رهط النجاشي الشاعر:

أما الحماص فإني غير شاتمهم
قوم لئام أقل الله عدتهم
كأن ريحهم في الناس إذ برزوا
أولاد حام فلن تلقى لهم شبهها
لم ينبتوا فرع خير يذكر به
إن سابقوا أسبقوا أو نافروا نفروا
شبه الإماء فلا دين ولا حسب
تلقى الحماصي لا يمنعك حرمة
٤- قال يفخر بقومه الأنصار:

أهاجك بالبيداء رسم المنازل
وجرت عليها الرامسات ذيوها
ديار التي راق الفؤاد دلاها
لها عين كحلاء المدامع مطفل
ديار التي كادت ونحن على منى
ألا أيها الساعي ليدرك مجدنا
فهل يستوي ماء ان أخضر زاخر
فمن يعدل الأذنان ويحك بالذرا
تناول سهيلاً في السماء فهاته
ألسنا بحلالين أرض عدونا
تجدنا سبقنا الناس مجداً وسؤددا
نعم قد عفاها كل أسحم هاطل
فلم يبق منها غير أشعث مائل
وعز علينا أن تجود بنائل
تراعي نعماً يرتعي بالخائل
تحل بنا لولا نجاء الرواحل
نأتك العلاف أربع عليك فسائل
وحسي ظنون ماؤه غير فاضل
قد اختلفا بر يحنق بباطل
ستدر كنا إن نلتته بالأنامل
تأن قليلاً سل بنا في القبائل
تليداً وذكرنا نامياً غير خامل

فنحن بأعلى فرعه المتطاول
 وشباننا بالفحش أبخل باخل
 كهول وفتيان طوال الحمائل
 أوائلنا بالحق أول قائل
 نصل حافتيه بالقنا والقنابل
 وطئنا العدو وطأة المتناقل
 نطاعنهم بالسهمي الذوابل
 كتائب نمشي حولها بالمناصل
 بكل فتى حامي الحقيقة باسل
 وكائن ترى من مشفق غير وائل
 فأولى لكم أولى حداة الزوامل
 لأعدل رأس الأصعر المتمايل
 وأجبهه كي لا يطيب لآكل
 وإني نعيم ليس يوماً بزائل

لنا جبل يعلو الجبال مشرف
 مساميح بالمعروف وسط رحالنا
 وفينا إذا ماشبت الحرب سادة
 نصرنا وآوينا النبي وصدقت
 وكننا متى يغز النبي قبيلة
 ويوم قريش إذ أتونا بجمعهم
 وفي أحد يوم لهم كان مخزياً
 ويوم ثقيف إذ أتينا ديارهم
 ففروا وشد الله ركن نبيه
 ففروا إلى حصن القصور وغلقتوا
 وأعطوا بأيديهم صغاراً وتابعوا
 وإني لسهله للصديق وإنني
 وأجعل مالي دون عرضي وقاية
 وإني جديد ليس يدركه البلى

٥- وقال يرثي الرسول عليه الصلاة والسلام:

مثل الرسول نبي الأمة الهادي
 أوفى بذمة جارا أو بميعاد
 مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد
 وأبذل الناس للمعروف للجادي
 أصبحت منه كمثل المفرد الصادي
 يضرين فوق قفا ستر بأوتاد

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت
 ولا برأ الله خلقاً من بريته
 من الذي كان فينا يستضاء به
 مصداقاً للنبيين الألى سلفوا
 يا أفضل الناس إني كنت في نهر
 أمسى نساؤك عطلن البيوت فما

مثل الرواهب يلبسن المسوح وقد أيقن بالبؤس بعد النعمة البادي

٣ - كعب بن زهير بن أبي سلمى

أ - حياته ونشأته:

أحد شعراء البادية الذين أسلموا ومدحوا النبي ﷺ: هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح بن قرّة بن الحارث المزني، أبوه من فحول شعراء الجاهلية، فهو ينتمي إلى بيت عريق من بيوت الشعر، وأمه امرأة من بني عبد الله بن غطفان يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، وهي أم سائر أولاد زهير.

ولما جاء الإسلام لم يبادر كعب إلى اعتناقه ووقف منه موقف العداء، وكان له أخ يسمى بجيراً سبقه إلى الإسلام، وأخذ يدعو إليه، فأصم كعب أذنيه وأخذ يثير قومه على بجير فيشتدون عليه، فخرج مهاجراً إلى الله ورسوله ﷺ، فأرسل له كعب بهذه الأبيات: ألا أبلغا عني بجيراً رسالة

فأنشد بجير الأبيات للنبي ﷺ فأهدر دمه، فكتب له بجير: (إن النبي ﷺ يهيم بقتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين، وإن ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربا، فإن كانت لك حاجة فأقدم على رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض).

فلما آتاه الكتاب ضاقت عليه الأرض ورفض قومه أن يجيروه، فقدم المدينة مستجيراً بأبي بكر، فجاء به رسول الله ﷺ وهو ملثم بعمامته، فقال كعب: يا رسول الله رجل جاء يبائعك على الإسلام، وحسر عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك، أنا كعب بن زهير. فوثب رجل من الأنصار مستأذناً أن يضرب عنقه، فمنعه النبي ﷺ وأمنه، فأنشد كعب هذه القصيدة ومدح النبي والمهاجرين.

- وقد وقعت القصيدة في نفس الرسول ﷺ موقِعاً كريماً فعفا عن كعب وأثابه عليها بأن منحه بردته الشريفة التي ظلت في عقبه إلى أن اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان وتداول الخلفاء من بعده لبسها.

- وقد أسلم كعب وحسن إسلامه، وناصر الرسول ﷺ وذاد عن دين الله. ويقال: إنه توفي سنة ٢٤هـ.

ب - شخصيته: صقل كعب بن زهير موهبته الشعرية على يد والده زهير أحكم شعراء العربية، وكان زهير يحفظ تلاميذه من أهل بيته وغيرهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح الموهبة فيهم، لكنه كان ينهاهم عن النظم، فيضرب كعباً كلما تكلم بالشعر مخافة أن يقول شعراً ضعيفاً يروى عنه فيعرف بسوء شعره. فكعب نظم الشعر وهو لا يزال غلاماً صغيراً لما يبلغ الحلم، مما يؤيد ذلك ما ورد عن النابغة الذبياني أنه مدح النعمان بن المنذر بقصيدة حتى إذا بلغ قوله:

تراك الأرض إن ماتت خفاً وتحيا إن حييت بها ثقيلًا
قال النعمان: هذا بيت إن أنت لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح. فأراد ذلك النابغة فعثر عليه، فقال: أجلني. قال: أجلتك ثلاثاً، فإن أنت أتبعته بما يوضح معناه فلك مئة من العصافير نجاب، وإلا ضربة بالسيف تأخذ منك ما تأخذ.

فأتى النابغة زهيراً وأخبره الخبر فقال: اخرج بنا إلى البرية فإن الشعر بري. فخرجا وتبعهما كعب وكان لا يزال صغيراً، فتجاولا البيت ملياً فلم يأتها ما يريدان، فقال كعب: ما يمنعك أن تقول:

وذاك بأن حللت العز منها فتنمّع جانبيها أن يـزولا
فقال النابغة: جاء بها ورب الكعبة، لسنا والله في شيء.

ج - شعره: اشتهر كعب ببردته التي تشرف بالقائها بين يدي النبي ﷺ وأصبحت هذه القصيدة باباً من أبواب الشعر العربي.

د - برده:

يقول الشاعر كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تَجَلَو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةِ
تَجَلَو الرِّيَّاحُ القَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ
يَا وَيْهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهُا صَدَقَتْ
لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَمَ مِنْ دِمِّهَا
فَمَا تَدْوُمُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
وَمَا تَمَسَّكَ بِالْوَصْلِ الَّذِي زَعَمَتْ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا
أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ يَعْجَلْنَ فِي أَبَدٍ
فَلَا يَعْزُرَنَّكَ مَا مَنَنْتَ وَمَا وَعَدْتْ
أَمَسَتْ سُعَادٌ بِأَرْضٍ لَا يُبَلِّغُهَا
وَلَنْ يُبَلِّغَهَا إِلَّا عُدَا فِرَّةٌ
مِنْ كُلِّ نَضَّاحَةِ الدَّفْرِى إِذَا عَرِقَتْ
تَرْمِي الغُيُوبَ بِعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهَقِ
ضَحْمٌ مُقَلَّدُهَا فَعَمَّ مُقَيَّدُهَا
حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ
يَمْشِي القُرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزْلِقُهُ
عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ فِي اللَّحْمِ عَنْ عُرْضٍ
كَأَنَّ مَا فَاتَ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحَهَا
مُزْرٌ مِثْلَ عَسِيبِ النَّحْلِ ذَا حُصَلٍ
قَنَوءٌ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا

كَأَنَّهُ مُنْهَلٌّ بِالرَّاحِ مَعْلُوقٌ
صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ
مِنْ صَوْبِ سَارِيَةِ بِيضٍ يَعَالِيْلُ
مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولٌ
فَجَعٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلٌ
كَمَا تَلَوْنَ فِي أَثَوَاهِهَا الغَوْلُ
إِلَّا كَمَا تُمْسِكُ المَاءَ الغَرَايِلُ
وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الأَبَاطِيلُ
وَمَا هُنَّ طَوَالَ الدَّهْرِ تَعْجِيلُ
إِنَّ الأَمَانِيَّ وَالْأَخْلَامَ تَضَلِيلُ
إِلَّا العِتَاقُ النَّجِيَّاتُ المَرَايِلُ
فِيهَا عَلَى الأَيْنِ إِزْقَالٌ وَتَبْغِيلُ
عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مَجْهُولُ
إِذَا تَوَقَّعَتْ الحُزْنَ وَالْمَيْلُ
فِي خَلْقِهَا عَنِ بَنَاتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ
وَعَمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ
مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ
مِرْفَقُهَا عَنِ بَنَاتِ الزُّورِ مَقْتُولُ
مِنْ حَطْمِهَا وَمِنَ اللِّحْيَيْنِ بَرُطِيلُ
فِي غَارِزٍ لَمْ تَحْوَنَّهُ الأَحَالِيلُ
عَتَقُ مُبِينٌ وَفِي الخَدَيْنِ تَسْهِيلُ

تَحْدِي عَلَى يَسْرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ
سُمُرُ الْعُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الْحَصَى زَيْمًا
يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْحَرْبَاءُ مُضْطَخِمًا
كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرَقَتْ
وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ وَقَدْ جَعَلْتُ
شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَيْطَلٍ نَصْفِ
نَوَاحِي رَحْوَةِ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا
تَفْرِي اللَّبَانَ بِكَفَيْهَا وَمِذْرَعُهَا
يَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنْبَيْهَا وَقَوْلُهُمْ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ
فَقُلْتُ خَلُّوا طَرِيقِي لَا أَبَالِكُمْ
كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
أُنْبِتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ
لَا تَأْخُذَنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
لَقَدْ أَقَوْمٌ مَقَامًا مَا لَوْ يَقَوْمٌ بِهِ
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنَا زَعُهُ
لَذَلِكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمُهُ
مِنْ صَيَعَمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مَخْدَرُهُ
يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا

ذَوَابِلٌ وَقَعُهُنَّ الْأَرْضَ تَحْلِيلُ
لَمْ يَقِهِنَّ رُؤُوسَ الْأَكْمِ تَنْعِيْلُ
كَأَنَّ ضَاحِيَهُ بِالنَّارِ مَمْلُوءُ
وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالقُورِ الْعَسَاقِيلُ
وُزُقُ الْجَنَادِبِ يَرُكُضْنَ الْحَصَى قِيلُوا
قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ
لِمَا نَعَى بِكِرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ
مُشَقَّقٌ عَنِ تَرَاقِيهَا رَعَابِيْلُ
إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
لَا أَلْفَيْتَكَ إِيَّيَ عَنكَ مَشْغُولُ
فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
يَوْمًا عَلَى آلَةِ حَادِبَاءَ مَحْمُولُ
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَا مَوْلُ
قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيْلُ
أُذُنِبَ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ
أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفَيْلُ
مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلُ
فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قَيْلُهُ الْقَيْلُ
وَقِيلَ إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْؤُولُ
بِبَطْنِ عَثَرَ غَيْلٍ دُونَهُ غَيْلُ
لِحْمٍ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَاذِيلُ

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَآ لَا يَحِلُّ لَهُ
 مِنْهُ تَظَلُّ حَمِيرُ الْوَحْشِ ضَامِرَةٌ
 وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخْوَثَقَةٌ
 إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
 فِي عُصْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ
 زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ
 شُمَّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لَبُوسُهُمْ
 بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ
 يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصُمُهُمْ
 لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ
 لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ

٤ . النابغة الجعدي الإسلامي

أ . حياته ونشأته:

اسمه حسان بن قيس ولقب النابغة؛ لأنه لم يقل الشعر في صباه ولا في شبابه وهو من بني جعدة أحد بطون عامر، فخر في جاهليته بقبيلته وتغنى بحسبها ومآثرها وهجا خصومها بني أسد.

ب . شخصيته:

أنكر النابغة الجعدي في الجاهلية عبادة الأوثان وشرب الخمر وهجر الأضلام فكان من الحنفاء الذين لبوا دعوة الرسول الكريم.

هاجر من البادية وأقام بالمدينة المنورة حتى إذا كانت الفتوح الإسلامية انطلق مع المجاهدين فحارب معهم

توفي في خلافة مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ، عن عمر طويل.

ج - شعره:

شاعر مخضرم قوي الطبع فصيح يجري شعره على السليقة لا يعرف التكلف أو الصنعة. ويختلف شعره في الإسلام اختلافاً واضحاً عن شعره في الجاهلية فقد كان في الجاهلية خشناً محدوداً في مفاخر القبيلة لكنه في الإسلام نهل من معين الإيمان فأصبح أبلغ وقعاً وأوسع مدى.

وفنون شعره المشهورة هي المدح والفخر والهجاء والوصف، وقالوا إنه كان من أوصف الشعراء للخيال..

د - مدح وفخر:

في فخر النابغة الجعدي أنفة الجاهلية ولكنها أنفة يحكمها العقل وحمية وجهت للدفاع عن القيم والمثل السامية..

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى	ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا
وجاهدت حتى ما أحس ومن معي	سهيلاً إذا ما لاح ثمت غورا
أقيم على التقوى وأرضى بفعالها	وكنت من النار المخوفة أحذرا
وإنالقوم ما تعود خيلنا	إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا	من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا
وما كان معروفاً لنا أن نردها	صحاحاً ولا مستنكراً أن تعقرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا	وإنالترجوفوق ذلك مظهرا
ولاخير في حلم إذا لم تكن له	بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولاخير في جهل إذا لم يكن له	حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

- شرح المفردات:

المجرة: منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر. والعامية تسميها: درب التبانة - غور: غاب - الجون: الأسود - تعقر: تقتل - مظهر: علو - بوادر: أعمال - مواقف - أورد: أحضر - أصدر: أخرج.

٥- كعب بن مالك

أ. حياته ونشأته:

ولد كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه في المدينة المنورة وهو من بني سلمة من الخزرج كناه النبي ﷺ بأبي عبد الله بعد أن كانت كنيته في الجاهلية (أبا بشير) وكان أبوه مالك شاعراً وأمه ليلي بنت زيد من بني سلمة تزوج كعب من (عميرة بنت خيبر السلمية - وصفية اليمانية - وأم ولد - وخيرة) ولدت له الأولى (عبد الله - قضاله - وهب - معير - خولة - سعاد) وولدت له الثاني (كبشة) وولدت له الثالثة (عبد الرحمن) في عهد النبي ﷺ، وقد توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك ولكعب أخ اسمه (سهل) وآخر اسمه (سراقة) واشتهرت أسرته بالشعر والعلم والحديث، فقد روى كعب ثمانين حديثاً عن رسول الله.

أسلم كعب مبكراً ولم يكن في المدينة أكثر من أربعين رجلاً وقد آمنوا وبايع النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية مع اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين، وشملته المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار مع (طلحة) أو (الزبير بن العوام) جاهد في سبيل الله بشعره وسيفه وشهد كل المشاهد عدا (بدر وتبوك) وقد نزل بتخلفه عن تبوك قرآناً، وقد أحب كعب رسول الله ﷺ وصاحبه في السلم والحرب ولبس لأمة النبي الصفراء، فجرح كعب أحد عشر جرحاً بعد أن قام فوق النبي ﷺ يحميه وهو نائم ولاه رسول الله صدقات (أسلم وغفار) وقيل (جهينة) وكان كعب يتقن الكتابة ويعرف الحساب، وقد طلب رسول الله من كعب أن يحدو بالقافلة مرة فقال:

قضينا من تهامة كل حق وخيبر ثم أجمعنا السيوفاً

نخبرها ولو نطقت لقات قواطعهن دوساً أو ثقيفاً

وقد بكى رسول الله عندما انتقل إلى الملاء الأعلى وقال:

فجعلنا بخير الناس حياً وميتاً وأذناه من رب البرية مقعداً

وقال:

يا عين فابكي بدمع ذرى لخير البرية والمصطفى

وابكي الرسول وحقَّ البكاء عليه لدى الحرب عند اللقاء

وحضر كعب بن مالك اجتماع السقيفة لاختيار خليفة بعد وفاة النبي ﷺ، ثم استعمله عثمان على صدقة (مزينة) وقد دافع عنه أثناء الفتنة وقد قضى بقية حياته في المدينة المنورة بعد أن تردد على الشام، وقد اختلف في سنة وفاته (٥٠ - ٥١ - ٥٣هـ).

ب - شخصيته:

تتميز شخصية كعب بالعقيدة الصادقة والعلم والشجاعة والدفاع عن الدين الجديد وقضى حياته مدافعاً عن الإسلام والمسلمين.

ج - شعره:

كعب بن مالك الأنصاري شاعر جمع بين فصاحة اللسان وحدة السنان ورقة الوجدان وغزارة الإيمان حمل على عاتقه عبء الدفاع بشعره عن الإسلام والذود عن حماه ورد سهام أعدائه إلى نحورهم في معركة شعراء الكفر والإيمان، وقد عبر في شعره عن أسى المعاني الإنسانية الإسلامية، فقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شكرك ربك على قولك هذا يا كعب) (أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك) ويسأل كعب أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ويحيب صلوات الله عليه وسلامه: (لا بل من عند الله عز وجل) إشارة إلى توبة الله تعالى عن الذين خلفوا عن غزوة تبوك، وقد شهد كعب كل المشاهد ومنها (العقبة) و(أحد) ولكنه لم يشهد (تبوك) وبدراً) ونزل فيه قرآناً كذلك لبس كعب درع النبي ﷺ الصفراء وجرح يومها إحدى عشرة جراحة، وقد كان كعب يخوف الكافرين وقائع السيوف بينما كان حسان يقع في الأنساب وابن رواحة يعيرهم بالكفر.

د - موضوعات شعره:

لم يكن الشعر عند كعب بن مالك يصدر عن صناعة، بل كانت أشعاره تصدر عن سجية وفطرة وقريحة تدفعه للتعبير عما تجيش به نفسه من مشاعر وعواطف وميول وأفكار، وبذلك اقتضت فنون الشعر وموضوعاته عنده على ما يلائم شخصيته والحياة التي كان يحياها متجنباً ما يخالف الدين والوقار، ومن هنا لا نجد في شعره ما يتحدث عن الغزل والخمريات والمجون والتهتك وخاصة أنه ممن لازم رسول الله ﷺ وأهم الأغراض التي جاشت أشعارها في نفسه:

١- المديح:

يعد المديح من أهم الأغراض التي تحدث فيها الشعراء على مر العصور، وقد اتخذ المديح أشكالاً متعددة من المدح غير المكتسب إلى المديح المكتسب مما جعل شعراء المديح المكتسب في الدرجة الحضيض من الشعر عند كعب، خاصة أن هذا المديح يعبر عن مظاهر العظمة والأبهة والتعظيم والكبرياء بينما مدح كعب رضي الله عنه لم يكن متكسباً مطلقاً؛ إذ إن كعب لم يمدح أحداً لم تتوفر فيه المثل الإسلامية، بل كان مديحه إشادة بالرسالة السماوية والدعوة الإسلامية وتبجيلاً لحملة الرسالة الإسلامية، وينطوي شعر كعب على مدح يستظل تحت راية الدين خاصة وأن الرسول ﷺ لم يكن راغباً أن يمدحه الشعراء بما كان يمدح به الملوك وهو القائل: (احشوا في وجوه المداحين التراب) ولذلك كان أغلب ما جاء من مديح كعب مدحاً ذا رسالة سياسية محمولة على أجنحة العاطفة الدينية لتحقيق أهداف سياسية تتمثل في:

أ- الإيمان بقيادة الرسول الحكيم.

ب- الانقياد لهذه القيادة النبوية.

ج- تأكيد فضل الرسالة الإسلامية على الأمة بلم شملها.

يقول كعب بن مالك في مدح النبي محمد ﷺ:

لم الإله به شعناً ورمّ به أمور أمته والأمر متشـر
وقد مدح كعب هداية الرسالة الإسلامية من خلال مدح الرسول:

فينا الرسول شهاب ثم يتبعه نور يضيء له فضل على الشهب
ومثل كعب الأعلى في مديحه المثل الإسلامية لا العادات الجاهلية كالعدل في السيرة والالتزام
بالحق والهداية إلى ما ينجي من النار والصدق وتبليغ الرسالة، يقول كعب رضي الله عنه في مجال
التفاضل، ويمتدح تكليم الله لمحمد مفضلاً بين مكان تكليمه ومكان تكليم موسى:

فقد كلم الله النبي محمداً على الموضع الأعلى الرفيع المسوم
ولم تتعد مدائح كعب في بعض جوانبها عن القيم الجاهلية التي أقرها الإسلام ونهاها
كالوفاء بالعهد والصدق بالقول وقوة العزم والهمة والإقدام والجرأة والكرم والسيادة:

يمضي ويذمرنا من غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب
نَجْدُ المقدم ماضي لهم معتزم حين القلوب على رجف من الرعب
وكذلك قوله:

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اغبر الزمان المحل
قوم لأصلهم السيادة كلها قدماً وفرعهم النبي المرسل
٢- الفخر: لم يكن لكعب رضي الله عنه وهو ممن تمثل مبادئ الإسلام الداعية إلى المساواة
وعدم التفاخر بالنفس والذات والقبيلة أن يفخر بنفسه على الناس، أو أن يفخر بما امتاز به
قومه من شرف النسب وكرم المحتد إنما كان فخره تغنياً بانتشار الدين، وبما جاء به من مآثر
أخلاقية ومكارم إنسانية وفخره رضي الله عنه كان على نوعين:
أ- فخر ذاتي:

يشير إلى فضائله المتميزة ضمن مظلة الدين ومكارم الأخلاق وما يمتاز به من كريم
الخصال ومحمود الصفات.
ب- فخر جماعي:

يوضح محاسن قومه ويجلي مآثرهم ويشيد بهم ويعتز بجماعة المسلمين الذين اعتنقوا الدين
الجديد، وهذا النوع هو غالبية فخره ذلك أن شخصية كعب قد ذابت في مجموعة من آمن
بالدين الجديد بدلاً من أسرته وعشيرته وقد استغرق الفخر أكثر شعره رضي الله عنه، وتطور
هذا الفن على يديه فقد أصبح الفخر عنده إعلاءً لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بدل إعلاء
شأن القبيلة أو رفع شأنها ونشر الدعوة بدل كسب المغانم وسبي الأعداء ونيل الشهادة بدل
من الطمع بالمناصب.

وقد وجدت هذه المعاني واضحة في فخر كعب بيوم بدر:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع النصر ميكال وجبريل
إن تقتلوننا فدين الله فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل
ومن فخره إعانة المسلمين ودفع المشركين عن الكفر:

يذودوننا عن ديننا ونذودهم
عنا الكفر والرحمن راء وسامع
إذا غايظوننا في مقام أعاننا
على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله
علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا للدين الحق واختاره لنا
ولله فوق الصانعين صنائع

وكذلك نجد كعب يفخر بالذود عن رسول الله ﷺ وبالذفاع عنه بسيفه وشعره

يذود ويحمي عن ذمار محمد
ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يريه
يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصا
يريد بذاك الفوز والعز في غد
وقد افتخر كعب بالقوة والكرم وهي أخلاق تبناها العرب في الجاهلية والإسلام، فقد جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق.

ويفخر أيضاً ببطولته على طريقة الجاهليين ويبدو ذلك في رده على (مرحب) اليهودي:

قد علمت خير أني كعب
مفرج الغم جريء صلب
إذا شبت الحرب تلتها الحرب
معي حسام كالعقيق عضب
نطأكم حتى يذل الصعب
نعطي الجزاء أو يفىء النهب
ومن فخره حديثه عن بلائه مع جماعة المسلمين في الحرب وشجاعتهم في المعارك وقتل الأعداء:

فساروا وسرنا فالتقينا كأننا
أسود لقاء لا يرخى كليهما
ضربناهم حتى هوى في مكرنا
لمنخر سوء من لؤي عظيمها
وتباهى كعب بقتل السادة الأبطال قائلاً:
فكم تريحناهما من سيد بطل
و من معاني الفخر عنده الصبر في الحروب والثبات في الشدائد كما حصل يوم أحد:

صبرنا لهم والصبر منا سجية إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق
وقد افتخر كعب بالانتساب إلى الحرب:
بنو الحرب لا نعيأ بشيء نقوله ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
إننا بنو الحرب نمريها ونتجها وعندنا لذوي الأظغان تنكيل
ومن معانيه الجديدة في الفخر:
إن تقتلوننا فدين الله فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل
ولا ننسى أن كعباً كان يفخر بالخيال والسيوف والقسي والرماح والدروع والبيض على أنها
أدوات للحرب والقتال.

هـ - الخصائص الفنية لشعر كعب بن مالك:

- ١ - تتميز ألفاظ كعب بخلوها من الغرابة والشذوذ وتنافر الحروف فهي سهلة لينة وتزدان
ألفاظه بالقرآن وتشح بالحديث الشريف بحيث تجد عنده كثرة من الألفاظ الإسلامية (الجنة -
النار -)
- ٢ - وتميزت تراكيبه بعدم التعقيد والالتواء فهو شاعر مطبوع يجري شعره على سجيته
وشعره خال من المقدمات الطللية أو الغزلية حاشا قصيدة واحدة استهلها بغزل تقليدي:
طرقت همومك فالرقاد مسهد وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد
ودعت فؤادك للهوى خميرية فهوأك غوري وصحوك منجد
- ٣ - وكثيراً ما يتدئ قصائده بكلمة (ألا وأبلغ).
- ٤ - ويكثر الشاعر من المقطوعات القصيرة ويشكل جانباً مهماً من شعر كعب.
- ٥ - يعد التصوير وسيلة من وسائل التعبير لديه يستمد صورة التشبيه (الاستعارة -
الكناية) من عالم الحس والمادة فهو يشبه الحرب بالناقة وهي صورة مستمدة من البيئة، وكذلك
تشبيه المسلمين بفحول الإبل وشبه قاتل حمزة بالجعل الأسود، واستمد أكثر صورة من البيئة
الصحراوية (كالأسد والنمر والثعلب والذئب والكلب والنعام وأخذ صوراً عن النجوم
والقمر والليل) وقد استعار النور للهداية في قوله:

وردناه بنور الله مجلواً دجى الظلماء عنا والغطاء
وشبه الرسول ﷺ بالبدر:

نمضي- ويضمنا من غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب
وشبه شجاعة المسلمين بالشهاب:

وكننا شهاباً يتقي الناس حره ويفرج عنه من يليه ويسفع
وقد كان للألوان أهميتها في خيال كعب رضي الله عنه فصبغ موضوعاته بالألوان المختلفة
وخاصة الأسلحة حيث لونها باللون الأبيض ونعت بهذه الألوان رسول الله ﷺ:

ومواعظ من ربنا نهدي بها بلسان أزهر طيب الأثواب
وكذلك وصف الوجهه بالبياض قائلاً:

بيض الوجهه ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان المحمل
٦- أما الجناس والطباق فقليلان في شعره؛ لأنه لم يتخذ من الشعر صنعة، بل كلمة هداية
وحق:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم (حاسر) و(مقنع)
ومن جناسه: (حوش الوحوش) (مطاراة عند الوغى) (عبس اللقاء)

٧- وأما معاني الشاعر وأفكاره فهي فطرية مستمدة من بيئته صريحة متسمة بالصدق لا
كذب فيها ولا مبالغة جديدة مستمدة من حياته الإسلامية:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد ليس لله قاهر
موافقاً لقوله تعالى: (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له) وقد كان رسول الله ﷺ يثق له
شعره ويرشده للمعاني الإسلامية ويفخر كعب بذلك قائلاً: ما أعان رسول الله ﷺ أحداً في
شعره غيري وقد نقح له شعره.

٨- وقد كان لكعب صلة كبيرة في الشعر الجاهلي يغرف من معانيه التي لا تتعارض مع
تعاليم الإسلام وقصائده كلها منظومة على الأوزان الجاهلية المعروفة؛

(لقد) عجبت لقوم أسلموا بعد عزهم إمامهم للمنكرات وللغدر
حيث زاد (لقد) وهو ما يسمى (بالخرم).

٩- وأما قوافيه فهي رشيقة من حيث (التصريح).

١٠- وجد اللغويون في شعره ما يحفظ للغة أصالتها وللألفاظ فصاحتها فاستعانوا بشعره
(كابن منظور- والمبرد- وابن فارس- وابن جني- وابن سيده- والجواليقي- والزمخشري).

١١- استعان به الجغرافيون لوصف الأمكنة والبلدان (كالبكري- وياقوت الحموي-
والمسعودي).

١٢- وجد المؤرخون في شعره ما يعينهم على تثبيت الحوادث (كالواقدي- وابن هشام-
وابن سعد- والطبري).

و- موقف النقد والمعجبين منه:

احتل كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه مكانة مرموقة في سفر الشعراء:

١- فقال له ﷺ: (إنك لحسن الشعر).

٢- وهو عند ابن سلام من فحول شعراء القرى العربية.

٣- وذكر أن ابن عبد البر والصفدي والبغدادي جمعوا أشعاراً حسنة له.

٤- استحسنت السيدة عائشة شعره وروته.

فهو عند الجميع شاعر مجود ومطبوع، ولكنه متفاوت الجودة إذ نجد أن له من الشعر ما هو
نظم وما هو طبع وحسبنا أنه كان يكتب (المقطعات- القصائد- الأراجاز).

٥- رجزه يختلف عن شعره من حيث الخصائص الفنية في اللفظ والمعنى، وقد كان كعب
من الشعراء القلائل الذين يكتبون ويستحق أن يصنف بين الشعراء الإسلاميين الفحول من
حيث الرقة والبعد عن القريب يتميز بصدق العاطفة وقوتها وبكفيه أن يكون أحد ثلاثة
شعراء (كعب بن مالك - عبد الله بن رواحة - حسان بن ثابت) يعتمد عليهم الرسول ﷺ في
الدفاع عن الدعوة الإسلامية ومناضلة الشعراء المشركين.

٧. الحطيئة (جرول بن أوس)

(جاهلي - إسلامي - راشدي)

القيم الموروثة:

أ - حياته ونشأته:

هو جرول بن أوس الملقب بالحطيئة من بني عبس ولد من أمة اسمها (الضراء)، فكان مضطرب النسب غير صريح القرابة طلب الالتحاق بإخوته من أبيه، فلم يفلح فهجاهم والتحق بأهل امرأة أبيه من ذهل فلم يلق عندهم خيراً فهجاهم وانصرف عنهم.

بقيت حياة الحطيئة منذ ذلك حياة تنقل دائم من قبيلة إلى قبيلة وتقلب من نسب إلى نسب.

تزوج الحطيئة (أم مليكة) وقد أظهر لها ولأولاده منها حباً شديداً يدل على سعة قلب هذا الإنسان كما يدل على أن حقه على الناس لم يكن من خبث أصيل في طبعه، بل كان مظهرًا من مظاهر الانتقام من مجتمع رفض قبوله والاعتراف به في صفوفه.

أسلم الحطيئة في أواخر حياة الرسول ﷺ إلا أن إسلامه كان رقيقاً فلم يصل إلى قلبه وقد ارتد مع المرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم عاد معهم إلى الإسلام يوم عادوا. توفي الحطيئة سنة (٥٥٩هـ).

ب - شخصيته: كان لرفض المجتمع الجاهلي له آثار بعيدة في تكوينه النفسي والخلقي فقد حقد على هذا المجتمع وكرهه ورفض قيمه التي يؤمن بها ومن هنا كان هجاؤه المر واستهائته بكل ما هو جليل عند الآخرين.

ج - شعره: اتخذ الحطيئة من شعره وسيلة إلى الرزق فكان يمدح من يعطيه، ويهجو من يمنعه ولذلك امتلأ ديوانه بهذين الغرضين المديح والهجاء.

د - القصة الشعرية عنده:

كتب الحطيئة القصة الشعرية، وأجاد فيها حتى لتكاد قصصه الشعرية تصور واقعاً لم يصوره أحد غيره.

قصة كرم

حفل أدبنا العربي بشواهد كثيرة تدل على الجود وهو أعلى صفات الكرم ولا عجب في ذلك فالجود شرط لازم من شروط السيادة والشرف. والخطيئة في هذه الأقصوصة الشعرية الجميلة يرسم صورة مشرقة رائعة للجود المتأصل في نفس الإنسان العربي.

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل
أخي جفوة فيه من الأئس وحشة
وأفرد في شعب عجوزاً إزاءها
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة
رأى شبحاً وسط الظلام فراعته
وقال هيا رباه ضيف ولا قرى
فقال ابنه لما رآه بحيرة
ولا تعتذر بالعدم علّ الذي طرا
فروى قليلاً ثم أحجم برهة
فبينما هما عنت على البعد عانة
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها
فأمهلها حتى تروت عطاشها
فخرت نحوص ذات جحش سمينة^٣
فيا بشره إذ جرهما نحو أهله
وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
وبات أبوهم من بشاشته أباً
شرح المفردات:

الطعم: الطعام، العدم: الفقر، عل: لعل، طرا: طراً- أي جاء، يوسعنا ذماً: أي يكثر من ذمنا، روى: تمهل، أحجم: امتنع، هم: عزم، عنت: ظهرت ولاحت، العانة: القطيع من حمر

الوحش، المسحل: الكبير من الحمر الذي يتقدمها، انساب: انسل، أظما: أظماً أي أشد ظمأً، الكنانة: الجعبة، النحوص: الأتان الوحشية، الجحش: صغير الحمار، اكتنزت وطبقت: امتلأت، كلمها: جرحها، يدمى: يسيل منه الدم، غرم: خسر، غنم: ربح.

٨- عمرو بن الجموح بن زيد

الخرجي صاحب رسول الله، والشهيد يوم أحد، وقال له رسول الله: (وهو يخرج إلى أحد قولاً يعذره به في التخلف عنه لمكان عَرَجِهِ فقال: والله يا رسول الله إني لأطمع أن أظأ بعرجتي هذه في الجنة، وقبره معروف في قبور الشهداء بأحد ومن قوله:

أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا مَضَى وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ نَارِهِ
وَأُتْنِي عَلَيْهِ بِالْأَثَمِ بِإِعْلَانِ قَلْبِي وَإِسْرَارِهِ
وكان أسلم قبل هجرة النبي بعد أن امتنع من الإسلام مدة وقد فشا بالمدينة، فعدا فتيان من قومه قد أسلموا على صنمه فكسروه وألقوه في بئر وقرنوا به كلباً ميتاً فقال:

بِاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلهًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسَطٌ بِئْرٍ فِي قَرْنٍ
ثُمَّ أَسْلَمَ.

الباب الثامن عشر

دراسات تطبيقية لنصوص شعرية

قراءة أدبية في نص (مع الرسول في المعركة) للشاعر حسان بن ثابت الأنصاري

تصدى شعراء المشركين لهجاء النبي الكريم وكان من أشدهم عداء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وشعراء آخرون فاستأذن حسان بن ثابت الرسول في هجائهم، فقال النبي: كيف تهجوهم وأنا معهم فقال حسان: أسلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين، فوافق النبي الكريم وقال: اهجهم ومعك روح القدس، وسلُّ أبا بكر أي استشره معرفته بالأيام والأسباب.

- ١- عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
- ٢- يبارين الأسنة مصعداتٍ على أكتافها الأسل الظماء
- ٣- تظل جيا دننا متمطراتٍ تلطمهن بالخمر النساء
- ٤- فإما تعرضوا عنا اعتمنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
- ٥- وإلا فاصبروا لجلاد يومٍ يعز الله فيه من يشاء
- ٦- وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء
- ٧- شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم: لا نقوم ولا نشاء
- ٨- هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذلك الجزاء
- ٩- أتهجوه ولست له بكفءٍ فشر كما لخير كما الفداء
- ١٠- فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه، وينصره سواء
- ١١- لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء

شرح المفردات: النقع: غبار الحرب، كداء: موضع بأعلى مكة - مصعدات: مسرعات في الصعود، الأسل: الرماح الجيدة، متمطرات: مسرعات متحفزات - الفتح: يعني فتح مكة - الجلاد: المصابرة في القتال - نفع البلاد: نفع الاختبار - ونفعت الذكرى - صارم: ماضٍ قاطع.

رؤيا نقدية في النص

نظم حسان عدة قصائد في هجاء المشركين، ويبدو أنه قال هذه القصيدة قبيل فتح مكة رداً على أبي سفيان بن الحارث وقد استهلها بمطلع غزلي جميل:

عفت ذات الأباطح فالجواء إلى عذراء منزلها خوواء
وتشتمل أبيات النص على ثلاث فكر رئيسة:

١ - حرب أعصاب وتهديد للمشركين (الأبيات ١ - ٥).

٢ - فخر أسلامي (البيتان ٦ - ٧).

٣ - هجاء أبي سفيان والمشركين (الأبيات ٨ - ١٢).

ويقول الشاعر في المقطع الأول: لا عاشت خيلنا إن لم تهاجمكم من أعلى مكة (وهذا ماحدث فعلاً يوم الفتح) وسيكون على أكتافها رماحنا المتعطشة إلى دمائكم وستصحبنا نساؤنا في المعركة يمسحن وجوه خيولنا بخمرهن فإن استسلمتم تم الفتح وانكشفت الغمة، وإلا فانتظروا قتالاً مرةً ينصر الله فيه المؤمنين ويفخر الشاعر في المقطع الثاني بالرسالة النبوية ويعير المشركين بأنهم لم يستجيبوا لدعوة محمد كما أمرهم الله بذلك... ثم ينتقل في المقطع الثالث إلى أبي سفيان فيخاطبه قائلاً: لقد هجوت محمداً وها أنذا أجيب عنه محتسباً أجري عند الله كيف تهجوه ولست نداً له عسى الله أن يجعل السيئ الشرير منكما فداءً للطيب الخير... إنكم يا معشر المشركين لا وزن لكم وأهمية وما نبالي أن تمدحوا محمداً أو تهجوه وإني لأفديه بأبي وعرضي وشرفي وأنا كما تعلمون أتمتع بلسان صارم قاطع وأنا بالنسبة لشعراء قريش كالبحر الذي لا تعكره الدلاء.

إن فخر حسان هنا وهجاءه يختلفان عن الفخر والهجاء في عصر ما قبل الإسلام فلم يعد الفخر بالأحساب والقبيلة ولم يعد الهجاء مقدماً فاحشاً، وإنما نرى حساناً يفتخر بالإسلام ويهجو المشركين لإعراضهم عن الإسلام وهجائهم لمحمد (ﷺ) ويتوجه بهجائه إلى أبي سفيان شخصياً دون التعرض لقبيلته كيلا ينال الرسول ﷺ بسوء من جهة، ولموقف أبي سفيان العدائي من الرسول من جهة أخرى وهو يستند إلى الحجة والمنطق في البيت التاسع، وإلى السخرية والهزء في البيت العاشر، وفي البيت الثالث وصف لدور المرأة المسلمة في معركة يعكس مكانتها ومشاركتها في هذا العصر للرجل ولعل أبرز عنصر فني في شعر حسان هو العاطفة الحارة الصادقة، ولا عجب فهو مخلص للإسلام محب لرسول الله ﷺ مضحاً بأعز ما يملك في سبيله والشاعر لتوضيح المعنى وتقريبه من الأذهان يعتمد على بعض الصور البيانية المعروفة مثل: (الأسل الظماء - ولساني صارم - وبحري لا تكدره الدلاء) وهي صور حسية مستمدة من البيئة ومعطياتها في ذلك العصر.

أما أسلوب الشاعر اللفظي فقد تميز بألفاظه الإسلامية من مثل: (اعتمرنا - قال الله - قد أرسلت عبداً - وعند الله في ذلك الجزاء..) إلى جانب سهولتها فلا نكاد نقع فيها على لفظ غريب، وهي قوية مناسبة للمعنى من مثل: (النقع - الأسنة - الظماء - شركما - تكدره... إلخ)، وهي في مجملها موحية معبرة وهذه سمات اتسم بها شعره في الجاهلية.. وتراكيب الشاعر متينة تميل إلى الطول في معظمها وهي إلى الخبر أميل من الإنشاء ولاسيما في المقطعين الأول والثاني؛ أما المقطع الثالث فقد لون الشاعر أسلوبه بين استفهام وتوكيد وبين إخبار هادئ أو ناثر، وقد اتخذ الشاعر البحر الوافر وزناً لقصيدته للتعبير عن أفكاره وعواطفه الصادقة بعيداً عن الغرابة.

الباب التاسع عشر

النقد في عصر صدر الإسلام

الباب التاسع عشر

الفصل الأول

معالم النقد في عصر الرسول

لم تكن الحياة الأدبية في عصر الرسول ﷺ ضيقة النطاق كما كانت في العصر الجاهلي؛ تدور في الهجاء والمدح والمفاخرات، بل توسعت بسبب وجود فكر جديد وتبعاً لذلك فقد اتسع نطاق النقد عما كان عليه عن العصر الجاهلي في كونه سار وفق معايير أخلاقية جديدة بحلية إسلامية، وأول من سار في هذا النهج كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين يدور الحديث في مجلسه، فقد أعجب بالشعر إعجاب أصحاب الذوق السليم، وقد أثر عنه كلمات تعبر عن مفهومه للشعر، فيقول: "الشعرُ كلام من كلام العرب، جزلٌ تتكلم به في بواديه، وتسلُّ به الضغائن من بينها"، وقوله: "إنما الشعرُ كلام مؤلف، فما وافق الحقَّ منه فهو حسن، وما لم يوافق الحقَّ منه فلا خير فيه"، وقوله: "إنما الشعرُ كلامٌ، فمن الكلام خبيثٌ وطيبٌ".

وقد دعا عليه الصلاة والسلام إلى العدول بالشعر عن طريقه الجاهلي وصبغه بالصبغة الإسلامية، فالشعر عنده كلام من جنس كلام العرب يتميز بالنظم، وتمتاز لغته وألفاظه بالجزالة وقوة الأسر، وميزان الشعر عنده يتمثل في مدى مطابقته للحق، فالحسن ما وافقه والسيئ ما لم يوافق.

لقد فترت بواعث الشعر في تلك الفترة، خاصة عند من اهدتوا إلى الإسلام، وزاد في ذلك الفتور اشتراك بعضهم في الجهاد، فقد خلقهم الإسلام خلقاً جديداً، وصبغهم صبغة جديدة حتى انقطعت الصلة بينهم وبين الجاهلية وقد صرف القرآن الكريم كذلك الشعراء عن الشعر، خاصة عندما بهرهم بروعة أساليبه وبلاغته، فأثروه على الشعر، وعدلوا عنه إلى الخطابة للحاجة إليها في استنهاض الهمم لنصرة الإسلام، وتحريك النفوس والخواطر للجهاد. ولقد سار نقد الشعر في هذا العصر في ميدانين:

الأول: بين الشعراء المسلمين وشعراء المشركين، وفيه حكمَ القوم حتى الخصوم للمسلمين على المشركين.

والثاني: يتمثل فيما كان بين حسان بن ثابت وسائر شعراء المسلمين، فقد دان القوم بالتفوق لحسان لما كان له من قوة الشاعرية، وقد فضله الرسول على غيره، فانتدبه ليدافع عن أعراض المسلمين وبنى له منبراً في المسجد ينشد عليه أشعاره، وذلك لأنه أول وأفضل من وافق الرسول عليه الصلاة والسلام في موقفه من الشعر، وهو الذي يقول:

وإنما الشُّعْرُ لُبُّ الْمَرْءِ يَعْرِضُهُ على الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حَمَقًا
وإنَّ أشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ - إِذَا أَنْشَدْتَهُ - صَدَقَا

وإذا حاولنا الوقوف على معالم النقد في عهد النبي ﷺ، لا بد لنا أن نأتي بأمثلة من الأحكام في ذلك الوقت، والمشهور عن النبي ﷺ أنه كان يستمع إلى الشعر ويعجب به متى كان حقاً ليس فيه عبث ولا كفر، وكان يستنشده ويتمثل به ويشيب عليه، فيقال: إنه أعطى برده لكعب بن زهير لما أنشده قصيدته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متميم إثرها لم يفسد مكبول
ويروى أنه كان ﷺ يتمثل بشعر طرفه فيقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويقول: هذا من كلام النبوة.

وكان ﷺ يستنشد الخنساء بعد أن أسلمت قائلاً: «هيه يا خناس»، ويومئ بيده، كما أنه كان يقول: (إن من الشعر لحكمة أو ان من البيان لسحراً)، وتمثله ﷺ بالشعر دلالة على أنه كان يعجب بما يتمثل به.

الباب التاسع عشر

الفصل الثاني

واقعية النقد في عصر صدر الإسلام

ترك الإسلام للشعراء والنقاد الحرية في ممارسة حياتهم الاجتماعية والدينية من خلال موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء وموقف الرسول ﷺ كذلك.

فقد وردت مادة شعر في القرآن الكريم في سياقات مختلفة، قال تعالى في سورة يس الآية / ٦٩ / (وما علمنه الشعر وما ينبغي له أن هو إلا ذكر وقرآن مبين) فما جاء به الرسول الكريم عليه السلام من القرآن لم يكن شعراً؛ لأن الرسول ﷺ لم يتلمذ على يد شاعر قبله كما كان العرب سابقاً كما أن الله تعالى لم يعلمه الشعر ولم يلهمه إياه ولم يعرفه بقوانينه، وإذا كان الشعر يرفع من قدر الوضيع الخامل مثلما يضع من قدر الشريف الكامل، فإنه لا يرتقي إلى مرتبة النبوة ولا يليق بالأنبياء، وأن الشعراء مهما بلغوا من مراتب القيم فإنهم لا يدركون مرتبة الأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى برسالته رسالة (التوحيد) التي ليست هي لب رسالة الشعر ناهيك عن أن بعض الشعراء يفسقون ويكذبون ويلهون وحاشا للنبوة، بل ذلك على العكس من ذلك فقد كانت العرب تعتقد أن لكل شاعر شيطانه سواء أكان ذكراً أم أنثى، وبذلك صرح الشعراء أنفسهم.

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر وكذلك هناك فارق بين طبيعة الشعر وطبيعة القرآن الكريم. فطبيعة الشعر مصدرها الإلهام والإحساس الزائد وطبيعة القرآن الكريم هي كلام الله الذي هو صفة من صفاته، كما وأن النص الشعري يختلف عن النص القرآني. وقد ذكر القرآن الكريم لفظة شاعر في مواضع أربعة:

١- (بل أضغات أحلام بل افتراه بل هو شاعر) الأنبياء / ٥ / .

٢- (ويقولون إنا لتاركو أهتنا لشاعر مجنون) الصافات / ٣٦ / .

٣- (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) الطور / ٣٠ / .

٤ - (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون) الحاقة / ٤١ / .

وكل الآيات الأربعة تشير إلى أن كلمة شاعر فيها لا تخرج عن معنى العرب له: (هو من يتخيل ما لا حقيقة له). والشاعر في المواقع الأربعة في موقع ذم ويكفي للدلالة على اختلاف مرتبة الشاعر عن النبي ما حصل بين (ضمار الطيب) الذي ورد على مكة والرسول ﷺ حين عرض على النبي عليه الصلاة والسلام أن يداويه مما هو معتقد أنه ما جاء به من القرآن هو نوع من الجنون أو الشعر أو السحر، فأسمعه النبي ﷺ: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله) فقال: سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء..... هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه...).

أما ما ورد في سورة الشعراء / ٢٢١ - ٢٢٧ / (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أقيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون) فقد بين أن الشعراء يخطبون في أقوالهم كخطب الهائم في سيره في الأودية لما يجولون فيه من أفانين القول في أنواع التشبيب وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والافتخار بالباطل ومدح من لا يستحقون وكل ذلك قلب للحقائق، وهذا كله لا يناسب مقام الأنبياء صلوات الله عليهم ولا يناسب مقام المؤمنين وقد استثنى الله تعالى من شعراء القدح والذم والنهش والنبش المؤمنين الذين يدافعون عن العقيدة ويدعون للفضائل ومكارم الأخلاق.

وإذا كانت مهمة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ليست أصلاً تشتغل بالشعر أو النقد، بل في بناء مشروع حضاري (ديني - دنيوي) فإنها لابد أن يكون لها رؤية في حركة الشعر في عصره وخاصة أن الشعراء كانوا يخوضون في دعوته أحياناً ويدافعون عنها أحياناً أخرى، وأنه اتخذ الشعراء المدافعين عن العقيدة سلاحاً للدفاع عن الدين الجديد.

وقد كان للرسول ﷺ موقف من الشعر فقد نسب إليه ﷺ في السنن الكبرى (الشعر كلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه) وقوله: (إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً)

المستدرك على الصحيحين / م ٦٥٦٨ / لما يحمله البيان من جودة المعاني وجماليات الألفاظ وما ينطوي عليه من الحكمة.

والسحر بعضه عقلي ينتمي إلى الكلام المشتمل على غريب المعنى وبعضه طبيعي وهو ما يظهر من آثار الطبيعة في عناصرها المتهيئة وموادها المستبيحة وبعضه صناعي وهو ما يوجد في خفة الحركات وتصريفها في الوجوه الخفية عن الأبصار وبعضه سحر إلهي وهو ما يبدو في الأنفس الكريمة الطاهرة لفظاً وفعلاً، والبيان الإنساني يجمع بين السحر العقلي والإلهي.

أما ما جاء عنه ﷺ (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً) سنن أبي داوود، وفي مسند أبي يعلى الموصلي (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً أو دمماً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به). فإنما هو نهي عن الشعر في هجاء النبي ﷺ، ويقاس عليه كل شعر هجاء يُهجي به غير المشركين والكافرين ويشمل كل شعر يقدر بالآخرين ويتعدى قيم الحق والخير والإنسان.

أما نقد النبي للشعراء الجاهلين فقد ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار) وفي المعجم الكبير للطبراني... قال رسول الله ﷺ: (ذاك رجل مذکور في الدنيا منسي في الآخرة شريف في الدنيا خامل في الآخرة يجيء يوم القيامة بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار) وكذلك قال ﷺ: (وما سمعت بأعرابي فاشتهدت أن أراه إلا عنتر) ومما يدل على شرعية الشعر سماع النبي له وأنه طلب من والد عمرو بن الشريد أن يسمعه بعض شعر أمية بن أبي الصلت فأسمعه مئة بيت، وكذلك ما روي من سماعه لشعر الخنساء رضي الله عنها وكذلك ما نشده عبد الله بن رواحة الأنصاري حين كان آخذاً بخطام ناقة النبي عليه الصلاة والسلام في وسط مكة المكرمة في عمرة القضاء:

خلوا بني الكفار عن سبيله	إني شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله	يارب إني مؤمن بقبيله
أعرف حق الله في قبوله	نحن قتلناكم على تأويله

كما قتلناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وكذلك ما قاله عامر بن الأكوع في الليل حين مسير القوم إلى خير:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
وكذلك ما استمعه رسول الله ﷺ من كعب بن زهير

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
وربما ارتجز الرسول ﷺ بكلمة عبد الله بن رواحة حين كان ينقل تراب الخندق: (اللهم
لولا أنت ما اهتدينا)

ويتمثل قول طرفة (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) وقول عبد بني الحسحاس (كفى الشيب
والإسلام للمرء ناهياً) ولكنه كان يقلب ويقدم الكلمات ويؤخر بعضها.

وإن استماع الرسول ﷺ للشعر واستحسانه له عند سماعه له أو عطاءه إنما هو جزء من
مواقفه العملية التي يتوجها موقف الرسول ﷺ من شعراء الدعوة واختياره شاعراً خاصاً
مكلفاً بالدفاع عن الدعوة الإسلامية والذود عن حياض المسلمين بالشعر إلى جانب السيف،
وقد كان يهجو رسول الله ﷺ ثلاثة شعراء مشركين (ابن الزبيري - أبو سفيان - عمرو بن
العاص) في مكة المكرمة فطلب من علي رضي الله عنه أن يهجوهم وقيل للرسول في ذلك فقال
ﷺ: (ليس هناك) ثم قال للأَنْصار ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلاحهم أن
ينصروه بألسنتهم، فقال حسان بن ثابت رضي الله عنه (أنا لها) فقال رسول الله عليه السلام:
(كيف تهجوهم وأنا منهم) فقال حسان: (إني أسلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين) وقد
شارك حسان في هجاء شعراء المشركين كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم...
يعارضونهم ويعيرونهم بالمثالب والوقائع والكفر وإعراض الرسول ﷺ عن علي، وهو من
فحول الشعراء وتقدير حسان غرضه السياسي (شد الأنصار إلى الحرب الإعلامية وربطهم
بالدعوة وتكريم شاعرهم ليكون شاعر الإسلام وشاعر الدعوة) وكذلك كان الرسول ﷺ
يستمع إلى النابغة الجعدي الذي قال: أتيت إلى النبي ﷺ فأنشدته:

وإننا لقوم ما تعود خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا

وننكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا
 بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنما لنبغي فوق ذلك مظهرا
 فقال النبي ﷺ: (إلى أين؟) فقلت: إلى الجنة قال: (نعم إن شاء الله)، ومن الأحكام النقدية
 للرسول عليه الصلاة والسلام على الشعر قوله في الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه:
 (أصدق بيت قالته الشعراء ألا كل شيء ما خلا الله باطل). وقوله ﷺ قال عن عبد الله بن
 رواحة: (إن أحمأ لكم لا يقول الرفث) كما أنه ﷺ قال لحسان رضي الله عنه بعد أن طلب من
 شعراء الدعوة أن يهجو قريشاً فهجوها فلم يرض هجاءهم النبي: (إن روح القدس لا يزال
 يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله) وقال أيضاً: (هجاهم حسان فشفى وأشفى).

ومما قاله حسان بن ثابت في دفاعه عن النبي مخاطباً أبا سفيان:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعنـد الله في ذاك الجـزاء
 هجوت محمداً براً حنيفاً رسول الله شـيـمته الوفاء
 فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
 وقد انصب نقد الرسول ﷺ للشعر من جهة إصابة الحق وإقامة الشعر على الصدق
 ومعاملة الخصم بالمثل لو كان هجاء دون أن يخرج هجاء الشعراء المسلمين عن حد القيم
 الإسلامية، وقد اختلف في قول الرسول ﷺ للشعر على اعتبار أن القرآن دافع عن كونه ليس
 بشاعر فنقلوا أنه قال في إصبع له دميت حين أصابه حجر وهو يمشي:

هل أنت إلا إصبع دميت؟ وفي سبيل الله ما لقيت
 وأنه قال يوم حنين:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
 واختلفوا في كون ذلك رجزاً أو شعراً كما اختلفوا في حد الشعر والشاعر، وأن من يقول
 بيتاً أو بيتين لا يعد شاعراً.

الباب التاسع عشر

الفصل الثالث

التناقض بين القرآن والشعر

ما موقف الإسلام من الشعر؟

هل أقره على ما كان عليه أم حاربه؟

كيف نوفق بين الأخبار الشعرية التي تنسب إلى الرسول والتي تتراوح بين الحب والكراهية بين الإقبال والإدبار؟

لو عدنا إلى القرآن الكريم نستوضح هذه الصورة لوجدنا أن معارضة القرآن للشعر ترجع إلى أسباب منها:

١- الصلة بين الشاعر والكاهن: فالكاهن كان يتحدث عن أشياء غيبية يشاركه الشاعر في هذه الظاهرة ويعتمد الكاهن على هذه المغيبات فقد نزل القرآن الذي يحترم العقل الإنساني المفكر رافضاً الكهانة واعتبرها ضرباً من التلاعب بالعقول التي خلقت للتفكير السليم، ولما كان القرآن قد هبط على الرسول من عالم الغيب فقد اختلط على العرب الكاهن بالرسول بالشاعر، فعمد القرآن عندئذ إلى الفصل بين كلام الله ودجل الكهان أو تخيلات الشعراء، فلذلك وصف القرآن: (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين) (الحاقة ٤٠ فما بعد).

ولهذا جاءت سورة الأنبياء لتنتقل عن ألسنتهم ما ينعنون الرسول بهذه النعوت إذ قالوا: (أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) (الأنبياء) وتجاوز الكفار نعت الرسول بالكاهن المقترن بالشاعر إلى نعته بالشاعر المقترن بالمجنون لذلك قالوا في سورة الصافات: (أإننا لتاركو أهتنا لشاعر مجنون) (الصافات) ثم وصفوه بالساحر المجنون في مواطن متعددة من القرآن.

وإزاء هذه التهم التي ألصقت بالرسول بأنه كاهن تارة وساحر تارة أخرى وشاعر تارة ثالثة عمد القرآن إلى رفع صفة الشاعرية، عنه فجاء قول القرآن في سورة يس (وما علمناه

الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)(يس) واستمر المشركون في نعت الرسول بالشاعر فقالوا في مواطن كثيرة: (بل هو شاعر) (أم يقولون شاعر) (وما هو بقول شاعر) بسبب كل هذه القرائن التي اقترنت بها صورة الشاعر في ذهن الرسول والملابس التي رافقتها كره الرسول الشعر، وازدادت كراهيته له أكثر من ذي قبل عندما هبطت عليه سورة الشعراء التي جاءت خاتمتها مصرحة بالآيات التي تنعى على الشعراء صنيعهم فقالت: (والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يميمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) (الشعراء).

٢- إن الإسلام لم يول الشعر أهمية في أول الدعوة الإسلامية؛ لأن الإسلام دين توحيد وقد عمل كل ما في وسعه لتوحيد العرب وضم قبائلهم المتناحرة وسل الضغائن من صدورهم وجند كل قواهم ووظفها في سبيل خدمة الدين الجديد وتحقيق أهدافه، ولما كان الشعر وخاصة الهجائي والغزلي منه عنصراً من عناصر التفرقة بين الأفراد والقبائل لما يشيعه هذان الفنّان من كراهية وحقد، فإن القرآن نادى بازدرائه، ولهذا نقل عن الرسول قوله: (لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً حتى يريه أفضل من أن يمتلى شعراً) (العمدة ٢/ ٣٢).

وكراهية الإسلام للشعر يصدق على الفترة الإسلامية الأولى. وإذا كان القرآن حارب غرض الهجاء بالشعر؛ لأنه داعية فرقة ومثير ضغائن وأحقاد، ولهذا قال الرسول: (من روى هجاء فهو أحد الشائمين)، فإنه حارب غرض المدح وإن كان ذلك بشكل خفي وفلسفة الإسلام في ذلك أنه لا مقام في المجتمع الإسلامي الجديد لمتهاون أو طفيلي مرتزق بلسانه يمدح هذا ارتزاقاً، وفي ذلك مذلة وتواكل، والإسلام يطمح لبناء المسلم ذي النفس العزيزة ذي الهممة غير المتواكلة، ولهذا المعنى قال: (احثوا التراب في وجوه المداحين) ولكن ما إن يهاجر الرسول من مكة إلى المدينة وتلحقه قريش بأذاها حتى يجد الرسول نفسه مضطراً للدفاع عن ذاته وعقيدته باللسان، فعندما جابهته قريش بالحرب جابهها بحرب مثلها وتغلب عليها، ولكن عندما تصدت له في أيام السلم بالشعر لم يستطع - وما هو بالشاعر - أن يرد عليها؛ لذلك وجد الضرورة قائمة لاصطناع الشعر أداة من أدوات النضال لا غنى عنها فكان أول

خبر معتدل له قوله: (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين) (العمدة) وأخذنا نسمع في الفترة المدنية شيئاً من نقد الشعر تفوهت به زوج الرسول عائشة أم المؤمنين شبيهاً بالذي قاله النبي ﷺ، بل فيه تساهل، فهذا هي ذي السيدة عائشة تقول: (الشعر كلام جزل تتكلم به العرب في بواديها وتسئل به الضغائن من بينها) (العمدة)، ويستقبل الرسول ﷺ شعراء القبائل وخطبائهم فيعبر عن إعجابه بالكلمة الطيبة: (إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً) وهذا كعب بن زهير الذي كان الرسول قد أهدر دمه لشدة غضبه عليه يستل غضب الرسول عليه بأبيات من الشعر ينشدها بين يديه وأعني بهذه الأبيات لا ميتة التي مطلعها:

بانـت سـعاد فـقلـبي الـيـوم مـتـبـول مـتـمـيم إـثـرـها لـم يـفـد مـكـبـول
 وـما سـعاد غـداة الـبـين إذ رـحـلـوا إلـا أـغـن غـضـيـض الـطـرف مـكـحـول
 حـتى وـصل كـعب إلـى قـولـه فـي هـذه القـصـيدـة:

إن الـرسـول لـنـور يـسـتـضـاء بـه مـهـنـد مـن سـيـوف الـله مـسـلـول
 فـتـهـلّل وـجـه الـرسـول ﷺ وـانـفـرـجـت أـسـاريـره، فـصـفـح عـن كـعب وـاتـخـذـه بـعـدها خـليلاً
 وـاصـطـفـاه شـاعـراً مـن شـعـراء الدـعـوة، وـكـذـلك وـقـف الـرسـول ﷺ مـن الشـعـر المـخـضـرم، وـتمـثـل
 هـذا المـوقـف فـي نـقـده لـبـضـعة أـبـيـات لـأمـية بـن أـبي الصـلـت إذ وـقـف الـرسـول مـوقـفاً حـسـناً، فـعـنـدما
 أنـشـد قـصـيدـة أـمـية الـتي مـطـلـعـها:

الـحـمـد لـله مـسـانـا وـمـصـبـحـنا بـالـخـير صـبـحـنا رـبـي وـمـسـانـا
 أحـبـها الـرسـول وـأثـنى عـليـها وـقال: (كاد أـمـية لـيـسـلم) غـير أن عـجـلة الزـمـان تـدور وـتـكـون
 مـعـرـكة بـدر فـيـقـف أـمـية فـي صـف المـشـركـين وـيرثـي قـتـلـاهم فـيـتـغـيـر مـوقـف الـرسـول مـنـه حـتى أنـه
 نـهـى أـصـحـابـه عـن رـوايـة حـائـية أـمـية فـي رثـاء قـتـلـي المـشـركـين.

الباب التاسع عشر

الفصل الرابع

موقف الرسول من الشعراء الذين عاصروه

ويمكن أن نقسم هؤلاء إلى أقسام ثلاثة:

الأول: الشعراء المشركين الكفار.

الثاني: الشعراء المشركين الذين أسلموا.

الثالث: الشعراء الأنصار الذين وقفوا بجانب الرسول.

أ- أما القسم الأول:

وهم شعراء قريش المشركة ومن سار في ركابها وهؤلاء ناصبوا الإسلام العداء، ويأتي على رأس هذه الفئة (عبد الله بن الزبير) الذي هيج العواطف ضد المسلمين بعد معركة بدر، و(هيرة بن أبي وهب المخزومي) و(ابن خطل) وقد كان النبي أهدر دمه لارتداده مشركاً وإنه كان يأمر قيتتين له بأن تغنيا بهجاء الرسول، وقد قتله أبو برزة الأسلمي يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة و(ابن حبابة) الذي قتله نميلة بن عبد الله يوم فتح مكة أيضاً لارتداده وهجائه للمسلمين ومنهم (نافع بن عبد مناف) و(أبو عزة الجمحي) الذي كان يجرض القبائل ضد المسلمين، وروى ابن سلام عنه أنه أيضاً كان رجلاً فقيراً كافراً فأسر يوم بدر فقال: يا رسول الله إني ذو عيال وحاجة عرفتها فامنن عليّ فقال الرسول ﷺ: (على ألا تعين عليّ المشركين بشعرك) فعاهده فأطلقه الرسول فقال:

ألا أبلغا عني النبي محمداً
وأنت امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى
بأنك حق والمليك حميد
عليك من الله الكريم شهيد
ولكن إذا ذكرت بدرًا وأهلها
تأوب ما بي حسرة وتعود

فلما كان يوم (أحد) ارتد مع الكفار فأسره المسلمون ثانية فجاء إلى الرسول ﷺ، وقال له: من علي، فقال النبي: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، فقتله. ويضاف إلى شعراء قريش بعض شعراء اليهود مثل كعب بن الأشرف وكان قد بكى قتلى (بدر) وتغزل بنساء الرسول ونساء المسلمين ليغيظهم فأمر الرسول رهطاً من الأنصار بقتله فقتلوه.

ب- أما القسم الثاني:

كقيس بن الخطيم وهو من الذين آذوا المسلمين وكان يتغزل بعمره بنت رواحة أخت الشاعر المسلم عبد الله بن رواحة وكان قيس مقيماً على شركه وأسلمت امرأته حواء فكان يصددها عن الإسلام ويعبث بها يأتيها وهي ساجدة فيقلبها على رأسها، فلما بلغه خبر إسلامها أتى الرسول ﷺ إلى قيس وطلب ألا يؤذي زوجته فقال له: نعم وكرامة وكف عن إيذائها ومن الشعراء الذين أسلموا بعد كفر عبد الله بن الزبيرى مدح الرسول وبمدحه اعترف بأنه كان على خطأ عندما كان في صف المشركين قال:

يا رسول المليك إن لساني رائق ما فتقت إذ أنا بور
 إذ جاري الشيطان في سنن الغي ي ومن مال ميله مثبور
 آمن اللحم والعظام بما قل ت فنفسي الفدى وأنت النذير
 ج- وأما الشعراء الذين وقضوا بجانب الرسول فأخبارهم مستفيضة معروفة وهم

حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وكعب بن مالك وغيرهم.

وقد استمع الرسول إلى مئات القصائد في هذه المعركة اللسانية بينه وبين الكفار، وقد ضاع هذا الكلام من القصائد أو بالأحرى حكم عليه بالضياع؛ لأن الورعين من الأخباريين المسلمين تأثموا من حفظه ونقله، ثم تأثم الورعون من المدونين عن كتابته فذهب إلى غير رجعة، وقد كان الرسول ﷺ ملماً بهذه الأشعار كلها ينفع لمضمونها ويتذوقها ويتجاوب معها.

الباب التاسع عشر

الفصل الخامس

خصائص النقد في هذا العهد

أبرز خصائص النقد في هذا العهد ما يلي:

- ١- هذه الأخبار النقدية كثيرة ولكن محصولها النقدي قليل.
- ٢- إن موقف رجال الأدب من هذه الأخبار يختلف عن موقف رجال الدين وقد تتباعد وجهات نظر كل فئة منهما في تفسير هذه الظواهر.
- ٣- هذا النقد كان يتناول الجاهلي كما يتناول الشعر المعاصر لهذه الدعوة والشعر المخضرم والشعر الذي عاصر الدعوة الإسلامية في إبان نشوئها وترسيخ دعائمها.
- ٤- كان النقد منصباً على الشاعر أكثر من انصبابه على الشعر، منصباً على سلوك الشاعر وانعكاس هذا السلوك على شعره.
- ٥- صحيح أن النقاد في هذه الفترة كان أكثرهم شعراء باستثناء الرسول ﷺ ولكنهم كانوا من ضعاف الشعراء وهم دون مرتبة الشعراء، الذين كانوا ينصبون أنفسهم للنقد في العصر الجاهلي كالنابغة مثلاً.
- ٦- كان أكثر النقد منصباً على المعنى وقربه أو بعده من الدين والأخلاق ولم يكن منصباً على الصياغة.
- ٧- وبتأثير الدين الجديد كان يرضى هؤلاء النقاد من معاني الشعر ما:
 - أ- اتسق مع تعاليم الدين الجديد كالدعوة إلى فكرة الإله الواحد والشعر المتأله النابذ للوثنية.
 - ب- تمشيه مع مكارم الأخلاق التي نادى بها العقيدة الإسلامية وحضت عليها.
 - ج- تمشيه مع ما دعا إلى السلوك القويم.
 - د- تمشيه مع ما نم عن حكمة إنسانية خالدة وموعظة رشيدة.

٨- ولما كان الشعر قد سار في طريق الخير ووظف لهذه الطريق فإنه لان وضعف والنقاد يقولون: (إن الشعر نكد فإذا سار في طريق الخير لان)، ولأمر ما قالوا عن لبيد بن ربيعة إنه رجل صالح كأنهم ينفون عنه - وخاصة في الفترة الإسلامية - جودة الشعر، ويترتب على ذلك أنه إذا لان الشعر في حقبة وضعف فإن النقد سيتبعه في هذا اللين وسيضعف أيضاً.

٩- حارب الإسلام الهجاء وأهدر دم الهجائين؛ لأنهم يثيرون كوامن الأحقاد، وحارب الغزل؛ لأنه مثار ضغائن، وحارب بعض المدح؛ لأنه تُكَاة العاجز فلذا ضمرت هذه الأغراض في الحقبة الإسلامية وخاصة في القسم الأول منها.

١٠- انحسر النقد وأصيب بالتوقف في هذه الفترة تبعاً لانحسار الشعر نفسه لعدة أسباب:

- آ- لدهشة العرب لهذا اللون الجديد من الأدب الذي هو (النشر القرآني) وما فيه من إعجاز.
- ب- إن تحدي القرآن للعرب أن يأتوا بمثله جعلهم ينصرفون عن الشعر بعض الانصراف والالتفات إلى هذا اللون فنشأ قرآن مسيلمة وسجاح وغيرهما.
- ج- إن انشغال العرب بالفتوح الجديدة وأخبارها التي راحوا يتناولونها في نثراتهم وأسماهم صرفهم عن الاعتكاف على النظر في قصيدة ينتقدونها.
- د- بعض رجال هذه الفترة كانوا أصحاب نقد في الشعر وبصر به كعمر بن الخطاب، وكان ينتظر منهم أن يجودوا بأحكام نقدية أكثر مما جادوا بها، ولكن اشتغالهم بالسياسة والفتوح حجبهم عن نقد الشعر إلا في بعض ساعات فراغهم، وأمسك نقاد هذه الفترة عن نقد لشعر الوثني وأعرضوا عنه، وكان ذلك سبباً لاضمحلاله وتلاشيه وتناقل الناس فكرة الورع والخوف من نقل أخبار الشعر الوثني رواية شفوية أو كتابة فكان ذلك مدعاة لنسيانه وبالتالي لضياعه وفقدانه.

١١- الأحكام النقدية غير دقيقة كقولهم: (فلان أشعر الشعراء) و(فلان أشعر الجن والإنس) ولكن بعض النقاد كانوا يذكرون هذه العمومية، ثم يتبعونها بالتخصيص فيقولون: (فلان أشعر الشعراء لقوله كذا) و(فلان أشعر العرب لقوله في هذا المعنى كذا).

١٢- إلى جانب هذه الأحكام غير المعلّلة نجد بعضها معللاً مستنداً إلى بعض المقاييس من لفظ وتركيب ومعنى كقول عمر بن الخطاب عن زهير: (كان لا يعاقل - ولا يتبع حوشي اللفظ - ولا يمدح الرجل إلا بما فيه).

١٣- لا يزال النقد قائماً على التأثير الانفعالي للأثر الفني في الشعر، وهذا ما يفسر تناقص الأحكام التي يصدرها النقاد كعمر بن الخطاب الذي يجعل زهيراً أشعر الشعراء تارة والنابعة تارة أخرى، وهذا يعطي الحكم النقدي صفة الذاتية التي يلتقي بها مع النقد الجاهلي.

١٤- كنا نتوقع في العصر الإسلامي نقداً للشعر أكثر لتعدد بيئات النقد ووفرة منتدياته فبعد أن كانت سوق عكاظ هي المنتدى الوحيد ومرة في كل عام أصبحت بيئات الأدب والشعر في الإسلام كثيرة ومتعددة وغير مقصودة على زمن بعينه فمن حيث المكان غدت مكة والمدينة والطائف والبصرة والكوفة وغيرها أمكنة للقاء الشعراء، كما غدت أشهر كثيرة ومواسم متعددة بالإضافة إلى موسم الحج مواقيت لاجتماع الناس وتذاكرهم في شؤون دنياهم ومنها الشعر والفكر.

الباب العشرون

الحكمة العربية والإسلامية

الباب العشرون

الفصل الأول

القرآن الكريم كتاب حكمة

ما إن نزل القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ حتى تلقفه الصحابة أولاً، ثم تكونت أجيال من العلماء تبحث في مختلف مناحيه وجوانبه تشريعاً وفكراً وأدباً وتاريخاً وإعجازاً وحكمة وفلسفة، وكوّن هذا الكتاب على مر العصور مكانة عالية في نفوس أعدائه ومحبيه، فاستخلصت منه الحكمة وما يدعو إليه العقل والمتصفح لآيات هذا القرآن الكريم يكتشف أن معظم آياته تركز على ضرورة التفكير والتذكر والتعقل والعظة والعبرة، وكل ذلك من صميم البحث الفلسفي، وما شيع أن الفلسفة تقود للإلحاد إنما هو خطأ زمني، فالفلسفة أفكار وكلام: حسنه حسن وسيئه سيء، كما قيل في الشعر أنه كلام: حسنه حسن وسيئه سيء وهذه سمة من سمات الفكر الإنساني؛ ولو أننا رجعنا إلى حياة الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم لوجدنا كلها حكم وعبر وعظات، وقد نبتت الفلسفة العربية والإسلامية في أحضان هذا الكتاب على الرغم من صعوبة ولادتها وتطورها، وسجل العرب والمسلمون حضوراً فلسفياً وفكرياً أسهم في تطور الفكر الإنساني، وقد شجع العرب المسلمون على نشأة هذا العلم من خلال دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وما ترجم عن اللغات الأخرى، وكان أول من شجع الترجمة في العصر الأموي (خالد بن زيد) الذي أبعد عن الخلافة فعوض عن ذلك الحرمان السياسي بترجمة كتب العلم، وكذلك ساهم الخليفان العباسيان (الرشيد والمأمون) في ذلك، فكانوا يكافئون المترجمين بزنة كل كتاب ذهباً إن ترجم للعربية واشتهر من المترجمين (إسحق بن حنين) الذي كان يتقن (السريانية - الفارسية - اليونانية - العربية) والذي ترجم الكثير من كتب الفلسفة إضافة إلى مترجمين من أمثال (ثابت بن قرة) (قسطن بن لوقة - يحيى بن عدي - عيسى بن إسحق - يوحنا بن البطريق - عبدالله بن ناعمة الحمصي).

ولو رحنا نستقصي آيات الحكمة ومواقف الحكمة في القرآن الكريم لاحتجنا إلى كتاب مستقل، وقد ذكر القرآن الكريم أنّ من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

الباب العشرون

الفصل الثاني

صفات الله الحسنی

أراد الله تعالى أن يكرم عباده بمعرفته ويجمع قلوبهم على محبته فشرح صدرهم لقبول صفاته العلية وتلقيها من مشكاة الوحي، وليست الأرواح بأحوج إلى شيء أعظم منها إلى معرفة الله تعالى ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من أسمائه وصفاته تعالى فالإيمان بالأسماء والصفات له من الفضل ما لا يخفى وذلك لمعرفة أصل الدين وركن التوحيد، وآيات الصفات لها محل خاص فأعظم آية في كتاب الله هي آية الكرسي.

أولاً: الله تعالى كامل في صفاته

صفات الله تعالى كلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياء، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك. وقد دل على هذا السمع، والعقل، والفطرة. أما السمع: فمنه قوله تعالى: (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). والمثل الأعلى هو (الوصف الأعلى)، وأما العقل: فوجهه أن كل موجود حقيقة، فلا بد أن تكون له صفة. إما صفة كمال، وإما صفة نقص.

والثاني باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحق للعبادة؛ ولهذا أظهر الله تعالى بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بالنقص والعجز. فقال تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، وقال تعالى عن إبراهيم وهو يحتج على أبيه: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)، وعلى قومه: (أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَ لَكُمْ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

ثم إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة أن للمخلوق صفات كمال، وهي من الله تعالى، فمعطي الكمال أولى به؛ وأما الفطرة: فلأن النفوس السليمة مجبولة مفطورة على محبة الله وتعظيمه وعبادته، وهل تحب وتعظم وتعبد من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللاتقة بربوبيته وألوهيته؟ وإذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله تعالى كالموت والجهل، والنسيان، والعجز، والعمى، والصمم ونحوها؛ لقوله تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ). وقوله عن موسى: (فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى). وقوله: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)، وقوله: (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ).

وقال النبي ﷺ في الدجال: "إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور". وقال: "أيها الناس، أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائباً". وقد عاتب الله تعالى الواصفين له بالنقص، كما في قوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ). وقوله: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ).

وكذلك نزه الله تعالى نفسه عما يصفونه به من النقائص، فقال سبحانه: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). وقال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ).

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال، ونقصاً في حال، لم تكن جائزة في حق الله ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تثبت له إثباتاً مطلقاً، ولا تنفى عنه نفياً مطلقاً، بل لا بد من التفصيل: فتجوز في الحال التي تكون كمالاً، وتمتنع في الحال التي تكون نقصاً وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها. فهذه الصفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها؛ لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد، وتكون نقصاً في غير هذه الحال، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها، كقوله تعالى: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ). وقوله:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا) وقوله: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ). وقوله: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ). وقوله: (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ* اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ).

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه فقال تعالى: (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فقال: (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ)، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خدعة في مقام الائتنان، وهي صفة ذم مطلقاً.

ثانياً: باب الصفات أوسع من باب الأسماء

ذكر أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا تنتهي لها، كما أن أقواله لا تنتهي لها، قال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). ومن أمثلة ذلك: أن من صفات الله تعالى المجيء، والإتيان، والأخذ والإمسك، والبطش، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى كما قال تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ). وقال: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ). وقال: (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ). وقال: (وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ). وقال: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ). وقال: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ). وقال النبي ﷺ: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا". فنصف الله تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا نسويه بها، فلا نقول إن من أسماؤه الجائي، والآتي، والأخذ، والممسك، والباطش، والمريد، والنازل، ونحو ذلك، وإن كنا نخبر بذلك عنه ونصفه به.

ثالثاً: أقسام صفات الله تعالى

تنقسم صفات الله تعالى إلى قسمين: ثبوتية، وسلبية:

أ- فالثبوتية: ما أثبتته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة والعلم، والقدرة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك. فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على

الوجه اللائق به بدليل السمع والعقل . أما السمع : فمنه قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) . فالإيمان بالله يتضمن : الإيمان بصفاته . والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله يتضمن : الإيمان بكل ما جاء فيه من صفات الله . وكون محمد ﷺ رسوله يتضمن : الإيمان بكل ما أخبر به عن مرسله ، وهو الله عز وجل . وأما العقل : فلأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه ، وهو أعلم بها من غيره ، وأصدق قيلاً ، وأحسن حديثاً من غيره ، فوجب إثباتها له كما أخبر بها من غير تردد ، فإن التردد في الخبر إنما يتأتى حين يكون الخبر صادراً ممن يجوز عليه الجهل ، أو الكذب ، أو العي بحيث لا يفصح بما يريد ، وكل هذه العيوب الثلاثة ممتنعة في حق الله عز وجل فوجب قبول خبره على ما أخبر به . وهكذا نقول فيما أخبر به النبي ﷺ عن الله تعالى ، فإن النبي ﷺ أعلم الناس بربه وأصدقهم خبراً وأنصحهم إرادة ، وأفصحهم بياناً ، فوجب قبول ما أخبر به على ما هو عليه .

ب - والصفات السلبية : ما نفاها الله - سبحانه - عن نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وكلها صفات نقص في حقه كالموت ، والنوم ، والجهل ، والنسيان ، والعجز ، والتعب . فيجب نفيها عن الله تعالى - لما سبق - مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل ، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده ، لا لمجرد نفيه ؛ لأن النفي ليس بكمال ، إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال ، وذلك لأن النفي عدم ، والعدم ليس بشيء ، فضلاً عن أن يكون كمالاً ، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له ، فلا يكون كمالاً كما لو قلت : الجدار لا يظلم . وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصاً ، كما في قول الشاعر :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
وقول الآخر :

لو كنت من مازن لم يستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل ابن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

ومنه قوله تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت). فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته. ومنه قوله تعالى: (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) نفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله. ومنه قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ). فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته. ولهذا قال بعده: (إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا). لأن العجز سببه إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السموات ولا في الأرض. وبهذا المثال علمنا أن الصفة السلبية قد تتضمن أكثر من كمال.

رابعاً: الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال

كلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر. ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية، كما هو معلوم. وأما الصفات السلبية فلم تذكر غالباً إلا في الأحوال التالية:

الأولى: بيان عموم كماله كما في قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).
الثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون، كما في قوله: (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا).

الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين، كما في قوله: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ). وقوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ).

خامساً: أقسام الصفات الثبوتية

الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية:

أ- فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، ومنها الصفات الخبرية، كالوجه، واليدين، والعينين.

ب- والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين، كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً. وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). وكل صفة تعلق بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته. وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها لكننا نعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً).

سادساً: لا تمثيل ولا تكييف في صفات الله تعالى

يلزم في إثبات الصفات التخلي عن محذورين عظيمين:

أحدهما: التمثيل. والثاني: التكييف.

أ- فأما التمثيل: فهو اعتقاد المثلث أن ما أثبتته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين، وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

١- أما السمع: فمنه قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وقوله: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ). وقوله: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً). وقوله: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ).

٢- وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه قد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تبيانياً في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات؛ لأن صفة كل موصوف تليق به، كما هو ظاهر في صفات المخلوقات المتباينة في الذوات، فقوة الحصان مثلاً غير قوة الذرة، فإذا ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكها في الإمكان والحدوث، فظهور التباين بينها وبين الخالق أجلى وأقوى.

الثاني: أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابهاً في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المقتدر إلى من يكمله، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقُّص لحق الخالق؟! فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصاً.

الثالث: أننا نشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية، فنشاهد أن للإنسان يداً ليست كيد الفيل، وله قوة ليست كقوة الجمل، مع الاتفاق في الاسم، فهذه يد

وهذه يد، وهذه قوة وهذه قوة، وبينهما تباين في الكيفية والوصف، فعلم بذلك أن الاتفاق في الاسم لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة.

والتشبيه كالتمثيل، وقد يفرق بينهما بأن التمثيل هو: التسوية في كل الصفات، والتشبيه هو: التسوية في أكثر الصفات، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

ب- وأما التكييف: فهو أن يعتقد المثلث أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيدها بمائل. وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

١- أما السمع: فمنه قوله تعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا). وقوله: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا). ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا؛ لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيةها، فيكون تكيفنا قفواً لما ليس لنا به علم، وقولاً بما لا يمكننا الإحاطة به.

٢- وأما العقل: فلأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق عنه، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله - عز وجل - فوجب بطلان تكيفها. وإن أي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى في ذهنك، فالله أعظم وأجل من ذلك. وأي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى فإنك ستكون كاذباً فيها؛ لأنه لا علم لك بذلك وحينئذ يجب الكف عن التكييف تقديراً بالجنان، أو تقديراً باللسان، أو تحريراً بالبنان. ولهذا لما سُئِلَ مالك - رحمه الله تعالى - عن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كيف استوى؟ أطرق رحمه الله برأسه حتى علاه الرخصاء (العرق) ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" وروى عن شيخه ربعة أيضاً: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول".

وقد مشى أهل العلم بعدها على هذا الميزان. وإذا كان الكيف غير معقول ولم يرد به الشرع فقد انتفى عنه الدليلان العقلي والشرعي فوجب الكف عنه. فالحذر الحذر من التكييف أو محاولته، فإنك إن فعلت وقعت في مفاوز لا تستطيع الخلاص منها، وإن ألقاه الشيطان في

قلبك فاعلم أنه من نزغاته، فالجأ إلى ربك فإنه معاذك، وافعل ما أمرك به فإنه طيبك، قال الله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

سابعاً: صفات الله تعالى توقيفية.

لا مجال للعقل في تحديد صفات الله تعالى، فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث". ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة أوجه:

الأول: التصريح بالصفة كالعزة، والقوة، والرحمة، والبطش، والوجه، واليدين ونحوها.

الثاني: تضمن الاسم لها مثل: الغفور متضمن للمغفرة، والسميع متضمن للسمع، ونحو ذلك.

الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقام من المجرمين، الدال عليها - على الترتيب - قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). وقول النبي ﷺ: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا". الحديث. وقول الله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا). وقوله: (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ).

الباب العشرون

الفصل الثالث

أسماء الله تعالى

أولاً - مقدمة:

أمرنا الله أن ندعوه بأسمائه الحسنی، فقال تعالى: {ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها}، وحثنا النبي على إحصائها فقال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصائها دخل الجنة) ومعنى أحصاها أي دعا الله بها أو تعبد بمقتضاها. والفرق بين المسلمين وغيرهم من أهل العقائد هو في الأسماء والصفات فقد نسب غير المسلمين لله أسماء وصفات تتنافى مع النقل والعقل من مثل قولهم: (الله فقير ويتعب ومغلول اليدين عاجز وغير ذلك) قال تعالى في حقهم: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء}، قال تعالى: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} عندما زعم أهل الكتاب أن الله خلق السموات والأرض ثم استراح قال تعالى: {قالت اليهود يد الله مغلولة} وفي التوراة التي حرفت " أنه بينما الرب يطوف في الأرض إذ أمسك به يعقوب من حقه (وسطه) فصارعه فصرعه ولم يتركه يصعد حتى أعطاه لقب إسرائيل، وهذا باطل ونسبوا لله الصاحبة والولد قال تعالى: {وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه} ونحن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله من غير تعطيل ولا تحريف ولا تكييف ولا تشبيه، ومعرفة الله بأسمائه وصفاته والتعبد له بمقتضاها هما جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة حتى عبَّ أحدهم عن تلك السعادة التي يجدها في قلبه وعن تلك اللذة التي يحسها في صدره " إن في قلوبنا من اللذة ما لم لو علمه أبناء الملوك لقاتلونا عليه بالسيوف وإنه ليأتي على القلب ساعات يرقص فيها طرباً من لذة ذكر الله، ولو أن أهل الجنة في مثل هذا النعيم إنهم لفي خير عظيم " قال تعالى: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}.

ثانياً- قواعد في أسماء الله تعالى:

١- كل اسم من أسماء الله تعالى يؤخذ منه صفة وليس العكس فالاسم أخص من الصفة والصفة أعم من الاسم. فالرحيم مثلاً اسم نأخذ منه صفة الرحمة فنثبتها لله، لكن صفة كصفة النزول (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) لا نأخذ منها اسم فلا يجوز أن نقول من أسماء الله النازل تعالى الله عن ذلك. والسبب أن الصفات يدخل فيها الأفعال وأفعال الله لا تتناهى أما أسماؤه فتوقيفية.

٢- وأجاز البعض أن نسمي الله بأسماء تتضمن كمالاً هو نفسه الذي يتضمنه الاسم الوارد في الكتاب والسنة، ومثلوا لذلك بقولنا الستار لم يرد ولكن يتضمن الكمال الذي يتضمنه اسم الستير الذي ورد في السنة والقول الأول أولى.

٣- من أسمائه تعالى ما لا يطلق إلا مقترناً بضده كالضار تقول الضار النافع، والمذل المعز، قال تعالى: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير).

٤- دلالة الأسماء على الذات والصفات تكون بالمطابقة والتضمن والالتزام. فالخالق تدل على الذات بالمطابقة فاسم الله الخالق ليس فيه شيء زائد على الذات ويدل على الخلق بالتضمن وعلى باقي الصفات بالالتزام.

٥- أسماء الله غير محصورة بعدد معين. لقول النبي ﷺ: (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) صحيح. أما قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) فلا تدل على أن أسماءه تعالى محصورة في التسعة والتسعين ولكن المعنى أن الجزء المذكور هو مختص بهذه الأسماء وهو دخول الجنة لمن أحصاها، ولو أراد النبي (أن أسماء الله هي التسعة والتسعون فحسب لكان لفظ الحديث إن أسماء الله تسعة وتسعون اسماً).

وقد اجتهد كثير من العلماء في ذكر هذه الأسماء واختلفت رواياتهم في ذلك مما يدل على أنها ليست محددة أو مقطوع فيها. وهي كليلة القدر أخفاها الله ليجتهد الناس في العشر الأواخر من رمضان جميعاً كذلك لم يحدد الله هذه الأسماء ليجتهد العبد في كل اسم يعلمه.

٦- أسماء الله كلها حسنى، فالنور من أسائه تعالى مثل الهادي فالله نور السموات والأرض أي هادي أهل السموات والأرض وهو أيضاً جاعل النور فيها وجعل الظلمات والنور: أي خلق الظلمات والنور. فهو تعالى النور والنور من صفاته ولكن نور الخلق والشمس والقمر من آثار نوره وأثر الصفة مخلوق كأثر الفعل.

ثالثاً- أسماء الله الحسنى كما عدّها ابن حجر العسقلاني؛

أ- عدّ ابن حجر العسقلاني تسعة وتسعين اسماً أخذها من القرآن الكريم، وبذلك يوافق حديث أبي هريرة في عددها، ونحن نسوقها كما سردها.

١- الله	٣٤- العفو	٦٧- الحفي
٢- الرب	٣٥- التقدير	٦٨- الوارث
٣- الإله	٣٦- اللطيف	٦٩- الولي
٤- الواحد	٣٧- الخبير	٧٠- القائم
٥- الرحمن	٣٨- السميع	٧١- القادر
٦- الرحيم	٣٩- البصير	٧٢- الغالب
٧- الملك	٤٠- المولى	٧٣- القاهر
٨- القدوس	٤١- النصير	٧٤- البر
٩- السلام	٤٢- القريب	٧٥- الحافظ
١٠- المؤمن	٤٣- المجيب	٧٦- الأحد
١١- المهيمن	٤٤- الرقيب	٧٧- الصمد
١٢- العزيز	٤٥- الحسيب	٧٨- المليك
١٣- الجبار	٤٦- القوي	٧٩- المقتدر
١٤- المتكبر	٤٧- الشهيد	٨٠- الوكيل
١٥- الخالق	٤٨- الحميد	٨١- الهادي
١٦- البارئ	٤٩- المجيد	٨٢- الكفيل
١٧- المصور	٥٠- المحيط	٨٣- الكافي

١٨- الأول	٥١- الحفيظ	٨٤- الأكرم
١٩- الآخر	٥٢- الحق	٨٥- الأعلى
٢٠- الظاهر	٥٣- المين	٨٦- الرازق
٢١- الباطن	٥٤- الغفار	٨٧- ذو الجلال والإكرام
٢٢- الحي	٥٥- القهار	٨٨- غافر الذنب
٢٣- القيوم	٥٦- الخلاق	٨٩- قابل التوب
٢٤- العليّ	٥٧- الفتاح	٩٠- شديد العقاب
٢٥- العظيم	٥٨- الودود	٩١- ذو الطول
٢٦- التواب	٥٩- الغفور	٩٢- رفيع الدرجات
٢٧- الحليم	٦٠- الرؤوف	٩٣- سريع الحساب
٢٨- الواسع	٦١- الشكور	٩٤- فاطر السموات والأرض
٢٩- الحكيم	٦٢- الكبير	٩٥- بديع السموات والأرض
٣٠- الشاكر	٦٣- المتعال	٩٦- نور السموات والأرض
٣١- العليم	٦٤- المقيت	٩٧- مالك الملك
٣٢- الغني	٦٥- المستعان	٩٨- الرشيد
٣٣- الكريم	٦٦- الوهاب	٩٩- الصبور

ب- أسماء الله الحسنى كما عدها ابن العثيمين:

أولاً- فمن كتاب الله تعالى:

١. الله	٢٨. الخلاق	٥٥. القوي
٢. الأحد	٢٩. الرؤوف	٥٦. القهار
٣. الأعلى	٣٠. الرحمن	٥٧. الكبير
٤. الأكرم	٣١. الرحيم	٥٨. الكريم
٥. الإله	٣٢. الرازق	٥٩. اللطيف

٦٠. المؤمن	٣٣. الرقيب	٦. الأول
٦١. المتعال	٣٤. السلام	٧. الآخر
٦٢. المتكبر	٣٥. السميع	٨. الظاهر
٦٣. المتين	٣٦. الشاكر	٩. الباطن
٦٤. المجيب	٣٧. الشكور	١٠. البارئ
٦٥. المجيد	٣٨. الشهيد	١١. البر
٦٦. المحيط	٣٩. الصمد	١٢. البصير
٦٧. المصور	٤٠. العالم	١٣. التواب
٦٨. المقتدر	٤١. العزيز	١٤. الجبار
٦٩. المقيت	٤٢. العظيم	١٥. الحافظ
٧٠. الملك	٤٣. العفو	١٦. الحسيب
٧١. المليك	٤٤. العليم	١٧. الحفيظ
٧٢. المولى	٤٥. العلي	١٨. الحفي
٧٣. المهيمن	٤٦. الغفار	١٩. الحق
٧٤. النصير	٤٧. الغفور	٢٠. المبين
٧٥. الواحد	٤٨. الغني	٢١. الحكيم
٧٦. الوارث	٤٩. الفتاح	٢٢. الحلیم
٧٧. الواسع	٥٠. القادر	٢٣. الحميد
٧٨. الودود	٥١. القاهر	٢٤. الحي
٧٩. الوكيل	٥٢. القدوس	٢٥. القيوم
٨٠. الوئي	٥٣. القدير	٢٦. الخبير
٨١. الوهاب	٥٤. القريب	٢٧. الخالق

ثانياً- ومن سنة رسول الله ﷺ :

٨٢. الجميل	٨٨. السبوح	٩٤. المقدم
٨٣. الجواد	٨٩. السيد	٩٥. المؤخر
٨٤. الحكم	٩٠. الشافي	٩١. الطبيب
٨٥. الحي	٩١. الطبيب	٩٧. المعطي
٨٦. الرب	٩٢. القابض	٩٨. المنان
٨٧. الرفيق	٩٣. الباسط	٩٩. الوتر

خامساً- معاني بعض أسماء الله :

قال رسول الله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»
وأحصاها بمعنى حفظها أو دعا الله بها أو تعبد الله بمقتضاها.
وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

١- الله: وهو الاسم الجامع فهو علم على ذات الله لذلك يوصف ولا يوصف به فيقال العزيز: من أسماء الله ولا يقال الله من أسماء العزيز قال تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها} وقد ذهب البعض أنه غير مشتق وقال البعض باشتقاقه من أله يأله إلهاً وتألهماً يقال أله الفصيل إلى أمه هرب إليها فهذا يقال أله الرجل إلى الرجل إذا فرغ إليه لنائبة حلت به ويقال أله إلهة إذا أطاع طاعة مطلقة، ولاه إذا احتجب فالله سبحانه لا تدركه الأبصار والعقول ولاه إذا تحير والله تحار فيه العقول، فهو الملجأ والمهرب وهو المستعان وبه يستغاث وهو المطاع {ألا له الخلق والأمر} وهو الذي احتجب عن الخلق فلم يحيطوا به علماً وهو الذي تحار فيه العقول فلا تطيق لكنهن إدراكاً: ومعنى كلمة اللهم يا الله فحذفت الياء من أول الكلام وعوض عنها بالميم في آخره، والتعبد بهذا الاسم يكون بالألأ يهدأ العبد ولا يطمئن ولا يسكن إلا بين يدي ربه وفي عبادة مولاه وتلك السعادة الحقيقية التي جبلت عليها الروح، وكل لذة في غير طاعته تعالى، فإنها هي لذة وقتية وسعادة وهمية.

٢- الكريم الأكرم؛ وهو من يعطي من غير منة ويتبدى بالنعمة من غير استحقاق ويحسن من غير سؤال كريم في عفوهِ حتى بدل سيئات التائبين حسنات وهو معنى قولنا: يا كريم العفو يا حسن التجاوز والتعبد لله بهذا الاسم بأن يطمع العبد في كرم ربه ويرجو منه فضله فيتعرض لنعمة بطاعته فإن ما عند الله لا ينال بمعصيته ولا يقنط العبد من كرم عم أطراف الكون.

٣+٤+٥+٦: الأول الآخر الظاهر الباطن؛ الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء. الأول بالإيجاد والتخليق والآخر بالهداية والتوفيق. والظاهر بالإعانة والترزيق والباطن؛ لأنه مكون الأكوان في التحقيق. وقيل: الأول بعرفان القلوب والآخر بستر العيوب والظاهر بإزالة الكروب والباطن بغفران الذنوب. فالأول قدمه، والآخر دوامه، والظاهر علوه، والباطن قربه. ومعنى الباطن ليس دونه شيء فلا تواري سماء منه سماء ولا أرض منه أرضاً ولا يحجب عنه ظاهر باطناً، بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة والبعيد عنده قريب والسر عنده علانية وهو أقرب إلى كل شيء من نفسه.

والتعبد لله باسمه الأول يقضي التجرد من مطالعة الأسباب والالتفاف إليها فإن الله هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده فقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً فالتعبد بهذا الاسم يوجب للعبد فقراً خاصاً وعبودية خاصة. أما اسمه الآخر فالتعبد به يقتضي أيضاً عدم التعلق بالأسباب فإنها ستندعم لا محالة، وعندما يتعلق العبد بربه الذي هو حي لا يموت فهو يتعلق بمن لا آخر له فلا يغيب ولا يزول، فليس وراء الله شيء يقصد فيكون هو المقصد ومنتهى النية وذلك هو الإخلاص فكما أوجدك أولاً فاجعله مقصدك آخراً، وأكثر الخلق تعبد لله باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر.

والتعبد باسم الله الظاهر: فهو استحضار فوقية الله تعالى وعلوه وتدبيره للخلق فأوامره نازلة نافذة وشهود ذلك يجب على العبد أن يتطلع قلبه إلى السماء رجاء وطمعاً وخوفاً رهبة فلا يتوجه القلب إلى جهة أرضية سفلية.

والتعبد باسم الله الباطن: فهو أن يزكي العبد نفسه ويظهر قلبه لئلا يطلع الله على قلبه فيجد غير صالح فالله أقرب إلى العبد من نفسه ويعلم من العبد ما يجمله العبد من نفسه. وهذه الأسماء الأربعة ذكرها الله معطوفة بالواو في سورة الحديد بخلاف بقية الأسماء، وهذا لإثبات الجمع بينها؛ لأن المخلوقات الأول منها لا يكون آخرًا والظاهر منها لا يكون باطنًا أما الله فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

٧- الباري: هو المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود.

٨- الخالق: المقدر للشيء قبل وجوده.

٩- المصور: المشكّل، والتصوير هو التخطيط والتشكيل في صور مختلفة وهذا لتعارف الخلق فالله عز وجل قدرهم وأوجدهم وأخرجهم من العدم إلى الوجود، ثم صورهم فيما شاء من الصور فهو الخالق الباري المصور.

والتعبد لله بهذه الأسماء اعتراف القلب بربوبية الله الذي خلق وبرأ وصور مما يوجب على العبد أفراد الله بالعبادة والألوهية، حيث كانت هذه الصفات مما استدل به القرآن على استحقاق الله للألوهية وحده وهو ما يعبر عنه بالاستدلال بالربوبية على استحقاق الألوهية قال تعالى: {يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون....} {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} ومن تأمل في آثار هذه الأسماء في الكون علم فيضاً من حكمة الله وعلمه في إتقان خلقه وإبداع ملكه يرى ذلك كلما تفكر في مخلوق من المخلوقات، وهكذا الأرض والسموات {فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير}.
١٠+١١- الباسط القابض: الباسط الناشر فضله علي عباده يرزق من يشاء ويوسع

ويجود ويفضل ويعطي أكثر مما يحتاج والقابض يطوي بره ومعروفه عمن يريد ويضيق ويقدر ويحرم ويفقر ويقبض الصدقات ويبسط الجزاء عليها قال: وهذان الاسمان يخصان بمصالح الدنيا والآخرة والتعبد لله بهذين الاسمين أن يسأل العبد ربه البسط في خيرات الدنيا والآخرة، ويرجو ذلك ويخاف من قبض منافع الدنيا والآخرة. والعبد قد يتصف بهذين الوصفين

القبض والبسط فيسبب بره ومعرفة على كل محتاج حتى الدواب، قال ﷺ: «في كل كبد رطوبة أجر) ويقبض ذلك عن كل أحد ليس أهلاً من مال وعلم وحكمة ولا تؤتوا السفهاء أموالكم. والعبد قابض باسط إذا ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم فتارة يبسط قلوب العباد فيذكرهم بالله ونعمائه وتارة يقبضها بما ينذرهم به من جلال الله وكبريائه وبلائه وانتقامه من أعدائه.

نسأل الله أن يجعلنا ممن أحصى أسماءه فدخل الجنة.